قدري قلعجي

ثلاثة من أعلام الحرية

جمال الدين الأفغاني

محمد عبده

سعد زغلول

دار الكاتب العربي

ثلاثة من أعلام الحرية

قدري قلعجي

ثلاثة من أعلام الحرية

جمال الدين الأفغاني
محمد عبده
سعد زغلول

دار الكاتب العربي

الكتاب الأول

جمال الدين الأفغاني

حكيم الشرق

إن تاريخ السيد جمال الدين هو تاريخ المسألة الشرقية كلها في الأزمان الحديثة .
براون

... إنه في تاريخ الشرق الحديث أول داع إلى الحرية وأول شهيد في سبيلها .
مصطفى عبد الرازق

تعرفت بالشيخ جمال الدين فوقع في نفسي منه ما لم يقع لي إلا من القليلين ، وأثر فيّ تأثيراً قوياً . وقد خيل إلي من حرية فكره ونبالة شيمه وصراحته ، وأنا أتحدث إليه ، اني أرى أحد معارفي من القدماء وجهاً لوجه ، واني أشهد ابن سينا أو ابن رشد ...
رينان

... وبالجملة فاني لو قلت ان ما آتاه الله من قوة الذهن وسعة العقل ونفوذ البصيرة ، هو أقصى ما قدر لغير الأنبياء لكنت غير مبالغ .
محمد عبده

قابلت السيد جمال الدين المتحدر من سلالة النبي والمعدود هو أيضاً أشبه بنبي ... وقد شعرت نحوه بعاطفة الحب التي تربطني بكل داع إلى ثورة أو مقاوم لاستبداد .
هنري روشفور

رسول حق ونور

كان الاستعمار يقرع أبواب الشرق ، وكان الاستبداد يسحق أهـــله ويذل شعوبه ..

كانت هذه الشعوب غارقة في سبات عميق ، تخدرها الأوهام والخرافات وأحلام المجد القديم ، ويحكمها ملوك مستبدون وولاة غاشمون يسوقون الناس بالسياط ، ويستغلونهم بالأكاذيب ، ويهيمنون عليهم بالبطش والارهاب حيناً ، وحيناً بالدجل والخداع.. حتى خيّل ان ذلك الظلم لن يخلفه عدل ، وذلك الظلام لن يعقبه نور..

وانتهزت أوربة التي ظهرت على مسرح التاريخ بكل علمها ومدنيتها ويقظتها وقوتها ، تلك الغفوة الطويلة الخاملة التي رانت على بلدان الشرق ، فأخذت تتخطف أجزاءها وتتحيف جوانبها وتلتهمها واحداً بعد آخر ..

وكانت النقمة على هذه الحياة الخاملة التي تتوارثها الأجيال المتعاقبة في الشرق والتي جعلت بلاده نهبة لكل ناهب وطعمة لكل غاصب ، تبدو بين حين وآخر في انتفاضات واعية أو غير واعية متحيرة بين القلق والوثوب، في تمرد جيل من الفلاحين في الصين ، أو في ثورة مخفقة في البلاد الروسية ، أو في حرب عصابات يشنها أمير هندي على المستعمرين ، أو في جمعية سرية تحاول قلب العرش العثماني ..

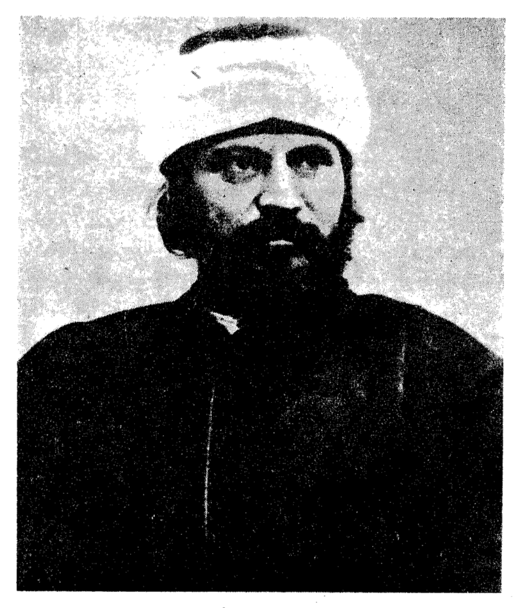
وقد بدأت هذه النقمة تتضح خلال القرن التاسع عشر ، وتتجلى في تباشير نهضة اجتماعية عامة هي وليدة ذلك الاستبداد الذي أحاط بأهله ، وتلك المظالم التي طغت

عليهم فدفعتهم للطموح إلى حياة أرقى . وكان طبيعياً ان تنجب هذه النهضة عدداً من القادة المصلحين والمفكرين الثائرين ، فان ظهور الشخصيات القائدة في التاريخ مرتبط بالنهضات الاجتماعية ذات الأثر الحاسم في توجيه الحياة ، إذ تحفز الثورة على الواقع الجائر نفراً من المفكرين الواعين إلى السير معها ، وتعبيد طريقها ، وسن شرائعها ، والانتصار للجماعات المضطهدة التي كان يقع عليها الجور ، حتى تنال حريتها وتظفر ببغيتها .

وقد عاش جمال الدين الحسيني الأفغاني في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وبلاد الشرق تفتك بها عوامل الجهل والتفرقة والاستبداد ، فتنقّل فيها يدعوها إلى العلم والاتحاد والحرية والشورى ، أي إلى القوة التي تحطم بها مظالم المستبدين وتصد أطماع الفاتحين ، فكان الحكيم الذي تمخضت به وأفرغت فيه نورها للعمل على توجيه نهضتها الاجتماعية ومكافحة الاستعمار الذي يهددها كأعظم ما يكافحه مفكر مؤمن بهدفه مخلص له لا يفتر في طلبه ولا ينثني عنه :

« لقد جمعت ما تفرق من الفكر ، ولممت شعث التصور، ونظرت إلى الشرق وأهله ، فاستوقفتني الأفغان وهي أول أرض مسّ جسمي ترابها ، ثم الهند وفيها تثقف عقلي ، فإيران بحكم الجوار والروابط، فجزيرة العرب: من حجاز هو الوحي، ومن يمن وتبابعتها ، ونجد ، والعراق وبغداد وهارونها ومأمونها ، والشام ودهاة الأمويين فيها ، والأندلس وحمرائها ، وهكذا كل صقع ودولة من دول الاسلام وما آل إليه أمرهم . فالشرق ... الشرق ! لقد خصصت جهاز دماغي لتشخيص دائه وتحري دوائه ، فوجدت أقتل أدوائه انقسام أهله ، وتشتت آرائهم، واختلافهم على الاتحاد واتحادهم على الاختلاف ، فقد اتفقوا على ان لا يتفقوا ! فعملت على توحيد كلمتهم وتنبيههم إلى الخطر الغربي المحدق بهم والآخذ بخناقهم ... »

لقد كانت مزية جمال الدين الأفغاني انه رأى الوضع في الشرق رؤية جامعة شاملة ، وأدرك ان ما يتعرض له أي بلد من بلدانه إنما يؤثر في البلدان الأخرى ، وعرف مواطن الضعف فيه التي تجعله فريسة سهلة للاستعمار،وهي الاستبداد الداخلي والانحلال الخلقي والتخلف الفكري وسيطرة الخرافة والرجعية، فنذر نفسه لايقاظه



جمال الدين الأفغاني

والمدافعة عنه في شتى الأقطار وجميع الميادين ، وانطلق يهز الضمائر ويوقظ الوعي في الصدور ، فكان كما قال عبد الرحمن الرافعي :

« ظل الشرق قروناً عديدة رازحاً تحت نـــير الجمود الفكري والتأخر العلمي والاستعباد السياسي ، وبقي في سبات عميق إلى ان قيّض الله له الحكيم الأفغـاني جمال الدين ، فنفخ فيه روح اليقظة والحياة ، وأهاب بالنفوس أن تنهض وتتحرك ، وبالعقول أن تستيقظ ، وبالأمم والجماعات أن تتطلع إلى الحرية ، فكانت رسالتـه إلى الشرق مبعث نهضته الحديثة .

«وإذا أردنا أن نتبين في كلمة عامة فضل جمال الدين، ومدى الرسالة التي أداها، فلنذكر انه كان في حياته مصلحاً دينياً ، وفيلسوفاً حكيماً ، وزعيماً سياسياً . فجمع بين الزعامات الروحية والفكرية والسياسية ، واضطلع بها معاً ، فأدى من الناحيـة الدينية مهمة الاصلاح والتجديد التي أدى مثلها مارتان لوثير للمسيحية، وأهاب بالأمم الاسلامية أن تفهم الاسلام على حقيقته ، وترجع به إلى مبادئه الصحيحة وفطرتـــه الأولى ، وتطهره من الأوهام والخرافات التي أفضت إلى تأخر المسلمين .

« ومن الناحية الفكرية أدى المهمة التي قام بها في أوربا فلاسفة الفكر ، أمثال جان جاك روسو ومونتسكيو وغيرهما . فعمل على إنارة البصائر ، وتوجيه الأفكار إلى البحث عن الحقائق ، وتحرير العقول من قيود الجمود والتقليد .

«ومن الوجهة السياسية استنهض الهمم،واستثار في النفوس روح العزة والكرامة والتطلع إلى الحرية ، وغرس بذور الحركات الوطنية في مختلف البلاد الشرقية، وقام بمثل العمل الذي اضطلع بـــه زعماء النهضات السياسية في الغرب كواشنطون وغاريبالدي ومازيني و كوشوت وغيرهم .

«فالذي يجمع بين هذه المهام الجليلة ويضطلع بها معاً، في عهد اشتد فيــه ظلام الجهالة ، وتفرقت الكلمة ، وعز النصير ، وتشعبت الأهواء ، يجب أن يتسامى في قوة النفس والفكر والوجدان إلى مراتب العبقرية [1] » .

---

١ ـ عصر اسماعيل ج ٢ ص ١٤٨

إلا ان المزية الأهم في نظرنا، والأعمق، والأقوى دلالة على سعة أفقه وصدق نظرته إلى الحياة ، وهي في الوقت نفسه برهان على جرأته وتحرره وتنوره ، انه لم يكن كارهاً للغرب ولكنه كان يكره الظلم سواء أتى من الشرق أم من الغرب ، وانه كان يميز – بعقليته العصرية التي اتصلت بالتيارات الفكرية العالمية وتفتحت لجميع وثبات الفكر – بين الغرب المستعمر ، والغرب الذي يحمل مشعل العلم والحضارة ، وكان يعتقد بأنه إذا أراد العالم الاسلامي أن يقاوم الاستعمار الغربي ، فلا بد له ان يتحرر من جموده ، ويتخلى عن التسليم بواقع الأمور ، ويعمل على تغييرها وتطويرها ، بدراسة علوم الغرب ، واكتناه سر عظمته وقوته وتقدمه ، وانتهاج مناهجه وسلوك سبله في كل ما يؤدي إلى النهضة الصحيحة القائمة على أسس العلم وأركانه .

وقد أشار جرجي زيدان إلى ذلك بقوله: « وبعث في نفوس الشبان المصريين، الأمل في التحرر من السيادة الأوربية ، إذا ما اقتبسوا ثقافة الغرب المادية ومناهجه العلمية [1] » .

أما المستر بلنت فيقول في ذلك : « أما نبوغ جمال الدين ففي اجتهاده في حمل الممالك التي وعظ فيها على أن تعيد النظر في الموقف الاسلامي كله ، وأن تستبدل بالتمسك القديم ، التحرك إلى الأمام حركات أدبية منسجمة مع العلم العصري . وقد مكنه علمه التام بالقرآن والسنة ، من إقامة الحجة على انها لو أحسن تأويلها معاً ، لكان الاسلام كفؤاً لإحداث تطور راق عظيم [2] » .

وكان جمال الدين إذا سئل عن وطنه أجاب: « ليس لي وطن.. على انه لا وطن اليوم للمسلمين . » يشير بذلك إلى انهم غرباء في أوطانهم ما دام المستعمرون يحتلون بلادهم ويستبدون بهم .. والواقع ان الشرق كله كان وطناً له ، فهو رجل الشرق ولكل بلد شرقي حق فيه لا ينازع ، كما ان له فيه أثراً لا ينكر !

كان السيد جمال الدين حكيماً بمعنى الحكمة التي تنفع الناس بما تبين لهم من

---

١ ـ اشهر مشاهير الشرق ج ٢ ص ٦١

٢ ـ التاريخ السري ص ٧٤

أسباب الانحطاط والرقي ، وبما تصف لهم من وسائل النهوض إلى ما ينشدون . فهو لم يتم عملاً كبيراً ، ولا ألف كتاباً خطيراً ، لكن رسالته وتعاليمه لم تضع ولن تضيع ، ولسنا نغالي إذا قلنا ان الحركات الاصلاحية والانتفاضات الثورية الـــتي تعاقبت في بلاد العرب والترك والفرس والأفغان ، في أواخر القرن الماضي وأوائل القرن العشرين ، كان فيها جميعاً قبس من رسالته وأثارة من روحه . فقد كانت له يد طولى في تعهد الجيل الذي بنى النهضة الحديثة في تلك الأقطار ، وقلّ بين أعلام هذه النهضة من لم يأخذ عنه أو عن أحد تلامذته طرفاً مما أوتي من سعة العقل وجرأة القلب وصلابة العقيدة وحرية الضمير .

ويذهب ولفورد سميث إلى ان شخصية جمال الدين الأفغاني « كانت محوراً للعالم الاسلامي في القرن التاسع عشر » وانه هو الذي مثل اتجاهات الاسلام الجـديدة ، ودفع بها قُدماً بقوة وعنف . « لقد كانت شخصيته وسيرة حياته ترمزان إلى الكثير من التطورات الاسلامية المتلاحقة. والواقع ان القليل القليل من الحركات الاسلامية في القرن العشرين لم يتأثر بالأفغاني أو يرمز إليه . ومع ذلك فان شهرته لا تعود إلى كونه مفكراً من وجهة ابداعية أو تنظيمية ، ولا بكونه من ناحية عمليـــة منظماً أو مخططاً . وليس الذي يضفي على الأفغاني أهميته ، ما أدخله في تطور العالم الاسلامي ، بل بلورته الأمور إلى حد الإرهاف اللاهب . ان أهميته أو خطورته إنما تعود إلى أنه جمع في شخصيته شتات العالم الاسلامي وصعوباته التي يعانيهـــا عصره ، وراح يعمل ضد هذه الصعوبات بطاقة هائلة . لقد كان جامعاً ومنشطاً في ذلك . ففيما يتعلق بمشاكل المجتمع الجديدة ، تصدى لشتى عناصره دون تمييز، متخطياً كل ما بينها من تفرقة قديمة تقليدية . لقد كان محرضاً لاهبــاً نارياً . وقد استوعب بعمق حالة الاسلام في عصره ، وأدرك بكل ما فيه من إحساس مصيبة اخوانـــه المسلمين ، ولذا راح يحضهم بحماسة وثابة على وعي دقيـــق لوضعهم ، وعلى التصميم والعزم على صلاح هذا الوضع [1] » .

---

١ – دراسات اسلامية ص ٣٤٦ - ٣٤٧

ولو أردنا ان نضرب على رسالته الأمثـــال ، لاكتفينا بأن نشير إلى ان عمل محمد عبده في الميدان الفكري ، وعمل سعد زغلول في الميدان السياسي ، ليسا إلا ناحيتين غير منفصلتين من رسالته الجامعة .

وكان السيـــد ، طاب ثراه ، يجمع في نفسه الأضداد ، فهو حليم النفس طيب القلب حيناً ، حاد الطبع عصبي المزاج في بعض الأحيان . وهو بسيـط متواضع مع من يدانيه ، فخور متكبر مع الملوك والعظماء . وهو متسامح كريم اللسان والخلق، لكنه متعصب لآرائه يكاد يلتهب حماسة لها وغيرة عليها . ومن أبرز صفاته انه كان ينشد الحق ولا يريد بلوغه إلا عن طريق الحق ، فهو لا يصانع من أجله ، ولا يلين فيه ، ولا يفرق في طلبه بين وسيلة وغاية ، حتى أجمع أصحابه على ان هــــذه الخلة الحميدة من خلاله كانت كثيراً مـا تحول دون نجاحه وتؤلب خصومه عليـه ، وتوفر لهؤلاء الخصوم ذرائع لمهاجمته والطعن فيه .

وقد بلغ من صراحة الرأي وحرية التفكير حداً جعل عقيدته الدينيـة موضع جدل لدى بعض الباحثين . فما هي الدعوة الدينية التي نادى بها فأثارت جدل هؤلاء الباحثين وألبت عليه أولئك الخصوم ؟

دعوة إلى الإصلاح والتجديد

كان جمال الدين الأفغاني يقول بالمساواة بين البشر والعمل لخير النوع الانساني. وكان يحارب التفرقة الدينية ، ويرى ان الأديان الثلاثة على تمام الاتفاق في المبدأ والغاية ، ويتمنى لو يتحد أهلها مثلما اتحدت هي في جوهرها وهدفها ، فيخطو البشر بهذا الاتحاد خطوة كبرى نحو السلام .

قال : « سألني أحد نواب الهند عن أشياء يعتبرها شبهات ، كادت أن تخلّ في عقيدته الدينية ، وتريبه في إنزال الكتاب ، أهمها : إذا كان القرآن كلام الله وقوله « ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون » حقاً ، فلم كان الاسلام في هذا العصر في أعظم دركات التقهقر والانحطاط ، وعلى خلاف صراحة الآية ؟ وأطال في القول حتى إذا انتهى قلت له : اعلم ان كل دين يجب ان يكون حقاً . فالاسلام اسم ومسماه الحق . فلو أتاك رجل اسمه عالم وهو في حقيقته جاهل ، هل تنكر لمجرد الاسم وعدم انطباقه ، فضل المسمى، وتقول: لأن اسم هذا الرجل عالم وهو جاهل ، إذن لا فضيلة للعلم ؟ ولو أتتك الملايين باسم الاسلام ، كما هو الحال في هذا العصر ، وهم لم يقوموا بحق المسمى من الحق ، هل ينبغي لمجرد مخالفة الاسم ، ان ينكر فضل المسمى ، وهو حقيقة الاسلام ؟ كلا . لذلك قال الله تعالى : « ودين الحق ليظهره ... » ولم يقل : ومن تسمى بدين الاسلام ليظهره ! على ان الاسلام

ومن دان به من المسلمين، لما عملوا بحق الدين ظهروا ظهوراً طبق الأرض نوراً وملأها عدلاً، فالظهور للحق وللحقيقة، وليس للاسلام اسماً مجرداً. وما تراه اليوم في المسلمين من التقهقر ليس من حقيقة دين الاسلام، بل من جهل المسلمين حقيقة الدين. وفي هذه الآية: «ودين الحق ليظهره على الدين كله» ما يفهمنا ان هناك بعضاً من كل. فالأديان في مجموعها هي الكل، وأجزاؤها الموسوية والعيسوية والاسلام. فمن كان من هذه الأديان كلها على الحق فهو الذي يتم له الظهور والغلبة. لأن الظهور الموعود به الدين، إنما هو دين الحق كما قلنا وليس دين اليهود، ولا النصارى، ولا الاسلام، إذا بقوا أسماء مجردة، ولكن من عمل من هؤلاء بالحق فهناك الدين الخالص، قال تعالى: «إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق، فاعبد الله مخلصاً له الدين، ألا لله الدين الخالص».

وقد انتهى جمال الدين إلى الاعتقاد بأن الدين قسمان: قسم عبادات وقسم معاملات [1]، فالعبادات يؤديها الانسان لربه بمعزل عن كل أحد فلا يعارض غيره بها ولا غيره يعارضه، إذ لكل وجهة موليها، والله رب العالمين لا رب اليهود فقط، ولا النصارى فقط، ولا المسلمين فقط: هو الذي خلقكم من نفس واحدة. وأما المعاملات فهي شرع بين العموم، يحض أبناء الطوائف كلها على العمل لخير وطنهم متكاتفين متعاونين.

وهذا ما جعله يحلم بتوحيد الأديان الثلاثة، ووضع لنظريته هذه خططاً، وطفق يدعو إليها أبناء الأديان والفرق المختلفة، فما لبث ان علم آسفاً ان دون هذا الهدف العظيم هوى عميقة يحرص عليها «أولئك المرازبة الذين جعلوا كل فرقة بمنزلة حانوت، وكل طائفة كمنجم من مناجم الذهب والفضة، ورأس مال تلك التجارات ما أحدثوه من الاختلافات الدينية والطائفية والمذهبية» على حد قول المعري:

قد يفتح المرء حانوتاً لمتجره ... وقد فتحت لك الحانوت في الدين
صيرت دينك شاهيناً تصيد به ... وليس يفلح أصحاب الشواهين

[1] — انظر «خاطرات جمال الدين الافغاني» ص ٨٢ وما بعدها.

وسرعان ما أدرك : « ان أي رجل يجسر على مقاومة التفرقة ونبذ الاختلاف ، وإنارة أفكار الخلق بلزوم الائتلاف، رجوعاً إلى أصول الدين الحقة ، فذلك الرجل، هو نفسه ، يكون عندهم قاطع أرزاق المتجرين بالدين ، وهو نفسه يكون في عرفهم الكافر الجاحد المارق المخردق المهرتق المفرق الخ ... » على ان ذلك لم يثنه لحظة عن مواصلة كفاحه في هذا السبيل .

وبديهي ان الرجل الذي ينكر تفرقة الناس إلى يهود ونصارى ومسلمين، ويريد توحيد الأديان الثلاثة ، سينكر حتماً تفرقة أبناء المذهب الواحد إلى شيع شتى ، فينكر مثلًا انقسام المسلمين إلى سنة وشيعة ، ويسعى إلى إزالة سبب الخلاف بينهم، ان كان ثمة سبب جدي للخلاف ، لأنه لا يعتقد ان هناك في الواقع مثل هـــذا السبب.بل هو يرى ان الملوك من السنة هم الذين هولوا وعظموا أمر الشيعة لاستهواء العوام بأوهام غريبة نسبوها إلى شيعة أهل البيت كي يتسنى لهم تخريب الأحزاب وتجييش الجيوش « ليقتل المسلمون بعضهم بعضاً بحجـــة الشيعة والسنة وجميعهم يؤمنون بالقرآن وبرسالة محمد صلى الله عليه وعلى آله . »

يقول جمال الدين : « أما مسألة تفضيل الإمام علي ، والانتصار له يوم قتـــال معاوية ، وخروجه عليـــه ، فلو سلمنا انه كان في ذلك الزمن مفيداً أو ينتظر من ورائه نفع لإحقاق حق ، أو إزهاق باطل ، فاليوم نرى ان بقاء هذه النعرة ، والتمسك بهذه القضية التي مضى أمرها وانقضى مع أمة قد خلت، ليس فيها إلا محض الضرر ، وتفكيك عرى الوحدة الاسلامية » .

ويقول أيضاً : « لو أجمع أهل السنة اليوم ووافقوا المفضّلة من الشيعـــة ، من عرب وعجم ، وأقروا وسلموا بأن علي بن أبي طالب كان أولى بتولي الخلافة قبل أبي بكر ، فهل ترتقي بذلك العجم أو تتحسن حالة الشيعة ؟ أو لو وافقت الشيعة أهل السنة ، بأن أبا بكر تولى الخلافة قبل الإمام علي بحق، فهل ينهض ذلك بالمسلمين السنيين وينتشلهم مما وقعوا فيه اليوم من الذل والهوان وعدم حفظ الكيان ؟ »

ثم يخلص إلى القول : « أما آن للمسلمين ان ينتبهوا من هذه الغفلة ، ومن هـذا الموت قبل الموت؟ يا قوم! وعزة الحق ان أمير المؤمنين علي بن أبي طالب لا يرضى

عن العجم ، ولا عن عموم أهل الشيعة إذا هم قاتلوا أهل السنة أو افترقوا عنهم لمجرد تفضيل علي على أبي بكر ، وجميعهم لا يحسنون أمر دنياهم ، والناس أبناء ما يحسنون . وكذلك أبو بكر ، فلا يرضيه ان تدافع أهل السنة عنه ، وان تقاتل الشيعة لأجل تلك الأفضلية التي مر زمانها ، والتي تخالف روح القرآن الآمر ان يكونوا كالبنيان المرصوص . »

ويذهب السيد إلى أكثر من ذلك فيدعو إلى التوفيق بين الدين والعلم ، بل يرى هذا الأمر ضرورة لا بد منها ، فيقول : « ان الدين لا يصح ان يخالف الحقائق العلمية ، فان كان ظاهره المخالفة وجب تأويله » ويقول في مكان آخر : « ... وكيف لا أقول وآأسفاه ، وإذا نهض أحد لتفسير القرآن فلا أراه إلا يهيم بباء البسملة ويغوص ! ولا يخرج من مخرج حرف صاد الصراط حتى يهوي هو ومن يقرأ ذلك التفسير في هوة عدم الانتفاع بما اشتمل عليه القرآن من المنافع الدنيوية والأخروية ، مع استكماله الأمرين على أتم وجوههما .

« عم الجهل وتفشى الجمود في كثير من المتردين برداء العلماء حتى تخرصوا على القرآن بأنه يخالف الحقائق العلمية الثابتة والقرآن بريء مما يقولون .

« أثبت العلم كروية الأرض ودورانها ، وثبات الشمس دائرة على محورها . وهذه الحقيقة مع ما يشابهها من الحقائق العلمية لا بد من ان تتوافق مع القرآن ، والقرآن يجب ان يجل عن مخالفته للعلم الحقيقي ، خصوصاً في الكليات ، فإذا لم نر في القرآن ما يوافق صريح العلم والكليات ، اكتفينا بما جاء فيه من الاشارة ، ورجعنا إلى التأويل ، إذ لا يمكن ان تأتي العلوم والمخترعات بالقرآن صريحة واضحة ، وهي في زمن التنزيل مجهولة الخلق ، كامنة في الخفاء ، لم تخرج لحيز الوجود . »

وواضح ان جمال الدين إذ يدعو إلى تأويل الدين أو تفسيره بما يطابق ضرورات العصر الحاضر وروح المدنية الحديثة ، فهو إنما يدعو إلى الاجتهاد البصير ، وينفر من التقليد الأعمى لكل ما جاء به الأقدمون ، أو التمسك الحرفي بكل ما قاله المفسرون . وقد ذكر في مجلسه مرة قول للقاضي عياض تمسك به رواته فقال : « سبحان الله ! ان القاضي عياضاً قال ما قاله على قدر ما وسعه عقله وتناوله فهمه

ويناسب زمانه ، فهل لا يحق لغيره ان يقول ما هو أقرب للحق وأوجه وأصوب من قول القاضي عياض وغيره من الأئمة ؟ إذا كان القاضي عياض وأمثاله سمحوا لأنفسهم ان يخالفوا أقوال من تقدمهم فاستنبطوا وقالوا ما يتفق وزمانهم ، فلم لا نستنبط ونقول ما يوافق زماننا ؟ »

وقيل له أن مثل هذا القول يحتاج إلى الاجتهاد ، وباب الاجتهاد عند أهل السنة مسدود لتعذر شروطه . فتنفس الصعداء وقال :

« ما معنى أن باب الاجتهاد مسدود ؟! وبأي نص سد باب الاجتهاد ؟ أو أي إمام قال : « لا ينبغي لأحد من المسلمين بعدي ان يجتهد ليتفقه بالدين ، وأن يهتدي بهدي القرآن وصحيح الحديث ، أو ان يجد ويجتهد لتوسيع مفهومه منها والاستنتاج بالقياس على ما ينطبق على العلوم العصرية وحاجات الزمان وأحكامه ؟ »

« إن الله بعث محمداً رسولاً بلسان قومه العربي ليفهمهم ما يريد إفهامهم ، وليفهموا منه ما يقوله لهم . قال : « وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه » وقال : « إنا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون » فالقرآن ما أنزل إلا ليُفهم ، ولكي يعمل الانسان بعقله لتدبّر معانيه وفهم أحكامه والمراد منها .

« فمن كان عالماً باللسان العربي ، وعاقلاً غير مجنون ، وعارفاً بسيرة السلف ، وما كان من طرق الاجماع ، وما كان من الأحكام مطبقاً على النص مباشرة ، أو على وجه القياس ، وصحيح الحديث — جاز له النظر في أحكام القرآن ، وتمعنها ، والتدقيق فيها ، واستنباط الأحكام منها ومن صحيح الحديث والقياس » .

وهكذا كانت دعوته الدينية دعوة إلى التجديد والاجتهاد ، وتطهير الدين من الشوائب والبدع والتفاسير ، وجعله قانوناً متطوراً يساير الحياة المتطورة ، ويوحي بالسعي والتقدم والابداع ، والاشفاق من ان يصبح أثراً جامداً أو حرفاً ميتاً في شروح الرجعيين ومتون المفسرين الذين لم يفهموا نصه وروحه على وجهها الصحيح .

وقد روى الاستاذ عبد القادر المغربي [1] ان السيد جمال الدين قال له بضرورة

١ — جمال الدين الافغاني : ذكريات وأحاديث ص ٩٥ — ١٠٠

القيام بحركة تجديدية في الدين أشبه بحركة مارتن لوثر مؤسس البروتستنتية في أوربة، تعنى باستئصال مـــا رسخ في عقول العوام وبعض الخواص ممن فهم بعض العقائد الدينية والنصوص الشرعية على غير وجهها الحقيقي ، مثل حملهم نصوص القضاء والقدر على معنى يوجب عليهم ان لا يتحركوا إلى طلب مجد أو تخلص من ذل ، ومثـل فهمهم لبعض الأحـــاديث النبوية فهماً سقيماً يثبـــط هممهم عن السعي وراء الاصلاح والنجاح ، ومثل ... ومثل ... فلا بد من بث العقائد الدينية الحقة بـين الجمهور وشرحها لهم على وجهها المناسب ، وحملها على محاملها الصحيحة التي تقودهم إلى ما فيه خيرهم دنيا وأخرى ، ولا بد أيضاً من تهذيب علومنا وتنقيحها وتأليف كتب فيها قريبة المأخذ سهلة الفهم لنستعين بها على تقدمنا ، لا أن نجعلها علماً مقصوداً لذاته كعلم النحو والبلاغة ويقضي الانسان جل حياته في الاشتغال فيهما ولا يقدر على إنشاء مقالة يعبر بها عما يجيش في نفسه !

كان همه الملح أن يحرر المسلمين من رثاثة تقاليد وغثاثة أخلاق لا تمت بصلة إلى عقل أو يقين ، وقد قال الدكتور عثمان أمـين بصدد دعوته الدينية : « لقد كانت حركات الاصلاح في الاسلام قبل جمال الدين ، حركات رجعية بعيـدة عن ميول التجديد . فكان دعاة الاصلاح ينسبون اضمحلال المسلمين إلى إهمالهم تطبيق الشريعة الاسلامية وبعدهم عن بساطتها الأولى . ولكن طرافة جمال الدين انه دعا المستنيرين من المسلمين إلى النظر في حالهم ، لتحقيق نهضة دينية تجديدية تلائم مقتضيات العصر الحديث ، وتبين لهم ان الاسلام إذا فهم على وجهه الصحيح ، يستطيع ان ينمو نمواً طبيعياً وان يتقدم تقدماً يجمع بين المصالح المتجددة للحياة العملية وبـــين المطالب العالية للنفس الانسانية . »

وكل ذلك ، وغيره مما سنعرض له ، أمور ينكرها الجامدون المتزمتون الذين درجوا على وضع عقائدهم الدينية في خصومة دائمة مع الحقائق العلمية ، واتهام كل مفكر حر ومجدد ومجتهد بالزندقة والالحاد ، فجنوا على الاسلام جناية كبرى ظهر أثرها في الانحطاط السياسي والاجتماعي الذي نرى المسلمين عليه .

مشعل تحرر وكفاح

ذلك هو مجمل دعوة الأفغاني الدينية ..

أما دعوته السياسية فقد تركزت في أمرين رئيسين هما تحرير البلاد الشرقية من الحكم الاستبدادي وإنقاذها من الاستعمار الأجنبي . فقد طاف الحكيم بلاد الشرق والغرب ، فرأى التـأخر والانحطاط والضعف من جانب ، والتقدم والرقي في الجانب الآخر ، رأى اتكالاً وكسلاً وموتاً في قوم ، وسعياً ونشاطاً وحيـاة في الآخرين ، ووجد سبب هذا التفاوت الكبير في أخذ الغربيين بأسباب العلم والمدنية وتمسكهم بأهداب الحرية، بينا خضع الشرقيون للحكم المطلق فعانوا استبداد الأمراء الظالمين ، وتعرضوا لعدوان المستعمرين لتفشي الجهل والجمود والاستكانة فيهم . قال :

« انظروا إلى العـالم الغربي تروه على تقسياته الحاضرة ، واستقلال عناصره بميزاتهم القومية ، لما تساووا على الوجه النسبي بالفضيلة ، وأهمها العلم بالواجبات سواء كانت لهم أو عليهم ومعرفة وجوه المطالبة بها والمسارعة لادائتها ، انتفى من بين ظهرانيهم أمر التفرد بالسلطة وسوق الأمة على هوى السلطان . وسينتفي ما بقي في العالم البشري من هذا النوع من الحكم المطلق على سنن التدرج ومقتضيات الفطرة .

« أصبح الأوربيون اليوم ، والكل في وقت واحد حاكماً لنفسه محكوماً منها

بعامل الحكم الشوري ، وصارت كل أمة من تلك الأمم في مأمن من ان ترضخها القوى أو المميزات في مجاوريها فتستهويها للانقياد لها ، بالاعتقاد انها من طبقة فوق طبقتها ، لا بفعل الغلب ، ولا بالتشبه والتقليد الأعمى ، لأن الفرق من حيث الفضائل وأسباب الرقي نزر يسير، والعمل بما يستحسنه البعض من الآخر غير عسير.

« ومختصر القول ان الحكم للعقل والعلم ، ومتى صادفت هاتان القوتان حمقاً وجهلاً تغلبتا عليهما . وهكذا القول في حكم الفرد المطلق ، فانه يكون ويدوم ما دامت الأمة تتخبط في دياجي الجهل . ومتى فشا العلم في الأمة فأول ما تناهض ذلك الشكل من الحكم ، وتعمل على التخلص منه ، سنة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلاً . »

ومن ثم اتجه همه إلى إنهاض البلدان الشرقية جملة وفرادى ، وكان أساس هذا النهوض في رأيه تحرر هذه البلدان من الحكم الاستبدادي ، وتحررها من الحكم الاستعماري أو النفوذ الأجنبي المتوغل فيها شيئاً فشيئاً ، ثم تضافرها بنوع من الاتحاد يقوي التناصر بينها ويكفل لها السلامة والمنعة . أما الدعامة الأولى التي يعتمد عليها في الوصول بالشرقيين إلى هذه الغاية فهي العلم :

« أقول للشرقيين تأملوا كيف تحافظ الدول على ثغور مستعمراتها خوفاً من إدخال الأسلحة ، والأجزاء النارية إليها ، وكيف يشددون النكير وينزلون أصرم العواقب على من فعل ذلك . والحكمة في هذا ظاهرة ، وهي تخوف المستعمرين من استعمال تلك القوى ضدهم، ولو أمنوا من عدلهم فيمن يحكمون من الأهلين ، أو فيما استولوا عليه من الأمصار ، لما تخوفوا كل هذا التخوف ولا أخذوا من التحوط كل هذا الاحتياط وسنوا له أصرم القوانين .

« والعلم لقوم أو لأمة قد سهل الحجر عليها محض الجهل ليس بأقل أو أخف دهشة وتأثيراً من إدخال السلاح لمستعمرات المستعمرين ، أو الأوصياء على ثروة الشرقيين وبلادهم لسرفهم وجهلهم ! فالغربيون ولا ريب يمانعون بطرق خفية ، ترقية الشرقيين لأنفسهم عن طريق وطنية خاصة بهم ، ويعرقلون مساعيهم بأشكال نصح غريبة ، ولا يسهلون وسائل تهذيب أخلاق مجموعهم ، بل يعملون بالعكس ،

وبالاجمال لا يمكنونهم من التوسل فيما يؤول لوصولهم للحكم الذاتي ، بأساليب غاية في المكر والمغالطة والسفسطة والاستعانة ببعض أهل البلاد على ذلك وهم الأسقط همة . فحياة الشرقيين بالعلم الصحيح ، موت لحكم الغرب فيهم وفك الحجر عنهم ، والعكس بالعكس . »

فليكف الشرقيون إذن عن التفاخر بأمجاد ومفاخر دفنت في أجداث الأجداد، وكفاهم استنامة على أكاليل غار أذوتها الأيام ، إذ ليس يبرر تقاعسنا ورقادنا وتخاذلنا تحت أنيار العبودية وأغلال الاستعمار ان سيوف أجدادنا قد لمعت بالمشرق وانقضت شهبها على المغرب ، فذلت لهم رقاب القياصرة والأكاسرة ، وخفقت أعلامهم فوق ممالك الأرض ، وليس إلا مما يزيدنا هواناً وخزياً ان نتغنى بأمجاد الفتح العربي وبلادنا نهب للفاتحين يعيثون فيها فساداً ونحن غافلون عنهم أو مستكينون لهم :

« لا تزال تسمع كلًا من العربي والفارسي وغيرهما من الشرقيين ، يقول نحن أحفاد أولئك الأجداد ، ومن سلالة وذرية أولئك الاقيال الأمجاد ، ونحن ونحن ، مما يثير الأشجان ويزيد الأحزان . نعم ، أولئك آباؤنا وأجدادنا قد جاد الزمان بهم فجاءوا . ولكن واسوءتاه ! وامعرتاه ! واخجلتاه إذا هم سألونا عما فعلنا بخلفاتهم وما أورثوه لنا واستخلفونا عليه !

« ... أي بينة على اننا خلف ذلك السلف ؟ وهل يعقل لو ورثنا أخلاقهم ، وحافظنا على فضائلهم ، واقتفينا أثرهم ، ولم نحد عن سيرهم وسيرتهم — نعم ، لو عملنا بعض ذلك ، هل كان يسهل سلب الميراث منا ، وان يستبد بملكنا غيرنا ، أم بقينا نحن الوارثين ! »

أجل ، فليكف الشرقيون عن التغني بأمجاد الأجداد ، ولينظروا إلى حاضرهم فيتدبروا شأنه ويعالجوا نقصه ، فإما نظروا إلى الماضي فليكن باعث هذه النظرة ، ليس الرغبة في الاستنامة لمجده والاستسلام لسلطانه ، بل استلهام دروسه واستيحاء عبره ، لإصلاح هذا الحاضر البغيض ، وبناء ما يطمحون إليه من مستقبل يضمن لهم العزة والكرامة وصفو الحياة .

هكذا كان السيد جمال الدين الأفغاني في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، مشعلاً من مشاعل الحرية والمعرفة، ينير أينما حل ، ورسولاً أطل على الشرق في إبان رقاده ، مهيباً بالجاهلين من أبنائه إلى العلم وبالمتفرقين إلى الاتحاد ، داعياً المتقاعسين إلى السعي والمتخاذلين إلى الجهاد في سبيل حريتهم واستقلال أوطانهم ، لأن الحرية والاستقلال لا يوهبان من ظالم ولا يمنحان من مستعمر ، بل يؤخذان بنضال وقوة واقتدار ، بجبل تراب البلاد بدماء الشهداء الميامين أولي النفوس الأبية والهمم العالية .

وتنقل الحكيم المصلح بين الأفغان وتركية ومصر وايران ، معرجاً على روسية والهند ، مطوفاً في عواصم أوربة، مضحياً في سبيل مثله العليا بكل ما يتعلق به الناس من متع الحياة ورغد العيش ، مجابهاً مكائد الدول الاستعمارية وفي مقدمتها الدولة الانكليزية التي نذر نفسه لتحطيم الاغلال التي تكبل بها بلدان الشرق ، متعرضاً لاضطهاد الحكام الذين كانوا يهدمون دولهم بظالمهم ولا يريدون الاصلاح الذي يدعو إليه وان كان فيه خلاص أوطانهم ورفعة بلادهم ، لأن هذا الاصلاح ينتقص من سلطانهم ويكفّ من استبدادهم ، فقاوموه ، وبغوا عليه ، وناصبوه العداء ، وطاردوه من قطر إلى آخر ، لصدق غايته وإباء نفسه وتأثير دعوته ، حتى ما كان ليدري في أي مكان ستشرق عليه شمس الغد .

ومن هنا كان قول الشيخ ابراهيم اليازجي في ترجمته انها أدنى لأن تكون ترجمة رجل سياسي قد جعل نصب ناظره غرضاً بعيداً ، هو أبداً تمثال يقظته وطيف منامه ، فكان يلتمسه في كل مكان رجا فيه خيراً ، وقد شبهه بالمتنبي القائل :

ابداً اقطع البلاد ونجمي في نحوس وهمتي في سعود

وعجب اليازجي من انصراف حكيم عظيم مثله إلى السياسة ، ولا عجب من ذلك في الواقع ولا غرابة ، فإنما انصرف جمال الدين إلى السياسة لأنه رأى ، كما قال الاستاذ رشيد رضا: « انها إذا لم تصلح لا تدع أحداً يعمل اصلاحاً، ولا يطلب فلاحاً ، ولا ينشر علماً يرقي به الأمة ، ولا يطوي وهماً يكشف به الغمة ، وان

هي سمحت لمثله بالاصلاح ببث العلوم ، وتربية الأرواح والعقول ، فان طريق ذلك يطول عليه ، وربما حالت المطامع الأجنبية دون الوصول إليه . فهو ما اختار الاصلاح من طريق السياسة إلا لاعتقاده ان العمل من طريقها أسرع تأثيراً من العلم والكتابة . »

نشأة حكيم

إذا تمثلت رجلاً ممتلىء الجسم، قوي البنية ، بلون القمح الذي يملأ سهوب الشرق، يرتدي جبة وسراويل سوداء تنطبق على الكاحلين ، وعمامة صغيرة بيضاء على زي علماء الآستانة . وإذا تخيلت ان هذا الرجل الأعرابي السمة، عظيم الرأس، مسترسل الشعر ، عريض الجبهة ، واسع العينين ، قوي اللحظ نافذه . ثم تصورت ان صاحب ذلك الجسم القوي وهذا الرأس الكبير والمحيا الجميل ، كان صلب الإرادة ، قوي الشخصية ، عظيم الحجة ، متوقد الذكاء ، وانه كان إلى ذلك كله منارة للحرية في كل مكان حل به ، ورسولاً من رسل الفكر المجدد الثائر ، ومناضلاً عنيداً لا تلين له قناة ، وخطيباً مصقعاً لم يقم في الشرق خلال عهده من هو أخطب منه — إذا تمثلت ذلك كله استطعت ان تكوّن في ذهنك صورة قريبة من شخص جمال الدين .

والشائع عن السيد جمال الدين الأفغاني انه ولد في قرية أسعد آباد في ناحية كنر بالأفغان ، من أسرة عريقة يتصل نسبها بالحسين بن علي حفيد النبي العربي ، ولها إمارة على مقاطعة صغيرة في الأفغان . وكان الإمام محمد عبده أول من ذكر ذلك في أول ترجمة كتبت لجمال الدين ، فتناقله عنه مترجموه من بعده . ثم شك بعض الباحثين وفي مقدمتهم الاستاذ مصطفى عبد الرازق في نسبته إلى الأفغان ، فقالوا انه فارسي الأصل أفغاني النشأة ..

وقد قرأنا مقالين للكاتب العراقي الاستاذ عبد الكريم الدجيلي نشر أحدهما في مجلة « الرسالة » السنة الحادية عشرة الصفحة ٤٦٠ ، والآخر في العدد الخاص الذي أصدرته جريدة « الرأي العام » العراقية لمناسبة نقل رفات جمال الدين إلى الأفغان في شهر كانون الأول (ديسمبر) سنة ١٩٤٤ ، أكد فيهما ان السيد جمال من أصل إيراني ولا صلة له بالأفغان مطلقاً ، وان ميرزا غلام حسين خان أستاذ اللغة الفارسية في الجامعة الأميركية في بيروت قد أثبت ذلك بجلاء في كتاب مطبوع له سنة ١٩٢٩ بعنوان « مردان نامي شرق » . ويخلص الاستاذ الدجيلي إلى القول بأن السيد جمال الدين هو ابن السيد صند[1] بن السيد علي الترمذي المحدث المشهور ، وان نسبه يرتقي إلى الإمام حسين بن علي بن أبي طالب ، فهو علوي النسب ، وقد ولد في قرية أسد آباد ، وهي قرية صغيرة تقع بين همذان وكنكادر على ضفاف نهر الوند ، وفي هذه القرية اليوم مدرسة اسمها المدرسة الجمالية أنشئت تخليداً لذكراه ، وبها أقاربه ومن يتصل به في النسب،وهو يعرف ارحاماً له يقيمون الآن في النجف ولهم صلة رحم وقرابة في أسد آباد .

وكذلك حدثنا صديقنا الشاعر العراقي الكبير الأستاذ أحمد الصافي النجفي ، انه لما لجأ إلى طهران خلال الثورة العراقية الأولى التي انتهت بتتويج الملك فيصل على العراق سنة ١٩١٩ (١٣٣٨ هـ) ، نزل في دار الحاج حسين آغا بن الحاج محمد حسن آغا الذي كان يُعرف بأمين الضرب ، أي أمين صك النقود ، والذي يُعرف اليوم بعد إلغاء الألقاب القديمة ، بالمهدوي ، وكان بيته ملجأ للثوار العراقيين اللاجئين إلى إيران ومنهم الميرزا محمد رضا ابن المجتهد الأكبر الميرزا أحمد رضا الشيرازي الذي أفتى بمحاربة الانكليز في الثورة العراقية الأولى . وقد أخبره مضيفه ان السيد جمال الدين كان قد أقام في ضيافة أبيه ، حين قدم إلى إيران ، سنة ونصف السنة ، وكان هو يومذاك شاباً فدرس عليه العربية . وهو ما يزال يحتفظ بالنصوص

---

١ - يؤكد الاستاذ مصطفى عبد الرازق في كتابه « محمد عبده » ص ٥٢ ، ان والد جمال الدين كان يسمى صفدر وهو لفظ فارسي من القاب الامام علي ومعناه المقتحم او ما يشبه ذلك . وعلى هذا الراي ، الاستاذ محمد عبده الذي يسميه صفتر .

التي كان يترجمها له السيد من الفارسية إلى العربية أو بالعكس . وقد أكد الحاج حسين آغا للاستاذ الصافي خلال ذلك الحديث ، ان السيد جمال فارسي الأصل ، وهو من قرية أسد آباد وأسرته معروفة هناك . وقال لنا الأستاذ الصافي أيضاً : وحدثني أحد مشايخ النجف ان الشاعر المجتهد محمد سعيد الحبوبي كان يحدث عن الأفغاني قائلاً : لقد كنا ندرس معاً علم التصوف عند الحاج عباس قولي بالنجف ، وكان الأفغاني من حسن البيان بحيث يستطيع ، إن أراد ، أن يصور الحق باطلاً والباطل حقاً .

وقد أردت أن أتحقق من هذا خلال رحلة قمت بها إلى إيران في خريف سنة ١٩٥١ (١٣٧١ هـ) ، فإذا الايرانيون مجمعون على ان السيد جمال الدين إيراني عريق ، واطلعت على كتاب فارسي عنه بعنوان « السيد جمال الدين أسد آبادي المعروف بالأفغاني » ، وتعرفت في أسد آباد على أناس يؤكدون انهم من أسرته ويسمى واحدهم « جمالي » نسبة إلى السيد .

وجميع ما ذكرت قد يدعم رأي القائلين بأن جمال الدين كان إيراني الأصل ، وانه انتسب إلى الأفغان لأمر هام يتعلق برسالته الاصلاحية الكبرى ، فقد أراد السيد نشر هذه الرسالة في أقطار اسلامية سنية المذهب ، ولم يكن من العوامل المؤاتية لنجاحها صدورها عن عالم شيعي النزعة ، وواضح ان مذهب السنة هو الشائع في الأفغان ، بينما يسود فارس المذهب الشيعي . والظاهر ان الخلاف بين الكتاب حول جنسية جمال الدين هو في الواقع خلاف حول مذهبه الطائفي . فالسنيون أمثال محمد عبده وشكيب ارسلان وعبد القادر المغربي يؤكدون انه أفغاني[1] ، والشيعيون من الكتاب الايرانيين والعراقيين يؤكدون كما رأينا انه ايراني .. وجدير بالفريقين ان يذكروا قول الأستاذ مصطفى عبد الرازق : « والسيد جمال الدين ، من الشيعة كان أم من أهل السنة ، قد تسامى عن كل معاني التعصب لفرقة من فرق المسلمين ، بل هو تسامى عن كل معاني التعصب الضيق الذي يلقي بين

---

١ — جمال الدين الافغاني : ذكريات واحاديث ص٢٧ ، جمال الدين الافغاني : حياته وفلسفته ص ١٠١ ، تاريخ الاستاذ الامام ج ١ ص ٢٧ ، في الادب الحديث لعمر الدسوقي ج ١ ص ٢٢ .

الناس إحناً وعداوات [1] » .

وإذا كان ثمة شك فيما يتعلق بنسب جمال الدين ، فان الغموض يكتنف ايضا المرحلة الأولى من نشأته . فهل ولد في قرية أسد آباد الفارسية ونشأ فيها ثم انتقل به أبوه إلى الأفغان؟ أم ان السيد صفدر قد رحل إلى الأفغان وطابت له السكنى فيها وولد له جمال الدين وهو هناك ؟ أم انه ووالده افغانيان أصيلان كما روى المقربون منه وهم أول من عرفوه وكتبوا سيرته ؟

مهما يكن من أمر ، فان جمال الدين ان لم يكن أفغاني الأصل فهو أفغاني النشأة ، قضى في أفغانستان أيام طفولته وشبابه ، وشارك في حياتها وتاريخها ، وكان لها أثرها الكبير في تكوينه وتوجيهه . وكل ما نعلمه ، بما رواه الإمام محمد عبده في ترجمته ، انه فتح عينيه للنور سنة ١٨٣٩ م ١٢٥٤ هـ ، وبلاد الأفغان تعصف بها الفوضى ، وتمتد إليها مخالب الاستعمار ، كأكثر الأقطار الشرقية .

وكان ملك الأفغان قد آل في ذلك العهد لدوست محمد خان ، بعد حرب بينه وبين الانكليز تكللت بنجاحه ، فما كاد الحكم ينتظم له بعد هذه الحرب الخارجية حتى تحول إلى بلاده يقمع الحركات الداخلية فيها، بالضرب على أيدي الأمراء وذوي النفوذ ممن تمردوا عليه أو ممن خشي ان يحملوا لواء التمرد . ومن هؤلاء السيد صفدر أبو جمال الدين الذي لم يطمئن الملك إلى موالاته إياه ، فأمر بسلب عشيرته الأراضي التي تستقل بها ، ودعاه مع أسرته للاقامة في العاصمة الأفغانية ليكون تحت إشرافه المباشر . وكان جمال الدين إذ ذاك صبياً في الثامنة من عمره ، فلما انتقل أبوه إلى كابل انصرف إلى تربيته وتعليمه ، فتلقى الآداب العربية وعلوم الشريعة والحكمة والمنطق عن أساتذة ماهرين وعلى الطريقة التقليدية المتبعة في تلك البلاد وذلك العهد، حتى استكمل الغاية منها في سن الثامنة عشرة .

وفي هذه السن الباكرة انطلق جمال الدين في أول رحلة له في حياته التي قدّر لها أن تكون سلسلة من الرحلات الدائبة والمغامرات المستمرة، فسافر إلى الهند وأقام

---

١ – انظر ترجمة مصطفى عبد الرازق لجمال الدين في مجلة الثقافة المجلد ٦ العدد ٢٧٠

بها سنة وبضعة أشهر يستطلع أخبارها ويتعرف أحوالها ، وينظر في بعض العلوم الرياضية على الطريقة الأوربية الجديدة. وبدا له هناك ان يذهب إلى الأقطار العربية فرحل إليها متنقلاً من مدينة إلى أخرى ، منقباً عن أحوالها وعادات أهلها ، حتى وصل إلى مكة سنة ١٨٥٧ (١٢٧٣ هـ) بعد سنة من قيامه من بلاد الهند .

ويروى ، ولا ندري مدى ما في هذه الرواية من صحة ، ان فكرة الجامعة الاسلامية كانت قد اختمرت في نفسه ، وانه وجد في بيت الله حيث تجتمع كل سنة الألوف العديدة من مسلمي الأقطار كافة ، أكبر مؤتمر اسلامي يمثل بلاد الاسلام خير تمثيل، فلم يبرح بلاد الحجاز إلا وقد أنشأ فيها جمعية تسمى «أم القرى» كانت أشبه ببرلمان اسلامي كبير [1] !

وعاد جمال الدين بعد ذلك إلى الأفغان ، فاسترعى الأنظار بذكائه النادر وميله إلى الفنون العسكرية ، فأدخله الملك في حاشيته ثم أخذه في معيته حين ذهب لمحاربة أحمد شاه أحد الأمراء المتمردين ، فلازمه السيد مدة حصاره لمدينة هراة ، ثم توفي الملك وانتقل السلطان إلى ولي عهده شير علي خان سنة ١٨٦٤ (١٢٨٠ هـ) ولكن شقيقي الملك الجديد ، أفضل خان وأعظم خان ، شقا عصا الطاعة واعتصم كل منهما بالولاية التي كان يليها في عهد أبيه ، فدارت بين الأمراء الثلاثة رحى معارك عنيفة أفضت إلى وقوع أفضل خان أسيراً في يد الملك،وظل ابنه عبد الرحمن يناضل إلى جانب عمه حتى تمكنا من الاستيلاء على العاصمة كابل واخراج أفضل خان من سجنه والمناداة به ملكاً بدلاً من شير علي خان ، إلا ان الملك الجديد لم يعش سوى شهور معدودة فخلفه في الملك أخوه أعظم خان .

وكان جمال الدين طوال هذه المدة موالياً لأعظم خان مناصراً له لما توسم فيه من الخير ، فلما تولى الأمارة جعله كبير وزرائه وهو حينذاك في السابعة والعشرين من عمره ، وصار يلجأ إلى رأيه في عظائم الأمور ، بيد ان الأصابع الأجنبية لم تزل تعبث بمصير الأفغان ، حتى اشتد ساعد شير علي خان الملك السابق ، بمعاضدة

---

١ - جمال الدين الافغاني باعث النهضة الفكرية في الشرق ص ٣١

الانكليز ، وكان قد اعتصم بمدينة هراة ، فزحف على العاصمة بجيش كبير يتقدمه -كما قال الدكتور تشارلس آدمز- تيار جارف من «الدسائس التي حاكت السياسة الانكليزية خيوطها في حذر شديد وتكتم بالغ ، والأموال التي بذلتها في سخاء عظيم وإسراف لا حد له » ، حتى فسدت امانات العاملين لأعظم خان ، ووجد هذا نفسه وحيداً ليس معه إلا ابن أخيه عبد الرحمن وإلا وزيره جمال الدين . فلم يجد خيراً من تجنب هذا الصراع المخفق ، فغادر بلاده إلى إيران ، ولبث جمال الدين وحده في كابل ، فلم يمسه شير علي خان بسوء خشية انتصار الناس له احتراماً لعلمه وفضله ، وحمية لآل البيت النبوي ، إلا أنه لم ينصرف عن الاحتيال للغدر به ، لا سيما وقد أبى الاشتراك معه في الحكم لموالاته للمستعمرين وخدمته إياهم . وشعر جمال الدين بما يُدبر له في الخفاء ، فاستأذن الأمير في الحج لينجو من غدره ، فأذن له على ان لا يمر ببلاد فارس مخافة اتصاله بمحمد أعظم خان ، فارتحل عن طريق الهند سنة ١٨٦٩ (١٢٨٥ هـ) .

ولم يشأ جمال الدين الظهور في الهند بمظهر يلفت النظر إليه ، فكتب إلى أحد أصحابه من تجار الأفغان هناك يسأله ان يكون ضيفه على أبسط حالات الضيف والمضيف، ولكنه ما كاد يصل إلى الحدود حتى رأى الحكومة تستقبله هناك استقبالاً رسمياً حافلاً ، ولم ير بين ذلك الجمهور من المستقبلين أحداً من معارفه وخصوصاً ذلك التاجر الذي استضافه ، فأدرك الغرض من هذا الاجلال ، وقال :

— مأرب ، لا حفاوة من كريم !

وحين طلب الذهاب إلى بيت صديقه التاجر الأفغاني ، قيل له ان الحكومة قد أعدت له نزلاً يليق بأمثاله من علية القوم ! ثم سئل عن مدة إقامته في الهند ، فقال لا أكثر من شهرين ، فقبلت الحكومة ذلك ، وأحاطته بعدد من موظفيها يسألون كل زائر عن غرض زيارته وما يريد ان يقوله. فجاء في اليوم الأول لزيارته عشرات، وفي اليوم الثاني أصبحت العشرات مئات ، وفي الثالث والرابع وفدوا جماهير ، ولم ينقض أسبوع واحد حتى اشتعلت الروح الوطنية في أرجاء الهند من جديد ، بعد ان رقدت تحت الرماد إثر إخماد ثورة سنة ١٨٥٧ (١٢٧٤ هـ) ، وأحاط الوطنيون

الصادقون بالسيد يفيدون من حكمته ، ويهتدون بإرشاده ، ويقبسون من جرأته وإقدامه .

وفيما الحكيم في مجلسه ذات يوم ، وقد اجتمع عنده عدد غفير من العلماء والأعيان ، دخل عليه أحد كبار الموظفين وقال له : « ان الحكومة الهندية كانت قد تساهلت معك فسمحت لك بالاقامة شهرين ، ولكنها رأت ان تبلغكم اليوم ان حالة البلاد لا تساعد على بقائكم أكثر مما مكثتم » . فاحتدم الحاضرون غضباً وأخذوا يحتجون على هذا الانذار، وهمّ بعضهم برجل الحكومة يريدون ان يخرجوه عنوة ، ولكن جمالاً دعاهم إلى السكوت وحال بينهم وبين رسول الحكومة،وقال:

— إنني ما أتيت إلى الهند لأخيف حكومة بريطانية العظمى ، ولا أنا على استعداد اليوم لأحدث شغباً عليها ، ولا لأنتقد شيئاً من أعمالها ، ولكن تخوفها من زائر أعزل مثلي ، ومصادرتها لزائرين هم أضعف مني ، يسجل على حكومة بريطانية وهن عزيمتها ، وضعف شوكتها ، وقلة عدلها ، وعدم أمنها من حكمها ، وانها في حقيقة حكمها لهذه الأقطار الشاسعة أضعف بكثير من شعوبها !

ثم التفت إلى زائريه وقال لهم ، وكأنه أراد ان يلقي على مسامعهم درساً أخيراً لا ينسونه مدى الحياة ، ويكون حافزاً دائماً لهم على طلب الحرية والاستماتة في سبيلها :

— يا أهل الهند ، وعزة الحق وسر العدل ، لو كنتم وأنتم تعدون بمئات من الملايين ذباباً مع حاميتكم البريطانية ، ومن استخدمتهم من أبنائكم فحمّلتهم سلاحها لقتل استقلالكم واستنفاد ثروتكم ، وهم بمجموعهم لا يتجاوزون عشرات الألوف ، لو كنتم مئات الملايين كما قلت ذباباً ، لكان طنينكم يصم آذان بريطانية العظمى ، ويجعل في آذان كبيرهم المستر غلادستون وقراً .

« لو كنتم أنتم مئات الملايين من الهنود ، وقد مسخكم الله فجعل كلاً منكم سلحفاة ، وخضتم البحر ، وأحطتم بجزيرة بريطانيا العظمى ، لجررتموها إلى القعر وعدتم إلى هندكم أحراراً » .

فأنشأ الحاضرون يذرفون الدموع ، فقال إذ ذاك بصوت عال : « اعلموا ان

البكاء للنساء ، والسلطان محمود الغزنوي ما أتى الهند باكياً بل أتى شاكي السلاح ، ولا حياة لقوم لا يستقبلون الموت في سبيل الاستقلال بثغر باسم ! »

وفي صباح اليوم التالي سيّرته الحكومة في إحدى بواخرها إلى السويس ، فأقام في مصر حوالى أربعين يوماً اختلف فيها إلى الجامع الأزهر ، وخالط بعض الطلبة ورجال العلم . وكان في نيته السفر إلى الحجاز ، فوصلته دعوة من السلطان عبد العزيز لموافاته إلى الاستانة ، وكان قد تسامع بدعوته ومكانته وعلو شأنه بين المسلمين فأراد ان يفيد منه ، فسافر إلى الاستانة ملبياً دعوة السلطان .

وصل جمال الدين إلى الاستانة في أوائل سنة ١٨٧٠ (١٢٨٧ هـ) وهو بزيه الأفغاني : قباء وكساء وعمامة عجراء . فرحبت به الحكومة خير ترحيب ، وأكرم السلطان عبد العزيز وفادته ووجد عنده لكل سؤال جوابه المحكم ، والتف حوله العلماء والأدباء والأعيان وفي طليعتهم عالي باشا الصدر الأعظم الذي كان يلتقي معه في الدعوة إلى إحياء الجامعة الاسلامية ، وتناقلوا الثناء على علمه وأدبه وفضله ، وهو أجنبي عنهم غريب اللسان فيهم . وما هي إلا شهور حتى سمي عضواً في مجلس المعارف ، فحاول إصلاح مناهج التعليم وتعميمه وتوسيع نطاقه ، وأشار بطرق عصرية لبلوغ ذلك المقصد لم يوافقه عليها رفقاؤه ، « ومن تلك الطرق ، كما قال الاستاذ مصطفى عبد الرازق ، ما أحفظ عليه قلب شيخ الاسلام لذلك العهد حسن أفندي فهمي ، لأنها كانت تمس شيئاً من رزقه » فأضمر له هذا الشيخ السوء ، وأرصد له العنت ، وكان لا يظهر رأي للسيد جمال في الصحف أو في المحافل حتى يبادر إلى نقده نيلاً منه وتقليلاً لشأنه .

وفي شهر رمضان من تلك السنة ، طلب من جمال الدين ان يلقي في دار الفنون خطاباً باللغة التركية ، وكان قد درسها واتقنها . فألقى محاضرة عن الصناعة وأهميتها للدولة الناهضة شبه فيها الأمة بجسم حي والصناعات بأعضاء ذلك الجسم ، وقال كما انه لا حياة للجسم بدون الأعضاء كذلك لا حياة للأمة بدون الصناعات . ثم شبه الملك بالمخ الذي هو مركز التدبير والارادة ، والحدادة بالعضد ، والزراعة بالكبد ، والملاحة بالرجلين . ومضى في تعداد سائر الصناعات والأعضاء حتى أتى على جميعها

ببيان ضاف مبيناً أهمية كل منها . ثم قال : هذا ما يتألف منه جسم السعـادة الانسانية ، ولا حياة لجسم إلا بروح ، وروح هذا الجسم اما النبوة واما الحكمة .

فلم يرق هذا الخطاب لشيخ الاسلام لما كان في نفسه من الحقد عليه ، فرماه بالالحاد ، وأوعز إلى بعض الصحف وبعض الوعاظ في المساجد ، ان يذكروا في مقالاتهم وخطبهم ، ان جمال الدين الأفغاني قد زعم ان النبوة صنعة !

فساور جمال الدين غضب شديد ، وطلب محاكمة شيخ الاسلام على بهتـانه ، وانقسم الرأي العام بصحفه ومجالسه فريقين ، منه من ينتصر للسيد ومنه من يأتمر مع الشيخ ، إذ تحول الصراع إلى قضية عامة ، قضية جيل من المتحررين يناضل جيلاً من الجاحدين ، وجمال الدين خلال ذلك يشتدّ في طلب المحاكمة ، وحسن أفندي يشتدّ في الاتهام ، حتى تلقى الحكيم أمراً بمغادرة تركية ... ولم يكن عالي باشا ليرغب في نفي السيد ، بل كان يريد لو واتته الظروف ان يحله محل حسن أفندي في مشيخة الاسلام ، ولكن هذا الرجل استطاع ان يكره الصدر الأعظم على إقصاء جمال الدين ، بإثارة العامة وأهل الجمود .

وبينما جمال الدين يتأهب لمغادرة الاستانة منفياً ، زاره عدد من العلماء المستنيرين يعلنون أسفهم ، فكانت هذه الزيارة مناسبة أخيرة له بسط فيها شيئاً من تعاليمه . وكان أحـد زائريه قد تطرف في حملته على شيخ الاسلام فحمل على الدين نفسه ، فاستنكر الحكيم ذلك وتحدث عن السلطتين المدنية والروحية حـديثاً مستفيضاً خلاصته ان السلطة المدنية بمليكها أو بسلطانها ، إنما تستمد قوتها من الأمـة لقمع أهل الشر ، وصيانة حقوق العامة والخاصة ، وتوفير الراحـة للمجموع بالسهر على الأمن وتوزيع العدالة ، إلى آخر ما في الوازع والسلطان من المنافع العامة .

أما إذا أودعت هذه السلطة بيد رجل غر جاهل عاتٍ اكتنفه قوم من فاسدي الأخـلاق ، يلعبون بالمسيطر كيف يشاءون ، ثم يحتجون على الشعب بقولهم : « مشيئة الملك قانون المملكة » فهذا القول ، على تلك الحالة ، يوجب على الأمـة ان تقف في وجهه ، وان تقاومه بكل ما لديها من قوة ، لأن الحق في هذا ان إرادة الشعب غير المكره وغير المسلوب حريته قولاً وعملاً ، هي قانون ذلك الشعب

المتبـع ، والقانون الذي يجب على كل حاكم ان يكون خادماً له أميناً على تنفيذه .

وكل شعب تلعب به الأهواء ، ويتفرق شيعاً وطوائف ، وتستحكم في أفراده محبة الذات والانانية ، فيتجرون باسم الأمة تجاه الفرد المسلط ، ويستنزفون ثروة المجموع إرضاء له لينالوا بلغة من عيش — يكون كالانعام السائمة أو أضل سبيلاً . ومثل هذا الشعب هو الذي تصدق عليه تلك القاعدة الجائرة التي أوجدها المستبدون: « مشيئة الملك قانون المملكة » !

وكذلك القول في السلطة الروحية ، فان الدين إذا تمكن بحقيقته من نفس انسان ، وخلا عن مراقبة السلطان المدني ، فهناك يفعل سلطان الروح ويردعه عن سرقة مال لو سرقه لما شهد عليه أحد ، وعن نفس لو قتلها لما تمكن الحاكم المدني ان يقتص منه . هذه بعض منافع الروح الدينية في رأيه، وليس في الأديان الثلاثة ما يخالف نفع المجموع البشري ، بل انها لتحضه على ان يعمل الخير المطلق مع أخيه وقريبه ، وتحظر عليه عمل الشر مع أي كان . اما إذا انحرفت هذه السلطة المعنوية وتحرّفت عن مواضعها ، واختل جوهر وضعها الأصلي ، فيجب عندئذ الوقوف تجاهها ، والعمل بكل قوة لإرجاعها إلى أصلها .

قال جمال الدين : « إذا سار الدين في غايته الشريفة ، حمدته السلطة المدنية بلا شك . وإذا سارت السلطة المدنية في الغاية المقصودة منها وهي العدل المطلق ، حمدتها السلطة الروحية وشكرتها بلا ريب . ولا تتنافر هاتان السلطتان إلا إذا خرجت إحداهما عن المحور اللازم لها والموضوعة لأجله . »

فجر النهضة المصرية

في تلك الأيام كانت مصر مزرعة تتوارثها أسرة محمد علي ، وكان هذا الارث الضخم قد آل إلى اسماعيل وهو في أوج شبابه وتوهج طموحه ، فأخذ يتقبل التهاني ويولم الولائم قبل أن يوارى جثمان سلفه محمد سعيد باشا في التراب ، ثم ترامى في عباب المجون والترف والاسراف بشكل لم يعرف إلا عن قلائل من حكام التاريخ.

وكان محمد سعيد باشا قد منح فردينان دي ليسبس امتياز مشروع قناة السويس [1] ، وفتح له خزانة الدولة يغترف منها ما يشاء للدعاية للمشروع والانفاق عليه ، فاضطرب الوضع المالي في عهده ، وعالج هذا الاضطراب بعقد أول قرض دولي في تاريخ مصر .

وورث محمد سعيد عن أفراد أسرته الميل إلى أوربة ولا سيا فرنسة ، فبعث وفود الطلاب إلى الدول الأجنبية ، وشجع الأجانب على الهجرة إلى وادي النيل ،

---

١ ـ كانت فكرة زواج البحر المتوسط من البحر الاحمر بشق قناة تصل بينهما عبر منطقة السويس ، فكرة قديمة خالجت على تعاقب العصور الفراعنة والبطالسة والرومان والعرب . وكان من أشد انصارها في العصور الحديثة ، الرأسماليون الاوربيون الذين وجدوا فيها وسيلة جديدة لتعزيز تجارتهم وزيادة ارباحهم ، والاشتراكيون الفرنسيون من اتباع سان سيمون الذين وجدوا فيها وسيلة مثلى لتحقيق مبدأهم في ربط الشرق والغرب بوشائج الاسرة الانسانية الواحدة .

فتألف في مصر عدد من الشركات والمشاريع برؤوس أموال أجنبية .

ولما تولى اسماعيل العرش ، أراد أن يجعل من مصر دولة حديثة كالدول الأوربية ، ورأى أن موارد البلاد لا تكفي لتحقيق مطامحه ، فعمد إلى ذلك المنفذ الذي فتحه سلفه ، ومدّ يده إلى المرابين الأجانب يستدين منهم بغير تدبير ولا حساب ، حتى قاربت تلك الديون مائة مليون جنيه ، فأتاح بذلك للمستعمرين أن ينشروا ظلهم الأسود على مصر .

وكان القليل من هذا المال ينفق في المشاريع العامة ، والكثير منه يهدر في بناء القصور ، وحياة المجون ، ورشوة الباب العالي ، ومظاهر المجد الكاذب ، ونوادي السمر العابث والرقص الخليع .

كان اسماعيل يعيش كملك أوربي ، ويحلم في أن يجعل من بلاطه صورة مماثلة للبلاط الفرنسي ، وقد أراد أن يحوّل القاهرة إلى « باريس صغرى » ، فخطط الأحياء ، وأقام الجسور الجميلة على النيل ، وعبّد الشوارع ونسقها وأنارها بغاز الاستصباح ، ومدّ مواسير المياه إلى البيوت ، وزين الساحات العامة بالتماثيل ، وشيد الملاهي ودور التمثيل .. ولكنه إلى جانب هذا الاصلاح الذي شمل جزءاً من القاهرة دون أن يتغلغل إلى قلبها ويمتد إلى أحيائها الشعبية ، أنشأ ثلاثين قصراً موزعة ما بين القاهرة والاسكندرية والجيزة والصعيد والوجه البحري ، وشيد قصر عابدين ليجعله مقراً لحكمه بدلاً من القلعة،وبنى قصر الجزيرة لضيافة الامبراطورة أوجيني ، وقصر القبة لولي عهده ، وقصر ميركون على البوسفور ، وحشد في هذه القصور كل ما استطاع من ثمين الأثاث وفاخر الرياش ونادر التحف، ومنح الأجانب المقيمين في مصر والشركات ذات رؤوس الأموال الأجنبية امتيازات خاصة، وأنشأ المحاكم المختلطة لإشراك القضاة الأجانب في القضاء المصري بغية تطمين الأجانب على حقوقهم ، وسار في ركاب السياسة البريطانية والفرنسية اللتين تتنازعان مصر ، وسلم مقاليد السلطة في السودان وممتلكات مصر الشاسعة في افريقية الاستوائية إلى حكام من الانكليز يعملون جهراً وسراً لحساب الاستعمار البريطاني ، وباع أسهم قناة السويس إلى حكومة بريطانيا التي نظرت إلى الأسهم من الوجهة السياسية وبادرت



الخديوي اسماعيل

إلى دفع الثمن ، وقبل دفع تعويض مالي إلى شركة القنال التي أحالت المنطقة إلى اقطاعات فرنسية ، وسمح للبعثات الأجنبية بتدقيق حسابات الحكومة وسجلاتها بحجة تنظيم الميزانية ورصد الديون ، وأدخل وزيرين أوربيين أحدهما انكليزي والآخر فرنسي فيوزارة مصرية يرأسها أرمني يدعى نوبار معروف بميوله الانكليزية، وسمح لهذين الوزيرين الأجنبيين بحق المعارضة (الفيتو) فيما يصدره هو والحكومة من مراسيم وقرارات [1] .

*

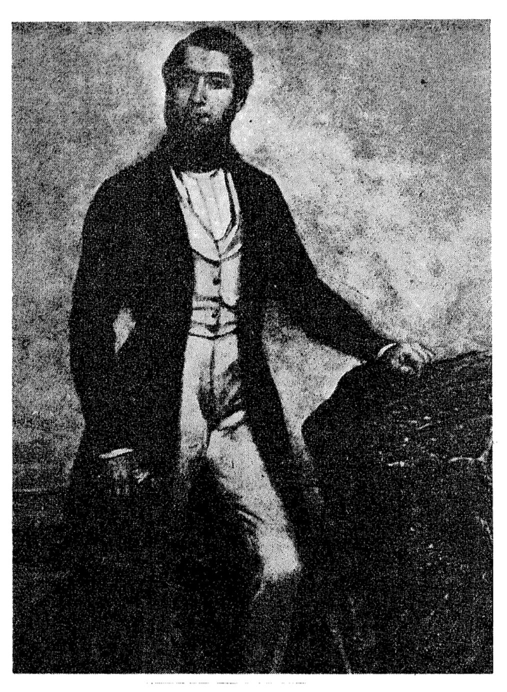
في تلك الأيام عاد جمال الدين إلى مصر (٢٢ آذار — مارس ١٨٧١ أول محرم ١٢٨٨) فرحّب بقدمه رياض باشا وزير الخديوي اسماعيل ، وأجرى عليه مرتباً قدره مائة وعشرون جنيهاً في السنة . وكان هذا المسلك غريباً من حكومة مصر ، وقد عرفت ما لجمال الدين من خطر على سياستها ، وما لدعوته الوطنية وآرائه الاصلاحية من تأثير فعال في نفوس الناس . ولكن حكومة القاهرة كانت تنافس يومذاك حكومة الاستانة ، وتأبى ان تخضع لها وان يكون أميرها تابعاً للسلطان العثماني . فاستقبالها جمال الدين تقديراً لمكانته العلمية بعد نفيه من تركيا ، كان يُظهر الخديوي [2] بمظهر الحامي للعلم في شخص الحكيم الأفغاني ، عدا عما له من معنى سياسي [3] . .

ولم يكن ليخيل للخديوي اسماعيل عهد ذاك ان آراء مثل آراء جمال الدين قد تكون خطراً عليه ، فقد كان في أوج مجده وسلطانه ، يتصرف في ملكه ورعيته كما يشاء ، ولم تكن أيدي الأجانب قد امتدت بعد إلى بلاده ، وكان ميالاً إلى ان

١ — كفاح الشعب ج ١ ص ١٤١ -١٥٦.

٢ — كان اسماعيل قد اختار لنفسه لقب « العزيز » بدلاً من « الوالي » ليتميز به من بقية حكام الويات العثمانية، ولكن السلطان عبد العزيز رفض اعتاد هذا اللقب لأن اسمه«عبد العزيز» وهذا معناه انه عبده ، فضلاً عن ان اسم العزيز من اسماء الله ، وبعد مفاوضات عديدة وقع الاختيار على لقب « الخديو » او الخديوي وهي مشتقة من اللغة الفارسية بمعنى « الرب » .

٣ — انظر عصر اسماعيل ج ٢ ص ١٥٥



فردیناند دي ليسبس

ينشر في مصر المعارف الحديثة ويأخذ بها إلى آفاق المدنية الغربية . ومن ثم اتخذت دعوة جمال الدين الاصلاحية أول إقامته في مصر ، شكلاً أدبياً يمزج السياسة بالثقافة ، ولم تبد بمظهرها الثوري المخيف إلا حوالي سنة ١٨٧٦ (١٢٩٣ هـ) حين سيطر الأجانب على شؤون البلاد . وقد كانت تلك السنة في الواقع نقطة التحول في تاريخ حرية الرأي العام بمصر ، وتنبه الوعي القومي فيها . على ان ثورة جمال الدين لم تتجه مع ذلك ضد اسماعيل نفسه ، بقدر ما اتجهت ضد التدخل الأجنبي ، وان كانت آراؤه ، بالاضافة إلى ما أفاده المصريون المثقفون من مطالعاتهم باللغات الأجنبية واحتكاكهم بالبلدان الأوربية ، قد حددت لدى الرأي العام مركز الحاكم ، وسفهت الفكرة الشائعة من ان الشؤون الخاصة والعامة هي ملك الحاكم المطلق ولا ينازعه في سلطته أحد .

قضى جمال الدين ثماني سنوات في مصر ، معلماً مجدداً مكافحاً ، يسير مع تطورها ويدفعه إلى الأمام ، عاملاً على بث الروح الوطنية ، واشاعة الفكرة الدستورية ، وتنبيه الشعب إلى مضار التدخل الأجنبي في شؤونه ، وكشف مساوىء الرقابة التي فرضت على مصر ، ومصر حينذاك ، كما قال محمد عبده « تتخبط في شدائد مهلكة وظلمات حالكة ، يضل فيها الرشيد ويتعثر فيها العزم الشديد » . ويسهب الامام في وصف تلك الحال، وأثر جمال الدين فيها، فيقول ان أهالي مصر كانوا يرون شؤونهم العامة والخاصة ملكاً لحاكمهم الأعلى ، ومن يستنيبه عنه في تدبير أمورهم ، يتصرف بها حسب إرادته ، ويعتقدون ان سعادتهم وشقاءهم موكولان إلى أمانته وعدله أو خيانته وظلمه ، ولا يعلمون من علاقة بينهم وبين الحكومة سوى انهم محكومون مسيّرون في ما تكلفهم به وتفرضه عليهم ، ولا يرى أحدهم لنفسه رأياً يحق له ان يبديه في إدارة بلاده وإصلاح أمته ، لأنه كان يجانب كل لفظ يقال في هذا الشأن نفيٌ عن الوطن أو ازهاقٌ للروح أو تجريدٌ من المال ... « حتى جاء جمال الدين إلى تلك الديار، وتعرف إليه أناس من شتى هيئاتها وطبقاتها ، فاستيقظت عندئذ مشاعر ، وانتبهت عقول ، وخف حجاب الغفلة في كثير من أنحاء البلاد . »

وليس هذا رأي الامام محمد عبده وحده ، فان جميع الذين تحدثوا عن جمال

الدين مجمعون على ان قدومه إلى مصر ، والتفـاف الطلاب حوله من كل صنف ، ودعوته إلى إصلاح الشعوب الاسلامية عن طريق التوفيق بـين أصول الاسلام الصحيحة وقواعد علم الاجتماع التي ظهرت فائدتها في معالجة شؤون البشر وانتظام أحوال الجماعات ، كان مبدأ النهضة الفكرية في البلاد العربية وسائر بلاد الشرق الأدنى ، ولم تزل تنمو إلى الآن رامية إلى تحرير هذه الأقطار من أغلال الاستعمار والحكم الاستبدادي ، والأخذ بها إلى معارج المدنية والرقي .

ويتفق في ذلك رأي الباحثين الغربيين مع رأي الباحثين الشرقيين ، وقد قال جورج كيرك في حديثه عن هذه الحقبـة من تاريخ مصر : « ان تعرض مصر للمؤثرات الأوربية مدة الخمسين سنة السابقة لذلك ، مع أخذها بنظام للتربيـة على النمط الأوربي (في شكله) ، قد أحدث في البلاد طائفة صغيرة من الشبان ذوي الميول الحديثة ، وهم فئة « الأفندية » . وقد أشرب هؤلاء الشبان عن طريق دراستهم بعض الآراء الوطنية الحرة المنتشرة إذ ذاك في غربي أوربة ، وانتعشت فيهم هذه الروح بتأثير السيد جمال الدين الأفغاني ، وهو داع من دعـاة الاصلاح نادى بتحرير جميع الشعوب الاسلامية من النفوذ الأوربي وما يتبعه من استغلال ، واتحادهم جميعاً تحت لواء خلافة قوية واحدة . وكان قد أبعد من الاستانة في سنـة ١٨٧١ ، فأقام في القاهرة وظل ينشر فيها تعاليمه مدة ثماني سنوات . يضاف إلى ذلك ان مشروعات اسماعيل الخاصة بالأشغال العامة ، مع ما أتت به من الفائدة الكبرى في تحسين مواصلات البـلاد وانتاجها وتجارتها ، لم تعد بفائدة تذكر على السواد الأعظم من أهل البلاد الذين يقع على عاتقهم العبء الأكبر من تلك الضرائب الفادحة ، التي بلغ مقدارها في عام ١٨٧٥ خمسة أضعاف ما كانت عليه في سنـة ١٨٦١ ، وبذلك سرى تيار باطني شديد من السخط الشعبي انضم تأثيره إلى نقد دعاة الوطنية الناقمين على اسماعيل،لمحاباته الأوربيين ولسياسته المالية المؤذنة بالخراب، وتفضيله العناصر التركية الشركسية التي خلّفها عهد المماليك على المصريين الذين هم أهل البلاد ، وتمثل ذلك بوجه خاص في حصره العناصر الوطنية في الجيش في المراكز

الصغرى ، مما كان له أكبر أثر في إثارة سخطهم [1] » .

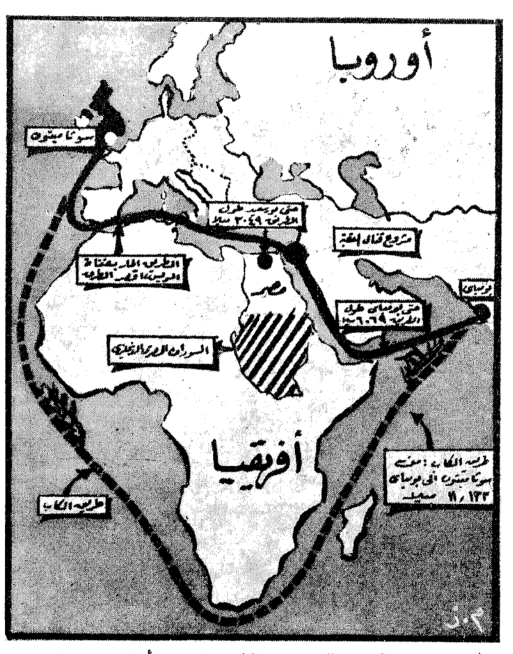
وقد تحدث الاستاذ أحمد أمين عن إقامة جمال الدين في مصر ، وأثرها في تحويل مجرى الأدب ونقله من حال إلى حال ، فقال : « كان الأدب عبد الارستقراطية لا همّ له إلا مدح الملوك والأمراء ، والتغني بأفعالهم وصفاتهم مهما كانوا ظلمة فجاراً، فكل حاكم سيد الوجود في زمانه ، آتٍ بالمعجزات في أعماله ، معصوم من الخطأ فيما يأتي به ، يبتز مال الناس غصباً فلا يلام على ما غصب ولكن يمدح على ما أنفق ، ويقتل من شاء فلا يسأل عمن قتل ولكن يشاد بفضله إذا عفا . الفن والأدب والشعر والنثر موسيقى لطربه، وبهلوان لتسليته، وعبيد مسخرة لنهش أعدائه ومدح أوليائه. الأديب الصغير مداح للغني الصغير ، والأديب الكبير مداح للأمير الكبير — فأتى جمال الدين فسخر الأدب في خدمة الشعب ، يطالب بحقوقه ويدافع عن ظلمه ، ويهاجم من اعتدى عليه كائناً من كان ، يبين للناس سوء حالهم ومواضع بؤسهم ، ويبصرهم بمن كان سبب فقرهم ، ويحرضهم ان يخرجوا من الظلمات إلى النور ، وألا يخشوا بأس الحاكم فليست قوته إلا بهم ولا غناه إلا منهم ، وان يلحوا في طلب حقوقهم المغصوبة وسعادتهم المسلوبة ، فخرج للناس بأدب جديد ينظر للشعب أكثر مما ينظر إلى الحاكم ، وينشد الحرية ويخلع العبودية ، ويفيض في حقوق الناس وواجبات الحاكم ، ويجعل من الأديب مشرفاً على الأمراء لا سائلًا يمد يده للأغنياء، وهذه نغمة جديدة لم يعرفها المسلمون منذ عهد الاستبداد [2] . »

وتساءل الأستاذ أحمد أمين عن « الشيء الجديد» الذي وجده تلاميذ جمال الدين عنده ، فاطمأنوا إليه واهتدوا به ، ثم أجاب على ذلك جواباً محكماً أجمل فيه مزاياه وخصائصه الأساسية ، وأهمها في نظرنا « ربط جزئيات الحياة العامية والعملية كلها برباط واحد يفتح النوافذ كلها بعضها على بعض حتى تتألف منها وحدة . فالتصوف، والفلسفة ، والدنيا العامة ، ودنيا الشخص ، هذه كلها لا يمكن ان يكون كل منها حجرة مغلقة على نفسها، بل لا بد ان تتقابل وتتناغم وتؤلف دوراً موسيقياً واحداً،

---

١ — موجز تاريخ الشرق الاوسط ص ١٧١

٢ — انظر ترجمة احمد امين لجمال الدين في كتابه فيض الخاطر ج ٥ ص ٢٤٣ - ٣٠٠



خريطة تبين مدى فائدة قناة السويس ، فالطريق البحري الأول من بريطانية إلى الهند كان طوله ١١١٣٣ ميلًا فأصبح ٦٠٦٩ ميلًا

فإذا تم هذا صح نظر الانسان وزال عنه كثير من الشك المؤلم والحيرة المضنية ، وبتّ فيما ينفع وما يضر وما يعمل وما يدع ، ووضحت أمامه الاعلام واستنارت السبل ... »

على هذا الأساس الراسخ من البصر العميق بتشابك الأشياء وتفاعلها ، كان جمال الدين يعلّم تلاميذه في مصر ، سالكاً لنشر تعاليمه كل سبيل ومعتمداً كل وسيلة . وكان يلقي في بيته دروساً علمية منظمة يحضرها طائفة من طلاب الأزهر وبعض علمائه ، فيقرأ لهم كتاباً في الفقه أو في الفلسفة ، يفسر في ضوئه تعاليمه ، ويتخذه وسيلة لنشر آرائه الأدبية والسياسية ، أو يلقي عليهم محاضرة في أحد الموضوعات الهامة .

وقد نقل لنا محمد عبده درسين من دروس الحكيم ، أحدهما في التربية والآخر في الصناعة [1] ، خلاصة الأول منهما ان قوام الحياة في الأجسام الحية تفاعل العناصر الداخلية فيها تفاعلاً متناسباً ، بحيث لا يتميز أحد تلك العناصر بالغلبة على باقيها غلبة تقضي بظهور خواصه وتسلطها على خصائص البقية ، فبذلك التناسب يتم للبدن ما يسمى بالمزاج المعتدل ، فان غلب أحد العناصر على سائرها واضمحلت خواص بقيتها فيه ، انحرف المزاج وخرج عن حد الاعتدال واستولى المرض على الجسم . وكما ان روح التركيب البدني إنما يستقر حيث تجتمع أصول متضاربة ، وينشأ من تغالبها مزاج معتدل كامل ، وبغلبة أحدهما يفسد التركيب ويذهب الروح الحيوي ، كذلك روح الكمال الانساني إنما يكون حيث تجتمع أخلاق متضادة وملكات متخالفة تقوم من تضادها وتخالفها حقيقة الفضيلة المعتدلة . فان تغلب أحد الخلقين على الآخر فسد نظام الفضيلة واستحكمت الرذيلة : ألا ترى ان النفس الانسانية لا بد لها من خُلق الجرأة ، وخُلق المخافة ، وهما متضادان ، ومن مقاومتها على وجه معتدل ، بحيث يستعمل كل فيما يليق به من المواقع ، تتحقق الشجاعة !

---

١ - تاريخ الاستاذ الامام ج ٢ ص ١٢ وما بعدها .

أما الدرس الثاني فقد بين فيه ان الانسان نوع من أنواع الحيوانات الأرضية ، أتى عليه حين من الدهر وهو على مقربة منها ينشأ نشأتها ويسير في عيشه سيرتها ، ثم استرشد بأعمال الحيوانات واهتدى بآثارها ، وتعلم من فعلها وانفعالها ، وتدرج في ذلك شيئاً فشيئاً منقاداً في جميع أحواله لقائد الحاجة والضرورة يأتمر أمره ويتبع سيره ، ويتدرج إلى الكمال بما يرشده إليه من التفنن في الفنون واختراع الصنائع . فهو في جميع مراتبه لم يكن ليقيم ظهره بين الموجودات إلا بدعائم الصنائع ، فالصنائع هي قوام النوع الانساني .

ثم ينتقل إلى القول بأن الصناعة قوة ، والقوة منشأ الأثر دائماً فعلاً كان أو انفعالاً . ويتحدث بعد ذلك عن قوة العقل فيقول انها قوة انفرد بها الانسان وهي « محور صلاحه وفلاحه إن وجهها صوب وجهتها الحقيقية . فان استعملها لغايات طبيعية أو حسية أي قاصرة على موضوعها المودعة فيه لا تفيد سواه ، كأن يطلب منها تنمية بدنه أو جلب ما يلائم ذائقته أو نهامته وما يشبه ذلك ، فقد أضاع تلك القوة العالية الشريفة ، وسلخ عنها ثمرتها ، وانحط إلى دركات الحيوانات بل النباتات التي لم تمنح تلك المنحة الجليلة . وأما من حفظ نفسه من السقوط ، وأمسك عليها حق تلك الخاصة ، أعني العقل ، فهو الذي ينظر إلى كلية العالم الكبيرة فيعلم ان نوع الانسان وسائر الأنواع من لوازم كماله أو متمماته ، فيتوجه نحو حفظ ذلك ، ويوقن ان نوع الانسان لا يحفظ بقاؤه في عالم الوجود إلا بحفظ أشخاصه على التعاقب . ويتحقق من ان حفظ أشخاصه وأفراده إنما يكون بالاجتماع والالتئام لما لكل فرد من كثرة الحاجات التي يضيق نطاق وسعه عن ان يأتي عليها في الأزمنة المتطاولة ، مع اضطراره إلى جمعها في الآن الواحد ، لأنها تتوقف على صناعات كثيرة تستفرغ أجل الشخص الواحد في تعلمها فضلاً عن تحصيل غايته منها ، فكيف به ان يستقل وهو محتاج إلى ثمرات تلك الصناعات جميعها يوماً فيوماً بل ساعة فساعة . فلا بد من التعاون في الأعمال بحيث يعتاض كل عن عمله بثمرة عمل الآخر ، فيكون المجموع الانساني كبدن ذي أعضاء ويعمل كل عضو منه للبدن كله لتكون عاقبته لنفسه ، إذ لو طلب الاختصاص مع انه لا بقاء له إلا ضمن المجموع فقد طلب ضياع نفسه من

حيث لا يشعر . فإذا علم جميع ذلك وضع نفسه عضواً حقيقياً وركناً ثابتاً يقوم بأداء عمل يعود على كلية الأفراد أولاً ويعود إلى شخصيته ثانياً . ومبدأ هذا العمل فيه هو الذي نسميه بالصناعة ، فمن لم يكن ذا عمل حقيقي يفيد المجتمع الانساني ، ويعين على انتظام الهيئة الكلية ، فهو كالعضو الأشل لا فائدة منه على البدن إلا تكلف حمل ثقله مع عدم التألم من إزالته فالأولى ابانته وقطعه ... »

ومن دروسه أيضاً انه كان يحث تلامذته على ممارسة الانشاء ، ويشجعهم على إصدار الجرائد ، ويستكتبهم موضوعات معينة ، متخذاً من ذلك كله سبيلاً إلى صقل ملكاتهم وتقويم أذواقهم وتوجيههم توجيهاً اجتماعياً صحيحاً . وروي انه استكتبهم يوماً موضوعاً عن الحرية فكان سعد زغلول أكثرهم اجادة ، فاستخلص السيد من ذلك هذه العبارة الرائعة : « مما يدل على ان الحرية ناشئة في مصر ان يجيد في الكتابة عنها مثل هذا الناشيء » !

بهذا الأسلوب وجه جمال الدين أذهان مريديه إلى البحث الحر والتفكير الحر ، وربى طائفة من الكتاب المجددين يحسنون الكتابة ويحسنون اختيار الموضوعات التي يكتبون فيها . على ان مدرسته الكبرى كانت مجالسه الرائعة في بيته وفي بيوت أصحابه وفي الأندية والمحافل وفي مقهى متاتيا — أو مقهى البوسطة — المجاور لحديقة الأزبكية . في هذه المدرسة كان يجتمع كل يوم وكل ليلة بعشرات ومئات من الناس من الأدباء والعلماء والشيوخ والطلاب « فيتسابقون إلى إلقاء أدق المسائل عليه ، وبسط أعوص الأحاجي لديه ، فيحل عقد إشكالها فرداً فرداً ، ويفتح اغلاق طلاسمها ورموزها واحداً واحداً » . وفي هذه المدرسة وتلك ، تلقى دروسه وتأثر به ونهج على غراره رجال أفذاذ من أعلام النهضة الحديثة ، من أمثال محمد عبده وسعد زغلول ومحمود سامي البارودي وأديب اسحق وعبد السلام المويلحي وسليم النقاش وابراهيم اللقاني وعلي مظهر وابراهيم المويلحي وعبد الكريم سلمان وكثيرين غيرهم .

وقد خطب سعد زغلول مرة وهو في أوج عظمته فقال : « لست خالق هذه النهضة كما قال بعض خطبائكم . لا أقول ذلك ولا أدعيه ، بل لا أتصوره . إنما

نهضتكم قديمة من عهد محمد علي وعرابي ، وللسيد جمال الدين الأفغاني وأتباعه وتلامذته أثر كبير فيها ، وهذا حق يجب ان لا نكتمه ، لأنه لا يكتم الحق إلا الضعيف . »

قال الأستاذ أحمد بهاء الدين : « كان جمال الدين الأفغاني يجلس كل مساء في مقهى متاتيا يوزع السعوط بيمناه والثورة بيسراه .. وقد جلس حوله عشرة أو عشرون من التلاميذ .. هذان المتجاوران سوريان حملا إلى مصر بعض بذور الثقافة الحديثة : أديب اسحق وسليم النقاش .. وهذا الرجل المفتول الشوارب هو سامي البارودي الذي سيلعب دوراً رئيسياً في الثورة العرابية بعد سنوات . وهذا الشيخ الشاب القصير هو محمد عبده .. أما هذا الطالب الأزهري الطويل القامة فاسمه سعد زغلول .. سيقود ثورة أخرى بعد عشرات السنين ، في سنة ١٩١٩، وسيصبح أول رئيس وزارة ينتخبه الشعب .

« من هذا المقهى الصغير كانت تهب ريح الثورات المقبلة ، وعلى هذه المقاعد البالية ، كان يجلس أبطالها ، لا يعرفون بعد ما سيفعلون . وهذا الرجل الأفغاني العجيب لا ينقطع عن شرب الشيشة، وينفث مع الدخان كلاماً صاعقاً تغلي له الدماء وتنفر العروق [١] »

---

١ - ايام لها تاريخ ص ١٤ - ١٥

شرارات ثورة

كانت مصر قد بدأت تجتاز أزمتها المالية المعروفة إذ قام الخديوي اسماعيل بمشاريع عمرانية واسعة استدان لتحقيقها من الدول الأوربية ، ولا سيا الدولة الانكليزية ، مبالغ كبيرة من المال . إلا ان هذه القروض التي بلغت نحو خمسة وتسعين مليوناً من الجنيهات في المدة الواقعة بين سنة ١٨٦٤ وسنة ١٨٧٥ (١٢٨١ – ١٢٩٢ ﻫ) وما تبعها من التنازل للأجانب عن كثير من الحقوق ، جعلت لهؤلاء سبيلاً للتدخل في شؤون مصر والتحكم فيها ، وضاعفت في الوقت نفسه من إرهاق الحكومة للأمة المصرية بالضرائب الفادحة . فاتجه جمال الدين حينئذ بتلاميذه إلى الناحية السياسية المحض ، وطفق ينبههم إلى مضار التدخل الأجنبي والرقابة الأجنبية . قال سليم العنجوري : « وأخذ يقرب منه العوام ، ويقول لهم في كلامه ما معناه[1] :

« إنكم معشر المصريين قد نشأتم في الاستعباد وربيتم في حجر الاستبداد ، وتوالت عليكم قرون منذ زمن الملوك الرعاة حتى اليوم وأنتم تحملون عبء الفاتحين ، وتعنون لوطأة الغزاة الفاتحين ، تسومكم حكوماتهم الحيف والجور ، وتنزل بكم الخسف والذل ، وأنتم صابرون بل راضون ، وتستنزف قوام حياتكم ومواد

---

١ – تاريخ الاستاذ الامام ج ١ ص ٤٦

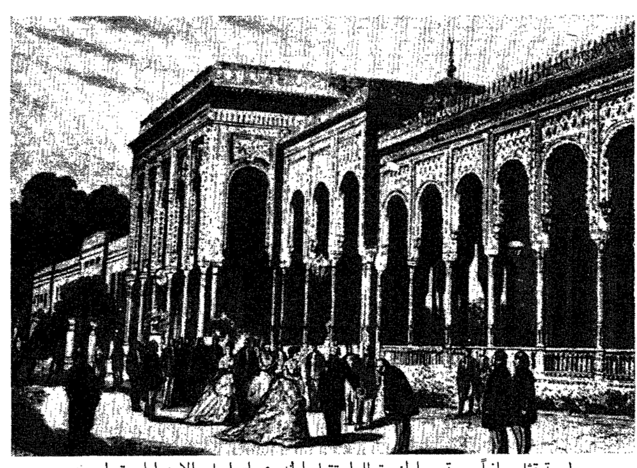
غذائكم التي تجمعت بما يتحلب من عرق جباهكم بالعصا والمقرعة والسوط وأنتم معرضون . فلو كان في عروقكم دم فيه كريات حيوية ، وفي رؤوسكم أعصاب تتأثر فتثير النخوة والحمية ، لما رضيتم بهذا الذل وهذه المسكنة ، ولما صبرتم على هذه الضعة والخمول ، ولما قعدتم على الرمضاء وأنتم ضاحكون . تناوبتكم أيدي الرعاة ثم الفرنسيس ، وكلهم يشق جلودكم بمبضع نهمه ، ويهيض عظامكم بأداة عسفه ، وأنتم كالصخرة الملقاة في الفلاة ، لا حس لكم ولا صوت ! انظروا أهرام مصر وهيا كل منفيس وآثار ثيبة ومشاهد سيوة وحصون دمياط شاهدة بمنعة آبائكم وعزة أجدادكم

وتشبهوا ان لم تكونوا مثلهم   ان التشبه بالرشيد فلاح

« هبوا من غفلتكم ، اصحوا من سكرتكم ، انفضوا عنكم غبار الغباوة والخمول ، عيشوا كباقي الأمم أحراراً ، أو موتوا مأجورين شهداء ! »

قال العنحوري : « .. فبدأت تنتشر حركة الخواطر في الديار المصرية ، وأخذ القوم يشكون من حكومتهم متململين، ويتطاولون بأعناقهم إلى ما يقول مشرئبين. ومنذ ذلك الحين طارت الشرارة الأولى من شرارات الثورة العرابية . »

وكان الحكيم يعتقد انه لا سبيل إلى نهوض الأمة نهضة صحيحة إلا على أيدي الأحزاب الوطنية ، لأنها السبيل الوحيد إلى جمع شتات أبنائها وإلى جعلهم بنعمة الاخاء والاتحاد والتعاون والوعي ، أعزة ، بلادهم لهم وهم لبلادهم نعم الأمناء ، يعملون متضامنين في سبيل مصلحة مجموعهم ونصرة مظلومهم ، وتأدية ما عليهم من واجب وأخذ ما لهم من حق . ولم يكن قد تألف في مصر حتى ذلك الحين ، حزب سياسي منظم ، فالتحق بالمحفل الماسوني الاسكتلندي لعل أعضاءه يعملون معه لرفع الظلم عن مصر . إلا ان هؤلاء لم يلبثوا ان صارحوه بأن الماسونية لا تتدخل في السياسة خشية على محفلها من بأس الحكومة وبطشها،فرد الأفغاني على هذا التصريح بقوله : « إذا لم تتدخل الماسونية في سياسة الكون ، وفيها كل بنّاء حر ، وإذا لم تستعمل آلات البناء التي بيدها لهدم القديم وتشييد معالم الحرية والاخاء والمساواة ، وإذا لم تدك صروح الظلم والجور ، فلا حملت يد الأحرار مطرقة حجارة ولا قامت لبنائهم زاوية قائمة ! »



لوحة تمثل جانباً من قصر الجزيرة لما استقبل الخديوي اسماعيل الامبراطورة اوجيني

ثم قال : « ان أول ما شوقني للعمل في بناية الأحرار عنوان كبير خطير : حرية ، مساواة ، اخاء ! وغرض هو منفعة الانسان والسعي لدك صروح الظلم ، وتشييد معالم العدل ، فحصل لي من وراء كل هذا وصف للماسونية هو : همة للعمل وعزة نفس وشمم واحتقار للحياة في سبيل مقاومة ظلم . هذا ما رضيته من الوصف للماسونية وارتضيته لها ، ولكن مع الأسف أرى جراثيم الأثرة والأنانية وحب الرئاسة والعمل بمقتضى الأهواء ... الخ » .

وقال أحد الاخوان ذات يوم : « ان الماسونية تفاخر بقدمها وثباتها أعصراً على شكلها وتقاليدها ! »

فأجاب الحكيم : « لا أرى أبعد عن الحق من هذا القول ، فالماسونية على شكلها هذا وتقاليدها ، ليست فقط قديمة العهد بل هي لم تزل في المهد . وإذا أصر أبناؤها على الوقوف عند حد رموز أكثرنا لا يفقه مغزاها ولا المراد من وضعها ، فانها ستختنق في المهد ولا تدرج منه . أما ماسونيتكم اليوم أيها الاخوان فلا تتجاوز « كيس أعمال وقبول أخ » يتلى عليه من أساطير الأولين ما يمل ويخل في عقيدة الداخل ويسقط مكانة الماسونية من عينيه ! »

وأدرك السيد جمال الدين أنه لا يستطيع العمل مع أعضاء هذا المحفل لترددهم وانصرافهم عن الأهداف التي يسعى اليها ، فأنشأ محفلاً وطنياً تابعاً للشرق الفرنسي بلغ أعضاؤه العاملون في فترة وجيزة ثلاثمائة عضو من نخبة المفكرين المصريين . ثم اجتمع رأي هؤلاء مع بعض الساسة والأدباء على تأليف حزب سياسي فألفوا الحزب الوطني [1] في أوائل سنة ١٨٧٩ (١٢٩٦ هـ) ، كما ألف آخرون عدة جمعيات وطنية سرية وغير سرية ، فكان ذلك بدء الحياة الحزبية السياسية في مصر .

وقد وضع جمال الدين للحزب الوطني برنامجاً يتلخص في النقاط التالية :

إبقاء مصر على علاقتها الودية مع الباب العالي على أن تحتفظ باستقلالها التام — إلغاء نظام المراقبة الثنائية — إلغاء الامتيازات الأجنبية والمساواة بين المصريين

١ — لما أسس مصطفى كامل حزبه المعروف باسم « الحزب الوطني » سنة ١٩٠٨ (١٣٢٦ هـ) اعتبر انه الوارث الوحيد للحزب الذي نحن بصدده .

والأجانب في دفع الضرائب والخضوع للقوانين — تعميم التعليم ونشر الثقافة — تكوين مجلس شورى النواب — إطلاق حرية المطبوعات والحريات السياسية عموماً — الحزب الوطني الحر حزب سياسي لاديني فقد جمع بين رجال ينتسبون لشتى المذاهب والأديان .

وعلى لسان الحزب الوطني والجمعيات السياسية الأخرى ، تردد للمرة الأولى الشعار الوطني المعروف: مصر للمصريين ! وفي أول جلسة في مجلس شورى النواب[1] وقف نواب يطالبون بحق الشعب في مراقبة أعمال الحكومة وتطبيق الحياة الدستورية الصحيحة في البلاد . وما لبث هذا المجلس ان اصطدم بنوبار باشا رئيس مجلس الوزراء ، في نقاش حول حقوق الأمة وحقوق المجلس الذي يمثلها ، اضطرت الوزارة على أثره إلى الاستقالة في ١٩ شباط (فبراير) سنة ١٨٧٩ (١٢٩٦ هـ) ، وبقيت البلاد دون وزارة نحواً من عشرين يوماً . ثم عهد بتأليفها إلى توفيق باشا (الخديوي توفيق فيما بعد) فقضى في تأليفها اثني عشر يوماً بسبب تدخل الوزيرين الأجنبيين في اختيار الوزراء . وقد رأى هذان الوزيران بعد تشكيل الوزارة ان مجلس شورى النواب يقف عقبة كأداء في سبيل تحقيق أغراضهما ، فأوعزا إلى رياض باشا وزير الداخلية باستصدار مرسوم بحل المجلس . فصدر هذا المرسوم في ٢٦ آذار (مارس) ، وذهب رياض باشا في اليوم التالي إلى المجلس ليتلو المرسوم ، وإذا بنواب من أعضاء المجلس على رأسهم عبد السلام المويلحي صديق جمال الدين ، يقفون في المجلس المصري موقف ميرابو في مجلس فرنسا ، ويقولون : « ان ما تقوله الحكومة من أن مدة توكيل المجلس قد انتهت غير صحيح ، لأن المدة لم

---

١ — شكل الخديوي اسماعيل مجلس شورى النواب في بداية حكمه وافتتح في ١٩ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٨٦٦ (١٢٨٣ هـ) وكان يتألف من ٧٥ عضواً ينتخبون لمدة ثلاث سنوات ويتولى انتخابهم العمد والمشايخ في الاقاليم والاعيان في القاهرة والاسكندرية ودمياط ، ثم يجتمع شهرين من كل سنة وجلساته سرية ولم يخرج عن كونه منحة من الحاكم المطلق ، وقد عطلت جلسات هذا المجلس في غضون عامي ١٨٧٤ — ١٨٧٥ (١٢٩١ — ١٢٩٢ هـ) ثم دعي الى معاودة الانعقاد في عام ١٨٧٦ (١٢٩٣ هـ) .

تنته بعد ، ولهذا يبقى المجلس في مكانه وسيوالي اجتماعاته حتى يؤدي واجبه نحو الأمة » .

ومن الطريف والمفيد معاً أن ننقل هذا القسم من وقائع تلك الجلسة التاريخية الهامة :

رياض باشا : يعني حضراتكم تقلدون نواب فرنسة الذين ثاروا على حكومتهم.. والا يعني حضراتكم الآن بعمائمكم وجببكم مثل نواب أوربة وأمريكة ؟

احمد علي العويسي : يا باشا أنت الآن شتمتنا ... ما هذا الكلام ؟ يعني عطوفتك شتمت نواب أمتك التي تعطيك أنت وغيرك مرتباتكم الشهرية .

عبد الشهيد بطرس : أنا أعتبر هذه العبارة إهانة من ناظر الداخلية للمجلس وأطلب اثباتها في المحضر ، وأقول لعطوفتك إن كلامك هذا وقاحة وإن المجلس لا يقبل من ناظر الداخلية هذه الوقاحة بل يردها اليه .

شيخ العرب أحمد الصوفاني : أوافق حضرة العضو على رد هذه الاهانة للناظر ، وأطلب من المجلس أن ينظرها فيما بعد ليحاسب عطوفته . ان في البلاد أمة حية ولها نواب أحياء يدافعون عن كرامتها وكرامتهم .

عبد السلام المويلحي : أسمعت يا باشا ؟ أرأيت عاقبة تسرع عطوفتك بالكلام وعدم ضبطك لعواطفك كما قلت في أول كلامي . يا باشا ، اعلم ان المسألة ليست مسألة زي وثياب بل المسألة مسألة نواب لهم عقول تفهم جيداً رغبات الأمة التي أنابتهم عنها . واعلم يا باشا ان أهل وطنك ليسوا أقل شعوراً بما لهم من الحقوق وما عليهم من الواجبات ، مثل الأمم الأخرى التي هي في الواقع أقل منا كثيراً في المكانة المالية والعمرانية كصربية وبلغارية وغيرهما ، ثم ثق ان كنت تعتقد ان مصر لم تتمخض ولم تلد سوى عطوفتك من عهد رمسيس إلى الآن ... انك غلطان جداً وألف غلطان يا باشا . ألم يكن من العيب الكبير وأنت وزير في وزارة يزاملك فيها وزير انكليزي وآخر فرنسي ، وهما في الحقيقة خفيران عليكم وعلى الحكومة ، ثم تجمع أمس مساء أمام هذين الوزيرين الأجنبيين أصحاب الجرائد وهم ميخائيل عبد السيد وتقلا وأديب اسحق وسليم النقاش وغيرهم ، وتقول لهم إن

الحكومة عزمت على فض مجلس شورى النواب غـــداً فالحذر كل الحذر من ان تنشروا كلمة واحدة عن هؤلاء النواب في جرائدكم لأنهم أناس جهلاء وهمج.. تقول ذلك يا باشا عن نواب بلادك مصر العزيزة ولا تزن قولك قبل صدوره منـــك ، ولا تتألم في نجواك من صدوره عنك ثم تكرره أمامنا اليوم . يا باشا اننا جميعاً درسنا في الأزهر الشريف وفي غيره، درسنا المعقول جميعه من علوم البلاغة والأدب والفلسفة والأصول والمنطق ، وكذلك قرأنا المنقول من تفسير وحـديث وفقه وتوحيد ، ولكن خبرني بالله عطوفتك ما الذي قرأته وتعلمته أنت من كل ذلك ، وأين كنت تدرسه وتتعلمه ؟

الشيخ الصباحي : تعلم ودرس في أورطة المفروزة [1] !

رياض باشا : هذه وقاحة ، هذه إهانة لا أقبلها ولا أسمح بها لأحد .

حسن عبد الرازق : ان ما قاله حضرة عبد السلام المويلحي بك هو إعراب عن أفكارنا ومطابق مطابقة تامة لآرائنا ، ولا يشذ عنه أي فرد منا . وكلنا متحملون مسؤولية هذه الأقوال مهما عظمت ، أليس كذلك يا اخواني ؟

الأعضاء جميعاً وفي صوت واحد : نعم .. نعم .. نوافق على جميـع ما قيل من اخواننا النواب في هذه الجلسة .

رياض باشا : إذن أنا منسحب ، أنتم عصاة .. أنتم ثوار .

عبد السلام المويلحي : يا مصطفى باشا وهبي ، بصفتك سكرتير عام المجلس ، لا تحذف حرفاً واحداً مما قيل في كتابة المحضر حتى إذا نقلته جرائد اليوم علمت الأمة والناس جميعاً من هم الهمج النظار أم النواب ؟

ثم طلب عبد السلام المويلحي إلى هيئة المجلس قراراً باستمرار الجلسة منعقدة ليلاً ونهاراً ، فوافق الأعضاء بالاجماع ، واستمر وجود الأعضاء بالمجلس وقاعاتـه بلا انقطاع ، واتفقوا على ان يبقى ثلث الأعضاء في المجلس ليلاً بالتناوب ، ويحضر

---

١ – يقصد الكتيبة التي انشأها عباس الأول باسم « المفروزة » وكان رياض برتبة ملازم اول في موسيقاها .

بالنهار سائر الأعضاء ، وتستمر الجلسة منعقدة ، وكذلك اتفقوا على إحضار طعام العشاء ليلا لمن يكون عليهم الدور من زملائهم في المبيت .

ولم يجد رياض باشا مناصاً إزاء إصرار النواب على عدم مبارحـــة دار المجلس إلا ان يعرض الأمر على الخديوي ، وان يضع تحت نظره رسالة بعث بها النواب إليه يطالبون فيها بإطلاق حرية القول والخطابـــة وفرض الضرائب على الأجانب اسوة بالمصريين،والاحتجاج على مسلك الوزارة في امتهانها حقوق النواب واستخفافها بكرامتهم ، ثم ذكروا في الرسالة بأن المشروع المالي الذي أعدته الوزارة يعدّ بمثابة إعلان افلاس الحكومة [1] .

وكان الموقف الذي وقفه المجلس معبراً عن أماني الأمة المصرية ، مثيراً لدفين آلامها ، فقد بلغ البؤس والظلم اللذان تعانيهما حدهما الأقصى ، وأرهقت الضرائب جماهير الفلاحين حتى كادت تعم المجاعة في الأرياف . يقول مستر بلنت في كتابه « التاريخ السري » : « ... وكان من النادر ان يرى الانسان شخصاً في الحقول وعلى رأسه عمامة وعلى ظهره شيء أكثر من قميص ، حتى في ضواحي القاهرة. وكان مشايخ القرى الذين يملكون عباءة قليلين جداً . وغصت مدن الأرياف في أيام الأسواق ، بالنساء اللاتي يأتين لبيع ملابسهن وحليهن الفضية للمرابين الأروام ، لأن جامعي الضرائب كانوا ينتظرون في قراهم والسوط مشهر في أيديهم » !

وقد أثرت في السيد جمال الدين هذه الحالة المؤلمة التي وصلت اليها جماهير الشعب الكادح ، من جراء مظالم الأمراء وإسرافهم وتورطهم في الديون وفـــاء لشهواتهم وملاذهم ، فكان يكتب في الصحف بأسلوب من نار ، مهاجماً التدخل الأجنبي والحكم المستبد ، تارة باسمه الصريح وتارة بتوقيـع « مظهر بن وضاح » ، كما كان يخطب في الناس خطباً مثيرة ، ومما كان يقوله : « أنت أيها الفلاح المسكين تشق قلب الأرض لتستنبت ما تسد به الرمق وتقوم بأود العيال . فلماذا لا تشق قلب ظالمك ؟ لماذا لا تشق قلب الذين يأكلون ثمرة أتعابك ؟ »

---

١ ـ كفاح الشعب لمحمد امين حسونة ج ١ ص ٢٣٩



الخديوي توفيق في ليلة زفافه

ولم تقتصر هذه الحالة على الفلاحين بل عمت أكثر الطبقات ، فانتشر السخط والتمرد بين جميع أبناء الأمة ، وامتد منها إلى الجيش نفسه . وكان السيد جمال الدين وأصحابه وتلاميذه من العلماء قد أفتوا بأن استبداد أمراء المسلمين مخالف لتعاليم الاسلام الذي هو في حقيقته حكم شوري لا تعتمد سلطة الحاكم فيه إلا على بيعة الناس له وعلى حسن قيامه بالعدل . ومال إلى هذا الرأي علماء الأزهر أنفسهم فطعنوا في اسماعيل وقالوا انه « معتد على القانون وظالم سياسي » وتباحثوا في عزله أو التخلص منه . ويروي المستر بلنت ان ثمة عصبة كانت تأتمر على حياة الخديوي ، وان السيد جمال كان موافقاً على ذلك ، وقد اقترح على محمد عبده ان يقتل اسماعيل ، ويؤكد المستر بلنت ان محمد عبده قد روى ذلك بنفسه في منزله بعين شمس في ١٨ آذار سنة ١٩٠٣ (١٣٢١ ﻫ) قائلاً : « أما ما قاله عرابي بصدد خلع اسماعيل وانه اقترح ذلك فأقول انه من المؤكد اننا كنا نتكلم سراً في هذا الشأن ، وكان الشيخ جمال الدين موافقاً على الخلع ، واقترح عليّ أنا ان أقتل اسماعيل وكان يمر في مركبته كل يوم على جسر قصر النيل ولكن كل هذا كان كلاماً نتهامسه فيما بيننا ، وكنت أنا موافقاً الموافقة كلها على قتل اسماعيل ، ولو اننا عرفنا عرابي في ذلك الوقت ، فلعله كان في وسعنا تنظيم الحركة معه ، لأن قتل اسماعيل في ذلك الوقت كان يُعد أحسن ما يمكن عمله وكان يمنع تدخل أوربة [1] . » اما كرومر فيروي ان محمد عبده قال ان الكلام قد دار في خطة معينة لاغتيال اسماعيل ولم تنفذ لعدم وجود الشخص الذي يتكفل بذلك [2].

ولكن انقلاباً خطيراً حدث حينذاك ، فان اسماعيل وجد نفسه بين خطرين : مجابهة الشعب أو مجابهة الأجانب ، فآثر مقاومة الخطر الثاني . وكانت أنظار الشعب متطلعة إلى هدف رئيسي هو الحياة الدستورية الصحيحة . وقد عقد جمع كبير من قادة الرأي وذوي المكانة اجتماعاً في منزل السيد علي البكري على هيئة جمعية وطنية ، ووضعوا عريضة يطلبون فيها ان تكون الوزارة وطنية ومسؤولة

١ - التاريخ السري ص ٣٥٤

٢ - مصر الحديثة ج ٢ ص ١٨١

أمام مجلس شورى النواب . فشجع اسماعيل هذا المطلب ، ووسّع لجمال الــدين وتلاميذه مجال الحرية في انتقاد التدخل الأجنبي ومهاجمته ، واستطاع بميل الشعب إليه ان يؤلف وزارة وطنية برئاسة شريف باشا استرد بها نفوذه وسلطانه . وقد اعترفت هذه الوزارة بمجلس شورى النواب ووافقت على استمرار انعقاده، واعتبار هذا المجلس بمثابة جمعية تأسيسية لوضع دستور للبلاد .

وقد هال ممثلي الدول الأجنبية ذلك التطور السريع الذي صارت إليه البلاد ، وانتشار الروح الدستورية فيها . فوجهوا إلى اسماعيل إنذاراً يطالبونه فيه بالتنازل عن العرش . وفيما الخديوي متردد بين الاذعان لهذا الطلب أو رفضه ، أراد الباب العالي ان يظهر بمظهر السلطان الحقيقي في مصر ، فعزل اسماعيل في ٢٥ حزيران (يونيه) سنة ١٨٧٩ (١٢٩٦ هـ) وولى ابنه توفيق باشا مكانه .

وكان توفيق باشا من أصدقاء جمال الدين والمتأثرين بآرائه ، ولا يفتأ يقول له أيام ولايته للعهد : « انك موضع أملي في مصر أيها السيد » . فكان السيد يعلق عليه آمالاً كبيرة لما أظهره من ميل إلى الحكم النيابي وإصلاح البلاد ، ولكنه ما كاد يرتقي العرش حتى وجد نفسه بين قوتين متعارضتين : قوة الرأي العام وهي تريد دستوراً وبرلماناً ، وقوة القناصل وهم يريدون الاحتفاظ بسلطات الخديوي الواسعة له لاستخدامها في تحقيق أغراضهم ، فآثر الوقوف إلى جانب القناصل بدلاً من ان يقف إلى جانب الشعب ، إذ خشي ان ينكره الشعب عند الخطر كما أنكر أباه حين خلع عن العرش ونفي من البلاد ، ناسياً ان أباه لم يلجأ إلى الشعب إلا في محنته وإشراف دولته على الانهيار .

ومن عجب ان أحرار المصريين قد ألفوا في عهد اسماعيل وفداً على رأسه السيد جمال الدين زار ممثل فرنسة في مصر ، وقال له ان في القطر المصري حزباً وطنياً ينشد الاصلاح ويسعى إليه ، وان أعضاء هذا الحزب مقتنعون بأن الاصلاح الذي يريدونه لا يتم إلا على يد ولي العهد توفيق باشا ولهذا فهم يطلبون تنازل اسماعيل لابنه توفيق[1] . فقد خيل لأعضاء الوفد ان ممثلي الدول الأجنبية سيؤيدونهم في

---

١ - مذكرات الامام محمد عبده ، كتاب الهلال ، ص ٦٣

رغبتهم بإطلاق الحرية للمصريين ، وإنشاء الحكم الدستوري الذي يطمحون إليه ، وفاتهم ان الأجانب لم يجنوا في عهد الاستبداد إلا الخير ، فهم لا يريدون ان تنجو مصر من براثنه ، إذ لو صلح شأن المصريين ، وكان لهم رأي في إدارة بلادهم ، لوضعوا حداً للضرائب التي يرهق بها الفلاح لوفاء الديون الأجنبية وفوائد هذه الديون الباهظة ، ولوقفوا في وجه التدخل الأجنبي المتعاظم في أمور البلاد .

وفي الواقع انه ما كاد توفيق باشا يتولى زمام الحكم ، حتى هرع قنصل فرنسة ، وقد عرف ميله إلى تحقيق مطالب الأمة، إلى السعي في إقامة الموانع التي تحول دون ذلك ، ودعا قنصل انكلترة للمساهمة معه في إقناع الخديوي الجديد بضرر الأوضاع الدستورية في ذلك الوقت الذي يسوده الاضطراب المالي ، وبأن اشتراك النواب في درس موازنات الدولة ونحوها من القضايا المهمة ، أمور تعوق المشاكل الموقوفة لأنها تؤدي إلى اختلاف الآراء وإفناء الوقت في المداولات والمناقشات العقيمة !..

وقد حاول الخديوي الجديد ان يستر تراجعه عن أفكاره القديمة بستار مبدئي ، فقال لجمال الدين :

– انني أحب كل الخير للمصريين ، ويسرني ان أرى بلادي وأبناءها في أعلى درجات الرقي والفلاح ، ولكني أرى مع الأسف ان أكثر الشعب خامل جاهل لا يصلح ان يلقى عليه ما تلقونه من الدروس والأقوال المهيجة لئلا يلقي نفسه والبلاد في تهلكة .

فأجاب الحكيم : ليسمح لي سمو أمير البلاد ان أقول بحرية ، ان الشعب المصري كسائر الشعوب ، لا يخلو من وجود الخامل والجاهل بين أفراده ، ولكنه غير محروم من وجود العالم والعاقل . فبالنظر الذي تنظرون به إلى الشعب المصري وأفراده ينظر هو إلى سموكم . وان قبلتم نصح هذا المخلص ، وأسرعتم في إشراك الأمة في حكم البلاد عن طريق الشورى ، وذلك بأن تأمروا بإجراء انتخاب نواب عن الأمة يسنون القوانين وينفذونها باسمكم وبإرادتكم ، يكون ذلك أثبت لعرشكم وأدوم لسلطانكم .

فأسرّ الخديوي في نفسه البطش بجمال الدين ، وبدلاً من ان يعمل بنصحه

عارض وزارة شريف باشا في الاصلاح الإداري الذي كانت قد اعتزمت القيام به ، واضطرب الجو السياسي ، وهاج الرأي العام ، وكان جمال الدين من أعظم قائديه ومهيجيه . فلجأ الخديوي توفيق باشا بوحي القناصل ، وبالتعاون مع رياض باشا الذي تولى رئاسة الوزارة الجديدة ، إلى اعتقـــال كثير من المطالبين بالاصلاح الدستوري وقمع الحركات الثورية بالارهاب . ويقول براون في كتابه « الثورة الفارسية » : « ثم حملت الحكومة البريطانية الخديوي الشاب على نفي جمال الدين من مصر » فقبض عليه في ٢٤ آب (اغسطس) سنة ١٨٧٩ (٦ رمضان سنــة ١٢٩٦ م) بينما كان عائداً إلى داره من مقهى متاتيا عند منتصف الليل مع خادمه أبو تراب، وساقه الجند إلى « الحجز » فبات ليلة على البلاط مع المجرمين والمعربدين، ثم حُمل مع خادمه في الصباح في عربة مغلقة إلى السويس دون ان يُمكَّن من أخذ ثيابه ، وهناك أنزل قسراً في باخرة مسافرة إلى الهند .

وأذاعت الوزارة بلاغاً رسمياً من إدارة المطبوعات بتاريخ ٢٦ آب (أغسطس) سنة ١٨٧٩ سوّغت فيه نفي السيد بعبارات، ملؤها الكذب والافتراء، ووصفته بالزندقة وسمته « ضلال الدين » ، وألزمت الصحف المصرية بنشر الأمر الصادر بنفيه مع التشنيع به والزعم بأنه كان يرئس جمعية سرية « مجتمعة على فساد الدين والدنيا » فنشرت الصحف ذلك وأبت إحداها نشره لأن محررها كان من تلامذة جمال الدين فعطلت ، وهذا نص البلاغ كما جاء في جريـدة « الأهرام » في ٢٨ آب (اغسطس) سنة ١٨٧٩ ، قالت الجريدة :

ورد إلينا الإخطار الرسمي الآتي من إدارة المطبوعات نشرناه بأمرها وهو بحرفيته :

« قد استشعرت الحكومة بأن هناك جمعية سرية من الشبان ذوي البطش مجتمعة على فساد الدين والدنيا ، رئيسها شخص يدعى بجمال الدين الأفغاني مطرود من بلاده ثم من الاستانة العلية ، لما ارتكبه من أمثال هـــذه المفسدة في ديارنا المصرية .. فالتزمت هذه الحكومة الحازمة أن تتخذ الطرق اللازمة في قطع عرق هذا الفساد ، فأبعدت ذلك الشخص المفسد من الديار المصرية بأمر ديوان الداخلية

ووجهته من الطريق السويسي إلى الأقطار الحجازية ، لإزالة هذا الفساد من هـذه البلاد ، عبرة للمعتبرين ، ولمن يتجاسر على مثل هذا من المفسدين ! »

وهكذا كانت إقامة جمال الدين في مصر عملاً وجهاداً ومدرسة له وللمصريين جميعاً . ما كاد يدخلها حتى بدأ يتحدث عن حقوق الأمـــة وواجبات الحكومة ، ويقول لتلاميذه ان القوة النيابية لا يمكن ان تحوز المعنى الحقيقي إلا إذا كانت منبثقة عن إرادة الأمة ، وان أي مجلس نيابي يأمر بتشكيله ملك أو أمير أو قوة أجنبية محركة له ، لا تكون قوته الموهومة إلا وقفاً على إرادة من أحدثه « فعزة الملك تنغصها نهضة الشعب المملوك ، خصوصاً إذا هو صادم إرادة مالكه أو أميره ، والتاريخ لم ينقل لنا ان ملكاً أو أميراً أو دخيلاً بقوته على شعب ، يرضى عن طيب خاطر ان يبقى مالكاً اسماً وأمته هي المالكة فعلاً لإدارة شؤونها وزمام أمورها على مطلق المعنى ، وأعظم أماني الشعوب المملوكة التخلص من ربقة الأجنبي وتحكمه . »

نفي جمال الدين من مصر ، ولكنه ترك فيها تعاليمه وتلاميذه ، بل ترك فيها ثورة تجيش في النفوس كما يجيش المرجل . فلما نفي محمد عبده إلى قريته ، واشتد البؤس والارهاب ، نهض العلماء لإثارة رجـــال الأزهر ، واستصدروا من شيخ الاسلام فتوى بعدم صلاحية الخديوي للحكم ووجوب خلعه ورفض طلبات أوربة ، ونهض المويلحي والعطار وراضي يستثيرون النواب للجهاد في سبيل الدستور. ونهض عبد الله النديم يثير الشعب بخطبه في الجماهير ودعوته إياها إلى محاربة التدخل الأجنبي والمطالبة بحرية الأمة [1] . ونهض أخيراً عرابي واخوانه من رجال الجيش فتمردوا

١ - يقول الدكتور علي الحديدي ان جمال الدين كان ينبه في كل تلميذ من تلاميذه ملكات ذهنه وضميره ، وقد لمحت بصيرته في تلميذه النديم الخطيب الموهوب فأخذ يدربه ويأخذه بالمران. واعطاه من الوقت والاهتمام قدراً كبيراً ، وكأنه رأى بظهر الغيب انه سيكون أول خطيب مصري يقف بين الجماهير ليقرع آذانهم بنداء الحرية ، فتهيج عواطفهم وتثور مشاعرهم ويهبون وراء النداء يلبون داعي الوطنية ، ولازم التلميذ استاذه بانتظام اربع سنوات ، ما ان يفرغ من عمله حتى يهرع اليه ويلازمه كظله ، فتختزن روحه تعاليمه ، وتعي ذاكرته دروسه ، ويتقبل توجيهاته في الخطابة والكتابة (عبد الله النديم خطيب الوطنية ص ٤٤) .



عبد الله النديم

على الظلم . ثم نهضت الأمة كلها فاشتركت في ثورة رائعة على الاستبداد الداخلي وعلى التدخل الخارجي ، ثورة يجمع المؤرخون على ان السيد جمال الدين كان المنبّه الأول إليها وكان صوته أول الأصوات التي أرسلت صيحة الحرية التي ترددت فيها .

وقد بدأت هذه الثورة بحركة احتجاج داخـــل الجيش بغية إصلاحه وإنصاف الضباط المصريين فيه من اضطهاد السيطرة التركية الجركسية ، ثم تطورت إلى ان أصبحت ثورة عامة انعقدت عليها آمال شعب بأسره ، وأصبحت اللسان المعبر عن كل ما يشكو منه الشعب من تدخل الأجانب ، ومن اضطراب الأوضاع المالية ، ومن فقدان الحرية وضياع الكرامة ، وتبلورت هذه الآلام والآمال سريعـــاً فأصبحت أهدافاً واضحة تعمل الثورة على تحقيقهـا ، وفي مقدمتها إصلاح الجيش واستعادة الحياة الدستورية [1] .

وكان جمال الدين يقيم في مدينة حيـدر آباد حيث حددت إقامته ، فما كادت أنباء الثورة العرابية تتناهى إلى الهند حتى قامت فيها بوادر ثورة مماثلة لثورة مصر . فنقل الحكيم من حيدر آباد إلى كلكتا ، وألزم البقاء فيها ، وشددت عليه الرقابة ، فبقي سبعة أشهر في معزل عن حياة العالم . ثم أفرج الانكليز عنه بعد ان احتلوا مصر على اثر إخفاق الثورة العرابية ، لما اكتنفها من الدسائس الخارجية ، وتهالك الحكام على الدول الأجنبية ، وعبث الدولة العثمانية .

وتركت له السلطة البريطانية الحرية في اختيار الجهة التي يريدها على ألا يتجـه إلى أي بلد اسلامي ، لئلا يفسد عليها خططها في الشرق الأوسط ، فسافر حكيم الشرق إلى الغرب .

وقد بلغ جمال الدين وهو على أهبة الرحيل من الهند ان أناساً تناولوه بالذم في حضرة الخديوي ، وكان عبد الله باشا فكري من عداد الحاضرين فلم يدافع عنـــه فأرسل إليه الخطاب التالي :

مولاي إنْ نسبتُك إلى هوادة في الحق ، وأنت تقدست جبلتك فطرت عليـه

---

١ ـ قصة الكفاح بين العرب والاستعمار ص ١٤٩

مولاي إن نسبتك إلى مرادة في الحق وانت تقدست جبلتك وفطرت عليه وتخوض الغمرات اليه فقد بعث يقيني بانك
— وان توهمت فيك حيداً ما عن الرشد وجوراً عن القصد وانا موقن انك لا زلت على السداد غير مفرط ولا مفرط فقد
استبلت علي بالجهل — ولو قلت انك من الذين تأخذهم في الحق لومة لائم وتتأخر عن الصدق خشية ظالم وانت
تصدع به غير وان ولا متضجر ولو البت الباطل الكوارث المردية واغرى عليك الخطوب الموبقة لكذبت نفسي وكذبني من يسمع مقالتي
لان العالم والجاهل والعاقل والغبي كلهم قد اجمعوا على طهارة سجيتك ونقاوة سريرتك — واتفقوا على ان الفضائل حيث
انت — والحق معك اينما كنت — لا تفارق المكارم ولو اضطررت — وانت مجبول على الخير لا يحوم حولك شر ابدا
ولا تصدر عنك نقيصة قصدا — ولا تهن في قضاء حق ولا تنثني عن شهادة صدق —— ومع هذا وهذا وذاك انكسر
عليك بواقع امري وعرفانك بسريرتي وسيرتي اراك ما ذدت عن حق كان واجبا عليك حمايته ولا صنت عهدا كانت
عليك رعايته وكتمت الشهادة وانت تعلم اني ما اضمرت للخديو ولا للمصريين شرا ولا اسررت لاحد في خفيات ضميري
ضرا — وتركتني بين انياب النذل اللئيم عثمان باشا الضابط حتى نهشني نهش السبع الهرم العظام ضغينة منه
على السيد ابراهيم اللقاني واخوانه من اعدائه احزاب عبد الحليم باشا — ما هكذا الظن بك ولا المعروف من رشدك وسدادك
— ولا يطاوعني لساني وان كان قلبي مترعبا بعظم منزلتك في الفضائل معترفا بشرف مقامك في الكمالات ان اقول
عفا الله عما سلف الا ان تصدع بالحق وتقيم الصدق وتظهر الشهادة ازاحة للشبهة وادحاضا للباطل واخزاء
للشر واهله — والظن بك قد فعلت اداء لفريضة الحق والعدل —— ثم اني يا مولاي اذهب الآن الى لندن ومنها الى
باريس مسلما عليكم وداعيا لكم —— وارسلت (العارف) الى صاحب الدولة رياض باشا لقبض اموالي
وكتبي التي بقيت في مصر وارسلت الى جنابه مكتوبا اظهرت فيه تفصيل ما جرى علي في مصر وما ابتليت به في البلاد الهندية
— وارجو من عميم فضلك ووسيع كرمك ان تنظر الى (العارف) بنظر العناية وان تساعده في الامر الذي
ارسل لاجله والسلام عليكم وعلى اخي الفاضل البار امين بيك

صفر سنة ١٣٠٠

جمال الدين الافغاني

رسالة جمال الدين إلى عبد الله فكري باشا وهي نموذج رائع لخطه وتوقيعه وإنشائه

وتخوض الغمرات إليه ، فقد بعت يقيني بالشك — وإن توهمت فيك حيداناً من الرشد وجوراً عن القصد،وأنا موقن أنك لا زلت على السداد غير مفرط ولامفرّط فقد استبدلت علمي بالجهل . ولو قلت إنك من الذين تأخذهم في الحق لومة لائم وتسدهم عن الصدق خشية ظالم وأنت تصدع بـه غير وان ولا ضجر ، ولو ألب الباطل الكوارث المرديـة وأضرى عليك الخطوب الموبقة ، لكذبت نفسي ، وكذبني من يسمع مقالتي ؛ لأن العالم والجاهل والفطن والغبي كلهم قد أجمعوا على طهارة سجيتك ونقاوة سريرتك — واتفقوا على أن الفضائل حيث أنت — والحق معك أينما كنت — لا تفارق المكارم ولو اضطررت — وأنت مجبول على الخـير لا يحوم حولك شر أبداً ولا تصدر عنك نقيصة قصداً — ولا تهن في قضاء حـق ولا تني عن شهادة صدق — ومع هذا وهذا وذاك إنـك مع علمك بواقع أمري وعرفانك بسريرتي وسري أراك ما ذدت عن حق كان واجبـاً عليك حمايته ، ولا صنت عهداً كانت عليك رعايته ، وكتمت الشهادة وأنت تعلم أني ما أضمرت للخديو (ي) ولا للمصريين شراً ، ولا أسررت لأحـد في خفيات ضميري ضراً — وتركتني وأنياب النذل اللئيم عثمان باشا الضابط حتى نهشني نهش السبع الهرم ضغينة منه على السيد ابراهيم اللقاني ، وإغراء من أعدائي أحزاب عبد الحليم باشا — ومـا هكذا الظن بك ، ولا المعروف من رشدك وسدادك — ولا يطاوعني لساني ، وإن كان قلبي مذعناً بعظم منزلتك في الفضائل مقراً بشرف مقامك في الكمالات ، أن أقول عفا الله عما سلف إلا أن تصدع بالحق ، وتقيم الصدق ، وتظهر الشهـادة ، إزاحة للشبهة وإدحاضاً للباطل ، وإخزاء للشر وأهـله — وأظنك قد فعلت أداء لفريضة الحق والعدل — ثم إني يا مولاي أذهب الآن إلى لندن ومنها إلى باريس مسلماً عليكم وداعياً لكم — وأرسلت « العارف » [1] إلى صاحب الدولة رياض باشا لقبض أموالي وكتبي التي بقيت في مصر ، وأرسلت إلى جنابه مكتوباً أظهرت فيه

---

١ ـ العارف ابو تراب خادم جمال الدين الذي جاء معه من الأفغان ولازمه دائماً ، وقد أطلق عليه لقب « الفيلسوف الأمي » .

تفصيل ما جرى علي في مصر ، وما ابتليت به في البلاد الهندية ـ وأرجو من عميم فضلك وواسع كرمك أن تنظر إلى « العارف » بنظر العناية ، وأن تساعده في الأمر الذي أرسل لأجله . والسلام عليكم وعلى أخي الفاضل البار أمين بك .

٨ الصفر سنة ١٣٠٠ جمال الدين الأفغاني

إلا ان جمال الدين ما لبث ان تبين له ان عبد الله فكري قد دافع عنه في ذلك المقام أبلغ دفاع .

شرقي في بلاد الغرب

ارتحل جمال الدين الأفغاني من الهند إلى انكلترة وأقام في عاصمتها أسابيع . ويذهب الكاتب الأميركي س. د. ولسن في كتابه « الحركات الحديثة » إلى انه سافر إلى أميركا قبل سفره إلى انكلترة، وانه كان يريد التجنس بالجنسية الأميركية إلا انه لم يفعل ذلك . وأشار إلى مثل هذا المستر ويلفريد بلنت . ولكن أكثر مترجمي السيد جمال الدين لا يشيرون إليه ، ومن أشار إليه منهم فقد نفاه أو استبعد وقوعه .

وقد أتيح له ان يتعرف في لنـــدن إلى جماعة من المفكرين الانكليز ، منهم الفيلسوف هربرت سبنسر، ويروى انه تناقش معه مرة حول المسألة الشرقية ومظالم المستعمرين ، فسأله الفيلسوف ان يعرّف العدل ، فأجابه الحكيم معرّضاً : يوجد العدل عندما تتعادل القوى .

على ان إقامته في لندن لم تطل ، فقد ضاق بهذه المدينة الكبرى أو ضاقت هي به ، فغادرها إلى باريس ملجأ الأحرار في ذلك العصر . وكان قد تعلّم اللغتين الانكليزية والفرنسية إلى جانب الفارسية والعربية والتركية التي يتقنها ، واطلع بوساطة هذه اللغات اطلاعاً واسعاً ، واجتمع له منه قسط وافر من الثقافة . فلم تنقض فترة وجيزة من الزمن ، حتى احتل في العاصمة الفرنسية منزلة سامية، وكتب

في صحفها مقالات ملتهبة عن المسألة الشرقية هزت الحكومات الاستعمارية ولفتت إليه أنظار الكتاب والمفكرين . وجرت بينه وبين ارنست رينان مناظرة في جريدة « الديبا » عن الاسلام والعلم ، إثر محاضرة ألقاها رينان في السربون حول هذا الموضوع قال فيها ان الديانة الاسلامية كانت تناهض العلم ، فرد عليه جمال الدين رد العالم الرصين ، فأجاب رينان على هذا الرد بمقالة رجع فيها عن بعض ما قاله ، فسلّم بأن الاسلام في النصف الأول من وجوده لم يحل دون ازدهار الحركة العلمية في الأراضي الاسلامية ، ولكنه ذهب إلى القول بأنه خنق الحركة العلمية في النصف الثاني من وجوده .. ثم قال :

« ولقد خالني الشيخ غير منصف في اني لم أوف الكلام حقه ، ولم أقل في المسيحية ما قلته في الاسلام ، وان الاضطهاد بين المسيحيين لا يقل عما بين المسلمين ، وهذا حق ، فغاليلو لم يلق من الكاثوليك خيراً مما لقي ابن رشد من المسلمين ، وإذا كنت لم أطل القول في هذه الحقيقة فلأن آرائي في هذا الشأن معروفة لا حاجة بي إلى تكريرها على مسمع محفل علم بكل أعمالي وآرائي .. ولست أريد من المسيحي ترك عقيدته المسيحية ، ولا من المسلم ترك الاسلام ، ولكني أريد من المسيحيين والمسلمين المستنيرين ان يهتموا بالعلم اهتماماً لا تعوقه العقيدة ، وقد تم هذا في نصف البلدان المسيحية ونرجو ان يتم مثله في الاسلام ... »

وجرى بين الحكيم وعدد من الكتاب الفرنسيين في طليعتهم رينان وتيوفيل غوتييه ، نقاش آخر حول العنصرية قال هؤلاء فيه ان العالم شطران سامي وآري لكل منها خصائصه ومزاياه ، وذهبوا إلى ان العقل السامي يجمع بين الأشياء متناسبة وغير متناسبة دون ارتباط بينها ، أما العقل الآري فهو يؤلف بين الأشياء بارتباط وثيق ولا ينتقل من أمر إلا بعد تدرج . فشجب الحكيم هذه الآراء وأثبت ان التفريق بين العنصرين السامي والآري ، إنما هو، كالتفريق بين الشعوب، يرجع في الحقيقة إلى العصبية أكثر من رجوعه إلى العلم .

وكان لجمال الدين مع بعض هؤلاء الكتاب صلات شخصية، وقد أعجب به كل من تعرف به وصادقه منهم . ومما قاله رينان فيه : « تعرفت بالشيخ جمال الدين

فوقع في نفسي منه ما لم يقع لي إلا من القليلين ، وأثر فيّ تأثيراً قوياً . وقد خيل إليّ من حرية فكره ونبالة شيمته وصراحته وأنا أتحدث إليه ، اني أرى أحد معارفي القدماء وجهاً لوجه ، واني أشهد ابن سينا أو ابن رشد أو واحداً من أولئك الملحدين العظام الذين ظلوا خمسة قرون يعملون على تحرير الانسانية من الاسار . »

ويبدو من هذا القول ان رينان يصفه بالالحاد ، وقد شايعه في الرأي سليم عنحوري في ترجمته له بديوانه « سحر هاروت » فقال : ان السيد « برز في علم الأديان حتى أفضى به إلى الالحاد والقول بقدم العالم .. وان القول بوجود محرك أول حكيم ، وهم نشأ عن ترقي الانسان في تعظيم المعبود على حساب ترقيه في المعقولات » ولكن خالفها في الرأي كثير من تلامذة الحكيم وفي طليعتهم الشيخ محمد عبده صديقه الحميم .

وبعد عام من إقامته في أوربة ، كتب إلى محمد عبده ان يوافيه إلى باريس ، وكان الإمام مقيماً في بيروت بعد نفيه من مصر إثر إخفاق الثورة العرابية واحتلال الانكليز لمصر ، فلم يلبث ان شخص إلى العاصمة الفرنسية حيث أسس مع أستاذه وصديقه جمعية « العروة الوثقى » وأصدرا بهذا الاسم مجلة كان لها دوي بعيد . وكان هدف الجمعية والمجلة إيقاظ الشرق وحثه على النهوض ، وتحريره من الاستعمار وتأسيس الحكومات الدستورية فيه ، وتحقيق الاصلاحات التي تقتضيها حالة العصر في بلاد الاسلام .

وكانت الجمعية سرية ذات منهج سياسي ونظام داخلي شديد ، وعلى كل من انتظم فيها ان يقسم يميناً مغلظة على الاخلاص لمبادئها والتضحية في سبيل أهدافها بكل عزيز . أما المجلة فكانت أهدافها التحريرية تدور جميعها حول هدف عظيم أوحد هو إنقاذ الأقطار الشرقية من الاستعباد والاستعمار ، لأن كل قطر منها ان لم يكن قد سقط تحت حكم أهل المطامع ، فالشراك له منصوبة والسقوط قريب ، إلا إذا نشطت العقول ، وعمل أولو العزائم ، ولمت الأمم الشرقية شعثها ، وطلبت حفظ ملكها بأسبابها ، وحريتها بمؤهلاتها .

ومن أهم ما جرى للسيد جمال الدين وزميله الشيخ محمد عبده وهما في باريس ثلاثة أمور :

أولها ان السيد حين يئس من « إقناع » الحكومة الانكليزية بالجلاء عن السودان ، بتعظيم شأن الثورة المهدية في نظرها والتهويل في خطرها ، أرسل محمد عبده إلى مصر متخفياً ، وكان منفياً منها كما علمنا ، كي يسافر إلى السودان وينظم حركتها الثورية ، على ان يتبعه السيد جمال الدين إذا نجح في مهمته ، توسلاً إلى إنقاذ السودان من النير البريطاني ، وتأسيس دولة قومية يعتز بها الشرق وتنقذ شعوبه من الاستعباد [١] . ولا ندري ماذا حدث في هذه الرحلة الخطيرة ، وهل قام بها الإمام حقاً ، إذ ليس في كل ما كتبه المصلحان وأصدقاؤهما عنها إلا إشارات سريعة غامضة .

وثاني هذه الأمور ان الشيخ محمد عبده سافر إلى لندن إجابة لدعوة بعض رجال السياسة الانكليز ، وجرت بينه وبينهم محادثات طويلة في الشؤون المصرية ، أهمها محادثة مع اللورد هرتنكتون وزير الحربية البريطانية الذي سأل الإمام : « ألا يرضى المصريون ان يكونوا في أمن وراحة تحت سلطة الحكومة الانكليزية؟ وهلا يرون حكومتنا خيراً لهم من حكومة الأتراك وفلان باشا وفلان باشا [٢] ؟ »

فأجابه : « كلا ان المصريين قوم عرب وكلهم مسلمون إلا قليلاً ، وفيهم من محبي أوطانهم مثل ما في الشعب الانكليزي ، فلا يخطر ببال أحد منهم الميل إلى الخضوع لسلطة من يخالفه في الدين والجنس ، ولا يصح لحضرة اللورد وهو على علم بطبائع الأمم ان يتصور هذا الميل في المصريين . »

فقال الوزير : « هل تنكر ان الجهالة عامة في أقطار مصر ، وان الكافة لا تفرق بين الحاكم الأجنبي والحاكم الوطني ، وان ما ذكرته من النفرة من سلطة الأجانب إنما يكون في الأمم المهذبة !؟ »

---

١ - تاريخ الاستاذ الامام ج ١ ص ٣٨٠

٢ - يريد الخديوي اسماعيل والخديوي توفيق .

فأخذت الشيخ حدة وقال : « ان النفرة من ولاية الأجنبي ونبذ الطبع لسلطته مما أودع في فطرة البشر ، وليس بحتاج إلى الدرس والمطالعة ، وهو شعور انساني ظهرت قوته في أشد الأمم توحشاً كالزولوس الذين لم تنسوا ما كابدتموه منهم في الدفاع عن أوطانهم .

« ان المسلمين ، مهما كانوا وعلى أي درجة وجدوا ، لا يصلون من الجهل إلى الدرجة التي يتصورها الوزير ، فان الأميين منهم ومن لا يقرأون ويكتبون لا يفوتهم العلم بضروريات الدين ، ومن أجلاها وأظهرها عندهم أن لا يدينوا لمخالفيهم فيه . وان لهم في الخطب الجمعية ومواعظ الوعاظ في مساجدهم ما يقوم مقام العلوم الابتدائية ، وان جميع ما يتلقونه من النصائح الدينية يحذرهم من الخضوع لمن لا يوافقهم ، ويحدث فيهم من الاحساسات الشريفة الإنسانية ما لا ينحطون معه عن سائر الأمم ، خصوصاً المصريين الذين ينطقون باللسان العربي ويفهمون دقائق ما أودع في ذلك اللسان ، وهو لسان دينهم .

« ان أرض مصر من زمن محمد علي قد انتشرت فيها العلوم والآداب الجديدة على نحو ما هو موجود في بلاد أوربا ، وأخذ كل مصري نصيباً منها على قدره ، ولا تخلو قرية من القرى الصغيرة من أن يكون فيها قارئون وكاتبون . والأخبار العمومية توصلها اليهم الجرائد العربية ، ومن لم يقرأ يستنبىء الأخبار من القارئين ، فبهذا أضافوا إلى الشعور الطبيعي والتقليد الديني ، محبة وطنية منشؤها التهذيب العمومي ، قوي بها الميلان الأولان ولا أظنهم يخالفون في ذلك سائر الأمم . »

وقد علقت جريدة « العروة الوثقى » على هذه المقابلة وأقوال اللورد هرتنكتون فيها ، بعددها الرابع عشر فقالت :

« أين العلماء الأذكياء ، أين الجهلة الأغبياء ، أين الأباة الأعلياء ، أين السفلة الأدنياء ، ليرى كل واحد منهم منزلة الشرقيين عند رجال الحكومة الانكليزية ؟ كل ذي شكل إنساني وصورة بشرية يدرك ما وراء هذه الأسئلة وما تشف عنه هذه الظنون العجيبة .

« هذا اللورد هرتنكتون وزير الحربية الانكليزية يظن أن الجهل يبلغ من

المسلمين عموماً والمصريين خصوصاً إلى حد سلب عنهم كل إحساس إنساني . وأنهم في حضيض من الجهل لا يميزون فيه بين الغريب والقريب، ولا بين العدو والحبيب.

« هذا دليل على أن الانكليز ، إلا من أنار الله بصيرته ووفقه لفهم الصواب ، يعتقدون أن الأمم الشرقية والأمة المصرية في درجة الحيوانات السائمة ، والدواب الراعية ، لا تتألم إلا من الجوع وفواعل الطبيعة المادية ، وليس لها من الاحساس إلا نوع من الانفعالات البدنية ، ولا تعرف من شؤونها إلا ما به تقوم حياتها الحيوانية ، فتألف راكبها والعامل عليها ويستخدمها في أي عمل من الأعمال الشاقة ما دام يقدم لها طعاماً وشراباً ، وأنها تهش وتبش لرؤية من يقدم لها غداءها وعشاءها ، وان كان من أشد البلاء عليها بما يسومها من مشاق الاعمال، فاذا عجزت عن العمل ذبحها وتغذى بلحومها : ألا فاعجبوا !

« ان كانت هذه عقيدة رجال الحكومة الانكليزية في الأمم التي يتسلطون عليها فأي معاملة تكون لهم ؟ ألا يعاملونها معاملة العجماوات والحيوانات الرتّع ؟ بلى ، وهكذا يعاملون ، وهكذا تصرّفهم في البلاد الهندية يشهد بأفصح لسان على ما يعملون . فالمصريون الآن بين أمرين أفضلهما أيسرهما : إما أن يتكاتفوا ويتضافروا ويبذلوا أموالهم وأرواحهم في حفظ شرفهم الانساني ومكانتهم العربية ، وأداء حق عقيدتهم الدينية ، ويخلصوا أنفسهم من عبودية قوم لا ينظرون اليهم إلا كما ينظرون إلى البغال والحمير ، وان هموا بذلك وجدوا لهم من اخوانهم المسلمين أنصاراً ينتظرون الآن حركة منهم وهذا أشرف الأمرين . وإما أن ينسلخوا عن جميع الخصائص الانسانية ، ويخلعوا حلية الايمان ، ويتبرأ منهم شرف العرب ، وليجعلوا نير العبودية على أعناقهم ، وليقاسموا الحيوانات في حظوظها وليسعدوا لكل ذلة ، وليقبلوا كل ضيم ، وهذا أعسر الأمرين وأدناهما » .

وآخر الأمور الثلاثة التي عرضت للمصلحين الشرقيين في بلاد الغرب ، ان المستر بلانت جمع بين السيد جمال الدين واللورد سالسبوري واللورد تشرشل ، للمفاوضة في أمر ثورة المهدي في السودان التي كانت يومئذ شغل الناس الشاغل ، لكن التوفيق بين وجهات نظر متناقضة لم يكن مستطاعاً ، إذ أخذ جمال الدين يبين مواقع الخطأ

في سياسة انكلترا نحو الشرق ، ويفيض في تعداد مظالمها ، فقال له اللورد سالسبوري : « ان بريطانيا تعلم مقدرتك ، ونحن نقدر رأيك قدره ونحب أن نسير مع حكومات الاسلام بمودة وولاء، على قدر ما تسمح به الظروف والأحوال، لذلك رأينا أن نوسلك إلى السودان سلطاناً عليه ، فتستأصل جذور فتنة المهدي وتمهد السبيل لاصلاحات بريطانيا فيه الخ ... »

فقال جمال الدين : « تكليف غريب ، وسفه في السياسة ما بعده سفه ! اسمح لي يا حضرة اللورد ان أسألك : هل تملكون السودان ، حتى تريدوا ان تبعثوا إليه بسلطان ؟ »

ثم قال : « .. ان الاصلاح وما تنويه بريطانيا من عمله وطرق إدخاله وما تبحث له من الوسائل ، فعلى سبيل الاستطراد ، والتطفل ، ألفت نظرها ، ونظر كبير رجالها حضرة اللورد ، إلى ايرلندا وما تعانيه من ضروب البلاء فيما تنشده لنفسها من طلب الاستقلال ، ليتسنى لها معه الاصلاح الحقيقي لبلادهم ، فلماذا لا تجيبون سؤلهم ، وتصلحون أمرهم ، وهم أقرب إليكم من حبل الوريد ؟ »

فبهت اللورد سالسبوري بهتة رجل فوجىء بصدمة لم تكن بحسبانه ، كأنه كان ينتظر من جمال الدين سجود الشكر للهبة التي يغدقها عليه . وانفضّ المجلس على جفاء بين الرجلين عظيم ، وأشارت الصحف الانكليزية إلى هذه المقابلة وما تمّ فيها ، فأيدت صحف الأحرار منها رأي جمال الدين .

وعاد السيد إلى متابعة كفاحه في باريس ، ولكن العقبات التي كانت قد أقيمت في البلاد العربية والهندية ، لمنع دخول « العروة الوثقى » إليها ، واشتداد الخطر على كل من يقرأها هناك دعا المصلحين إلى إغلاق هذه المجلة . فسافر محمد عبده إلى بيروت ، وبقي جمال الدين في فرنسا متنقلاً بين مدنها ، كاتباً في صحفها ، داعياً المنصفين من أبنائها إلى الانتصاف للشرق ، حتى تلقى برقية من ملك الفرس ناصر الدين شاه يدعوه فيها إلى إيران ، فرحل إليها في شباط سنة ١٨٨٦ (جمادى الأولى سنة ١٣٠٣) .

العروة الوثقى

لخصت مجلة « العروة الوثقى » أهم أغراضها في أول عدد من أعدادهـــا في البنود التالية :

١ ــ بيان الواجبات على الشرقيين التي كان التفريط فيهـــا موجباً للسقوط والضعف . وتوضيح الطرق التي يجب سلوكها لتدارك مـا فات . ويستتبع ذلك بيان أصول الأسباب ومناشئ العلل التي أفسدت حـــالهم وغمت عليهم طريقهم ، وازاحة الغطاء عن الأوهام التي حلت بهم .

٢ ــ إشراب النفوس عقيدة الأمل في النجاح ، وازالة ما حل بها من اليأس .

٣ ــ دعوتهم إلى التمسك بالأصول التي عليها آباؤهم وأسلافهم ، وهي ما تمسكت به الدول الأجنبية العزيزة الجانب .

٤ ــ الدفاع عما يرمى به الشرقيون عموماً والمسلمون خصوصاً من التهم . وابطال زعم الزاعمين ان المسلمين لا يتقدمون في المدنية ما داموا متمسكين بأصول دينهم .

٥ ــ إخبار الشرقيين بما يهمهم من حوادث السياسة العامة والخاصة .

٦ ــ تقوية الصلات بين الأمم الاسلامية ، وتمكين الألفة بين أفرادها ، وتأمين المنافع المشتركة بينها . ومناصرة السياسة الخارجية التي لا تميل إلى الحيف والاجحاف بحقوق الشرقيين .

وقال جمال الدين ومحمد عبده في أحد أعداد المجلة الأولى : « لا يظن أحد من الناس ان جريدتنا هذه بتخصيصها المسلمين بالذكر أحياناً ، ومدافعتها عن حقوقهم ، تقصد الشقاق بينهم وبين من يجاورهم في أوطانهم ، ويتفق معهم في مصالح بلادهم ويشاركهم بالمنافع من أجيال طويلة ، فليس هذا من شأننا ولا مما نميل اليه ، ولا يبيحه ديننا ولا تسمح به شريعتنا . ولكن الغرض تحذير الشرقيين عموماً والمسلمين خصوصاً من تطاول الأجانب عليهم والافساد في بلادهم، وقد نخص المسلمين بالخطاب لأنهم العنصر الغالب في الأقطار التي غدر بها الأجنبيون . وأذلوا أهلها أجمعين ، واستأثروا بخيراتها ... الخ » . وقال محمد باشا المخزومي الذي صحب السيد جمال الدين في أيامه الأخيرة : « انه كان شديد البعد عن التعصب نفوراً منه ، وإن ذكر المسلمين في أكثر مقاله ، فذلك لأنهم العنصر الغالب بأكثريته في الشرق ، والملة المسلوبة ممالكها ومقاطعاتها ولهذا أكثر من إيقاظهم وتنبيههم وتقريعهم . وإلا فهو أكثر الفلاسفة توسعاً بمعنى المساواة ، وميلاً للعمل بها فعلاً بين نوع الانسان ، خصوصاً في الحقوق العمومية . »

وقد صدر العدد الأول من « العروة » في ١٣ آذار سنة ١٨٨٤ (جمادى الأولى سنة ١٣٠١) وكان مدير سياستها السيد جمال الدين الأفغاني ورئيس تحريرها محمد عبده ، ولم يتح لها أن تعيش أكثر من سبعة أشهر ، فلم يصدر منها إلا ١٨ عدداً ، لكنها استطاعت منذ نشأتها أن تحدث دوياً بعيد الصدى ، وكانت كل مقالة منها درساً رائعاً يبسط للشرقيين حقوقهم ، ويعدد المظالم المحيقة بهم ، ويفضح الدسائس والمؤامرات التي تدبر في الخفاء للقضاء على روح التحرر فيهم ويندد بحياة الذل والخمول والجشع التي يحياها كثير منهم ، ويدعوهم إلى الاتحاد والتضامن وتناسي كل اختلاف أو ضغينة فيما بينهم لصد عادية المستعمرين عنهم : « لأن الاشتغال بداخل البيت إنما يكون بعد الأمن من طروق الناهب » .

وحاولت الأوساط الاستعمارية والرجعية في العالم أن تحول دون نشر هذه الجريدة ، بل حاولت الأوساط الانكليزية الاستعمارية منعها عن الصدور منذ تسامعت بفكرة العزم على انشائها ، فلما أعياها هذا الأمر منعت دخولها إلى البلاد



شارع سيز في باريس حيث كان مكتب جريدة « العروة الوثقى »

المطبعة التي كانت تطبع فيها جريدة « العروة الوثقى » — ٦ شارع مارسيل بباريس

الهندية والمصرية ، وألزمت الدولة العثمانيـة بالحجر عليهـا . ولكن هـذه التدابير التعسفية لم تعجز الأحرار أولي العزم من نقل « العروة الوثقى » من باريس إلى كل بقعـة تقرأ العربية فيهـا ، فكان المفكرون الشرقيون يتهادونها ويجتمعون لقراءتها ، ويتناقشون في ما تنشره من روائع الحكم ، ثم ينشرون بدورهم ما تلقنوه من تعاليمها وأهدافهـا ، حتى أحدثت في فترة وجيزة انقلاباً فكرياً عظيماً نقل الطليعة الواعية من الشرقيين ، والغرب خصوصاً ، من طور إلى طور .

وابحاث « العروة الوثقى » تنسب إلى السيد جمال الدين وان كانت براعة الإمام محمد عبده هي التي دبجتها ببيان رفيـع جمع بين الحكمة وفصل الخطاب . وقد كانت هذه الابحاث تدور كلهـا حول تحرير البلاد الشرقية عمومـاً ، وتحرير مصر بنوع خاص ، وبيـان المظالم التي تعـانيها الأقطار الرازحـة تحت نير الاستعمار ، والاضطهاد الذي تقاسيه الاقطـار الخاضعة للحكم الاستبدادي والأمراء الاقطاعيين والمهددة أيضـاً ، من جراء هـذا الاضطهاد نفسه ، بالغزو الاستعماري ، والاهـابة بهذه الاقطار جميعاً إلى الكفاح في سبيل التحرر والانعتاق .

ومن قراءة ابحاث « العروة الوثقى » يتبين لنا أن السيد جمال الدين الذي نذر حيـاته لمحـاربة الاستعمار ، وسمى زمنـه : « زمن الاستعمار » قد عرف أساليب الاستعمار ودسائسه ومظالمه ومطامعـه جميعـاً . ولذلك رأيناه يتذرع لبـلوغ هدفه بكل وسيلة تخطر له ويرجو من ورائهـا نجاحاً في مقصده ، فينتهج أحيـاناً مناهج غريبة ! من ذلك مثلاً محاولته استغلال حركة محمد احمد الذي ثار في السودان وزعم أنه المهدي المنتظر . فقد سعى جمال الدين « لاقناع » الانـكليز بالجلاء عن السودان، بتكبير شأن دعوى محمد احمد للمهدوية وتهـويل أخبارهـا . ومن ذلك أيضـاً عدم انتبـاهه إلى قـوة الشعور القـومي ، واكتفاؤه باثارة الشعور الديني في محـاربة المستعمرين ، مما جره إلى القاء شعارات غامضة والعمل لأهداف بعيدة التحقيق .

ولكن هذا لا ينفي أن السيد جمال الدين كان في النصف الأخير من القرن التاسع عشر من أكبر خصوم الاستعمار الألداء ، وانه كان السابق الذي نبه بعض الاقطار الشرقية ولا سيما بـلاد العرب ، إلى خطر الاستعمار ، وأنه سلخ حيـاته في

محاربة هذا الوباء ، والتحذير منه ، وتأليب الناس عليه، بما عدد من مظالمه وبما عرّف من أساليبه . وقد شبه الدولة الانكليزية ، في لينها وتملقها وحلاوة وعودها ، بمرض الآكلة يظهر أثره ضعيفاً لا يحس عند بدئه ثم يذهب في البدن فيفسده ويبيده . وكان يدعو البلاد الشرقية لنجدة مصر ، لأنه كما قال في العدد الثاني عشر من « العروة الوثقى » ، إذا حصل التساهل في أمر مصر انفتح باب المطامع في الشرق لكل دولة صغيرة أو كبيرة ، وعزّت بعد هذا وسائل التلافي. فالاستعمار في رأيه، وهو الرأي الحق ، ليس قضية محلية تنحصر في كل بلد بمفرده . وقد قال في العدد الثامن عشر من « العروة الوثقى » : « يرى الأمير الشرقي الاستعمار في أرض جاره فيظن ان النازلة خاصة بموقعها فيلهو عنها ولا يخشى السقوط فيما سقط فيه غيره ، فيقع في نفس الشرك الذي صيد فيه جاره ، مثلهم مثل الأغنام يسوق الجزار منها واحداً بعد واحد إلى المجزرة وسائر القطيع في غفلة عما يجري على آحاده ، يرعى ويرتع آمناً مطمئناً حتى يفنى » .

وهو يرى أخيراً ، ان المستعمرات ليست قوة للدولة المستعمرة ، بل هي قوة لأعدائها عليها ، وان خيل في وقت من الأوقات ان الأمر على العكس ، إذ تتفرق قوة الدولة المستعمرة في بسيط الأرض حتى لا يبقى لها في موضعٍ قوة تخشى بأسها ، ورعاياها في كل صقع في ضجر وتذمر وتململ متعاظم ينتظرون في كل آن زحفاً من خارج يعينهم على ما يقصدون من النكاية بحكامهم الظالمين . ولهذا رأيناه فيما بعد ، ينصح السلطان عبد الحميد بالتخلي عن دول البلقان وبمنح الدول العربية استقلالها ، وهي نصيحة ربما توهم عبد الحميد الجنون في قائلها حين سمعها منه .

بيد أن أصدق آراء جمال الدين في الاستعمار ما رواه عنه محمد باشا المخزومي في كتابه « الخاطرات » إذ يقول : « هذا الاستعمار لغة واصطلاحاً ، مصدراً واشتقاقاً ، لا أراه إلا من قبيل أسماء الاضداد ، فهو أقرب إلى الخراب والتخريب وإلى الاسترقاق والاستعباد منه إلى العمار والعمران والاستعمار . لا تسير دول الاستعمار إلا إلى البلاد الغنية في ثروتها ومعادنها وخصب تربتها ، ومن كان أهلها في الدرك الأسفل من الجهل ، قد خيم عليهم الخمول ، لا يبدون حراكاً ولا يقربون

عراكاً » .

ثم يروي كيف تنتظم الممالك في سلك المستعمرات عن طريق الفتح « فتصبح أعزة البلاد أذلة ، ويحل محل الحرية الشخصية الاستعباد وكم الأفواه ، وينتصب الميزان ليحاسب من تطرف عينه من الأهلين أو يشخص ببصره أو يلتفت إلى ورائه، ليس لأحد من خيرات بلاده شيء ، وكل الضرائب والضربات والشر والويلات لأهل البلاد وعليهم ، لا يشاركهم بذلك أحد » .

وأما إذا دخل المستعمرون البلاد « من باب الانتصار للأمير ، أو تثبيت الملك، أو قمع الثورة ، وكانوا في ذلك اللباس ، لباس الأصدقاء الأمناء المخلصين ، أو المحبين للشعب ورقيه وتعليمه دروس الحكم الذاتي ليستغني عنهم ويحكم بلاده بذاته.. فهناك تبقى مظاهر الأمور محفوظة ، وبعض التقاليد التافهة مأمونة يشكلون للأحكام وإدارة مهام البلاد هياكل في الناس ، ويتركون معهم أمير البلاد قبة جوفاء يرجع منها صدى الصوت فقط ، وليس لهم من الأمر إلا اتباع الأمر لا غير . »

ثم يقول : « ولما كان لحياة الأمم والدول أدوار وآجال ، ولحدوثها وتكونها وتعاليها ثم توقفها وانحطاطها أسباب وعوامل ، هكذا وجب ان يكون الاستعمار خاضعاً لتلك النواميس الكونية بمعنى انه يصل إلى حد محدود وأجل معلوم . وانقضاء أجل الاستعمار إنما يتم بزوال الأسباب التي مكنت أهله من التسلط وأكرهت الشعوب على الخضوع له . » وهذه الأسباب في رأيه هي ضعف البلاد المستبدة ، فمتى تعلمت واتحدت ، تيقظت وقويت ، وبدأت بالتمرد على الغاصب الدخيل إلى ان يعلو الصوت ، ويرتفع السوط ويحكم السيف ، ويأتي من بعده حكم العادل وهو سبحانه ولي المظلومين .

وهذا الاعتقاد بأن التفاوت بين الشعوب واستعمار دولة لأخرى ، ليس قانوناً أزلياً لا يمكن تبديله ، بل هو حادث وقتي يزول بزوال مسبباته ، كغيره من الحوادث التاريخية الاجتماعية الخاضعة لنواميس التطور ، هو أعظم الآراء التي انتهى إليها جمال الدين في هذا الموضوع الخطير .

وما أعتقد ان الاستعمار الانكليزي قد حورب في الشرق بمثل ما حاربه جمال

الدين الأفغاني من عنف وإصرار وتشهير .. فقد تفنن في مهاجمته والتأليب عليه والتحذير من الوقوع في حبائله ، وتوسل إلى ذلك حتى بالأقاصيص والأساطير .. ومن ذلك هاتان الأسطورتان الطريفتان اللتان نشرتها « العروة الوثقى » وتعليقه عليهما بأسلوبه البارع في التنبيه والتهييج والتشنيع .. قال [1] :

ذكروا في أساطير الأولين ان هيكلاً عظيماً كان خارج مدينة اصطخر ، وربما أوى إليه بعض سراة الليل إذا اشتدت بهم وحشة الظلام ، وما أوى إليه أحد إلا غالته المنية ، فيأتي طلاب اثره لقص خبره، فيدخلون الهيكل في ضوء النهار فيجدونه ميتاً ، ثم لا يهتدون لسبب موته لسلامة بدنه من كل ما يعهد سبباً للموت . واشتهر أمر الهيكل بين السابلة والقطان ، وأخذ كل قاصد حذره من المبيت بـه ، حتى ضاقت الدنيا برجل فاختار الموت على الحياة وصعب عليه انتحار نفسه بيده ، فذهب إلى الهيكل لعله يصادف منيته ، فإذا بالقرب منه رجال نصحوه وحذروه عاقبة الهلاك ، فلم يصغ إليهم ، وقال إنما أتيت لتلك العاقبة ، وانفلت من نصحائه إلى حيث يظن هلاكه فلما توسط الهيكل فاجأته أصوات مزعجة هائلة ، كأن جمعاً عظيماً يخاطبه : ها نحن وصلنا لتمزيق بدنك وسحق عظامك فصاح البائس : « ألا فاقدموا فقد سئمت الحياة . » فلم يتم كلامه إلا وقد حدثت قرقعة شديدة ، وانحل الطلسم ، وانشق الجدار، وتناثرت منه الدراهم والدنانير، وتفتحت أبواب الكنوز. فاطمأن الخائف ونام حتى أصبح. ولما أضحى النهار وجاء الواقفون على خبره ليحملوا جنازته ، وجدوه فرحاً مستبشراً يسألهم بعض الأوعية ليحمل ما وجده من الذهب والفضة ، فاستخبروه قصته ، فبعد البيان علموا ان هلاك من هلك إنما كان بالفزع من تلك المزعجات التي لا حقيقة لها ... وبريطانيا العظمى هيكل عظيم يأوي إليـه المغرورون إذا أوحشت نفوسهم ظلمات السياسة فتدركهم المنية بمزعجات الأوهام . وكم هلك بين جدرانه من لا مريرة لهم ولا ثبات لجأشهم . وأخشى ان يسوق اليأس إلى ذلك الهيكل قوي المريرة، ماقت الحياة، فما تكون إلا هنيهة يصعد فيها صوت

---

١ ـ العروة الوثقى ص ٣٣٢

اليأس فينقض الجدار وينحل هذا الطلسم الأعظم !..

وقالوا : ان زنجياً أسود هائل المنظر غليظ الشفتين ، مقلوب المشفرين ، جاحظ العينين ، أحمر الحدقتين، بشع الوجه ، أفطس الأنف ، منكر الصورة ، كان يحمل ولداً في ليلة مظلمة يسير به في زقاق من أزقة بغداد .. والولد كلما نظر إليه يفزع ويبكي وينتحب ويعول . وكلما اشتد به الفزع ربته الزنجي ومسح ظهره ، وقال له : « لا تخف يا ولدي فانني معك وأنيسك وحافظك من كل شر ..» وبعد تكرير هذه الملاطفات من الزنجي للصبي قال الصبي: « يا سيدي إنما خوفي وفزعي منك لا من وحشة الظلام ! » وهكذا شأن حكومة انكلترة مـــع المصريين ، كلما اشتدت الخطوب وعظمت المصائب وزاد الخلل في البلاد المصرية ، مسحت حكومة بريطانيا على ظهر توفيق باشا ووزرائه بيدها الناعمة ، وإنما هي نعومة الثعبان ، وأقبلت على الأهالي تمنيهم بوعودها المرونقة ، وتقول لهم : لا تحزنوا فاني معكم. وجميع المصريين من توفيق باشا إلى وزرائه إلى عامة الأهلين يجأرون وينادون إنما خوفنا وجزعنا منك ، وراحتنا واطمئناننا بتنحيك عنا وتركنا وشأننا !..

لقد انقضت عشرات السنين على أقوال جمال الدين ولم تفقد أهميتها وجدتها حتى لكأنها مما يقال اليوم !

*

كانت أبحاث « العروة الوثقى » تستهدف إيقاظ الشرقيين وتحريرهم ، وكانت دعوتها في هذا الشأن تصطبـغ بالصبغة الاسلامية كما قلنا ، لأن المسلمين هم العنصر الغالب في البلاد الشرقية المستعمرة، ولذلك كان شعار الجامعة الاسلامية يتردد في أكثر هذه الأبحاث . إلا ان جمال الدين لم يكن يريد من وراء هذا الشعار قيام دولة اسلامية ، كما قد يتبادر إلى الذهن ، ولكنه كان يريد تعاون الشرقيين عموماً والمسلمين خصوصاً للوقوف بوجه الاستعمار وتوجيه شعوبهم إلى استقلال أوطانهم . قال السيد محمد رشيد رضا : « واما ما اشتهر عن جمال الدين من كونه يريد الجامعة الاسلامية ان يكون المسلمين كلهم دولة واحدة ، فـــلم أره في شيء من « العروة الوثقى » ولا في غيره مما كان يرويه عنه الأستاذ الإمـام وهو أعلم الناس بمقاصده

وأعماله » . وقال جمال الدين في العدد التاسع من « العروة الوثقى » بصدد حديثه عن الوحدة الاسلامية : « لا ألتمس بقولي هذا ان يكون مالك الأمر في الجميع شخصاً واحداً ... » ولكن ان يكون « كل ذي ملك على ملكه ، يسعى بجهده لحفظ الآخر ما استطاع ، فان حياته بحياته ، وبقاءه ببقائه ، لأن هـذا بعد كونه أساساً لدينهم ، تقضي به الضرورة وتحكم به الحاجة في هذه الأوقات . »

لقد أراد الحكيم ان يجعل من الدين وازعاً وطنياً ، ومن النضال الوطني واجباً دينياً ، فأخذ يعمل على تجديد عقائد المسلمين وتصحيحها ، فيحمل في العدد الرابع على ما ظهر بين المسلمين من أقوام تستروا بستار الدين « وخلطوا بأصوله ما ليس منها ، فانتشرت بينهم قواعد الجبر ، وضربت في الأذهان حتى اخترقتها وامتزجت بالنفوس حتى أمسكت بعنانها عن الأعمال » كما يحمل على ما أحدثه « السفسطائيون الذين أنكروا مظاهر الوجود وعدوها خيالات تبدو للنظر ولا تثبتها الحقائق ، وما وضعه كذبة النقل من الأحاديث ينسبونها إلى صاحب الشرع ويثبتونها في الكتب وفيها السم القاتل لروح الغيرة ، وان ما يلصق منها بالعقول يوجب ضعفاً في الهمم وفتوراً في العزائم » .

ومن ثم نراه يخاطب الشعور الديني في المسلمين ليحملهم على مقاومة الاستعمار ، فيقول في العدد الخامس مثلاً: « المسلمون بحكم شريعتهم ونصوصها الصريحة مطالبون عند الله بالمحافظة على ما يدخل في ولايتهم من البلدان ، وكلهم مأمور بذلك لا فرق بين قريبهم وبعيدهم ، ولا بين المتحدين في الجنس ولا المختلفين فيـه . وهو فرض عين على كل واحد منهم ان لم يقم قوم بالحماية عن حوزتهم كان على الجميع أعظم الآثام . ومن فروضهم في سبيل الحماية وحفظ الولاية ، بذل الأموال والأرواح ، وارتكاب كل صعب واقتحام كل خطر ، ولا تباح لهم المسالمة مع من يغالبهم في كل حال من الأحوال حتى ينالوا الولاية خالصة لهم من دون غيرهم » إنه يقول ذلك كي يخلص إلى القول : « ... ومع كل هذا ترى أهل الدين في هذه الأيام بعضهم في غفلة عما يلم بالبعض الآخر ، ولا يألمون لما يألم له بعضهم . فأهـــل بلوخستان كانوا يرون حركات المستعمرين في افغانستان على مواقع أنظارهم ولا يجيش لهم جـأش

ولا تكون لهم نعرة على اخوانهم . والأفغانيون كانوا يشهدون تدخل المستعمرين في بلاد فارس ولا يضجرون ولا يتململون . وان جنود المستعمرين تضرب في الأراضي المصرية ذهاباً وإياباً تقتل وتفتك ، ولا ترى نجـــدة في نفوس اخوانهم المشرفين على مجاري دمائهم السامعين لخريرها من حلاقيمهم، والذين احمرت أحداقهم من مشاهدها بين أيديهم وتحت أرجلهم وعن إيمانهم وعن شمائلهم » .

ثم يقذف المسلمين ، في هـذا العدد والأعداد الأخرى ، بنيران من اللوم والتقريع فيحمل على الأمراء الذين تمكن الطمع من نفوسهم ، فانقلبوا مع الهوى وضلوا عن غايات المجد ، وقنعوا بالألقاب وما يتبعها من أسباب الترف ونعومـــة العيش ، فاختاروا موالاة الأجنبي ، ولجأوا إلى الاستنصار به وطلب معونته على أبناء قومهم استبقاءً لهذا السلطان ، فبددوا شمل أمتهم وأضاعوا شأنها ، وأوقفوا سير العلوم فيها ، وأوجبوا الفترة في الأعمال النافعة من صناعة وتجارة وزراعة بما غلّوا من أيدي أبنائها .

ويحمل على « العلماء » ورجال الدين الذين أضعفوا الأمة بدلاً من ان تنال بهم من المنعة والقوة ما يرد الطامعين فيها خاسئين ، ويتهكم على المتفيهقين منهم بألفاظ الحرية والوطنية والجنسية وما شاكلها يصوغونها في عبارات متقطعة بتراء جوفاء لا تعلم بدايتها ولا تعرف غايتها ويكتفون بالوقوف عند هذا الحد !

ويحمل على خائني أوطانهم بمساعدة الأجنبي عليها ، ويرى ان لا عـلاج لهم إلا القتل « ليلحقوا بالخائنين ممن سبقهم ويذوقوا عذاب الهون بما كانوا يكسبون » . ويذهب إلى مهاجمة المسلمين في عقيدتهم لجهلهم فرضاً من أعظم فروض الاسلام هو الدفاع عن الوطن والاستعداد للأعداء بالقوة ، والحكم بين الرعية بالعدل .

وتجيش به سورة الألم والغضب ، فيجري لسانه وقلمه بما يذكر بأنبياء العهـد القديم ، إذ يهتف مرة وكأنه النبي أرميا ينتحب ويتفجع :

« بكائي على السالفين ، ونحيبي على السابقين . أين أنتم يا عصبة الرحمة وأوليـاء الشفقة ، أين أنتم يا أعلام المروءة وشوامخ القوة ، أين أنتم يا آل النجـدة وغوث المضيم يوم الشدة ، أين أنتم يا خـــير أمة أخرجت للنـاس تأمرون بالمعروف

وتنهون عن المنكر ، أين أنتم أيها الأمجاد الأنجاد ، القوامون بالقسط ، الآخذون بالعدل ، الناطقون بالحكمة، المؤسسون لبناء الأمة ؟ ألا تنظرون من خلال قبوركم إلى ما أتاه خلفكم من بعدكم ، وما أصاب أبناءكم ومن ينتحل نحلتكم ، انحرفوا عن سنتكم ، وحادوا عن طريقتكم ، فضلوا عن سبيلكم ، وتفرقوا فرقاً وأشياعاً حتى أصبحوا من الضعف على حال تذوب لها القلوب أسفاً ، وتحترق الأكباد حزناً ، أضحوا فريسة للأمم الأجنبية لا يستطيعون ذوداً عن حياضهم ، ولا دفاعاً عن حوزتهم . ألا يصيح من برازخكم صائح منكم ينبه الغافل ويوقظ النائم،ويهدي الضال إلى سواء السبيل ؟!»

ويصرخ مرة أخرى وكأنه يوحنا المعمدان يقذف الخطاة بحمم غضبه :

« ملعون من يخون بلاده لمرض في قلبه . ملعون من يبيع أهل ملته بحطام يلتذ به . ملعون من يمكن الأجانب من دياره . محروم من شرف الملة الحنيفية من يمهد الطريق لخفض كلمة مواطنيه وإعلاء كلمة المستعمرين . ملعون من يختلج في صدره ان يلحق عاراً بأمته ليتمم ناقصاً من لذته ... هيهات، هيهات ! أيظن مريض القلب انه سيترك حتى يأتي هذا المنكر ؟ أيظن انه يعيش حتى يتمتع بما تكسب يداه ! »

وطويت صفحة « العروة الوثقى » بعد نضال قاس مر مجيد ، وبعد ان غرست في قلوب الشرقيين بذور الحرية والكفاح في سبيلها ، وتركت في نفوسهم من الأثر الحميد ما لم يتركه قبلها وعظ واعظ ولا تنبيه منبه .

ولعل خير ما يدلنا على أهمية هـــذا الأثر الذي تركته « العروة الوثقى » في قرائها ، الكلمة التي كتبها السيد محمد رشيد رضا بهذا الصدد عن نفسه ، وهي كلمة قيمة ممتعة نحرص على ان نختم بها هذا الفصل لما تتضمنه من عاطفة صادقة وعبرة فائقة وتصوير لعقلية ذلك العصر . قال طاب ثراه [1] :

« ثم اتفق لي ان كنت أقلب أوراق والدي رحمه الله فرأيت عددين من جريدة

---

١ ـ تاريخ الاستاذ الامام ج ١ ص ٨٤

« العروة الوثقى » فقرأتها بشوق ولذة ، ففعلا في نفسي فعل السحر ، فطفقت أبحث عن سائر الأعداد فوجدت بعضها عند والدي ، ووجدت الباقي عند أستاذي الشيخ حسين الجسر الطرابلسي ، فاستنسخت الجميع وقرأته المرة بعد المرة ، فانتقلت بذلك إلى طريق جديد في فهم الدين الاسلامي ، وهو انه ليس روحانياً أخروياً فقط ، بل هو دين روحاني جسماني ، أخروي ودنيوي ، من مقاصده هداية الانسان إلى السيادة في الأرض بالحق ليكون خليفة الله في تقرير المحبة والعدل .

« وأحدث لي هذا الفهم الجديد في الاسلام ، رأياً فوق الذي كنت أراه في إرشاد المسلمين ، فقد كان همي قبل ذلك محصوراً في تصحيح عقائد المسلمين ، ونهيهم عن المحرمات ، وحثهم على الطاعات وتزهيدهم في الدنيا . وكنت مجداً في ذلك حيث كنت ، حتى إذا ما أردت ترويح النفس في بعض قرى الكورة من لبنان ، أخذت معي مثل كتاب « الزواجر عن اقتراف الكبائر » لأتوكأ عليه في المواعظ التي كنت أبثها في كل مجلس ، فتعلقت نفسي بعد ذلك بوجوب إرشاد المسلمين عامة إلى المدنية ، والمحافظة على ملكهم ، ومباراة الأمم العزيزة ، في العلوم ، والفنون ، والصناعات وجميع مقومات الحياة ، فطفقت أستعد لذلك استعداداً ، وكنت أبحث عن آثار السيد وآثار الشيخ محمد عبده ، وما قيل فيها وما كتب عنها . وكنت أناضل دونها ، وأدافع عنها بحماسة وشدة حتى لم يعد يتجرأ أحد على الطعن فيها أمامي .. الخ ». وقال في مكان آخر: « ... حتى عُرفت بين المعاشرين بعاشق جمال الدين ، وربما دعاني بعض الأصدقاء بالداعي له أو واحد الدعاة ، لا سيما وأنا أعدّ له ما يعدّ عليه ، كدخول الماسونية ، والجلوس في الأماكن العامة ، وطول الاقامة في أوربة ، وتقريب وإرشاد غير المسلمين في البلاد الاسلامية » .

حكيم مصلح وأمير مستبد

رحل جمال الدين إلى إيران وقد سبقته شهرته اليها ، فاستقبله العلمـــاء والعظماء والأعيان أحسن استقبال ، وأصبح منزله حلقـة علم وأدب ووطنية عـارمة يتوافد اليها أنصاره ومريدوه من كل مكان .

وكان الشاه ناصر الدين قد أراد الانتفاع به والاكبار من شأن بلاطه بانتساب رجل مثله اليه ، فعينه وزيراً للحربية وأطلق يده في شؤون الجيش ينظمها كما يشاء . ثم رأى اتساع نفوذه وازدياد شوكته ، ولمس فيه الميـل الشديد الجريء إلى تغيير كل قديم بال في ادارة الحكومة الفـارسية ، وإلى انهاض الأمـة وإشراكها في حكم نفسها ، فخشي منه على سلطانه وخامره الريب في أمره ، وأخذ يقرب منه حساده وخصومه من « العلماء » الجامدين ، استعداداً لاضعاف شأنه واقصائه عن البلاط .

ولكن جمالاً أحس نفور الأمير منه ، وفطن إلى ما يبيت له خصومه من مكائد، فاستأذن في السفر إلى روسية فأذن له الشاه بذلك وقد ارتاحت نفسه لهذا الطلب . فسافر إلى موسكو ثم انتقل منهـا إلى بطرسبورج عاصمة القيـاصرة (لينينغراد) ، وأخذ يحاضر في محافلها ويكتب في صحفها عن سياسة الشرق والغرب .

وقد امتدت إقامته في روسية أربع سنوات . ولكن هذه الحقبة من حياتـه تـكاد تكون مجهولة كل الجهل ، بل ان السبب الذي حداه إلى السفر إلى روسيـة

دون غيرها ما يزال مجهولاً حتى الآن . والراجح ان غرضه من ذلك كان تحريض هذه الدولة على انكلترة ، ودعوتها إلى الوقوف بجانب الأقطار الشرقية في كفاحها ضد الاستعمار . ولا ريب أيضاً في ان وجود ثلاثين مليون مسلم في البلاد الروسية كان مشجعاً له على زيارتها للسعي في إصلاح شؤونهم وإنقاذهم من اضطهاد القيصرية التي تسومهم الخسف والهوان . ويؤكد الذين ترجموا لجمال الدين انه قد اجتمع بالقيصر مرات ، فشكا إليه ما يعانيه المسلمون في بلاده من اضطهاد ، وطلب منه السماح لهم بطبع كتبهم الدينية ، وان القيصر قد اهتم بطلبه وأجابه إليه .

وبينما كان السيد في بطرسبورج قدم إليها الأمير ناصر الدين ، وأظهر رغبته في الاجتماع به ، فرفض جمال الدين تحقيق هذه الرغبة وتجاهلها . وقد سأله القيصر عن سبب اختلافه مع الشاه ، فأعرب له عن رأيه في الحكومة الشورية ، وضرورة إشراك الأمة في حكم نفسها وهو أمر لا يوافق عليه الشاه ولا يقرّبه . فقال القيصر:

– إني أرى الحق في جانب الشاه ، إذ كيف يرضى ملك ان يحكمه فلاحو مملكته ؟

فأجاب جمال الدين : اني أعتقد يا جلالة القيصر ان الملايين من الرعية إذا كانت أصدقاء للملك خير من ان تكون أعداء له تترقب الفرص للانتفاض عليه، وتكمن في صدورها سموم الحقد ونيران الانتقام .

فاربد وجه القيصر ، وقام مودعاً جمال الدين بجفاء ، ثم أوعز إلى رجاله بأن يسرعوا في إخراجه من روسية متلطفين[1] ، مخافة ان تلاقي بذور الخير التي ينثرها، أرضاً خصبة في بلاده ، فيثور شعبه على الجور والطغيان .

ومن أطرف ما يروى ان جمال الدين قال للشيخ عبد الرشيد ابرهيم الرحالة الروسي وكان من تلامذته : « انك ستصلي صلاة الجنازة على القيصرية الروسية ، وستحضر تشييع جنازة الامبراطورية الانكليزية في الهند ، وحمّله تقريراً منه إلى جمعية سياسية سرية في العاصمة الروسية يرأسها عم القيصر ، وقال له : « اذهب بهذه

١ ـ خاطرات جمال الدين الافغاني ص ٥٨ ـ ٥٩

الرسالة وأوصلها إلى الغراندوق فلان ، واعلم انك إما أن تقتل وإما أن تفوز وتغنم » فأوصلها الشيخ عبد الرشيد إلى الغراندوق فهلل لها وابتهج بها ، ثم أعاده إلى بلاد اليونان ليطبعها فيها باللغة الروسية ويرسلها اليه ، وعرض عليه من المال ما شاء ، فلم يأخذ إلا القدر الضروري ، وقد لقي أهوالاً كادت تذهب بحياته [1] .

واتفق ان فتح حينذاك معرض باريس لسنة ١٨٨٩ (١٣٠٧هـ) ، فشخص جمال الدين إلى العاصمة الفرنسية . وكان الشاه قد سبقه اليها ليشاهد المعرض ، فالتقيا في ميونيخ عاصمة بافارية ، بينما كان الأمير عائداً من باريس والحكيم في طريقه اليها .

ويبدو أن ناصر الدين كان ما يزال مصراً على ضم السيد إلى حاشيته ، معتقداً ان في استطاعته ترويضه وإغراءه وتسييره وفق ما يريد ، لا سيما وقد القى عليه فيما يزعم درساً يعلمه طاعته والخضوع له . فلما التقيا في ميونيخ ، ألح عليه برافقته والعودة معه إلى إيران ، فأبى أول الأمر وأصر على مواصلة طريقه إلى باريس لمشاهدة معرضها ، ولكن الأمير اشتد في الالحاح عليه وكان يقول لمرافقيه على مسمع منه ، ان جمال الدين هو رجل العالم السياسي الحربي الجدير بأن يكون رئيس وزارة ويقوم بتدبير الشعب ، فاعتقد الحكيم أن الأمير قد اقتنع بخطأ الموقف السابق الذي وقفه منه ، وانه سيطلق هذه المرة يده في شؤون البلاد ليحقق لها ما هي في حاجة اليه من الاصلاح ، فنزل عند رغبته وعاد معه إلى طهران .

وما كاد جمال الدين يستقر في عاصمة الفرس ، ويجدد صلاته الوثيقة بالأوساط العلمية والسياسية فيها ، حتى أطلع الشاه على رغبته في وضع دستور تدار البلاد بهديه وتجري الأحكام في نصابه ، فلم تثر هذه الفكرة اعتراض الأمير بادىء الأمر بل مال إلى الموافقة عليها ، ولكنها أثارت أصحاب الأفكار العتيقة والاقطاعات الكبيرة من أعوانه ورجال حاشيته ، أولئك الذين يستبدون بالبلاد ويديرون الدولة وفق أهوائهم ، فأعلنوا حرباً شعواء على جمال الدين ، وأقنعوا ناصر الدين بأن الأمة الفارسية لم تتأهب بعد لمثل هذا الاصلاح ، وان الدستور يقيد سلطة الشاه ، وربما كان سبباً في تقويض عرشه .

---

١ ـ تاريخ الاستاذ الامام ج ١ ص ٥٥

فاستدعى الشاه جمال الدين وسأله عن مواد الدستور الذي يعده فأطلعه عليه ، فقال :

— أيصح أن أكون يا حضرة السيد ، وأنا ملك ملوك الفرس (شاهنشاه) ، كأحد أفراد الفلاحين ؟

وقيل إن السيد قد أجابه بقوله : اعلم يا حضرة الشاه ان تاجك وعظمة سلطانك وقوائم عرشك ، ستكون بالحكم الدستوري أعظم وأنفذ وأثبت مما هي عليه الآن . وان الفلاح والعامل والصانع في المملكة ، يا حضرة الشاه ، أنفع من عظمتك ومن أمرائك . واسمح لإخلاصي أن أؤديه صريحاً قبل فوات وقته : لا شك يا عظمة الشاه انك رأيت وقرأت عن أمة استطاعت أن تعيش بدون أن يكون على رأسها ملك ، ولكن هل رأيت ملكاً عاش بدون أمة ورعية ؟

فغضب الشاه على جمال الدين ، وتنكر له وتخوف منه ، ودفعه إلى التمادي في هذا الموقف العدائي معارضة السيد للنفوذ الأجنبي المتوغل في إيران عن طريق المشاريع الاقتصادية الاستعمارية ، فأخذ يترقب سانحة ليبطش به .

وأحس الحكيم بالدسائس التي تحاك من حوله ، فذهب إلى بلدة قريبة من العاصمة تضم ضريح عبد العظيم ، وهو أحد كبار الأئمة ، ومقامه حرمٌ من دخله كان آمناً ، فمكث هناك سبعة أشهر كان مريدوه يختلفون اليه خلالها جماعات غفيرة فيخطب فيهم منددا بمثالب الشاه وبتواطئه مع الأجانب على نهب بلاده ، داعياً إياهم إلى خلعه ، مرشداً الناس إلى حقوقهم المهضومة وحرياتهم المسلوبة .

فضاق به الأمير ناصر الدين ، وانتهز فرصة مرض طارىء حلّ به وانقطع تلاميذه عن الاختلاف اليه خلاله لملازمته فراشه وتوقفه عن إلقاء دروسه ، فوجه اليه خمسمائة فارس مدججين بالسلاح فانتزعوه من فراشه . وقد روى قصة ذلك بنفسه فقال : « وأما قصتي وما فعله هذا النكود الظلوم معي ، فمما يفتت أكباد أهل الايمان ، ويقطع قلوب ذوي الايقان ، ويقضي بالدهشة على أهل الكفر وعباد الأوثان . ان ذلك اللئيم أمر بسحبي ، وأنا متحصن بحضرة عبد العظيم عليه السلام ، في شدة المرض ، على الثلج ، إلى دار الحكومة ، بهوان وصغار وفضيحة لا يمكن أن



الشرطة الإيرانية تحمل جمال الدين إلى حدود العراق

يتصور دونها في الشناعة ... ثم حملني زبانيته الأوغـــاد ، وأنا مريض على برذون ، مسلسلًا ، في فصل الشتـــاء وتراكم الثلوج والرياح الزمهريرية ، وساقتني جحفلة من الفرسان إلى « خانقين » على حدود العراق .

وما كاد الشاه يتخلص من جمال الدين حتى أخذ يتاجر بخيرات أمته ، فبـــاع للبارون يوليوس لوثرن امتياز تأسيس بنك شاهاني في إيران وإصدار أوراق النقد باسم الدولة، وأعطى امتيازاً باستخراج المعادن من جميع المناجم الايرانية ، وامتيازاً باحتكار التنباك بشروط بخسة . فاذا بجمال الدين يثير عليه حرباً شعواء من مدينة البصرة في العراق التي التجأ اليها بعد نفيه من إيران ، فيكتب في الصحف ويخطب في المنتديات عن إسراف ناصر الدين ، وتهافته على الشهوات ، وإنفاقه أموال الرعية بغير حق . ويرسل إلى الحاج ميرزا محمد حسن الشيرازي كبير مجتهدي الشيعـــة كتاباً مطولاً يعدد فيه مساوىء الحكم في إيران ، وتدهورهـــا إلى درك البؤس والفاقة ، ومما جاء فيه : [1]

« أيها الحبر الأعظم ، ان الملك قد وهنت مريرتـه فساءت سيرتـه وضعفت مشاعره ، فقبحت سريرته ، وعجز عن سياسة البلاد ، وإدارة مصالح العباد الخ .. » إلى ان يقول: « ثم انه باع الجزء الأعظم من البلاد الايرانية ومنافعها لأعداء الدين : المعادن ، والسبل الموصلة إليها ، والطرق الجامعة بينها وبين تخوم البلاد ، والخانات التي تبنى على جوانب تلك المسالك الشاسعة التي تتشعب إلى جميع أرجاء المملكة ، وما يحيط بها من البساتين والحقول ، ونهر الكرون والفنادق التي تنشأ على ضفتيه إلى المنبع ، وما يتبعها من الجنائن والمروج ، والجادة من الاهواز إلى طهران ، وما على أطرافها من العمارات والفنادق ، والبساتين والحقول ، والتنباك ومـا يتبعه من المراكز ومحلات الحرث ، وبيوت المستحفظين والحـــاملين والبائعين ، أنى وُجِد وحيث بنيت ، وحكر العنب للخمور وما تستلزمه من الحوانيت والمعامل والمصانع في جميع أقطار البلاد ، والصابون والشمع والسكر ولوازمها من المعامل ،

---

١ – تاريخ الاستاذ الامام ج ١ ص ٥٧

والبنك ، وما أدراك ما البنك، هو اعطاء زمام الأهالي كلية لعدو الاسلام واسترقاقه لهم واستملاكه إياهم وتسليمهم له بالرئاسة والسلطان . ثم ان الخان البليد أراد ان يرضي العامة براهي برهانه فحنق قائلًا : ان هذه معاهدات زمانية ومقاولات وقتية لا تطول مدتها أزيد من مائة سنة ! الخ .. »

وكانت نقمة الشعب الايراني على أعمال الشاه تتعاظم وتتفاقم ، فأذكت أقوال جمال الدين هذه النقمة وفجرتها . فأرسل الحاج ميرزا حسن الشيرازي إلى ناصر الدين كتاباً قال فيه : ان إعطاء الامتيازات وبيع حقوق الأمة للأجانب ، من الأمور التي يحرمها الدين وتأباه الشرائع والقوانين ، وأيده في ذلك علماء الأمة ومفكروها الأحرار ، ولكن ناصر الدين لم يسمع لهم نصحاً ولم يرع لهم جانباً ، بل أنشأ يعتقل كبار الوطنيين ويضطهدهم ، فهاجت تبريز ثم تبعتها اصفهان وشيراز ، ولجأ المجتهد الأكبر إلى سلاح الشرع فأصدر فتواه الشهيرة بتحريم التنباك ، وإذا بالايرانيين جميعاً يجيبون دعوته ويلبون نداءه ، فيمتنعون عن تدخين التنباك على شدة تعلقهم به ، فأسقط في يد الشاه ، وذهبت محاولاته في سبيل تحطيم مقاومة الأمة أدراج الرياح، وعبثاً حاول تهديد مقام الحاج ميرزا الشيرازي فان المجتهد لم يزدد إلا تمسكاً بفتواه ، حتى اضطر إلى الاذعان لإرادة شعبه ، فاتفق وشركة الاحتكار على إلغاء الامتياز الممنوح للمستر تالبوت بعد ان دفع لها نصف مليون ليرة تعويضاً على إلغاء الاتفاق ، فكان ذلك صدمة قوية للنفوذ الانكليزي في إيران، وبدء النهضة العظيمة التي قام بها الايرانيون في سبيل حريتهم [1] .

ولم يكتف جمال الدين بهذا النجاح الذي أحرزه الشعب الايراني على أميره الذي يفدحه بنيره ، بل أصر على متابعة نضاله حتى يتحطم هذا النير تماماً . وكانت صحته قد تحسنت في البصرة [2] ، فشخص منها إلى لندن ، حيث ساهم في تحرير مجلة شهرية

---

١ ـ حياة الشرق ص ١٨٩

٢ ـ أكرم اهل البصرة السيد جمال الدين واحتفى به اعيانها ، ولما اراد مغادرة المدينة لم يكن يملك سوى عشرة جنيهات ، فتشاوروا فيا بينهم ألا يتركوه بهذا المال القليل ، وجمعوا له شيئاً من العون بلغ خمسمائة جنيه (جمال الدين الافغاني : حياته وفلسفته ص ٧٦)

اسمها « ضياء الخافقين » تصدر بالعربية والانكليزية ، وأخذ يكتب فيها بتوقيع السيد الحسيني مقالات تشع سطورها ناراً ونوراً ، حمل فيها حملات قوية على مظالم الحكم الاستبدادي والاقطاع في مصر وايران . وقد كتب في العدد الأول من هذه المجلة الذي صدر في شباط (فبراير) سنة ١٨٩٢ م (١٣١٠ ﻫ) دراسة عن « أحوال فارس الحاضرة » نقتطف منها المقاطع التالية لأهميتها التاريخية :

« ... الحكومة قهرت الشرع فأبادته، وكرهت النظام المدني فمجته، وازدرت بناموس العقل والفطرة فطمسته ، فلا يسود فيها إلا الهوس ، ولا يأمر إلا الشره ، ولا يقوم بالأمر إلا القهر والزور ، ولا يحكم إلا السيف والكي والسوط ، يلذها سفك الدماء وتباهي بهتك الأعراض ، وتعجب باستلاب أموال الأرامل والايتام ، فلا أمان في تلك البلاد ، وان قاطنيها لا يرون وسيلة لصون الحياة من أنياب الظلم إلا الفرار .

« قد هرب خُمس الايرانيين إلى الممالك العثمانية والبلاد الروسية وتراهم يجولون في الأزقة والأسواق ، بين حمّال و كنّاس وزبّال وسقاء . وهم برثاثة ثيابهم وكلوحة وجوههم وخساسة حرفتهم يستبشرون بالنجاة ويشكرون الله على بقية الحياة ...

« ولا حدّ في الأقطار الايرانية للضرائب والجبايات والخراج والمكوس . ان الجرائم ليست لها حقائق أحرزها الشرع وحكم بها العقل . والجزاء لا يحده حصر . كل هذه تحت سلطان الهوس والشره والقهر . لا دستور للحكومة ولا نظام ولا قانون . كل يفعل ما يقدر عليه وتدعو شهوته إليه ، ولا رادع لقضاء الحاكم ولا مانع لحكمه ، يأخذ الجار بالجار، ويدمر قرية بذنب يدعيه على رجل ولا ذنب له ، كل مسؤول لديه عن الكل ...

« والحاكم يقدم للشاه على حسب عظم الحكومة وصغرها تقدمة « بيش كش » ويلتزمها على نفسه كل سنة شكراً لتوليته ، ولا شهرية له ، ثم انه يأخذ من كل من يستصحبه لخدمة الحكومة أو خاصة شخصه ، من مدير وكاتب ومعاون وشرطي وجلاد وطباخ وفرّاش وسائس وبغّال ، مبلغاً جزاء لاستخدامه ، ولا شهرية

لهؤلاء أبداً . وهذه القطيعة الضارية والضباع الجائعة تثب فجأة على البلاد فتفترس وتنهش وتبلع وتدمر ، ولا شفقة تكفّ ولا عقل يزجر . فالويل كل الويل لقوم قضت الأقدار عليهم بحكومة جائرة وحشية كهذه ...

« وان الحاكم وأتباعه للاستحصال على ما نقدوه أولاً ، وما التزموا على ذمتهم ، لا يدعون في مدة الحكومة وهي غير معلومة ، عملاً شنيعاً وفعلاً فظيعاً وأمراً بشعاً إلا ويرتكبونه .. يعلقون النساء بشعورهن ، ويضعون الرجـــال مع الكلاب العاقرة في الجوالق ، ويسمرون الآذان على ألواح من الخشب ، ويدخلون زماماً في العرنين ويديرون ذاك المظلوم بتلك الهيئة المحزنة في الأزقة والأسواق ، وان أهون العذاب عندهم الكي والضرب بالسياط .

« وان الحكومة الايرانية لا تمون العساكر ، وليست لهم شهرية ولا جراية ، فإنما تكلهم إلى قدرتهم في الغصب وحذقهم في السرقة . فتدبر فيما تكابده الأهـالي وتقاسيه من هذه الحكومة الجائرة الحمقى ... الخ . »

وكتب في العدد الثاني ، وهو عدد آذار (مارس) سنة ١٨٩٢ مقالاً استهله بأسماء كبار العلماء والفقهاء في ايران ، موجهاً خطابه إليهم ، داعياً إياهم إلى خلع الشاه « الحارية [1] الطاغية » الذي طفق منذ تولى الملك « يستلب حقوق العلماء تدريجياً ويخفض شأنهم ويقلل نفوذ كلمتهم حباً بالاستبداد بباطل أمره ونواهيه ، وحرصاً على توسيع دائرة ظلمه وجوره » حتى « خلا له الجو فقهر العباد ، وأباد البلاد ، وتقلب في أطوار الفظائع ، وتجاهر بأنواع الشنائع ، وصرف في أهوائه الدنية وملاذه البهيمية ما مصه من دماء الفقراء والمساكين عصراً ، وما نزح من دموع الأرامل والايتام قهراً .. الخ . »

وكان لمقالاته ومحاضراته صداها العظيم في ايران ، إذ أهاجت جماهير الشعب وجماعات العلماء والمفكرين ، وفتحت عيونهم على المظالم التي تعانيها بلادهم ، وقوّت عزائمهم في الكفاح لإزالتها . وشعر الأمير ناصر الدين بالخطر الذي بات يحدق به ،

---

١ ـ الحارية : الافعى التي كبرت وصغر جسمها ، وهي أخبث الافاعي .

فأرسل سفيره في لندن إلى السيد يسترضيه بما شاء من الأموال ، ولكن الحكيم أبى أن يمس مال الظلم ، وقال بإبائه وعزة نفسه وصلابته في الحق : « والله لا أرضى إلا ان يقتل الشاه ويبقر بطنه ويوارى في القبر ! »

ويقول الأمير شكيب ارسلان ان الشاه ناصر الدين لما أعيته الوسائل في استرضاء جمال الدين ، بعث إلى عبد الحميد يرجوه استقدام السيد إليه ووضعه تحت مراقبته اماناً من شر غوائله [1] . وفي الواقع ان جمال الدين ما لبث ان تلقى بوساطة رستم باشا سفير تركية في لندن ، كتاباً من المابين الهمايوني يدعوه فيه إلى الاستانة ، فاعتذر بانصرافه إلى الكفاح في سبيل بلاده ، ولكن كتب المابين ما زالت تترى ملحة عليه في الدعوة ، مبالغة في الرجاء ، حتى غادر لندن إلى الاستانة سنة ١٨٩٢ وهو في سن الرابعة والخمسين وفي نيته الاقامة فيها بضعة أيام والعودة بعد ذلك إلى عمله .

ولئن صح ان الشاه ناصر الدين هو صاحب الفكرة في دعوة جمال الدين إلى العاصمة العثمانية ، فلا ريب في انها قد وافقت هوى من قلب عبد الحميد ، ليقينه بأن ضم هذا الحكيم العظيم إلى حاشيته يعينه على تحقيق مطامعه البعيدة ، ويظهره أمام العالم الاسلامي بمظهر السلطان الذي يرعى العلم والعلماء ويقدر المصلحين والمفكرين ، كما فعل معه الخديوي اسماعيل والشاه ناصر الدين . فضلاً عن انه أراد من ناحية أخرى ان يقطع عليه طريق التعاون مع أحرار الأتراك الذين كانوا قد هاجروا إلى باريس وأخذوا يقومون فيها بالدعوة إلى الحكم الدستوري ، واجتمع السيد بهم فأعجب بهم وسمى عصبتهم بالجمعية الصالحة .

ومن طريف ما رواه السيد انه لما وصل إلى الاستانة كان في انتظاره ياور السلطان موفداً من المابين لاستقباله ، فسأله :

— أين الصناديق يا حضرة السيد ؟

فأجاب : ليس معي غير صناديق الثياب وصناديق الكتب .

---

١ ـ حاضر العالم الاسلامي ج ١ ص ٢٠٤

قال الياور : حسناً فدلني إذا أمرت على مكانها .

فأومأ السيد إلى صدره قائلاً : « صناديق الكتب هنا ! » وأشار إلى جيبه قائلاً : « وهذه صناديق الثياب ! » .

فقد كان الحكيم لأول عهده بالنفي يستصحب جبة ثانية وسراويل غير التي يرتديها ، فلما توالى النفي عليه صار يستثقل الجبة الثانية فيترك التي عليه إلى ان تخلق فيستبدل بها غيرها .

استقبل السيد في الاستانة استقبالاً حافلاً ، وقرّبه السلطان منه ، وباحثه في شؤون الدولة وفي أحوال المسلمين ، زاعماً له انه على استعداد لتبني مشاريعه الاصلاحية وآرائه التحريرية ، وأعدّ له قصراً فخماً مؤثثاً بأفخر الرياش ، وأجرى راتباً شهرياً قدره خمس وسبعون ليرة عثمانية . فخيل للحكيم انه بالغ هذه المرة ما ينشد لبلاد الشرق من صلاح وحرية . ولكن الأيام ما لبثت ان أخلفت ظنونه وعلمته للمرة الأخيرة ، ان النهضة التي يرجوها لا يمكن ان تتحقق عن طريق الأوساط التي عاث فيها الفساد والتفسخ والانحلال ، بل بوثبة شعبية تشترك فيها جميع القوى الحية والعناصر النشيطة النامية المتطلعة إلى الانعتاق .

وكان جمال الدين لا يني وهو في الاستانة ، يواصل حملاته الشديدة على الأمير ناصر الدين لتحرير بلاده من نيره وجوره ، فاستدعاه عبد الحميد يوماً وقال له :

— ان سفير العجم رجاني ان أطلب منك الكف عن الوقيعة بالشاه ، وبناء على آمالي فيك وعدته بأنك ستكف عنه .

فأجابه الحكيم : لم يكن في نيتي ان أترك الشاه حتى أنزله في قبره ، ولكني من أجلك سأعفو عنه [1] .

فقال السلطان : ان من حق الشاه ان يخاف منك خوفاً عظيماً .

ومنذ ذلك اليوم سرى الخوف من جمال الدين إلى قلب السلطان ، إلا انه ظل

---

١ ـ انظر ترجمة شكيب ارسلان لجمال الدين في كتاب حاضر العالم الاسلامي ج ٢ ص ٢٨٩ ـ ٣٠٠

يلاطفه ويجامله ويسترضيه . ولكن هذه المصانعة لم تكن لتخفي عن جمال الدين حقيقة عبد الحميد ، فكان إذا خلا برفاقه قال لهم :

ـ ان هذا السلطان سلٌ في رئة الدولة !

وفي ذات يوم أقبل إلى الاستانة رجل من الفرس يدعى ميرزا رضا الكرماني ، كان قد سجن مع جمال الدين حين اعتقله الشاه في مقام عبد العظيم . والتقى هذا الرجل أستاذه القديم ومكث معه مدة يتحدثان عن أحوال ايران ومظالم ناصر الدين ، ولم يعرف أحد على وجه الدقة ما دار في تلك الأحاديث . ولكن الذي عرفه الجميع ان رضا الكرماني قد غادر الاستانة وفي نفسه على الشاه حقد عظيم . وما هي إلا أشهر قليلة حتى انقض على ناصر الدين وهو في مشهد عبد العظيم في ١١ آذار (مارس) ١٨٩٦ (١٣١٤ ﻫ) فطعنه بمديته وهو يهتف :

ـ خذها من يد جمال الدين !

فوقع الأمير صريعاً لتوه ، واستراحت ايران من شره وجوره .

وسمع الحكيم بصرع الشاه ناصر الدين فعرته موجة من الغبطة ، وقال لأصحابه :

ـ قد تحقق الآن ان الأمة الفارسية لم تمت ، وانها أمة لم تنقطع منها الآمال ، لأن الأمة التي يقوم من أبنائها من يأخذ بثأرها ويفتك بالطاغي الذي على رأسها ، لا تكون قد فقدت جراثيم الحياة .

ووقع في يده عدد من مجلة « الاليستراسيون » الفرنسية قد نشرت فيه صور رضا الكرماني مصلوباً والناس حوله يتأملون عليه فردد قول الشاعر :

علو في الحياة وفي الممات   لعمرك تلك احدى المعجزات

وقال لاخوانه : انظروا كيف علقوه عالياً عليهم حتى يكون ذلك رمزاً إلى انهم كلهم من دونه !

ونقل الجواسيس إلى السلطان تعليقات جمال الدين على مقتل ناصر الدين ، فلم يشك في انه كان على صلة بذلك الحادث ، وانه ما زال وراء الشاه حتى أنزله قبره

كما قال !

ولا ندري كيف نفسر موافقة السيد جمال الدين على فكرة الاغتيال السياسي، وارتياحه لها ، وهو من أعرف الناس بأن قتل الحاكم الجائر المستبد لا يزيل الجور ويمحو الاستبداد . وربما خلفه حاكم أكثر منه استبداداً وجوراً ، وان الفساد لا يعالج إلا بإزالة علته من جذورها واستئصال العوامل التي تمده بأسباب البقاء .

وقد ضاعف هذا الأمر خوف عبد الحميد من جمال الدين وحرصه على بقائه تحت رقابته في الآستانة ، وقد زاره أحد السواح الألمان سنة ١٨٩٦ (١٣١٤ هـ) بمنزله في نيشان طاغ ووصفه بقوله: « انه يعيش بين مظاهر عطف من السلطان، ودسائس لا تحصى بيتّتها له رجال القصر . وكم تضرع إليهم ان يسمحوا له بالسفر فأمسكوه حيث يقضي بقية عمره في نوع من الأسر مموّه بالذهب [1] » .

---

١ ـ محمد عبده لمصطفى عبد الرازق ص ٥٨

في بلاط عبد الحميد

كان السلطان عبد الحميد قد عرض على السيد جمال الدين منصب شيخ الاسلام ، فأباه وطلب ان يعهد إليه بعمل أساسي يستطيع معه تغيير النظام القائم في البلاد العثمانية وإقرار الحكم الدستوري توسلًا لتحقيق هدفه الذي عرفناه ، وهو إنهاض دولة اسلامية من ضعفها كي تلحق بالأمم الراقية القوية وتجمع حولها بقية الأمم الاسلامية أو الشرقية في جبهة موحدة ضـــد الاستعمار الغربي الزاحف على الشرق . فزعم عبد الحميد ان زمنه بغوائله المختلفة لا يسمح بذلك الاصلاح ، وقال له :

ـ عذرتك على عدم القبول ، فاعذرني إذا لم أقدم على التغيير بسرعة لا تتناسب مع الزمان والمكان !

ومن ثم بدأت العلاقات تفتر بين الرجلين ، وتتراخى ، إذ أحبط كل منهما أمل الآخر فيه ، وأخذت العلاقات تتحول مع الأيام إلى جفاء ظل يتعاظم شيئاً فشيئاً حتى كان مصرع الشاه ناصر الدين بيد تلميذ من تلاميذ السيد ، وهتاف القاتل وهو يطعن الأمير : « خذها من يد جمال الدين » وثناء هذا على قاتل الأمير ثناء عظيماً على ملأ من الناس ، فترك ذلك كله أثراً كبيراً في نفس عبد الحميد، فشدد جواسيسه مراقبتهم عليه ، وأحاطوه بسياج من العيون والأرصاد .

ومن طريف ما يروى ان السيد كان يركب عربته في أصيل كل يوم ويذهب

بها إلى متنزه الكاغد خانة ، ففطن إلى جاسوس كان يتبعه إلى هناك ماشياً ، فقال لجماعة السلطان في المابين :

ـ انكم أعطيتموني مركبة وجعلتم لي جاسوساً بغير مركبة ، فإذا أنا أسرعت بعربتي طفق يعدو ورائي وهو يلهث كالكلب ولا يدركني فهلا رحمتموه فأعطيتموه عربة ليدركني أنى سرت !

ومما كان يشجع عبد الحميد على اضطهاد السيد جمال الدين على هذا الغرار ، موقف أبي الهدى الصيادي من الحكيم ، إذ كان يحسده ويتوهم انه ينافسه على مركزه في الدولة ، فيدأب كعادته على الوسوسة في شأنه ، وجعله موضع الظنة ، واتهامه في دينه ، والطعن في نسبه ، والسعي في إيذاء كل من يذكره بالخير أينما كان من بلاد الدولة العثمانية . وقد كتب مرة إلى الأستاذ رشيد رضا صاحب جريدة « المنار » :

« اني أرى جريدتك طافحة بشقاشق المتأفغن جمال الدين الملفقة ، وقد تدرجت به إلى الحسينية التي كان يزعمها زوراً ، وقد ثبت في دوائر الدولة رسمياً انه مازندراني من أجلاف الشيعة ... وهو مارق من الدين كما مرق السهم من الرمية » !

ومن مآخذ أبي الهدى على السيد جمال الدين انه أثنى على مستشرق رتب آيات القرآن بحسب معانيها وموضوعاتها فصولاً فصولاً ، فغضب الصيادي وقال : ان هذا العمل كفر والرضى به كفر !!

ومثلما كان أبو الهدى يعادي جمال الدين ، كان السيد يقابله بالمثل . قيل ان السلطان أنعم عليه برتبة « قاضي عسكر » وأحضرت إليه شاراتها وهي جبة فضفاضة ملونة وزينة للصدر والرأس مذهبة ، فقال للرسول : « قل لمولاي السلطان ان جمال الدين لا يريد ان يكون كالبغل المزركش » وقد قال ذلك تعريضاً بالسيد الصيادي الذي بلغ من رتب الدولة أعلاها ونال من زينة المراتب أثمنها وأغلاها ...

ومن الأمور الكثيرة التي أغضبت السلطان على السيد جرأته الأدبية وأفكاره الحرة التي لا تقف أمامها حدود ، حتى كان إذا اجتمع بالسلطان لم يتقيد بما درج عليه رجال البلاط من قيود ومراسم ، بل يطلق نفسه على سجيتها كأنه في حضرة



السلطان عبد الحميد

صديق له يساويه في المكانة وربما فاق عليه . وقد دعاه رئيس القرناء مرة ، بعد اجتماع ضمه وعبد الحميد أباح لنفسه فيـــه من التصرف مـــا استعظمه الحاضرون وأنكروه ، وقال له متلطفاً :

– يا حضرة السيد ، ان إجلال السلطان لحضرتك لم يسبق له مثيل ، وقد رأيناك اليوم تخاطبه بلهجة غريبة ، وأنت تلعب بالسبحة في حضرته !

فقال جمال الدين : سبحان الله ، ان جلالة السلطان يلعب بمقدرات الملايين من أفراد الأمة على هواه وليس من يعترضه منهم ، أفلا يكون لجمال الدين حق في ان يلعب بسبحته كيف يشاء !

فغادره رئيس القرناء مهرولاً وكأنه يود لو لم يسمع هذه الجملة أو يتظاهر بعدم سماعها ، إذ ربما قاده ذلك إلى حتفه .

وروي انه أراد ان يرسله مرة إلى أوربة في أمر سياسي ثم عدل عن ذلك،فأراد السيد مقابلته فقيل له انه مشغول ، فقال : « لا أعود إلى مقـــابلته ! » . ثم أراد السلطان ان يقابله فأرسل في طلبه فامتنع عن الحضور ، وقال : « هـذه بتلك ! » ولكن رسل السلطان أقنعوه بأن سيدهم لم يمتنع عن استقباله إلا لكثرة أعماله وتقيده بالمواعيد ، فذهب إلى المابين وقابله السلطان بجفاوة بددت بعض غضبه .

وكذلك غضب جمال الدين وأراد مغادرة الآستانة ، حين قيل للسلطان ان في بيت السيد مقداراً كبيراً من الديناميت ، وكان عبد الحميد يخاف الديناميت وقد حرم ذكر هذه الكلمة في مملكته ، فأمر رجاله بتحري دار الحكيم ، فلم يجدوا فيها شيئاً ، فاستحضره وقبله معتذراً منه قائلاً له : « لا يفرق بيني وبينك إلا القضاء المحتوم » ، وأثنى عليه ثناء عظيماً ، وقال له : « أحب ان أجعل وطنك الآستانة إذ لا وطن لك » ، ثم أنزله في زورقه الخاص فتنزها معاً في بحيرة يلدز ، وعرض عليه ان يزوجه إحدى حظايا قصره فأبى .

قال الشيخ رشيد رضا : « وقال الحكيم في بعض مجالسه انني لو تزوجت لكان زواجي أغرب عند العارفين بحقيقة أمري في مصر ، من ذهاب الشيخ عليش [1]

---

[1] – احد علماء الازهر المتزمتين وكان يحمل عكازته ويروغ بهـــا على تلامذة الافغاني وهم يدرسون الفلسفة في احدى زوايا الأزهر .

بتلاميذه إلى أحد ملاهي الأزبكية وتعاطيهم كؤوس البيرة جهراً . وقد ذكرت ذلك للأستاذ الإمام فقال لي : انه كان قد فقد داعية الزواج والقدرة عليه بانصراف الذهن عنه إلى ما علق به من عظائم الأمور ! »

ولا نعلم مبلغ ما في هذا التعليل من الصحة ، ولكن الذي نعلمه ان المرأة لم تذكر في تاريخ جمال الدين قط ، سواء أكانت أماً أو أختاً ، أو زوجة أو صديقة. بل لسنا نجد في آثاره ما يتعلق بالمرأة إلا إشارة إلى خطاب ألقاه في النساء بقاعة زيزينيا بالقاهرة لا ندري الموضوع الذي عالجه فيه، وإلا حديثاً له في مجلس بالآستانة دار حول مساواة المرأة بالرجل ، والسفور والحجاب ، قال فيه ان المرأة تساوي الرجل في تكوينها ، والتفاوت الذي بينهما لم يأت إلا من باب التربية ، وإطلاق السراح للرجل ، وتقييد المرأة للبيت ولتربية الجيل ومهمتها في هذا أهم وأسمى مما يقوم به الرجل في كثير من الصناعات ويخطىء من يطلب مساواة المرأة بالرجل في كل شيء ، فلكل وظيفته وعلى تعاونهما ، كل في عمله ، يقوم المجتمع ، ولا مانع من ان تعمل المرأة في الخارج إذا فقدت عائلتها أو اضطرتها ظروفها إلى ذلك ، ولكن بنية صالحة وذيل طاهر . ثم قال : « وعندي ان لا مانع من السفور ، إذا لم يتخذ مطية للفجور » .

ولم نقف على أثر آخر له أو عنه ، فيه ذكر للمرأة . ويلاحظ الأستاذ مصطفى عبد الرازق ان الإمام محمد عبده نفسه لم يكتب شيئاً يتصل بالمرأة إلا في غياب السيد جمال الدين عن مصر !

وفي تلك الأيام وفد على الاستانة الخديوي عباس الثاني ، فرغب في مقابلة جمال الدين وطلبه ، واستأذن في ذلك السلطان فأبى هذا ان يأذن بالجمع بينهما ، بل أرسل إلى جمال الدين من يلح عليه بألا يفعل ، لأنه تخوف من هذه المقابلة كثيراً . فقال جمال الدين لرسول الخديوي في حجرة رئيس القرناء في المابين وعلى مسمع من الملأ الموجود :

— انني كضيف ، أسير المضيف جلالة السلطان في منزله ، ولكن لي مسرحاً كل يوم في الكاغد خانة !

فبينا جمال الدين يتنزه ذات يوم في هذا المكان ، منفرداً على ربوة ، إذ وقفت عربة مطهمة ونزل منها رجل تقدم نحو السيد وابتدره بالتحية ، فأجابه جمال الدين عليها وسأله : « من أخاطب ؟ » فقال : « محبكم عباس حلمي » . ثم أخذ الأمير يتودد إلى الحكيم ويبدي له إعجابه به ويدعوه إلى زيارة مصر في أيامه معرباً عما له في قلوب المصريين من محبة عظيمة .

فوجد الجواسيس في هذا الاجتماع فرصة لا يجود الدهر بمثلها ، وأقبلوا على تحرير التقارير ورفعها إلى عبد الحميد ، زاعمين له ان السيد جمال الدين قد تعاهد مع الخديوي على ان يؤسس له دولة عباسية ! وطلب تأميناً من الخديوي ان لا يكون جزاءه بعد ان يحقق هذا الأمر مثلما كان جزاء أبي مسلم الخراساني من العباسيين ، وقد أقر للخديوي بأن سورية لمن حكم مصر بمنزلة اللازم والملزوم وهي مفتاح العراقين .. وغير ذلك من الترهات التي كانت في ذلك العهد خير وسيلة لاكتساب الأموال من سراي يلدز .

وشاع في الناس ان السلطان قد غضب على جمال الدين ، وانه لن يلبث حتى يقضي عليه ، وجمال الدين يضحك لهذه الاشاعات ولا يجيب عليها ، حتى دعاه عبد الحميد لمقابلته . فلما اجتمع به أقبل عليه وأدناه وحادثه طويلاً في شؤون شتى ، حتى إذا انتهى الحديث من كل ما أراده السلطان في ظاهر الأمر وأوهم محدثه انه سيبارح المكان ، قال :

— هيه ! اجتمعت مع حضرة الخديوي في الكاغد خانة ؟

فأجاب جمال الدين : نعم تلاقينا هناك .

قال عبد الحميد : قد ألح الخديوي كثيراً بطلب هذه المقابلة ، وما فهمت لهذا الالحاح سبباً أو معنى ، فأي علاقة بينكما؟ وقد أزعجوني بكثرة التقارير، وأكثرها من الصادقين المجربين عندي الذين يتحرون لي صحيح الأخبار وصادقها ، لذلك تأسفت جداً حتى كدت لا أصدق انك تأتي بمثل هذه الأعمال .

قال جمال الدين : وأي الأعمال أنكرها مولانا السلطان عليّ ؟

فتناول السلطان عدة ظروف وقال : هذه كلها على اتفاق بأنكما قد انفردتما

لوحدكما وتحدثتما بالمسطور فيها .

ودفع إلى السيد تلك الظروف ، فتناولها ولكنه لم يقرأها ، فكرر السلطان عليه طلبه بمطالعتها ، فقال :

ـ لا حاجة لمطالعتها، فالأمر ينجلي وينتهي إذا اقتنعتم بأنني كنت مع الخديوي في ذلك المكان بمعزل عن الخلق وعلى انفراد ليس معنا ثالث .

قال السلطان : نعم .

قال جمال الدين : هل كان مع الخديوي غير مرافقه ؟

فأجاب : لا .

قال : فهل سمع أحد ما دار بيني وبين الخديوي وكتب لجلالتكم أم الكاتبون غير من كانوا موجودين ؟

فأطرق السلطان برهة وقال : ان حسني باشا مرافق الخديوي يذكر انكما انفردتما بعيداً عنه ولم يفهم ما دار بينكما .

فقال جمال الدين : فهل برهان أسطع وحجة أقوى من هذا على بطلان هذه الأرجوفة ، ودحض هذه الفرية ، مع اني أقسم لك بعزة الحق انه لم يدر بيني وبين عباس حلمي خديوي مصر شيء من هذا أصلًا .

عندئذ قال جلالته : صدقت وآمنت ، وما هذه إلا اختلاقات فلان قهره الله وقبحه .

وقد عنى بفلان « أبا الهدى الصيادي »، على عادته في إلقاء التفرقة بين المقربين منه وإيغار صدور بعضهم على بعض .

وبلغ التضييق على جمال الدين في الآستانة حده الأقصى ، فاعتزم مغادرة البلاد العثمانية ، وكتب إلى فيس موريس مستشار سفارة انكلترة ملتمساً منه مساعدته على السفر ، فقدم المستشار إلى زيارته ووعده بتحقيق طلبه . ولكن السلطان ما عتم ان أرسل إليه رسولاً يطلب منه العدول عن رأيه باسم الاسلام لأن عمله هذا يمس كرامة خليفة المسلمين ! فتأثر جمال الدين لهذا الطلب ، وأبلغ فيس موريس عزمه على البقاء في الآستانة مهما كانت عاقبة ذلك .



مجلس الحكيم

ظل السيد جمال الدين في الآستانة وظلت المراقبة الشديدة تحصي عليه حركاته وسكناته ، ولكن الحكيم قد خفف على مراقبيه عبء عملهم بالتزامه منزله الذي تحول إلى مجلس أدب وعلم ، ومنتدى لأحرار الفكر وكبار الوطنيين ، يختلفون إليه من جميع بلدان الشرق ، فيحدثهم أمتع الحديث ويلقي عليهم أبلغ الحكم ، ويجيبهم على ما يسألونه عنه بصدقه وصراحته وجرأته العظيمة :

من ذلك ان الأمير شكيب ارسلان حدثه مرة ان إحدى صحف أميركا تحدثت عما يحكى عن اكتشاف العرب تلك القارة وأخبره عن بحث له في هذا الموضوع ، فقال :

« لا أريد ان أسر المسلمين بكلمة . هؤلاء قوم كلما قال لهم الانسان كونوا بني آدم ، أجابوه ان آباءنا قد كانوا كذا وكذا ، وعاشوا في خيال ما فعل آباؤهم غير مفكرين بأن ما كان عليه آباؤهم من الرفعة لا ينفي ما هم عليه اليوم من الخمول والضعة » .

وقال : « ان الانسان إذا بنى قصراً مستوفياً جميع شروط البهاء والنيقة ، لم يفته فيه شيء من الرفاهة والفراهة ، فهو يفكر حينئذ بأن يأتي إلى قصره بالرياش الفلاني النادر من القطر الفلاني ، ويكمل زينة قصره بالآنية الفلانية التي لا يملكها

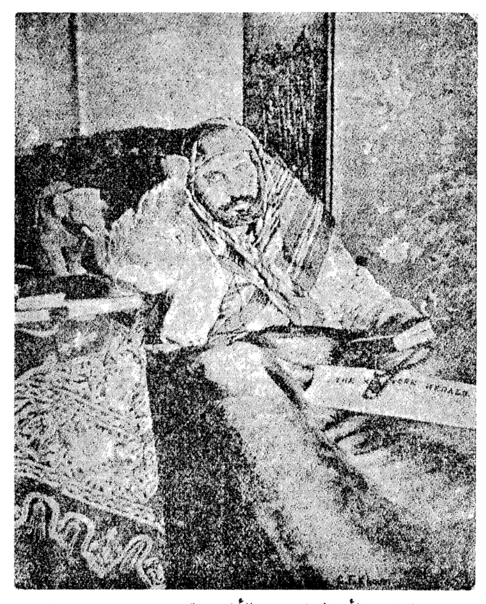
إلا القليلون ، وان يجعل في حديقة القصر هذه الزهرة البديعة وتلك الريحانة العجيبة . فأما وهو قصر متداع إلى السقوط ، والجص نازل إلى الأرض، والسقوف قد هوت من كل جانب ، ولا يقدر على ترميمها ، فهل يخطر بباله ان يأتي لإكمال زينة قصره بهذه الآنية وتلك الزهرة وهاتيك الديباجة ؟ كلا لعمري ، ان من أعوزته الضروريات لا حاجة به إلى الكماليات » .

ثم خاطب الأمير شكيب بقوله : « أنا لا أقول لك لماذا حققت عن قضية جدّ العرب لاكتشاف أميركا ، ولكنني أقول لك ان الشرقيين قد أصبحوا بهذه المثابة ، وهي انهم كلما أرادوا الاعتذار عما هم فيه من الخمول الحاضر ، قالوا أفلا ترون كيف كان آباؤنا . نعم قد كان آباؤكم رجالاً ولكنكم أنتم أولئك ما أنتم ، فلا يليق بكم ان تتذكروا مفاخر آبائكم إلا ان تفعلوا فعلهم » .

وقال في هذا الموضوع في مجلس آخر : « وقد فسدت أخلاق المسلمين إلى حد ان لا أمل بأن يصلحوا إلا بأن ينشئوا خلقاً جديداً وجيلًا مستأنفاً ، فحبذا لو لم يبق منهم إلا كل من هو دون الثانية عشرة من العمر فعند ذلك يتلقون تربية جديدة تسير بهم في طريق السلام » .

على ان الموضوع الرئيسي الذي كان يستغرق حديثه هو موضوع الاستعمار الذي نذر حياته كلها لمكافحته ، ومن أهم ما تحدث به في هذا الموضوع ، قوله منذ نيف وخمسين سنة :

« ... ما من دولة غربية تطرق باب مملكة شرقية إلا وتكون حجتها إما حفظ حقوق السلطان، أو إخماد فتنة قامت على الأمير ، أو انفاذ نصوص الفرامين، أو غير ذلك من البهتان والختل والخداع وواهي الحجج . فإذا لم تكف تلك الأضاليل للبقاء ، تذرعت اما بحجة حماية المسيحيين ، أو حماية الأقليات ، أو حقوق الأجانب وامتيازاتهم ، أو حرية الشعب ، أو تعليمه أصول الاستقلال ، أو إعطاء الشعب حقه تدريجياً من الحكم الذاتي ، أو إغناء الشعب الفقير بالاشراف على مورد ثروته ... الخ . فالشعب الشرقي الخامل يرى في هذه المواعيد الخلابة ما قاله



جمال الدين الأفغاني فى مرضه الأخير سنة ١٨٩٧م (١٣١٤هـ)

الشاعر :

ما زال يغدق آلاءً ويشفعها   بما يفوق أماني النفس بالعظم

« فيرتاح إلى تلك المواعيد ، ويذعن إلى حجر الغربي ، ويقدم في كل يوم نوعاً من الطاعة ، وشكلاً من الاكرام ، ورضوخاً لأوامر فيها أنواع الغرائب ، ويتسابقون متهافتين على التعبد له ولا تهافت الفراش على لهيب النار . يفعلون ما يأمر به الغربي ، ويؤدون كل طلب في باديء الأمر على مضض يكتمونه ، ويغالطون أنفسهم قائلين : انها حالات وقتية ، أو سحابة صيف عن قريب تقشع . ويرجعون معللين أنفسهم بأن الغربيين سيفون لهم بوعدهم وينالون تلك الأماني ، إذ يتركونهم بعد إسداء نعمة التعليم لهم : شعباً حراً مستقلاً بادارة شؤونه ، مختاراً بوضع ضرائبه ، عالماً بإيراده ومصرفه ، منتقياً من أبنائه حكاماً من أنزههم نفساً وأحسنهم سيرة وسيراً وأصدعهم بالحق قولاً وفعلاً .

« هذا ما يتعلل به الشرقي . وأما ما يفعله الغربي فهو برنامج يحمله من بلاده في محفظته ، ثم ينقله إلى ذاكرته أو حافظته ، مسطور فيه : « شعب خامل ، جاهل ، متعصب ، أراض خصبة ، معادن كثيرة ، مشاريع كبيرة ، هواء معتدل ، نحن أولى بالتمتع بكل هذا . » وللوصول إلى الاستيلاء الممتع ، يضع خطة ، وهي : أولاً : إقصاء كل وطني حر يمكنه الجهر بمطالب وطنية . ثانياً : تقريب الأسقط همة والأبعد عن المناقشة والمطالبة بالحق . ثالثاً : الدخول على البلاد بتفريقها طوائف وشيعاً . فتؤثر طائفة على الأخرى ولو بأمور خفيفة تافهة حتى تستحكم النفرة من بعضهم فيضعون بأسهم بينهم . وكذلك شأنهم في الوظائف . انهم لا يجعلون الطائفة الواحدة تنازع أختها من الطوائف فقط . بل يجعلون أبناء بيت واحد ينازع بعضهم بعضاً . وكل هذه حالات تزيد الوصي جرأة وتمادياً بالحكم الكيفي وغل أيدي الشعب ورجاله المخلصين عن النهوض بالوطن والتخلص من ربقة الاستعباد وفك أغلال الحجر .

ثم يقول : « وهذه المطالب ، من فك حجر واستقلال وغيرهما لا تتم إلا بالأخذ

بأفعل العوامل ، مثل ترقية الهيئة بالعلم الصحيح . والوقوف على مواضع الضعف ، ومعرفة الواجبات لهم أو عليهم وكيفية الوصول للمطلب ، والدخول من الأبواب لأخذ حق الضعيف من القوي . »

فان قيل له ان هذا الرأي على أهميته لا يفي بالغرض المطلوب ، لا سيا وان معظم الشرقيين يتخبطون في ظلمات الجهل ، وقد غلبوا على أمرهم وكثر بين ظهرانيهم القوال وندر الفعّال ، قال ان لدى أهل الشرق دواء سريع التأثير في الشفاء ، لكنه عظيم الخطر ، مفزع للجبناء . وقد وصفه حكماء العرب بقولهم :

عش عزيزاً أو مت وأنت كريم بين طعن القنا وخفق البنود

فان قيل أيضاً ان هذا الدواء بعيد المنال ، وذلك لسقوط الهمم وخور العزائم، وتفرق الكلمة ، والاستسلام للخمول ، وبعد النفوس في معظم الشرقيين عن مرامي العزة النفسية ، وحرمانهم من لذة ما تنبسط به الروح عند نوال المنعة القومية والحرية الحقيقية ، وَلما في عزة الحاكم الفرد من الحول والطول على الجمهور المحكوم المستكين للمهانة والخاضع للقوة الموهومة التي يتخيلها هولاً هائلًا أو غولاً آكلًا — ان قيل له هذا نصح بتربية جيل جديد على العلم الصحيح ، وقبول الموت في سبيل الوطن ، تقوم بذلك جمعيات يتولى أمرها أناس يأخذون على أنفسهم الأبية عهداً ان لا يقرعوا باباً لسلطان ، ولا يضعضعهم الحدثان ، ولا يثني عزمهم الوعيد ، ولا يغرهم الوعد بالمنصب ، ولا تلهيهم التجارة ولا المكسب ، بل يرون في المتاعب والمكاره في سبيل إنقاذ الوطن من الاستعباد غاية المغنم .

فان قيل له بعد ذلك : « نعمَ ما وضعت إذا قيض الله ويسر للأمة أفراداً يقومون بتلك الغاية الشريفة ، ويكون في نفوسهم ذلك الاباء ، فلا يقرعون معه باباً لسلطان ولا يهرعون لمنصب ، وان هم فعلوا فلا يغفلون عن الوفاء بالوعد ولا ينقضون الميثاق ، ولكن أين هم ؟ » أجاب ما معناه : ان الأمة لا بد من ان تنجب هؤلاء الرجال لحاجتها إليهم . وحذر من اليأس المبيد للعزائم والمغري بالاستكانة أمام العدوان والطغيان ، وأنشد مع الشاعر :

ومها ادلهم الخطب لا بد ينجلي وأظلمت الدنيا فلا بد من فجر

ومن آرائه الحكيمة في هذا الموضوع أيضاً ان الدولة المستعمرة إذا رأت البلاد في قبضة سلطان أو أمير مستبد قد أضعف الأمة وذلها وفرّقها شيعاً ، نازلته وضمنت لنفسها الفوز ، اما بقوة الرجال أو بقوة المال أو بالمكر والاحتيال . فالدولة المستعمرة لا تبالي بأفراد ولو كانوا سلاطين أو أمراء ، ولا بجيوشهم وقوادهم ، وإنما الذي تخشاه وتفرق منه، قيام الأمة بوجهها : هذا هو السلاح الوحيد القاطع لحول الاستعمار !

وهو يضرب على ذلك مثل الأفغان فيقول : ان الانكليز قد دخلوا بلاد الأفغان بستين ألفاً من الجنود المنظمة وتوغلوا فيها، واستولوا على معاقلها وحصونها، ولكن لما هب الأفغانيون من كل صوب وناحية ، وصدموها باسم أمة الأفغان لا باسم أمير أو سلطان ، اضطرت لترك البلاد وولت الأدبار بعد ان صرفت ثلاثين مليوناً من الجنيهات فضلاً عن ادماء رجالها ونخبة من قوادها .

ثم يقول : « أي سلطان كان يمكنه ان يكشف الانكليز عن مستعمرة أميركا لو لم يصدمها اتحاد الأميركيين الذين نهضوا باسم الأمة الأميركية مستميتين في طلب استقلالهم ؟ نعم ، لما رأت انكلترة ان الأمة هي التي تقاومها وتخلع طاعتها ، أكرهت على العمل بدستورها ، وجرت على خطتها بترك البلاد لأهلها . ودهاة الانكليز أعقل من ان يتوهموا إمكان إفناء أمة بأسرها تتفق ، وتستبسل ، وتطلب الموت في سبيل استقلالها . »

وفي حديث آخر يقول ما معناه : ان الحق لا بد ان ينتصر ، مها لاقى في بدء أمره من اضطهاد ومقاومة ، ويضرب على ذلك مثل مئات الملايين من الخلق التي تدين اليوم بتعاليم الأنبياء الثلاثة موسى وعيسى ومحمد ، بعد ان كانت أتباعهم شراذم بل أفراداً قلائل . ويقول « ولو لم تكن تعاليمهم محض خير ، وموافقة لروح البشر والانسانية ، لما أخذ التكاثر من تابعيهم رغم مقاومة المجموع ، ورغم الاضطهاد والقتل والاستهزاء والنفي والصلب وكل أنواع العذاب ، حتى صاروا أمماً وفتحوا ممالك ، وصار لأولئك الأفراد والشراذم دول ، وجانب يُخشى، وبأس

يتقى ، ومدنية ، وحضارة لا تفنى . »

ويخلص إلى التأكيد بأن كل تعليم إذا كان حقاً في ذاته ، ولو خالف المألوف وكان أنصاره قلائل ، فمن الحكمة ، أن لا يتهن لقلة الأشياع والنصراء ، أو لكثرة جماهير المخالفين والمقاومين له في بادىء الأمر ، بل يجب ان ينظر إليه بعين البحث والنقد الصحيحين . ويضرب المثل على ذلك بما لاقاه المسيح ، وما لاقاه محمد ، وما لاقاه رجال الثورة الفرنسية من اضطهاد مريع عنيف ، ثم انتصرت مبادئهم ، وأضحى العالم في أكثره يدين بها ويقدسها .

وعلى الجملة ، ان تعاليم الحكيم ، كانت في مجلسه ، كما كانت في خطبه ونتاجه ، حكماً رشيدة تحمل الخامل على العظائم ، والجبان على الجرأة النادرة ، وتلقن مبادىء الحرية المقدسة والوطنية الصحيحة ، وتنير الطريق أمام الشرقيين إلى مجالي الاستقلال والرقي والحياة العزيزة الكريمة .

وكان مجلس الحكيم إلى هذا كله مجلس انس وظرف ، يرسل فيه النكات الحلوة والدعابات البريئة . روى مرة انه كان مسافراً في سفينة وقد خيف عليها الغرق ، فلما رأى المسافرين يضطربون ويهلعون أخذ يؤكد لهم أشد التوكيد ان سفينتهم لن تغرق ويقسم لهم انها ناجية بلا مراء . قال السيد : وكان القوم يظنون فيّ القداسة مذ يرونني بالعمامة الخضراء فيحسبونني من دراويش الهند الذين يكشفون الغيوب ويطلعون على أسرار المستقبل ... والمسألة بعد مسألة حسابية : ان غرقت السفينة لم أجد منهم من يكذبني ، وإن سلمت ظفرت بالقداسة من أقرب سبيل !

وقص مرة نكتة عن رجلين قال أحدهما لصاحبه يعظه وينصح له : يا أخي لماذا لا تصلي ؟ الصلاة فضلها كذا ومكانتها من العبادات كذا وكذا .. صلِّ أربعين يوماً فقط وانظر إذا كان يمكنك بعدها ان تترك الصلاة ! فأجابه صاحبه : وأنت يا أخي اترك الصلاة أربعين يوماً ثم انظر إذا كان يمكنك بعدها ان تعود إليها .

وجرى الحديث يوماً في مجلسه عن الصحف وأهميتها فقال : « ما أكثر الجرائد السياسية والعلمية والأدبية في هذه البلاد ، مع ان أهاليها في حاجة إلى جريدة أبسط من ذلك كله : إلى جريدة تقول لهم اغسلوا أرجلكم ، اغسلوا أيديكم ، اغسلوا

أثوابكم » .

وتحدث مرة عن مسلمي الهند فقال ان أكثرهم مسلمون بالاسم ، إذا سئلوا عن الدين الذي يدينون به قالوا في الجواب: « نأكل لحم البقر والحمد لله » يعنون انهم من أتباع الدين الذي لا يعرفون عنه إلا انه يبيح لهم أكل البقر !

وكان المعروف عنه انه يشجع على تعريب الكلمات الأجنبية ، وقد قال في هذا المعنى : إذا أردتم استعمال كلمة غير عربية فما عليكم إلا ان تلبسوها كوفية وعقالاً فتصبح عربية !

وقد ظل دائباً على هذه السيرة المهدية الهادية حتى سنة ١٨٩٧ (١٣١٤ هـ) إذ ظهر في حنكه مرض السرطان أو ما يشبه السرطان واشتد عليه . فأمر السلطان قنبور زاده اسكندر باشا كبير جراحي القصر وأحد المقربين من عبد الحميد ان يجري له عملية جراحية . ولكن العملية لم تنجح . وظل المرض يسري في فكيه ويضرب في جميع جسده ، حتى وافاه الأجل في التاسع من آذار (مارس) ٥ شوال من تلك السنة .

وتقوّل الناس الأقاويل ، في مرض السيد جمال الدين ووفاته . فقيل ان قنبور زاده قد أساء علاجه بأمر السلطان . وتحدث المستشرق لاون استروروغ مترجم كتاب « الأحكام السلطانية » للماوردي إلى الأمير شكيب ارسلان بأن السيد جمال دعاه بعد إجراء العملية الجراحية ، فرأى ان حاله بعدها قد ازدادت شدة ، ورجا منه ان يرسل إليه جراحاً فرنسياً حر الفكر طاهر الذمة ليفحصه ، فأرسل إليه الدكتور لاردي فوجد ان العملية لم تجر على وجهها الصحيح ، ولم تعقبها التطهيرات اللازمة وان المريض قد هلك بسبب ذلك [١] .

وروى الأمير شكيب أيضاً ان أحد موظفي قصر عبد الحميد قد أنبأه بأن قنبور زاده كان أطهر وأشرف من ان يرتكب مثل تلك الدناءة ، ولكن طبيباً

١ ـ تاريخ الاستاذ الامام ج ١ ص ٨٩ ـ ٩٤ ، حـاضر العالم الاسلامي ج ٢ ص ٢٩٥ وما بعدها .

للأسنان يدعى جارح كان يتردد على السيد ويفحص له أسنانه ، وقد استمالته نظارة الضابطة بالمال ، وجعلته جاسوساً عليه، فصار له عدواً في ثوب صديق . قال الرجل: « فأردت مرة ان أمنع جارحاً من الاختلاط بجمال الدين ، فأشار إلي ناظر الضابطة إشارة خفية بأن أتركه ، وفهمت من الاشارة انه يذهب إلى هناك ، ويطبب أسنان السيد بعلم من النظارة ، والسيد لا يعلم شيئاً من ذلك ويستخلص جارحاً ويثق به . فلا أعلم ماذا فعل جارح بواسطة طبه وثقة جمال الدين به . وقصارى ما أعلم انه لم تمض عدة أشهر على حادث الشاه حتى ظهر السرطان في فك السيد من الداخل ، وأجريت له عملية جراحية فلم تنجح ، وجارح هذا كان ملازماً له . وبعد موت السيد كنا نرى جارحاً حزيناً كئيباً ، كاسف البال ، واجم الوجه ، مما جعلنا نشتبه بأن يكون ذا يد في إفساد الجرح بعد العملية أو في توليد المرض نفسه من قبل ، بوسيلة من الوسائل » .

وليس من يستطيع الجزم بصحة واحدة من هذه الروايات !

وقد أمر السلطان عبد الحميد بأن يدفن جمال الدين الأفغاني في غير احتفال ، وان تصادر أوراقه وكتبه ، وأصدر أمراً سلطانياً إلى الصحف في البلاد التابعة للدولة العثمانية بألا تكتب في شأنه شيئاً ، وصادر ولاته في سورية جميع الصحف المصرية التي رثت وأبنت ذلك المنبه الأول لكثير من حركات التحرر الوطني والاصلاح الدستوري في بلاد الشرق .

ودفن الحكيم في مقبرة مجهولة بالقرب من نشان طاش ، ولم يشيع نعشه إلا ثلاثة من أصدقائه هم سهل باشا بن فضل باشا وعلي قبودان المصري وجرجي أفندي كوتجه صديقه الأمين الذي أنفق عليه في أيامه الأخيرة وكان إلى جانبه في ساعات احتضاره [1] . وقد حمل النعش أربعة من حمالي الاستانة وواكبه بعض رجال الشرطة . وظل مدفنه مجهولاً منسياً ما يقارب الثلاثين سنة ، حتى اهتدى إليه صديقه المستشرق الأميركي المستر كراين في سنة ١٩٢٦ (١٣٤٥ هـ) بعد جهد كبير ،

---

١ - تاريخ الاستاذ الامام ج ١ ص ٩٤

فبنى له ضريحاً من الرخام وأحاطه بسور من حديد وكتب على أحد وجوهه اسم السيد وتاريخ ولادته ووفاته ، وكتب على وجه آخر : « أنشأ هذا المزار الصديق الحميم للمسلمين في أنحاء العالم ، الخيّر الأميركي المستر شارلس كراين سنة ١٩٢٦ ».
وفي أوائل شهر كانون الأول ١٩٤٤ (١٣٦٣ هـ) ، بعد مرور خمسين سنة هجرية على وفاة الحكيم ، نقل رفاته في احتفال عظيم إلى بلاد الأفغان .

كلمات مختارة لجمال الدين الأفغاني

الحقائق لا تزول بالأوهام .

كثرة النصراء لداع أو لدعوة ، عن غير علم منهم بصحة الدعوى ، قلة ومذلة ، وقليل من النصراء لدعوة عن علم مكانة واستطالة .

الأقدمية لا تعني الأفضلية دائماً .

الفخر بالقول المجرد يبطله المجد بالفعل .

قضايا الجهل في الانسان أكثر من قضايا علمه .

القوة صنم مرهوب والضعف شبح مربوب .

لا يؤمن بربوبية القوة إلا شبح الضعف .

أحقر الناس من يطلب موت الناس ليحيا ، وأعظمهم من يستميت ليحيي ولو واحداً من الناس .

عظمة الملك لا تكون بالتيجان ، ووقار العلم لا يكون بالطيلسان .

التسفل أيسر من الترفع .

الذل وصحيح العلم ضدان لا يجتمعان .

الفقر عدو الفضيلة والثراء نصير الرذيلة .

من رهب الملوك لغير جريرة فهو الصعلوك .

صاحب الحق قوي ولو كان ضعيفاً ، والمبطل ضعيف ولو كان قوياً .
قلما يأتي الحق بدون عناء .
لا أمة بدون أخلاق ، ولا أخلاق بغير عقيدة ، ولا عقيدة بغير فهم .
خير موازين الأمم أخلاقها .
ألف قول لا يساوي في الميزان عملاً واحداً .
طلاب الحكمة كثيرون ولكن ما أقل العاملين .
تقل العلماء متى كثر المتطفلون والمدعون .
أعظم دليل على كبر الهمة مجاهرة المرء بمخالفته المألوف إذا تحقق بطلانه .
حكيمان عاقلان في أمة مجموعها مليون خير من ألف متعاقل ومدعي حكمة فيها.
ما استحكم الجهل إلا وتفرقت الكلمة ، ولا كثر الادعاء المجرد بالصلاح والاصلاح إلا وعمّ الفساد وشمل .
شرّ أدواء الشرقيين اختلافهم على الاتحاد ، واتحادهم على الاختلاف ، فقد اتفقوا على ألا يتفقوا .
الاستقلال أمل يتبعه عمل وحمل النفس على المكارة واقتحام المهالك والمصاعب .
خير لون لراية الاستقلال دماء المجاهدين الأبطال .
إذا سادت الجهال ساءت الأحوال .
إذا خلا الميدان من العقلاء تسابقت الجهلاء .
الحرية تؤخذ ولا تعطى ، والاستقلال لا ينال بالأقوال .
انهزام العاقل من أمام الجهلاء أولى من الظفر بهم .
الجاهل الحي ميت والعالِم الميت حي .
أحقر صناعة لنحات ، أنفع من تقعر النحاة .
كان مقر الفقه في الرأس والصدر ثم انحدر إلى الجبة والسطر .
القبة الجوفاء لا ترجّع إلا الصدى.
عمامة كالبرج وجبّة كالخرج .
جمود بعض المتعممين أضرّ بالاسلام والمسلمين .

كان المقصود من النحو أن يكون آلة فصيّره جمود النحاة غاية .

من عجز عن اصلاح نفسه كيف يكون مصلحاً لغيره .

العصامي قد يكون لمن يخلفه عظامياً والعظامي فقط يبقى وارثاً للعظام .

اعتماد المظلوم على وعود الظالم بالكلام أقتل له من المدفع والحسام .

أمة ثبتت في جهادها لأخذ الحق ساعة ، خير لها من الحياة في الذل إلى قيام الساعة .

إذا لم تتذرع الأمة بشكواها من ظالميها بغير الكلام ، فاحكم عليها بأنها أضلّ من النعام .

أمة تطعن حاكمها سراً وتعبده جهراً لا تستحق الحياة .

شرّ الأزمنة أن يتبجّح الجاهل ويسكت العاقل .

مهابة تصدر عن كرسي الحاكم لا عن عدله وفضائله أقرب للسخرية منها للاحترام .

أكثر أمراء الشرق إذا ألقي أحدهم في أضيق جب من الاستعباد ، وحفظت له ألقابه الضخمة مجردة ، حسبه جنة عرضها السموات والأرض .

حمال الحطب للاتجار أفضل من حمال الذهب للادخار .

تحتجب الحقائق عن الملوك بقدر تحجبهم .

العاقل من مثل في نفسه مثال ما استحسن من غيره .

أقرب موارد العدل القياس على النفس .

النعيم والجحيم يتجليان للانسان في صور أعماله فيتنعم بالحسن منها ويتألم من القبيح .

يكفر الانسان في كل شيء لا يرضاه ويعبد كل شيء يهواه .

الأحزاب السياسية نعم الدواء ولكنها في الشرق تنقلب غالباً إلى شرّ الداء .

إذا كان القاضي يتظلم فكيف بالمظلوم لا يتألم .

قرقعة السيوف بغير فتك ، والتبختر بلامة الحرب أبّان السلم ، من الأدلة على الجبن في مواطن القتال .

القائد من قاد بأفعاله لا بأوامره وأقواله .

الأمير بأفعاله خير من الأمير بأمواله .

الأديب في الشرق يموت حياً ويحيا ميتاً .

نهض الغرب بالعلم والعمل وانحط بالجهل والكسل .

التقليد بنافع ثبتت منفعته أولى من التقيد بألوف ثبتت مضرته .

ثمرة العقول لا تجتنى إلا بإطلاقها من قيود الأوهام.

من قال ان الدين يأمر بالعسر دون اليسر ، وبالضار دون النافع ، لمجرد التقليد والمألوف ، فهو كذاب .

عماء البصيرة أضرّ من عماء البصر .

للعلم قشور ولباب ، فالواقف على القشور يغرق في بحر الغرور .

المغرور من لا يرضى إلا عن نفسه ، وعما يصدر عنه قولاً كان أو عملاً .

المبتدي في أوليات العلوم يظن أنه تبحر فيها وانتهى ، أما الراسخ المحقق فيعتقد انه ما زال في الابتداء .

لو يحاسب الانسان نفسه كما يحاسب غيره لقل خطأه وقرب من الكمال .

من الغرائب في طبائع الانسان انه إذا رضي استحسن القبيح واستسهل الصعب ، وإذا غضب عكس الأمر فيستقبح الحسن ويستصعب السهل .

قيد الأغلال أهون من قيد العقول بالأوهام .

لا ينطبق على الشرقيين قول « كما تكونوا يولّ عليكم » بل حق عليهم قول « كما يولّ عليكم تكونوا » .

صفحات مختارة من العروة الوثقى

الشرف

كلمة يهتف بها أقوام مختلفة من الناس ، إلا أن أكثرهم عن حقيقة معناها غافلون ، فئة ترى الشرف في تشييد القصور، والتعالي في البنيان ، وزخرفة الحوائط والجدران ، ووفرة الخدم والحشم ، واقتناء الجياد ، وركوب العربات . وفئة أخرى تتوهم أن الشرف في لبس الفاخر من الثياب ، والتزين بألوان الألبسة وأنواعها ، والتحلي بحلى الجواهر الثمينة ، مرصعة بالأحجار الكريمة ، كالألماس والياقوت والزمرد ونحوها .وفئة تتخيل الشرف في الألقاب والرتب كالبيك والباشا، أو في الوسامات المعروفة بالنياشين وعلو أسمائها كالأول من الصنف الفلاني ، والثاني من الدرجة الفلانية ، حتى أنك ترى الرجل يسلب مال أخيه ، وينهب ثروة أقاربه وذويه ، أو بني ملته ومواطنيه ، ليشيد بما يصيب من السحت قصراً ، ويرفع بناء ويزخرف بيتاً ، ويقيم له حراساً من المماليك ، وخفراء من الغلمان ، ويظن بذلك أنه نال مجداً أبدياً وفخاراً سرمدياً ، وصح لحاله أن يعنون بعنوان الشرف . وتجد الآخر يذهب في الكسب أشنع مما يذهب الأول ليكتسي برفيع الثياب ، ويتزين بأجمل الحلى ، أو ليكون له من ذلك ما يفاخر به أمثاله ، ويتخيل أنه بلغ به درجة

من الرفعة لا يدانى فيها ، ويعبر عن حاله هذا بلفظ الشرف ، ويتوهم أنه وصل إلى الحقيقة من معناه ، ومنهم ثالث يسهر ليله ويقطع نهاره بالفكر في وسيلة ينال بها لقباً من تلك الألقاب، أو يحصل بها وساماً أو يستفيد وشاحاً، وسواء عنده الوسائل يطلبها أياً كان نوعها ، وإن أفضت إلى خراب بلاده ، أو تذليل أمته ، أو تمزيق ملته ، وعنده أنه رقي الذروة من معنى الشرف .

نحن نرى هذه الأوهام قائمة مقام الحقائق في أذهان كثير من الناس ولكن لا نظنها طمست عين الحق فيهم ، حتى عموا عن إدراك أخطائهم وانحرافهم عن الصواب في وهمهم . ماذا يجد من نفسه المباهي بقصوره ، وولدانه وحوره ، لا يحس أنه وإن حاز منها أعلى ما يتصوره العقل ، فذاته التي هي أعز لديه من جميع ما كسب لم تستفد شيئاً من الكمال ، وان جميع ما حصله فهو أجنبي عنه، وليس له نسبة إليه إلا نسبة العناء في تحصيله ؟ ألا يرى أن كثيراً ممن بلغ مبلغه أو فاقه ، سلبتهم صروف الدهر ما بأيديهم ، فأصبحوا بصفاتهم وجواهر ذاتهم ، فإن لم تكن على جانب من الكمال الإنساني انخرطت في سلك الطبقات السافلة ، ولم يبق لهم في القلوب منزلة ولا في النفوس مكانة ؟

ماذا يشعر به المفاخر بحليه ولباسه إذا تجرد منه وخلا بنفسه إن لم يكن لذاته حلية من الفضيلة وزينة من الكمال ، ألا يكون هو وعراة الفقراء سواء وألا يجد من سره عند المفاخرة أنه يجول مع الغانيات وربات الخدور ، في ميدان واحد ، ماذا يتصور الزاهي برتبته ، المعجب بوسامه ، إن لم يكن قبل وسمته أو الصعود لرتبته ، على حال تجل ، أو كمال يبجل ، أليس يشعر أنه لو سلب الوسام ، أو نزع عنه الوشاح ، يعود إلى منزلته من الاحتقار فإن نال الكرامة عند بعض السذج واللقب معلق عليه ، أليس ذلك تعظيماً للقب لا للملقب به ، ألا تكون هذه الكرامة عارضاً سريع الزوال ، بل رسماً ظاهراً لا يمس بواطن القلوب ؟

نعم لهذه الألقاب الشريفة شأن يرتفع به النظر إذا سبق بعمل يعترف عموم العالم بشرفه ، وكان اللقب دليلًا عليه أو مشيراً إليه ، كما يكون لمثلها حال يسقط به الاعتبار إذا تقدمها فعلة يمقتها العقلاء من النوع البشري ، وكان الوسام أو اللقب

عنواناً على ما اقترف كاسبه ، وعلامة على ما احترم .

انظر وتدبر ولا تخطىء فما أنت من الصواب ببعيد ، إن عثمان الغازي الذي لقبه أعداؤه بأسد « بلاونه » نال رتبة ومنح لقباً ، وحظي بمكانة رفيعة بين الطبقة العليا من العظماء في دولته بعد ما دفع بروحه للموت في المدافعة عن ملته ، وجاهد في إعلاء كلمة دينه ، بما شهد له الأعداء والأصدقاء ، وان بعض الأمراء في ديار إسلامية علقت عليهم ألقاب شريفة من دولة كدولة الانكليز جزاء لهم على ما تقدموا أمام جيوش أعدائهم ، لافتتاح بلادهم ، حتى مكنوا الانكليز من ديارهم ، وجميع المسلمين الآن يكابدون الجهد في إيجاد الوسائل لخروجهم منها ، أين موقع النيشان من صدر عثمان باشا الغازي من موقعه على صدور أولئك المخدوعين ؟ أظن رجع النظر بين الموقعين يثبت لك أن النيشان يشرف بشرف العمل الذي جعل دليلاً عليه ويسقط بسقوطه .

ماذا غر أولئك الواهمين على اختلافهم ، ألا يعلمون أن الشباب المعلمة بالدم ، الموشاة بالنجيع ، الملونة بالمهج ، هي التي حفظت للابسيها ذكراً حسناً لا ينقطع ، وأثراً مجيداً لا يمحى . إن الذين ضرجوا بدمائهم في طلب المجد لمللهم ، هم الذين خشعت لذكرهم الأصوات ، وأجمعت على فضلهم خواطر القلوب . ألم يصل إليهم أن الذين قضوا نحبهم في غيابات الجب ، وانتهت حياتهم في ظلمات السجن ، لطلب حق مسلوب أو حفظ مجد موجود، هم الذين سما ذكرهم إلى شرف الشمس الأعلى ، وعلت أسماؤهم على جميع الأسماء . أظن أن الذين كانوا في الغرفات العالية ينظرون إلى جناتهم وحدائقهم ، ويشرفون على الناس من شرفات قصورهم ، وقصروا حياتهم على التمتع بما نالوا، لم يبق لهم ذكر ولم يكن لهم في حياتهم شأن ، إلا ما هو محصور في دوائر بيوتهم ، ولا يختلف عنهم أولئك الذين كانوا يسحبون مطارف الرفه ويكتسون حلل الخز والديباج، ذهبوا وذهبت معهم أكسيتهم ، فارتدوا من حيث أتوا لا يعلم متى جاءوا إلى الدنيا ، ومتى انكشوا عنها .

هل سمعنا أن أحداً يُذكر بين بني البشر بأنه نال نيشان كذا وحصل رتبة كذا ؟ نعم يقولون علم وعمل، وأعطى وبذل، ورفع ووضع، وجاهد وكافح، وأباد

وأبقى ، وما يشاكل ذلك من الأعمال التي لها أثر ثابت . إذا ذكر اسكندر الأكبر هل يخطر بالبال إن كان له قصر أو لا . أي أبله يطلب سيرة نابليون الأول في آثار قصر كان يسكنه ، أو في خرق ثياب كان يلبسها ؟ وهل بلغ عظماء العالم ما بلغوا من مقامات الشرف بعد ما شيدوا وزينوا وترفهوا وتنعموا ، أكان جميع ما ينالون من ذلك بعد أن يسودوا ويفتحوا ويغلبوا ويأخذوا بالنواصي ؟ خدع قوم بالأحلام وغرتهم الأوهام ، ففرطوا في شؤون بلادهم وباعوا مجدها الشامخ بتلك الأسماء التي لا مسمى لها ، وزعموا وإن لم تطاوعهم ضمائرهم أنهم رقوا من مكانة الشرف وإن كان خاصاً بهم بعد ما علموا أن الرتب والنياشين جاوزت حدها ، ونالها غير أهلها ، فلو أنهم أصغوا لما تحدثهم به سرائرهم،وتحنفهم به خواطر أفئدتهم، ورمقوا بأبصارهم ما يحيط بهم ، لعلموا أنهم في أخس المنازل وأبعد المزاجر ، وأدركوا خطأهم في معنى الشرف وجورهم عن جادة الصواب في طلبه، لو أحسوا بما رزئت به أوطانهم، وما لصق من الذل والعار بذراريهم ، لطرحوا الوشاحات ، ونبذوا الوسامات ، ولبسوا أثواب الحداد ، ونفروا خفافاً وثقالاً لطلب الشرف الحقيقي .

الشرف حقيقة محدودة كشفتها الشرائع ، وحددتها عقول الكاملين من البشر ، وليس لذي شاكلة إنسانية أن يرتاب في فهمها ، إلا من ختم الله على قلبه ، وجعل على بصره غشاوة .

الشرف بهاء للشخص ، يحوم عليه بالأنظار ، ويوجه إليه الخواطر والأفكار، وجمال يروق حسنه في البصائر،والأبصار ومشرق ذلك البهاء عمل يأتيه طالبه يكون له أثر حسن في أمته أو بني ملته ، أو في النوع الإنساني عامة ، كإنقاذ من تهلكة ، أو كشف لجهالة ، أو تنبيه لطلب حق سلب ، أو تذكير بمجد سبق وسؤدد سلق ، أو إنهاض من عثرة أو إيقاظ من غفلة ، أو إرشاد لخير يعم أو تحذير من شر يغم ، أو تهذيب أخلاق أو تثقيف عقول ، أو جمع كلمة وتجديد رابطة ، أو إعادة قوة وانتشال من ضعف ، أو إيقاد حمية أو خصومة لغيرة .

من أتى عملاً من الأعمال له أثر من هذه الآثار فهو الشريف وإن كان يسكن الخصاص والأكواخ ، ويلبس الدلوق والأسمال ، ويقتات بنبات البر ، ويبيت على

تراب الفقر ، ويتوسد نشز الأرض ، ويضرب في كل واد ، ويتردد بين الربى والوهاد . هذا له حلية من عمله ، وزينة من فضله ، وبهاء من كماله ، وضياء من جده ، يهدي إليه ضالة الألباب ، وتائهة الأفئدة ، تعرفه المشاعر الحساسة ولا تنكره ، وتكتنفه دارات القلوب المتطايرة إليه ولا تنفصل عنه ، له من روحه قصور شاهقة ، وغرفات شائقة ، ومناظر رائقة ، وجمال باهر ، ونور زاهر ، لا يكاد يخفى حتى يظهر ، ولا يكاد يستتر حتى يبصر ، إليه يصعد الكلم الطيب ، والعمل الصالح ، يرفعه إلى أعلى عليين ، حياة طيبة في القلوب وعزة مشرقة في جبهة الزمان « وفي ذلك فليتنافس المتنافسون » .

نعم قد ينبعث عليه من أرباب الطباع الفاسدة بعض الكرائه ، فيسلقونه بالألسنة ، ويرشقونه بسهام اللوم ، ولا تروق في أنظارهم أزهار أعماله ، ولا أنوار مزاهره ، لبعدها عن فهمهم ، وغرابتها على حواسهم ، لما ألفوه من الانكباب على تلك السفاسف الساقطة ، التي عدوها شرفاً ، وحسبوها مجداً ، وقد بيناها كما كشفتها الشرائع ورآها العقلاء ، وإنما مثلهم مثل الجعل ينفر من رائحة الورد ، ويألف روائح القذر ، لا يبعد أن يسخر بالعامل الفاضل أناس لا خلاق لهم ، أو يقصده بالأضرار من لا ذمة له ، ولكنهم بأنفسهم يهزأون ، وبمصالحهم يضرون ، ولا يطول عليهم الزمان في هذا العمى ، بل لا يلبثون إذا بدت الثمرة الشهية أن يهرعوا لاقتطافها ، ويطعموا من جناها ، ولا يسعهم بعد ذلك إلا الحمد لغارس الشجرة ، وحافظ الثمرة ، وإن كان دونهم في تلك الزخارف التي لا قيمة لها في نظر العاقل ثم يكون عقابهم على ما فرط منهم ندماً على الخطيئة ، وأسفاً على السيئة وألماً في قلوبهم تهيجه ذكرى ما قاموا من سوء عملهم ، وانكشاف نقصهم لدى وجدانهم ، وهكذا تمنح العناية الإلهية هذه الكرامة لصاحب العمل الشريف ما دام حياً ، فإذا غابت شمسه عن أفق هذا العالم لم تحجب أشعة ضيائه التي فاضت منه على نجوم هاديات ، وبدور منيرات . نعم إنه يموت ويتوارى خلف حجاب العدم بجسمه ، ولكنه قائم في الأفئدة ، شاهد على الألسنة ، حي يرزق عند ربه ، ونعمة الحياة حياته ، ولمثل هذا فليعمل العاملون .

الأمة وسلطة الحاكم المستبد

« وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون »

إن الأمة التي ليس لها في شؤونها حل ولا عقد ، ولا تستشار في مصالحها ، ولا اثر لإرادتها ، في منافعها العمومية ، وإنما هي خاضعة لحاكم واحد إرادته قانون ، ومشيئته نظام ، يحكم ما يشاء ويفعل ما يريد ، فتلك أمة لا تثبت على حال واحد ، ولا ينضبط لها سير . فتعتورها السعادة والشقاء ، ويتداولها العلم والجهل ، ويتبادل عليها الغنى والفقر ، ويتناوبها العز والذل ، وكل ما يعرض عليها من هذه الأحوال خيرها وشرها فهو تابع لحال الحاكم ، فإن كان حاكمها عالماً حازماً أصيل الرأي ، عليّ الهمة ، رفيع المقصد قويم الطبع ، ساس الأمة بسياسة العدل، ورفع فيها منار العلم ومهد لها طرق اليسار والثروة ، وفتح لها أبواباً للتفنن في الصنائع ، والحذق في جميع لوازم الحياة ، وبعث في أفراد المحكومين روح الشرف والنخوة ، وحملهم على التحلي بالمزايا الشريفة من الشجاعة والشهامة وإباء الضيم ، والأنفة من الذل ، ورفعهم إلى مكانة عليا من العزة ، ووطأ لهم سبل الراحة والرفاهية وتقدم بهم إلى كل وجه من وجوه الخير .

وإن كان حاكمها جاهلاً سيء الطبع ، سافل الهمة ، شرهاً مغتلماً جباناً ، ضعيف الرأي ، أحمق الجنان ، خسيس النفس ، معوج الطبيعة ، أسقط الأمة بتصرفه إلى مهاوي الخسران ، وضرب على نواظرها غشاوات الجهل ، وجلب عليها غائلة الفاقة والفقر، وجار في سلطته عن جادة العدل، وفتح أبواباً للعدوان. فيتغلب القوي على حقوق الضعيف ، ويختل النظام ، وتفسد الأخلاق وتخفض الكلمة . ويغلب اليأس فتمتد إليها أنظار الطامعين ، وتضرب الدول الفاتحة بمخالبها في أحشاء الأمة .

عند ذلك إن كان في الأمة رمق من الحياة وبقيت فيها بقية منها ، وأراد الله بها خيراً اجتمع أهل الرأي وأرباب الهمة من أفرادها وتعاونوا على اجتثاث هذه

الشجرة الخبيثة . واستئصال جذورها قبل أن تنشر الرياح بذورها وأجزاءها السامة القاتلة بين جميع الأمة ، فتميتها وينقطع الأمل من العلاج . وبادروا إلى قطع هذا العضو المجذم قبل أن يسري فساده إلى جميع البدن فيمزقه . وغرسوا لهم شجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء . وجددوا لهم بنية صحيحة سالمة من الآفات « استبدلوا الخبيث بالطيب » وإن انحطت الأمة عن هذه الدرجة وتركت شؤونها بيد الحاكم الأبله الغاشم يصرفها كيف يشاء ، فأنذرها بمضض العبودية ، وعناء الذلة ووصمة العار بين الأمم . جزاء على ما فرطوا في أمورهم . وما ربك بظلام للعبيد .

أسباب حفظ الملك

« أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها او آذان يسمعون بها ، فانها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور »

أهلك الله شعوباً ، وأباد قبائل ، ودمّر بلاداً ، ولا يزال عدل الله يبدل قوماً بقوم ويأتي لكل حين بأناس آخرين ، حكيم سبقت رحمته غضبه ، جعل لكل عمل جزاء ، وعين بحكمته لكل حادث سبباً « ولا يظلم ربك أحداً » وليست أفعاله جزافاً ، ولا يصدر عنه شيء عبثاً ، أمر الله عباده بالسير في الأرض « قل سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين » ليريهم قضاءه الحق وحكمه العدل ، فيمن سلف ومن خلف ، فيطيعوا أوامره ، ويقفوا عند حدود شرائعه ، ويفوزوا بخير الدنيا وسعادة الآخرة ، من كان له قلب يعقل وعين تبصر ، وعقل يفقه ، وتتبع حوادث العالم ، وتدبر كيفية إنقلاب الأمم ، وخاض في تواريخ الأجيال الماضية ، واعتبر بما قص الله علينا في كتابه المنزل ، يحكم حكماً لا يخالطه ريب ، بأنه ما حاق السوء بأمة وما نزلت بها نازلة البلاء، وما مسها الضر في شيء إلا وكانت هي الظالمة لنفسها ، بما تجاوزت حدود الله وانتهكت حرماته ، ونبذت أوامره

العادلة ، وانحرفت عن شرائعه الحقة ، وحرفت الكلم عن مواضعه ، وأوّلت من كلامه تعالى على حب الأهواء والشهوات .

كما أن للأغذية والأدوية ، واختلاف الفصول والأهويـــة ، أثراً ظاهراً في الأمزجة بتقدير العزيز العليم ، كذلك اقتضت حكمة الله أن يكون لكل عمل من الأعمال الانسانية ، ولكل طور من أطوار البشر ، أثر في الهيئة الاجتماعيـة ، ولهذا كان من رحمته بعباده تحديد الحدود ، وتقرير الأحكام ليتبين الخير من الشر ، ويتميز النفع من الضر ، فأرسل الرسل ، وأنزل الكتب ، فمن خـــالف الأوامر الإلهية فقد ظلم نفسه ، فليستعد لخزي الدنيا وعذاب الآخرة .

إن تأثير الفواعل الكونية في أطوار الحيـاة قد يخفى سببه حتى على الطبيب الماهر ، أما تأثير أحوال بني الانسان في هيئة اجماعهم ، فيسهل على سره لكل ذي إدراك ، إن لم تكن عين بصيرته عمياء .

ألم تر أن الله جعل اتفاق الرأي في المصلحة العامـة والاتصال بصلة الألفة في المنافع الكلية سبباً للقوة واستكمال لوازم الراحة في هذه الحياة الدنيا ، والتمكن من الوصول لخير الأبد في الآخرة ، وجعل التنازع والتغابن علة للضعف ، وداعيـاً للسقوط في هوة العجز عن كل فائدة دنيوية أو أخروية ، ومهياً لوقوع المتنازعين في مخالب العاديات من الأمم ، فمن نظر نظرة في أحوال الشعوب ماضيها وحاضرها ، ولم يكن مصاباً بمرض القلب، وعمى البصيرة، أدرك سر أمر الله في قوله «واعتصموا بحبل الله جميعاً » وسر نهيه في قوله : « ولا تفرقوا ، ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم » أي جاهكم وعظمتكم وعلو كلمتكم .

إن الله تعالى يجعل الركون إلى من لا يصح الركون إليه، والثقة بمن لا تنبغي الثقة به ، سبباً في اختلال الأمر وفساد الحال ، فمن وثق في عمله بمن ليس منه في شيء ، ولا تجمعه معه جامعة حقيقية ، ولا تصله به رابطة صحيحة، وليس في طبعه ما يبعثه على رعاية مصلحته ، أو كتم سره ، ولا ما يحمله على بذل الجهد في جلب منفعته ، ودفع المضار عنه ، فلا ريب يفسد حاله ، ويسوء مآله ، وإن كان ملكاً ضاع ملكه أو أميراً بطل أمره والحوادث عاهدة ، وأحوال المغرورين ناطقة ، فمن

لم يرزأ بعمى البصيرة يدرك بأول التفات سر نهي الله تعالى في قوله : « لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق » وقوله : « لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالاً ودوا ما عنتم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر » وسائر نواهيه المبنية على الحكمة البالغة المرشدة إلى مصالح الدارين .

لكل شخص في طبقته من أمته عمل مفروض عليه ، وواجب يلزمه القيام به ، ليحفظ بذلك لنفسه حياة طيبة في هذه الدنيا ، ويعد لها مآلاً صالحاً في الآخرة، وهو إنسان له قلب واحد ، لو جعل معظم همه في شيء فانه سائر الأشياء ، فلو توغل في الشهوات ، وبالغ في الترف ، وبطر فيما أنعم الله عليه ، فقد أغفل فرائضه ، وأضر بنفسه ، وحرم من منافعه ، وحل به من عقاب الله أشد الوبال ، وخسر الدنيا والآخرة معاً ، وربما مست آثار أعماله بالسوء من يجاوره ، واحترق بناره الموقدة بفساد أخلاقه ، وانحرافه عن سنن الحق من يساكنه في بلدته ، أو يواطنه في مدينته ، وهذه آثار المترفين في كل أمة تنطق بما لا يعجم إلا على أذن صماء ، وتشهد بما لا يخفى إلا على بصيرة كمهاء ، وإن فيما قص الله علينا من أحوال المترفين لأكبر عبرة « وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم إلا قليلاً وكنا نحن الوارثين ، حتى إذا أخذنا مترفيهم بالعذاب إذا هم يجأرون ، لا تجأروا اليوم إنكم منا لا تنصرون ، ذلكم بما كنتم تفرحون في الأرض بغير الحق وبما كنتم تمرحون » هذه عواقب اللاهين .بحظوظهم عما أوجب الله عليهم « ومن أعرض عن ذكري فان له معيشة ضنكاً ونحشره يوم القيامة أعمى » .

ما أوتي الانسان من العلم إلا قليلاً ، لا يمكن لانسان وحده أن يحيط بوجوه المنافع الخاصة بنفسه ، ولا أن يطلع على منابع فوائده ليكسبها ، أو يكشف مكامن مضاره فيتقيها ، خلق الانسان ضعيفاً فأرشده الله للاستعانة بغيره من بني جنسه « وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا » خلقنا محتاجين للعون مضطرين للصبر وهدانا ربنا للتعاون والتناصر .

هذا ما يحكم به العقل في المصالح الخاصة ، فكيف لو كان شخص ولاه الله رعاية

أمة ، وألقى إليه بزمام شعب مصالحه التامة تحت إرادته، وهو الوازع فيه والواضع والرافع ، لا ريب أن مثل هذا الشخص أحوج إلى المشورة والاستفادة من آراء العقلاء وهو أشد افتقاراً إلى ذلك ممن يكون سعيه لمتعلقات ذاته ، وتكون سعة دائرة افتقاره إلى التشاور على مقدار سعة سلطانه ، وقد أمر الله نبيه وهو المعصوم من الخطأ تعليماً وإرشاداً فقال: « وشاورهم في الأمر » وقال فيما امتدح به المؤمنين: « وأمرهم شورى بينهم » أي بصر يزوغ عن هذا الصراط المستقيم ، أي بصيرة لا تهتدي إلى هذا المنهج القويم « أفلم يدبروا القول أم جاءهم ما لم يأت آباءهم الأولين » .

إن وازع البلاد والقائم على الملك لو ألمح لمحة إلى نفسه لرأى أن بلاده في كل وقت معرضة لأطماع الطامعين، وان الحرص المودع في طباع البشر ، يحرك جيرانه كل آن للسطوة على ممالكه ليذلوا قومه ، ويستعبدوا أهله ، ويستأثروا بمنافع أرضهم وثمار كدهم ، ويمحوها أبناء جلدتهم ، فعليه وعلى من يشركه في أمره من عماله ، والحكام النائبين عنه في إيالاته ، وقواد جيشه ، وعلى كل أرباب الرأي ، ومن بهم قوام الملك، أن يستعدوا لدفع طوارىء العدوان ، ورفع نوازل الغارات الأجنبية، فلو فرطوا في إعداد لوازم الدفاع ، أو تساهلوا فيما يكف عنهم سبل الأطماع ، أو تهاونوا فيما يشد قوتهم ، ويقوي شوكتهم ، بأي وجه كان ، ومن أي نوع كان ، فقد عرضوا ملكهم للهلاك ، وألقوا بأنفسهم في مهاوي الأخطار .

هذا مما يفهمه الأبله والحكيم ، ويصل إليه إدراك الجاهل والعليم ، وهو سر الافصاح والابهام في قوله تعالى : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة » أمر بإعداد القوة ووكلها إلى الطاقة وحكم الاستطاعة، على حسب ما يقتضيه الزمان، وما تكون عليه حالة من تخشى غوائلهم ، هذا أمر الله ينبه الغافل ، ويذكر الذاهل «فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً » .

إعطاء كل ذي حق حقه ، ووضع الأشياء في مواضعها ، وتفويض أعمال الملك للقادرين على أدائها ، مما يوجب صيانة الملك ، وقوة السلطان ، ويشيد بناء السلطة ، ويحكم دعائم السطوة ، ويحفظ نظام الداخل من الخلل ، ويشفي نفوس الأمة من

العالم ، هذا ما تحكم به بداهة العقل وهو عنوان الحكمة التي قامت بها السموات والأرض ، وثبت بها نظام كل موجود ، وهو العدل المأمور به على لسان الشرع في قوله تعالى : « إن الله يأمركم بالعدل والاحسان » كما أن الجور عن الاعتدال والميل عن سبيل الاستقامة في كل جزء من أجزاء العالم يوجب فناءه واضمحلاله ، كذلك الجور في الجمعيات البشرية يسبب دمارها ، لهذا حثت الأوامر الإلهية على العدل ، وكثر النهي في الكتاب المجيد عن الظلم والجور ، والحكام أولى من توجه إليه الأوامر والنواهي في هذا الباب ، العدل هو الحكمة التي امتن الله بها على عباده ، وقرنها بالخير الكثير فقال : « ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً » هي مظهر من أجل مظاهر صفاته العلية ، فهو الحكم العدل وهو اللطيف الخبير .

من سار في الأرض ، وتتبع تواريخ الأمم ، وكان بصير القلب ، علم أنه ما ينهدم بناء ملك ، ولا انقلب عرش مجد ، إلا لشقاق واختلاف ، أو ثقة بمن لا يوثق به ، وتخلل العنصر الأجنبي ، أو استبداد في الرأي ، واستنكاف عن المشورة ، وإهمال في إعداد القوة ، والدفاع عن الحوزة ، أو تفويض الأعمال لمن لا يحسن أداءها ، ووضع الأشياء في غير مواضعها ، فيكون جور في الحكم ، واختلال في النظم ، وفي كل ذلك حيد عن سنن الله ، فيحل غضبه بالخاطئين ، وهو أحكم الحاكمين .

لو تدبرنا آيات القرآن ، واعتبرنا بالحوادث التي ألمت بالممالك الإسلامية ، لعلمنا أن فينا من حاد عن أوامر الله وضل عن هديه ، ومنا من مال عن الصراط المستقيم الذي ضربه الله لنا وأرشدنا إليه ، وبيننا من اتبع أهواء الأنفس وخطوات الشيطان « ذلك بأن الله لم يك مغيراً نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وأن الله سميع عليم » فعلى العلماء الراسخين وهم روح الأمة ، وقواد الملة المحمدية ، أن يهتموا بتنبيه الغافلين عن ما أوجب الله ، وإيقاظ النائمة قلوبهم عما فرض الدين ، ويعلموا الجاهل ، ويزعجوا نفس الذاهل ، ويذكروا الجميع بما أنعم الله به على آبائهم ، ويستلفتوهم إلى ما أعد الله لهم لو استقاموا ، ويحذروهم سوء العاقبة لو لم يتداركوا أمرهم بالرجوع إلى ما كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه ورفض

كل بدعة ، والخروج عن كل عادة سيئة ، لا تتطبق على نصوص الكتاب العزيز ، ويقصوا عليهم أحوال الأمم الماضية ، وما نزل بها من قضاء الله عندما حادت عن شرائعه ، ونبذت أوامره « فأذاقهم الله الخزي في الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون » .

على العلماء أن يزيلوا اليأس بتذكير وعد الله ووعده الحق في قوله تعالى: « وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا » هذه وظيفة العلماء الراسخين وما هم بقليل بين المسلمين، ولا نظنهم يتهاونون فيما فوض الله إليهم ، ووكل إلى ذمتهم ، وهم أمناء الدين وحملة الشرع ، ورافعو لواء الاسلام ، وأوصياء الله على المؤمنين ، أعانهم الله على خير أعمالهم ، ونفع بهم المؤمنين بإرشادهم .

الوهم

« اللهم اكشف عن بصائرنا ستار الأوهام حتى نرى الحقائق كما هي كيلا نضل ونشقى » .

ألا قاتل الله الوهم ، الوهم طوراً يكون مرآة المزعجات ، ومجلى المفزعات ، وطوراً يكون ممثلاً للمسرات ، حاكياً للمنعشات ، وهو في جميع أطواره حجاب الحقيقة ، وغشاء على عين البصيرة ، لكن له سلطان على الإرادة وحكم على العزيمة ، فهو مجلبة الشر ، ومنفاة الخير .

الوهم يمثل الضعيف قوياً ، والقريب بعيداً ، والمأمن مخافة ، والموئل مهلكاً . الوهم يذهل الواهم عن نفسه ، ويصرفه عن حسه ، يخيل الموجود معدوماً ، والمعدوم موجوداً . الواهم في كون غير موجود ، وعالم غير مشهود ، يخبط فيه خبط المصروع ، لا يدري ماذا أدركه وماذا تركه . الوهم روح خبيث يلابس الروح

الإنسانية وهي في ظلام الجهل ، إذا خفيت الحقائق تحكمت الأوهام ، وتسلطت على الإرادات فتقود الواهمين إلى بيداء الضلالة ، فيخبطون في مجاهيل ، لا يهتدون إلى سبيل ولا يستقيمون على طريق .

كان الانكليز أمة مجتمعة القوى ، مستكملة العدد مستعدة للفتوحات ، وذلك في زمان بليت فيه الأمم الشرقية بتفريق الكلمة ، واختلاف الأهواء ، وحجبت بالجهل عن معرفة أحوال الغربيين وصنائعهم وعوائدهم ، فكان الشرقيون يعدون كل غريبة معجزة ، وكل بديع من الاختراع سحراً أو كرامة ، فانتهز الانكليز تلك الفرصة واندفعوا إلى الشرق وبسطوا سلطتهم على غالب أرجائه ، وما دهموا سكانه إلا ببعض غرائب الصنعة الأوربية التي أثارت فيهم خواطر الأوهام ، ثم زاد الوهم قوة ما نصبه الانكليز من حبائل الحيلة والمكر ، حتى خلبوا قلوب المساكين وأذهلوهم عما في أيديهم ، بل أخذوهم عن عقولهم وخطرات قلوبهم ، فسلبوا أموالهم، وانتزعوا منهم أراضيهم ، وأجلوهم عن أملاكهم ، فاستغنت الأمة الانكليزية بما سلبت ، وأثرت بما نهبت ، وترفهت بما ملكت ، واليوم تراها حاكمة على أقطار واسعة ، وأنحاء شاسعة ، وقواها منقسمة على تلك الأقطار ، متوزعة فيها، فلا ترى في كل إيالة من إيالاتها الشرقية إلا نزراً من العدد والعدد ، وهي في جميعها ضعيفة واهنة ، لا تستطيع ذوداً ولا دفاعاً ، وإن أخف حركة في تلك الأنحاء توجب زعزعة في تلك القوة أو هدمها بالمرة ، وقد ظهر هذا الأمر على الأمة الانكليزية ، فهي دائماً في رجفة على أملاكها ، في خيفة من تمزقها وضياعها ، تتوجس من كل حادثة في العالم ، وتقلق لأية حركة تحدث في الوجود ، وكل ملمة تلم بالشرق أو الغرب توجب بحدوثها زلزلة في قوى الانكليز المتوزعة في الأنحاء الضعيفة في جميع الأرجاء .

ومع هذا كله نرى الأمر لم يزل خفياً على الشرقيين ، محجوباً عنهم بحجاب الوهم، يمثل الوهم لكل شرقي أن الانكليز على ما كانوا عليه في ماضي زمانهم ، فمثل الشرقيين مع الانكليز كمثل مار في مفازة يرى بها جثة أسد مطروحة على طريقه فاقدة الحياة عديمة الحراك فيتوهمها سبعاً ضارياً ومفترساً قوياً فينكب عن الطريق

وهماً وريبة بدون تحقيق لما تخوف منه ، يرتعد ويسقط ويموت خوفاً أو يضل بعد ذلك عن الجادة وتختلط عليه مسالك الوصول إلى غايته وربما صادف مهلكة في ضلاله ومتلفة في غيه ، بل لا نخطىء إن قلنا إن هذا الوهم كان متسلطاً على الغربيين كما هو متسلط على الشرقيين ، فالأوربيون كانوا ينظرون إلى انكلترة في أملاكها البعيدة كما ينظرون إليها في جزائر بريطانيا وكانت حكومة انكلترة متحصنة ممتنعة في هذه القبة الوهمية ، متربعة على عرش هذه العظمة الخيالية ، يحس الانكليز بضعف قوتهم فيجتهدون دائماً في ستره ولا ستار أكشف من الوهم ، ولهذا نراهم في كل حادثة يجلبون ويصيحون ويزأرون ليثيروا بالضوضاء هواجس الأوهام ، فتحول أنظار الناظرين ، وتغشى بصائر المستبصرين ، فتحول دون استطلاع الحقيقة ، وإلا فقليل من الإلتفات يكشفها فتقوم قيامة الخراب على الانكليز .

ذهب الانكليز إلى الهند في قوى مجتمعة وتسابقوا مع فرنسا وهولندا والبرتغال في ميدان الأراضي الهندية الواسعة فحازوا في هذه المباراة قصب السبق بما امتازوا به من الدهاء والمكر ، وبما ساعدهم على ذلك من غفلة الهنديين لذاك العهد أو طيب قلوبهم ، فمالت النفوس إلى الانكليز اغتراراً وتغلبوا على تلك البلاد واستقلوا بأمرها شيئاً فشيئاً وما أبقوا لغيرهم من الدول إلا مضائق من الأرض لا تذكر ، وأول ما استمالوا به القلوب السالمة قولهم إننا نريد تخليصكم من هذه الدول الظالمة (فرنسا وهولندا والبرتغال) فإنها تريد التسلط على ممالككم ، أما نحن « الانكليز » فلا نريد إلا تحريركم واستقلالكم . ثم إنا نرى للانكليز الآن في الهند والهند الصينية ، وبورما سلطة على نحو مائتين وخمسين مليوناً من النفوس جميعها كاره لتلك السلطة الانكليزية ، طالب للتخلص منها ، يفضل أية سلطة سواها ، ظالمة كانت أو عادلة ، كأنما يتصور كل واحد من أفراد تلك الأمم أنه لا توجد حكومة في العالم تبلغ في ظلمها مبلغ الانكليز ، ولا تصل إلى ما وصل إليه الانكليز في الكبرياء والجبروت ، ولكن مع هذه البغضاء الآخذة بقلوب أولئك الرعايا ، ومع سعة ديارهم وتباعد أرجائها ، وشدة ميلهم للتملص من تلك السلطة الظالمة ، لا يوجد فيهم قوة تقهرهم على الخضوع لتلك الحكومة المبغوضة إلا خمسون ألف جندي انكليزي ، مع أنه

يوجد من الممالك الصغيرة التي لها نوع من الاستقلال وتخشى زوال ما بقي لها ، ما لو جمعت قواها لبلغت أكثر من ثلاثمائة ألف جندي ، هـذا فضلاً عمن يمكنه حمل السلاح من أهالي البلاد التي دخلتها الحكومة الانكليزية وزال استقلالها بالمرة ، فلولا الوهم الذي استولى على المشاعر والحواس حتى أذهلها عما بين يديها ، بل عما هو موجود فيها، ما بقيت هذه النفوس الكثيرة العدد الفائقة القوة في قبضة قوم ضعاف يسومونهم عذاب الذل والهوان ، ولو لمح أولئك المساكين أنفسهم لمحة اعتبار ، وأدركوا ما آتاهم الله من القوة الطبيعية ، ونظروا إلى ضعف الانكليز في الحالة الحاضرة لرأوا موئل الخلاص بين أيديهم ، وملجأ النجاة تحت أرجلهم ، وعلموا أن استقلالهم لأنفسهم وبلادهم ، لا يحتاج إلى تجشم تعب ولا تكلف مشقة ، ولا يدعو إلى بذل أموال وافرة ، ولا سفك دماء غزيرة .

يوجد في الدول الأوربية من يهاب دولة الانكليز اعتباراً لما في سلطتها من الممالك الواسعة والأمم العظيمة مما لم يبلغ عدده رعية دولة من الدول ، ويقيس شأنها وقوتها في تلك الأطراف القاصية بما يراه في جزائر بريطانيا ويظن أن لها قدرة على الدفاع عن تلك الممالك تساوي قدرتها عليه في بريطانيا أو تقرب منها . ولم يلتفت إلى ان جسم الانكليز قد مد في الطول والعرض إلى حد لو حصلت فيه أدنى هزة لتقطعت أوصاله (رق حتى انقطع) تفرقت قواهم في بسيط الأرض حتى لم تبق لهم في موضع قوة ، ورعاياهم في كل صقع في ضجر لا مزيد عليه يترقبون في كل آن زحفاً من خارج يعينهم على ما يقصدون من النكاية بحكامهم الظالمين ، لو التفتت تلك الدولة التي تهاب انكلترة إلى حقيقة الأمر لما احتاجت في معارضتها ومنازلتها إلى تدبر ولا مشورة ، فقد وصل الأمر من الظهور إلى حد لا يحتاج إلى دقة الفكر لولا حجاب الوهم . قاتل الله الوهم .

إن العثمانيين ينظرون إلى دولة الانكليز كما ينظرون إلى دولة الروس مع ملاحظة ان دولة انكلترة تحكم على مائتين وخمسين مليوناً من النفوس فيظنون لهذا النظر ان معارضة هذه الدولة ربما تجلب الضرر ، وليتهم مدوا أنظارهم إلى ما وراء ذلك ليتبين لهم قوتها العسكرية ، وماذا يمكنها أن تسوق من الجنود إلى ميادين القتال ،

ويتضح لهم أن هذه الملايين الكثيرة لا اعتداد بها في قوة دولة انكلترة ، فإنما هي في الحقيقة قوة لأعدائها عليها ، وهي في ارتقاب الفرص لخلع طاعتها ، فمتى ارتبكت دولة انكلترة بالحرب مع دولة أخرى رأيت مائتين وخمسين مليوناً تقاتل عساكر الانكليز خصوصاً خمسين مليوناً من المسلمين في حكومة انكلترة يعدون الدولة العثمانية قبلة لهم وملاذاً يلجأون إليه وهم أول قوم حربيين في البلاد الهندية . ليت العثمانيين يعلمون ان دولة انكلترة إنما تستميل المسلمين في الهند بكونها حليفة الدولة العثمانية ونصيرة لها ومدافعة عن حقوقها، أما والله لو علم العثمانيون ما لهم من السلطة المعنوية على رعايا الانكليز واستعملوا تلك السلطة استعمال العقلاء لما تجرعوا مرارة الصبر على تحكمات الانكليز وحيفهم في أعمالهم ، وتعديهم على حقوق السلطان في مثل المسألة المصرية التي هي في الحقيقة أهم مسألة عثمانية أو إسلامية .

إن سكنة مصر كانوا أيام عرابي على قسمين ، قسم يروم حفظ الحالة القديمة والوقوف عند ما يرسم به توفيق باشا ، وقسم كان يميل بأحد جانبيه إلى عرابي ، ويهاب بالجانب الآخر سلطة الرسم القديم ، فكان هذا القسم الثاني في ريبة من أمره ولا عزيمة مع الريب ، والقسم الأول مخلد إلى الفشل ، فدخل الانكليز بلا حرب حقيقية وإنما بنوع من الترهيب وقليل من الترغيب وخفيف من الدسائس ، صادف قلوباً مستعدة فأخذ منها مقاماً ، فانحلت الرابطة وتفرق الناس عن عرابي بزوال جانب الميل إليه من قلوبهم . ومع ذلك ما كان يعتقد واحد منهم ان الانكليز يبتغون من البلاد شيئاً سوى أنهم يؤيدون توفيق باشا وينقذونه من الثائرين عليه ، فتساهل المصريون في الأمر بحسن ظنهم في حكومة الانكليز مع ما جاءتهم من الحجة القوية القائمة على ان صاحب السيادة الشرعية في رضاء عن تصرفها، بهذا فاز الانكليز واستقرت أقدامهم . أما وقد مضى الزمان الكافي لظهور غدرهم ، وسوء نيتهم ، فلا يوجد من الأهالي المصريين من يميل إليهم ، بل لا يوجد إلا من يبغضهم ويتمنى فناءهم ، ويود لو يعمل عملاً لهلاكهم ، ولكن الوهم يجسم المخافة ويكبح العزيمة . إن أهالي مصر كأنهم ذهلوا عن الأسباب التي مكنت الانكليز من بلادهم ، كأنهم يظنون أن المصريين كانوا على كلمة واحدة في مدافعة الانكليز ، ثم تغلبت عليهم

القوة الانكليزية وقهرتهم جميعاً ، كأن المصريين نسوا ما كان بينهم، وان الانكليز ما دخلوا بلادهم إلا بمعونتهم . هذا هو الوهم العجيب . إن الذين كانوا من مدة سنتين سبباً في تغلب العساكر الانكليزية وحلولها في وادي النيل وأنه لولاهم ما استقر لها قدم فيه ، يظنون الآن ان تلك العساكر قادرة على قهر الأهالي عموماً وإخضاعهم لحكومة بريطانيا . وبهذا الظن الباطل يستسلمون لأعدائهم كرهاً ويجارونهم في أهوائهم نفاقاً . هلا ينظر المصريون نظرة متأمل إلى القوة الانكليزية ليعلموا ان ليس في طاقة بريطانيا لو أفرغت جهدها أن تبعث إلى مصر والسودان أزيد من عشرين ألف جندي . ألا يعلمون انه إذا اشتغل الجند الانكليز بالسودان وحصلت حركة خفيفة في الشرقية والبحيرة والفيوم لارتبك الانكليز وخارت عزائمهم والتجأوا لترك البلاد لأهلها . ألا قاتل الله الوهم .

إن للانكليز قوة حربية بحرية لا تنكر ، ولكن مبلغ تلك القوة البحرية هو الذي ظهر أثره في سواكن . لا يمكن أن تعمل عملاً فيما يبعد عن البحر أكثر من فرسخين ، فلو فرضنا ان الانكليز أطلقوا قنابلهم على السواحل فهل في استطاعتهم ان يقيموا تحت ظلال القنابل إلى أبد الآبدين ، إذا كان الأهالي في داخل البلاد يناوئونهم وليس لهم من القوة العسكرية البرية ما يقهرهم على الطاعة . ليس في الأمر شيء سوى الوهم . هذا الوهم تمزقت حجبه عن بصائر الغربيين فعلموا من هم الانكليز .. ضعيف يسطو على حقوق الأقوياء . صوت عال وشبح بال . قامت الدول على معارضتهم لعلمها ان الانكليز صاروا للأمم كالدودة الوحيدة على ضعفها تفسد الصحة وتدمر البنية . لكن بقي أن يزول هذا الوهم عن الشرقيين حتى يستفيدوا من هذه الحركات ويستقلوا بأمورهم ولا ينتقلوا من عبودية إلى أخرى ، ولا يستبدلوا سيداً أجنبياً بسيد آخر . اللهم ارفع عنا حجب الأوهام وهيىء لنا الرشد في أمورنا ، واحفظنا من الغواية واهدنا إلى خير نهاية .

الجبن

« أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة »
« قل إن الموت الذي تفرون منه فانه ملاقيكم »

شهد العيان ودلت الآثار على ما صدر من بعض أفراد الإنسان من أعمال تحير الألباب ، وتدهش الأفكار ، ينظر إليها ضعفاء العقول ، فيعدونها معجزات، وإن لم تكن في أزمنة النبوات ، ويحسبونها خوارق عادات ، وإن لم تكن من تحدي الرسالات، وقد ينسبها الغفل إلى حركات الأفلاك، وأرواح الكواكب ، وموافقة الطوالع ، ومن القاصرين من يظنها من أحكام الصدف ، وقذفات الاتفاق ، عجزاً عن إدراك الأسباب ، وفهم الصواب ، وأما من آتاه الله الحكمة، ومنحه الهداية ، فيعلم ان الحكيم الخبير جل شأنه ، وعظمت قدرته ، أناط كل حادث بسبب، وكل مكسوب بعمل ، وانه قد اختص الانسان من بين الكائنات بموهبة عقلية ، ومقدرة روحانية ، يكون بها مظهراً لعجائب الأمور ، وبهذه المقدرة وتلك الموهبة مناط التكاليف الشرعية ، وبهما استحقاق المدح أو الذم عند العقلاء والثواب أو العقاب عند واسع الكرم سريع الحساب .

إذا رجع البصير إلى القياس الصحيح ، رأى في تشابه القوى الانسانية ، وتماثل الفطرة البشرية ، ما يدل على تقارب العقول بل على استواء المدارك ، وأرشده الفكر السليم إلى أن فضل الله قد أعد كل إنسان للكمال ، ومنحه ما يكون به مصدراً لفضائل الأعمال ، على تفاوت لا يظهر به الاختلاف بينها إلا للنظر الدقيق . هنا وقفة الحيرة .. استعداد فطري للكمال في خلقة الانسان ، ميل كلي في كل فرد لأن ينفرد بالفخار ، ويمتاز بجلائل الآثار ، وفضل عام من الجواد المطلق سبحانه وتعالى ، لا يخيب طالباً ، ولا يرد سائلاً ، إذا صدق القاصد في قصده ، وأخلص السالك في جده ، فما العلة في إخلاد الجمهور الأعظم من بني الانسان إلى دنيات المنازل وقصورهم عن الوصول إلى ما أعدته له العناية ويستفزهم إليه الميل الغريزي ،

خصوصاً إن كانت النفوس مؤمنة بعدل الله مصدقة بوعده ووعيده ، ترجو ثواباً على الباقيات الصالحات ، وتخشى عقاباً على ارتكاب الخطيئات ، وتعترف بيوم العرض الأكبر ، يوم تجزى كل نفس بما كسبت « من يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره » ماذا يقعد بالنفوس عن العمل، ماذا ينحدر بها في مزالق الزلل . إذا ردت المسببات إلى أسبابها ، وطلبت الحقائق من حدودها ورسومها وجدنا لهذا علة هي أم العلل ، ومنشأ يقرن به كل خلل « الجبن » .

الجبن هو الذي أوهى دعائم الممالك فهدم بناءها . هو الذي قطع روابط الأمم فحل نظامها . هو الذي أوهن عزائم الملوك فانقلبت عروشهم ، وأضعف قلوب العالمين فسقطت صروحهم . هو الذي يغلق أبواب الخير في وجوه الطالبين، ويطمس معالم الهداية عن أنظار السائرين . يسهل على النفوس احتمال الذلة ، ويخفف عليها مضض المسكنة ، ويهون عليها حمل نير العبودية الثقيل . يوطن النفس على تلقي الاهانة بالصبر والتذليل بالجلد ويوطىء الظهور الجاسية لأحمال من المصاعب أثقل مما كان . يتوهم عروضه عند التحلي بالشجاعة والاقدام . الجبن يلبس النفس عاراً دون القرب منه موت أحمر عند كل روح ذكية وهمة علية . يرى الجبان وعر المذلات سهلاً ، وشظف العيش في المسكنات رفهاً ونعيماً :

ومن يهن يسهل الهوان عليه   ما لجرح بميت إيلام

لا بل يتجرع مرارات الموت في كل لحظة ولكنه راض بكل حال وإن لم يبق له إلا عين تبصر الأعداء، ولا ترى الاحباء، ونفس لا يصعد إلا بالصعداء وإحساس لا يلم به إلا ألم اللأواء . هذه حياته : أضاع كل شيء في القناعة بلا شيء ، وهو يظن انه أدرك البغية ، وحصل المنية .

ما هو الجبن ؟ إنخذال في النفس عن مقاومة كل عارض لا يلائم حالها ، وهو مرض من الأمراض الروحية ، يذهب بالقوة الحافظة للوجود التي جعلها الله ركناً من أركان الحياة الطبيعية ، وله أسباب كثيرة لو لوحظ جوهر كل منها لرأينا جميعها يرجع إلى الخوف من الموت . الموت مآل كل حي ومصير كل ذي روح ، ليس

للموت وقت يعرف ، ولا ساعة تعلم ، ولكنه فيما بين النشأة وأرذل العمر ينتظر في كل لحظة، ولا يعلمه إلا مقدر الآجال جل شأنه « وما تدري نفس ماذا تكسب غداً وما تدري نفس بأي أرض تموت ». يشتد الخوف من الموت إلى حد يورث النفس هذا المرض القاتل بسبب الغفلة عن المصير المحتوم ، والذهول عما أعده الله للانسان من خير الدنيا وسعادة الآخرة إذا صرف قواه الموهوبة فيما خلقت لأجله ، نعم يغفل الانسان عن نفسه فيظن ما جعله الله واقياً للحياة – وهو الشجاعة والاقدام – سبباً في الفناء ، يحسب الجاهل ان في كل خطوة حتفاً ، ويتوهم ان في كل خطوة خطراً ، مع ان نظرة واحدة لما بين يديه من الآثار الانسانية ، وما ناله طلاب المعالي من الفوز بآمالهم ، وما ذللوا من المصاعب في سيرهم ، تكشف له ان تلك المخاوف إنما هي أوهام وأصوات غيلان ، ووساوس شياطين ، غشيته فأدهشته ، وعن سبيل الله صدته ، ومن كل خير حرمته .

الجبن فخ تنصبه صروف الدهر وغوائل الأيام ، لتغتال به نفوس الانسان ، وتلتهم به الأمم والشعوب . وهي حبالة الشيطان يصيد بها عباد الله ويصدهم عن سبيله ، هو علة لكل رذيلة ، ومنشأ لكل خصلة ذميمة ، لا شقاء إلا وهو مبدأه ، ولا فساد إلا وهو جرثومته ، ولا كفر إلا وهو باعثه وموجبه . ممزق الجماعات ، ومقطع روابط الصلات ، هازم الجيوش ، ومنكس الأعلام ، ومهبط السلاطين من سماء الجلالة إلى أرض المهانة . ماذا يحمل الخائنين على الخيانة في الحروب الوطنية ، أليس هو الجبن ؟ ماذا يبسط أيدي الأدنياء لدنيئة الارتشاء ، أليس هو الجبن ؟ ربما تتوهم بعد المثال فتأمل ، فإن الخوف من الفقر يرجع بالحقيقة إلى الخوف من الموت ، وهو علة الجبن . سهل عليك ان تعتبر هذا في الكذب والنفاق وسائر أنواع الأمراض المفسدة لمعيشة الانسان ، الجبن عار وشنار على كل ذي فطرة إنسانية خصوصاً الذين يؤمنون بالله ورسله واليوم الآخر ، ويؤملون أن ينالوا جزاء لأعمالهم أجراً حسناً ومقاماً كريماً .

ينبغي ان يكون أبناء الملة الإسلامية بمقتضى أصول دينهم أبعد الناس عن هذه الصفة الرديئة « الجبن » فإنها أشد الموانع عن أداء ما يرضي الله وانهم لا يبتغون

إلا رضاه . يعلم قراء القرآن ان الله جعل حب الموت علامة الإيمان ، وامتحن الله به قلوب المعاندين،ويقول في ذم من ليسوا بمؤمنين: « ألم تر إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة فلما كتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية ، وقالوا ربنا لمَ كتبت علينا القتال لولا أخرتنا إلى أجل قريب » ... الإقدام في سبيل الحق ، وبذل الأموال والأرواح في إعلاء كلمته أوسمة يتسم بها المؤمنون . لم يكتف الكتاب الإلهي بأن تقام الصلاة ، وتؤتى الزكاة ، وتكف الأيدي ، وعد ذلك مما يشترك فيه المؤمنون والكافرون والمنافقون ، بل جعل الدليل الفرد هو بذل الروح في إعلاء كلمة الحق ، والعدل الإلهي، بل عده الركن الوحيد الذي لا يعتد بغيره عند فقده، لا يظن ظان انه يمكن الجمع بين الدين الاسلامي وبين الجبن في قلب واحد ، كيف يمكن هذا وكل جزء من هذا الدين يمثل الشجاعة ويصور الإقدام ، وإن عماده الإخلاص لله والتخلي عن جميع ما سواه لاستحصال رضاه .

المؤمن من يوقن ان الآجال بيد الله يصرفها كيف يشاء ولا يفيده التباطؤ عن أداء الفروض زيادة في الأجل ، ولا ينقصه الإقدام دقيقة منه ، المؤمن من لا ينتظر بنفسه إلى إحدى الحسنيين ، إما أن يعيش سيداً عزيزاً ، وإما أن يموت مقرباً سعيداً ، وتصعد روحه إلى أعلى عليين ، ويلتحق بالكروبيين والملائكة المقربين .

من يتوهم أنه يجمع بين الجبن وبين الإيمان بما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم ، فقد غش نفسه وغرر بعقله ولعب به هوسه وهو ليس من الإيمان في شيء . كل آية من القرآن تشهد على الجبان بكسبه في دعوى الإيمان ، لهذا نؤمل من ورثة الأنبياء أن يصدعوا بالحق ، ويذكروا بآيات الله ، وما أودع الله فيها من الأمر بالإقدام لإعلاء كلمته ، والنهي عن التباطؤ والتقاعد في أداء ما أوجب الله من ذلك ، وفي الظن ان العلماء لو قاموا بهذه الفريضة (الأمر بذاك المعروف والنهي عن هذا المنكر) زمناً قليلاً ووعظوا الكافة بتبيين معاني القرآن الشريف وإحيائها في أنفس المؤمنين، رأينا لذلك أثراً في هذه الملة يبقى ذكره أبد الدهر ، وشهدنا لها يوماً تسترجع فيه مجدها في هذه الدنيا وهو مجد الله الأكبر ، فالمؤمنون بما ورثوا عن

أسلافهم وبما تمكن في أفئدتهم من آثار العقائد لا يحتاجون إلا لقليل من التنبيه ، ويسير من التذكير ، فينهضون نهضة الأسود ليستردوا مفقوداً ويحفظوا موجوداً ، وينالوا عند الله مقاماً محموداً .

الكتاب الثاني

محمّد عبده

بطل الثورة الفكرية في الإسلام

ولست أبالي أن يقال محمدٌ
أبلّ أم اكتظت عليه المآتمُ
ولكنّ ديناً قد أردت صلاحه
أحاذر أن تقضي عليه العمائمُ

الإسلام على مفترق الطرق

يظهر المصلحون والمجددون في كل امة بحسب حاجتها الى الاصلاح والتجديد في حقبة معينة من التاريخ ، ويعبرون عن حاجات الامة وعن مطامحها ، وتكون حياتهم مثالاً عنها ، وصورة مصغرة للصراع الذي ينشأ بين جماعات المجتمع ، في نضالها لبلوغ مرحلة أرقى من مراحل التطور الاجتماعي .

وحياة محمد عبده انما هي صورة مصغرة لناحية هامة من حياة الشعوب العربية في فجر نهضتها الحديثة ، ومجلى النضال بين القديم والجديد ، في بلاد شرعت تتحفز للنهوض بعد رقدة طويلة ، وفي عصر تشابكت فيه مصالح الأقوام ، وطغى بعضها على بعض ... عصر بلغت فيه الشعوب الغربية طوراً جديداً من الحياة قوامه العلم والفن والصناعة ، وهدفه الفتح والسيادة والغلب ، في حين تضم بلاد الشرق وبلاد العرب ، شعوباً جاهلة متفرقة ضعيفة ، تخضع للمستبدين وتثير طمع الفاتحين ... قال النبي العربي يوماً لصحبه : « يوشك ان تداعى عليكم الامم كما تداعى الأكلة الى قصعتها . » فقال قائل : « ومن قلة نحن يومئذ ? » قال : « بل انتم غثاء كغثاء السيل ، وسينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم ، وليقذفن في قلوبكم الوهن ! » .

في هذه الفترة من حياة الشرق وحياة البلاد العربية ، التي تعصف بها مختلف المتناقضات والاضداد ، ولد الشيخ محمد عبده ، فكان صوتاً عالياً من الأصوات

المخلصة التي دعت قومها الى البعث ، وكان إماماً هادياً من الائمة المنورين الذين تأتم بهم الشعوب العربية والشعوب الشرقية في تطلعها الى النور والحرية .

يقول محمد عبده في الفصل الذي كان قد شرع فيه بترجمة نفسه ، ثم حالت كثرة أعماله وضيق أوقاته عن إتمامه ، إنه نشأ كما ينشأ الجمهور الأعظم من الطبقة الوسطى في مصر ، ثم لم يلبث ان سئم الاستمرار على ما يألفون ، واندفع الى طلب المعرفة، فظفر بما لم يظفروا به ، وارتفع صوتـــه بالدعوة إلى امرين عظيمين ، أولهما تحرير الفكر من قيد التقليد والرجوع في فهم الدين وكسب معارفه إلى ينابيعها الاولى، ليكون صديقاً للعلم ، باعثاً على البحث في أسرار الكون ، داعياً الى احترام الحقائق الثابتة ، مطالباً بالتعويل عليها في ادب النفس واصلاح العمل ، وثانيهما اصلاح اساليب الكتابة وتنقيتها من كل مايمجه الذوق وتنكره لغة العرب .

ثم يقول : « وهناك أمر آخر كنت مـــن دعاته والناس جميعاً في عمى عنه ، وبُعد عن تعقله ، ولكنه الركن الذي تقوم عليه حياتهم الاجتماعية ، وما أصابهم الوهن والضعف والذل إلا بخلو مجتمعهم منه . وذلك هو التمييز بين ما للحكومة من حق الطاعة على الشعب ، وما للشعب من حق العدالة على الحكومة. نعم كنت فيمن دعا الأمة المصرية الى معرفة حقها على حاكمها ، وهي لم يخطر لها هذا الخاطر على البال من مدة تزيـــد على عشرين قرناً . دعوناها الى الاعتقاد بان الحاكم وإن وجبت طاعته ، هو من البشر الذين يخطئون وتغلبهم شهواتهم ، وأنه لا يرده عن خطئه ، ولا يقف طغيان شهوته إلا نصحُ الأمة له بالقول والفعل. جهرنا بهذا القول والاستبداد في عنفوانه ، والظلم قابض على صولجانه ، ويد الظالم من حديد ، والناس كلهم عبيد له ايّ عبيد !..

« ولم أكن في كل ذلك الإمام المتبع ، ولا الرئيس المطاع ، غير اني كنت روح الدعوة ، وهي لاتزال بي في كثير مما ذكرت قائمة ، ولا أبرح أدعو الىعقيدتي في الدين ، واطالب باتمام الاصلاح في اللغة وقد قارب . أما امر الحكومة والمحكوم فتركته للقَدَر يُقدّره ، وليَدِ الله بعد ذلك تدبره ، لانني قد عرفت انه ثمرة تجنيها الامة من غراس تغرسه ، وتقوم على تنميته السنون الطوال ، فهذا الغراس هو الذي

تبغي العناية به الآن ... »

ذلك هو محمد عبده كما وصف نفسه في أواخر حياته ، وكما ينبغي وصفه لكل مؤرخ منصف يعرض لسيرته بالنقد والتحليل : رجل مجدد سابق كان في عصره من أكبر دعاة الحرية والاصلاح، عاش في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وطابع الحياة في بلاد العرب طابع ديني محض ، والتعليم الديني هو التعليم الغالب فيها . ورجال الدين لهم الأثر الأكبر في توجيه الناس إلى أمورهم الخاصة والعامة ، فهم قدوتهم التي بها يقتدون ، ومرجعهم الذي إليه يحتكمون ، لأنهم حفظة الكتاب العزيز ... وهم ، إلا أقلهم ، إنما يحفظون القرآن لفظاً بغير معنى ، يدّعون الايمان به والغيرة عليه، وهم أبعد الناس عن سنته وأشدهم التواء على أمره ونهيه،لا يأخذون من أحكامه إلا بصور من الأعمال والطقوس قد شغلوا بها عما ينفعهم وينفع الناس . يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم ، وما في قلوبهم إلا مرض وغلّ وحقد كظيم ، وأوهام يبثونها بين الناس على انها من الدين وما هي من الدين في شيء ، ولكنها قد شاعت واستحكمت فكبلت شعوبهم بقيود ثقيلة تمنعها من السير ، وضربت على أعينهم غشاوة تحول بينها وبين رؤية النور ، وحجّرت عقولها فهي لا تحسن التفكير والتقدير .. وهم مع ذلك راضون ، لاعتقادهم بأن ما هم عليه من جهل وانحطاط وتأخر ، هو الدين القويم ، فكأن الإمام علياً قد نظر إليهم إذ قال : « ان هؤلاء القوم قد لبسوا الدين كما يُلْبَسُ الفرو مقلوباً ! »

ورُبّ أصل من أصول الحق والخير ، يلتبس على المرء ، أو يصادف عنده ميلًا إلى تحريفه ، فيتغير وجهه ، ويختلف أثره ، وتلتصق به عقائد فاسدة ، مبنية على الخطأ في الفهم ، أو على خبث الاستعداد ، فينشأ عنه الشر والبطل ... ومن مثل هذا الانحراف في الفهم ، أو التحريف في التفسير ، يقع الالتباس في أصول الأديان والمذاهب جميعاً ، وتكون البدع التي تشوه الفضائل وتحجّرها فتحولها إلى أضدادها ...

ومن رجال الدين هؤلاء ، المتصوفون الذين « افتتن الناس بهم بعد فساد أمرهم

حتى اتخذوهم أنداداً لله يطلبون منهم ما لا يُطلَب إلا من الله تعالى [1] » ..

ومنهم الفقهاء الذين « احتقرهم الأمراء والسلاطين في أنفسهم ، واستخدموهم لأغراضهم التي تؤيد سلطتهم ونفوذهم ، وحملوهم على الفتوى بما يؤيـــد رغائبهم ـ ولا يوافق الشرع ـ فدققوا النظر واستنبطوا لهم ما يطلبون ، وأفتوهم بمـــا يشاءون ، وقررت فتاويهم في كتب الفقه على أنها أحكام شرعية .. أي ان هـذا هو حكم الله في هذه المسألة [2] » .

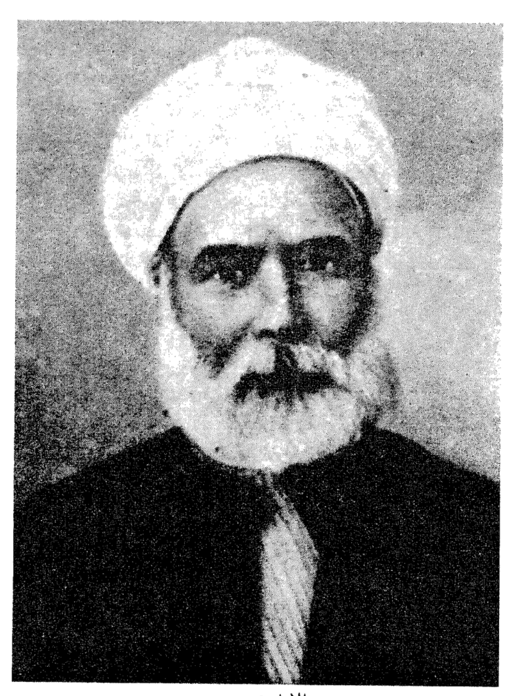
ومنهم « العلماء » عامّة الذين « تنقصهم الخبرة بأحوال الناس ، ويفوتهم العلم بما عليه أهل العصر ... مع أن العالم لا يكون عالماً حتى يكون مع علمه عـــارفاً ، والعارف هو الذي يمكنه أن يوفق بين الشرع وبين ما ينفع الناس في كل زمان بحسبه [3] » .

وأكثرهم ممن يقول الشيخ محمد عبده انهم قد « اتخذوا دينهم متجراً يكسبون به الحطام [4] » ... فهم يدافعون عنه ، أو أنهم يدافعون على الأصح عمـا ينسبونه اليه من عادات جـــاهلية ، وبدع وثنية ، وأوهام نسجتها عصور الظـــلام وعهود الاستبداد ، كما يدافع المرء عن مورد رزقه ، متّهمين كل من يخرج على هذه القيود التي تكبل الفكر والروح ، وكل من دعـا إلى العـلم والعقل ، بالكفر والفساد ، لا يهمهم أن يقول لهم قائل: « انكم تتهمون أفضل رجالكم وأعقلهم بالمروق، مع انهم لا يريدون لكم إلا الخير والرقي والسعادة . فلماذا ؟ ألأن دينكم لا يجتمع مع العقل والعلم والفضل [5] ؟! »

والواقع ان مثل هذا القول قد جهر به كثيرون ، بل لقد قال بعض المفكرين الغربيين ما هو أقسى منه ... رأوا المسلمين في فقر وجهل وتأخر عن سائر الأمم ،

---

١ ـ تاريخ الاستاذ الامام ج ١ ص ٨٥١
٢ – المرجع السابق ج ١ ص ٨٥١
٣ – المرجع السابق ج ١ ص ٩٢٨
٤ – المرجع السابق ج ١ ص ٩٢٩
٥ – المرجع السابق ج ١ ص ٩٩٢



الإمام محمد عبده

قد فشا فيهم الانحطاط وفساد الأخلاق ، والغفلة عما يضرهم وما ينفعهم ، والقناعة بحياة حقيرة لا يقومون فيها بفضيلة ولا يطمحون إلى رقي ... بلادهم منهوبة ، وأموالهم مسلوبة ، والمستعمرون يستعبدونهم شعباً فشعباً ، ويتقاسمون أراضيهم قطعة بعد قطعة ، وهم لا يبذلون جهداً لبلوغ القوة التي تعزّز حقهم وتحميه ... أمراؤهم منصرفون إلى اللهو واللعب ، وإذلال النفوس ، وابتزاز الأموال ، وأفرادهم قد وكلوا أمرهم إلى الأقدار تدفع بهم إلى حيث تهب ريحها ، فهم لا يتبرمون بضيم ، ولا يثورون على ظلم ، بل ينتظرون النصر من عند الله ! ... لقد رأى المفكرون هذه الصفات والأطوار ، فنسبوها إلى الاسلام ، وقالوا ان المسلمين إذا استمروا على عقائدهم فلن ينالوا عزاً ، ولن يعيدوا مجداً ، ولن يأخذوا بحق ، وسيستمر الضعف يفعل فيهم حتى يودي بهم إلى الفناء .

ولم يكن أولئك المفكرون الغربيون مبالغين بما وصفوا به حال المسلمين ، فقد قال الشيخ محمد عبده في وصفها : « المسلمون قد تحيّف الدهر نفوسهم ، وانحنت الأيام على معاقد إيمانهم ، ووهت عرى يقينهم ، بما غشيهم من الجهل بأصول دينهم . وقد تبع الضعف فساد في الأخلاق ، وانتكاس في الطبائع ، وانحطاط في الأنفس ، حتى أصبح الجمهور الأعظم أشبه بالحيوانات الرتّع ، غاية همهم أن يعيشوا إلى منقطع أجيالهم ، يأكلون ويشربون ويتناساون ويتنافسون في اللذات البهيمية الخ ... (١) »

وكانت الحملة على الاسلام تشتد ، كلما ازداد المسلمون تخلّفاً عن موكب الأمم السائرة باطّراد والمتطورة باستمرار ... وكان أولئك « العلماء » الجامدون والشيوخ الخرافيون ، يُحسّنون للشعوب التي يسيطرون عليها بأوهامهم وأضاليلهم ، ما هي عليه من جهل وتقاعس وتأخر ، زاعمين لهم أنهم بتمسكهم بتقاليدهم المتحجرة وعاداتهم الفاسدة إنما يرضون ربهم ويحققون رغائب دينهم ، مختلقين لكل خلة ذميمة وعلة شنيعة سبباً من الدين ، حتى سمي « الجبر توحيداً ، وترك الأسباب

---

١ - المرجع السابق ج ١ ص ٩٠٩

إيماناً ، وترك الأعمال المفيدة توكلًا ، ومعرفة الحقائق كفراً والحاداً ، وإيذاء المخالف في المذهب ديناً ، والجهل بالفنون والتسليم بالخرافات صلاحاً ، واختبال العقل وسفاهة الرأي ولاية وعرفاناً ، والمهانة تواضعاً ، والخضوع للذل والاستسلام للضيم رضى وتسليماً ، والتقليد الأعمى لكل متقدم علماً وإيقاناً [1] » كما قال الشيخ محمد رشيد رضا صاحب « المنار » .

في تلك الجهالة الجهلاء ، استيقظت نخبة من المفكرين في البلاد العربية ، وطفقت تكافح جاهدة لجلاء الصدإ الذي اعترى الفكر العربي ، وتبديد الأوهام التي عششت في أذهان العرب ، وتحرير الشعوب العربية من أنيار الظلم والاستعمار ... واتجه كل فريق منهم إلى ناحية من نواحي الحياة في المجتمع العربي يعالجها بالاصلاح والتجديد ، واتجه الشيخ محمد عبده وأنصاره ومريدوه إلى ناحية الدين .

لقد رأى أولئك المصلحون شعوبهم مفككة الأوصال واهية القوى ، تضرب في ظلمات من الجهل المطبق والتقليد الأعمى والانحطاط الشنيع ، ظلمات كثيفة تبتدىء من البيت وتنتهي إلى الأمة بكل طبقاتها وهيآتها ... ووجدوا العرب والمسلمين عامةً يلهون عن تلك الحال الشنعاء بالأضاليل ، ويقنعون بالأماني ، ويكتفون من العمل بالتشدق بأمجاد الاسلاف الذين ينكرونهم ، والتباهي بالدين الذي يتبرأ منهم ... فنهضوا يدعون إلى إصلاح شعوبهم بتعميم العلم الصحيح بينهم ، وتوجيه العقل إلى النظر في شؤون الكون ، والأخذ بحكمه فيها ، والحث على الكفاح في سبيل حرية الفكر وحرية الانسان ، وعلى العمل الدائب لإقرار العدل والحق والخير ، وتنزيه الاسلام عن أعمال المسلمين ، والدعوة إلى تجديده وتأويله بحيث يساير حاجات العصر وحقائق العلم ومتطلبات الزمان !

ان المسلم قد « أخطأ في فهم ما ورد في دينه من أن المسلمين خير الأمم ، وان العزة والقوة مقرونتان بدينهم أبد الدهر ، فظن ان الخير ملازم لعنوان المسلم ، وان رفعة الشأن تابعة للفظه وإن لم يتحقق شيء من معناه ، فان اصابته مصيبة أو حلت به رزيّة ، تسلى بالقضاء وانتظر ما يأتي به الغيب ، بدون أن يتخذ وسيلة

---

١ – المرجع السابق ج ١ ص ١٠٠٦

لدفع الطاريء أو ينهض إلى عمل لتلافي ما عرض من خلل ، أو مدافعة الحادث الجلل [1] » ... كلا ، ليس صحيحاً أن المسلم ، بمجرد نطقه بالشهادتين ، يصبح سيد الناس ، ولا بأس بما ارتكب فمصيره إلى الجنة ... ولا يصح أن يكون الاسلام « مخبأ ترتكب فيه الجرائم . فهو عقيدة وعمل ، لا ألفاظ سيالة تنتهي بمجرد النطق . والمسلمون محاسبون على أعمالهم كغيرهم . وأكثر من يسمون مسلمين لا يصح أن يدخلوا في عداد المسلمين . وان التعاليم الفاسدة ليست من الاسلام في شيء [2] » .

ولكن كيف يتجدد الدين ؟

يجيب محمد عبده على ذلك في تفسيره لهذه الآية : « يا أيها الذين آمنوا اطيعوا الله واطيعوا الرسول واولي الأمر منكم ، فإن تنازعتم في شيء فردوه الى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ، ذلك خير واحسن تأويلا » فيقول : « اطاعة الله هي الأخذ بكتابه كله ، وفيه مارأيت من النهي عن الاختلاف والتفرق في الدين . وإطاعة رسوله بعد وفاته هي الأخذ بسنته . والأمور الاعتقادية والتعبدية يجب إرجاعها إلى هذين المصدرين ، أو بعبارة أخرى ينبغي إرجاعها إلى ما كان عليه السلف الصالح بلا زيادة ولا نقصان . أما أولو الأمر الذين جاء ذكرهم في الآية فهم أهل الرأي والبصيرة ، وهم الذين يسمون في عرف الاسلام أهل الشورى وأهل الحل والعقد ، وهم العلماء وأرباب الرياسة الذين يسمون عند الأمم الأخرى بنواب الأمة . ويجب أن تردّ إلى هؤلاء جميع الأمور القضائية والادارية والسياسية ، بما في ذلك إعادة النظر في الشريعة التي يقيمونها على القواعد الشرعية في حفظ المصالح ودرء المفاسد ، بحسب حال الزمان والمكان [3] » .

فالمسلمون مدعوون اليوم إلى الأخذ بأهداب المدنية المعاصرة ومحاكاة الأمم الراقية ، « بنشر التعليم بين العامة ، وبالاشتغال بالدراسة العلمية الحديثة ،

---

١ - المرجع السابق ج ٢ ص ٤٥٧
٢ - فيض الخاطر لأحمد أمين ، ج ٧ ص ١٥٩
٣ - الاسلام والتجديد في مصر ، ص ١٦٧

لتستطيع الأمم الاسلامية مباراة غيرها من الأمم . وليس في روح المدنية الحديثة ، أو في ثمرات العلم الحديث ما يناقض الاسلام الصحيح ، إذا أحسن فهمه ، وأحسن بيانه . وان ضرورة تصوير الاسلام على صورة تتجانس مع العلم الحديث ، تستلزم أيضاً استعادة ما في الاسلام من أصول جوهرية ، وليس ما كان منه قاصراً بطبيعته على زمن ما أو مكان ما [١] » .

ونضرب على ذلك مثلاً واحداً من المحاولات الكثيرة التي قـام بها الشيخ محمد عبده في هذا السبيل . ذلك هو مَثَل التصوير . فقد كان شائعاً بين المسلمين ان التصوير محرّم عليهم ، بدليل الحديث الشريف القائل : « إن أشد الناس عذاباً يوم القيامة المصورون » . ولكن الشيخ محمد عبده يقول ان هـذا الحديث قيل في أيام الوثنية ، وكانت الصور تـتخذ في ذلك العهد لسببين : الأول اللهو ، والثاني التبرّك بمثال من ترسم صورته من الصالحين . والأول مما يبغضه الدين ، والثاني ممـا جاء الاسلام لمحوه . فإذا زال هذان العارضان ، وقد زالا ، وقصدت الفائدة ، كان تصوير الاشخاص بمنزلة تصوير النبات والشجر «وقد صُنع ذلك في حواشي المصاحف، وأوائل السور ، ولم يمنعه أحد من العلماء ، مع أن الفائدة في نقش المصاحف موضع النزاع ، وأما فائدة الصور فمما لا نزاع فيه على الوجه الذي ذكر ... » ثم يقول : « وبالجملة انه يغلب على ظني أن الشريعة أبعد من أن تحرم وسيلة من أفضل وسائل العلم ، بعد تحقيق أنه لا خطر فيها على الدين لا من جهة العقيدة ولا من جهة العمل. على أن المسلمين لا يتساءلون إلا فيما تظهر فائدته ليحرموا أنفسهم منهـا ، وإلا فما بالهم لا يتساءلون عن زيارة قبور الأولياء ، أو ما سماهم بعضهم بالأوليـاء ، وهم ممن لا تـُعرف لهم سيرة ، ولم يطلع لهم أحـد على سريرة ، ولا يستفتون فيما يفعلون عندهـا من ضروب التوسل والضراعة ومـا يعرضون عليها من الأموال والمتاع ، وهم يخشونها كخشية الله أو أشد ، ويطلبون منها ما يخشون أن لا يجيبهم الله فيه ، ويظنون انها أسرع إلى اجابتهم من عنايته سبحانه وتعالى . لا شك أنه لا يمكنهم الجمع بين هذه العقائد وعقيدة التوحيد . ولكن يمكنهم الجمـع بين التوحيد

---

١ ـ المرجع السابق ، ص ١٠٤

ورسم صور الانسان والحيوان لتحقيق المعاني العامية وتمثيل الصور الذهنية [1] » .
وهكذا أباح الإمام فناً جميلًا ظل الاعتقاد بتحريمه شائعاً حتى أيامه ، وربما كان لا يزال شائعاً في بعض الأوساط حتى يومنا هذا .

فإن قيل إن ما يدعو اليه الامام من اجتهاد وتخير الأحكام وتأويلها لتطابق حاجة العصر وتلائم أحوال الأمم وأحوال الأزمنة ، ابتداع مخالف للشرع الذي أغلق باب الاجتهاد ، هاجم هذا الادعاء وقال ان الاسلام قد « صرف القلوب عن التعلق بما كان عليه الآباء وما توارثه عنهم الأبناء ، وسجل الحمق والسفاهة على الآخذين بأقوال السابقين ، ونبه على أن السبق في الزمان ليس آية من آيات العرفان ، ولا مسمياً لعقول على عقول ، ولا لأذهان على أذهان ، وإنما السابق واللاحق في التمييز والفطرة سيان ، بل للاحق من علم الأحوال الماضية ، واستعداده للنظر فيها ، والانتفاع بما وصل اليه من آثارها في الكون ، ما لم يكن لمن تقدمه من أسلافه وآبائه [2] » .

بهذا الاتجاه البصير والتفكير العميق ، يتحرر الدين من القيود التي كبله بها دعاة الجمود والتأخر ، وتفسر قواعده تفسيراً يقبله العقل المنور ، وتصلح به شؤون الأمم ، وينطبق على مقتضيات العصر ، فيأخذ معتنقوه من أصوله الجوهرية بما لا يتعارض مع تطور الحياة ، وتغير المكان والزمان ، ويقبلون على أساليب المدنية الحديثة ، معتمدين على أحكام العلم والعقل ، عاملين بوحيات الحق والعدل والخير ..

إن الأحكام تتغير بتغير الأزمان ، والشريعة لم توضع لتحويل سنن الكون بأحكامها : ولن تجد لسنة الله تبديلًا ..

وأساس الشريعة نشر المحبة والعدالة بين الناس والسعي في مصلحة الأمة ، فيجب أن تفسر تعاليم الدين دائماً فيما يساعد على تعزيز المحبة والعدالة ويخدم المصلحة العامة . وحيث ظهرت أمارات المحبة والعدالة والمنفعة العامة فهناك شرع الله .

والعبرة بالمقاصد والمعاني لا بالألفاظ والمباني ، فلا نكونن ممن يؤخذون بظاهر

---

١ - تاريخ الاستاذ الامام ، ج ٢ ، ص ٥٠١
٢ - رسالة التوحيد ، ص ١٥١

اللفظ ويتعبدون للحرف ..

إن الحاجة تنزل منزلة الضرورة ..

والضرورات تبيح المحظورات ..

والتعيين بالحرف كالتعيين بالنص ..

والحكم الذي تمس اليه الحاجة أو الضرورة ، يصير متفقاً عليه ..

ذلك هو قوام الشرع الصحيح ، بل قوام كل شرع صحيح ..

ولكن مجابهة الجامدين والشيوخ الخرافيين ، والمؤمنين بهم ، بهذه الحقائق ، من الأمور الشاقـــة التي تكلف صاحبها العنت الثقيل ... فإن الناس إذا ألِفوا شيئاً وجروا عليه بالتقليد زمناً طويلاً ، تعصّبوا له دون تدبر ولا رويّة ، ولم يقبلوا في انتقاده والدعوة إلى تركه حجة ولا برهاناً ، وعدّوا ذلك سفهاً وضلالاً وكفراً ، ودافعوا بكل ما يستطيعون من حول وقوة عن باطلهم الذي يتوهمونه في صورة الحق لطول ما لازموه وسكنوا اليه ..

وكذلك كان شأن الإمـام محمد عبده كما سنرى من سيرته المشرقة الحـــافلة بصنوف الجهاد في سبيل الدعوة التقدمية التي نادى بها ، والتي كانت ، ومـا تزال ، امتحاناً للمسلمين ، ومقياساً لجدارتهم بالحياة في عصر المدنية والعرفان .

زهرة من البر

كان من اول الامور التي تعلمها محمد عبده في قرية محلة نصر حيث ولد ونشأ [1] ، ان الكرامة وعلو المنزلة ، يجب ألا يتعلقا بالثروة ووفرة المال . فقد كان الكبراء والحكام ، يقدرون أباه عبده خير الله ويجلونه ، لمروءته وشهامته وشجاعته ، ويؤثرونه على عمدة القرية ، مع ان هذا كان اوسع رزقاً واكثر دوراً وأرضين .

وثاني الامور التي تعلمها في ذلك المحيط الصغير ، الانتصار للعدل والثورة على الظالمين، إذ كان اول ما انتهى اليه من تاريخ اسرته،ان جده حسن خير الله،كان له من بني عمه وذوي عصبته اثنا عشر رجلاً سعى بهم واش بحجة أنهم ممن يحمل السلاح ويقف في وجوه الحكام عند تنفيذ المظالم ، فأخذوا جميعاً وزجوا في السجون .ثم طالت يد الواشي الى سلب ما كان في بيت ابنه عبده خير الله من تراث ،فهاجر هذا مع اهله الى مديرية الغربية ، وتبعهم اكثر اهالي محلة نصر حين اشتد الظلم عليهم . فأحس الشقي باشراف القرية على الخراب ، فجدد الوشاية بعبده خير ، زاعماً أنه

---

١ ـ اختلف المؤرخون في تعيين البلدة التي ولد فيها الامام ، فقال بعضهم انها قرية شنراء وقال آخرون هي محلة نصر ، ولكنهم مجمعون على انه نشأ وايفع في الثانية .

جعل من داره مأوى لمن فروا مع اسلحتهم من القرية . وكان عباس باشا الأول قد اصدر امره بتجريد الاهالي من السلاح، وحظر عليهم حمله. فأخذ عبده ومن معه الى السجن ولم يفرج عنهم إلا بعد زمن طويل .

ويقول الشيخ محمد عبده في الفصل الذي كتبه عن سيرته ، إنه ولد سنة ١٢٦٥ هـ (١٨٤٨ م) بينما يذهب بعض مؤرخيه الى أنه ولد قبل ذلك باعوام يختلفون في تحديد عددها كما اختلفوا في تعيين القرية التي ولد فيها . ويقول إن نسبه لابيه ينتهي الى جد تركماني قدم مصر من بلاد التركمان مع جماعة من اهله ، أما بيت أمه جنينة عثمان فيقال انه عربي قرشي يتصل في النسب بعمر بن الخطاب . ثم يقول : « ولكن ذلك كله روايات متوارثة لا يمكن اقامة الدليل عليها» ويستطرد الى القول : « وهنا موضع للكلام على سبب ضياع الأنساب في الاسلام » . ويفصل ذلك في بضع صفحات خلاصتها ان العرب قبل الاسلام كانوا اشد الناس محافظة على أنسابهم واعتزازاً بشرف احسابهم « وهيهات ان يرتفع ذو أدب بأدبه الى رتبة بنسبه وان كان خاملاً في نفسه ، غير شيء في عمله . ولا يخفى ما كان في ذلك من بخس الحق ، والاستهانة بالكرم الذاتي والشرف العصامي ، والاتكال في نيل المقامات العالية بين الناس على ما فعل السابقون ، لا على ما يكسبه المرء بجده واجتهاده » ... « فجاء الدين الاسلامي ينكر الافراط والغلو في اعتبار الانساب . قال التنزيل : ان اكرمكم عند الله اتقاكم . وقال صلى الله عليه وسلم : ائتوني باعمالكم ولا تأتوني بأنسابكم . »

ولد ذلك الطفل في عهد عباس حلمي الاول الذي وجه كل اهتمامه الى اعلاء شأن القوة العسكرية ، وكان من اول اعماله ان امر باغلاق المدارس التي شيدها جده محمد علي الكبير ، وقصر عنايته على المدرسة الحربية وحدها !

ونشأ في تلك القرية الصغيرة التي لم تكن وطناً لأسرته ، بل ملجأ لاذت به من جور الحكام ، وملأت جو طفولته الساذجة حكايات العسف الذي لقيته هذه الاسرة ، فأفعمت نفسه بالثورة على الاستبداد .

ودرج تحت سماء مصر الصافية ، وشمسها الساطعة ، وهوائها الطلق ، في كنف

ابوين كريمي النفس طــاهري الخلق ، كما يدرج ابناء الفلاحين الذين يتوارثون العادات والتقاليد جيلاً بعد جيل .

قال الشيخ مصطفى عبد الرازق : « نشأ محمـــد عبده كما ننشأ نحن الفلاحين ، حفاة ، عـــاري الرؤوس ، نجري في الأزقة ، ونسبح في البرك والترع ، ونلعب بالتراب والاحجار ، لا يعنى احد بتلقيننا في طفولتنا شيئاً من مبادىء الفهم والذوق ولكننا ننبت كالنبات البري ، يغتذي بما يتصل اليه من مواد الغذاء وينمو شوكه وازهاره »[1] .

ولكن محمـــد عبده لم يختلف الى « الكتّاب » الذي يرهبه ابناء القرى ، لعقم اسلوب التعليم فيه ، واخذ التلامذة فيه بالشدة والاذى ، تسرع اليهم لأقل هفوة تلك العصا التي قطعت من شجرة الجنة كما يقول العـــامة .. ويرى الشيخ مصطفى عبد الرازق ان من حسنات القدر على محمد عبده انه لم يتعلم في الكتّاب « فهو لم يجلس في الصف » في تلك الحجرات القذرة الخالية من كل نظام ومن كل احتياط صحي ، مهتزاً ، صارخاً ، واللوح في يـــده ، لا يهم الفقيه منـــه إلا أن يهتز ويصيح ... » وهو يلاحظ ان الإمام لم يكن يهتز مطلقاً حين كان يلقي دروسه في الأزهر وهو متربع في كرسيه ، ويقول : « ولست ترى رجلاً كان في الكتّاب إلا تحرك جذعه من نفسه ، إذا جلس متربعاً ، مهما تكلف السكون ! »[2]

لقد تعلم الفتى القراءة والكتابة في منزل أبيـــه ، وقرأ القرآن فيه على أحد الحافظين ، فسلم بذلك في مدة تعلمه الأولى من التشويش الضار بعقله وبنيته ، ومن القسوة التي تخمد نزوعه إلى الحرية والانطلاق ، ولكنه لم يكد يبلغ سن الرابعة عشرة حتى أرسله أبوه إلى المسجد الأحمدي بطنطا لتجويد القرآن ، وكان أخوه لأمه مدرّساً فيه فأقام معه يتعلم القراءة والتجويد ، ثم انتقل بعد عامين إلى مجالس العلم في ذلك الجامع .

وكانت نظم التعليم تفرض على الطـــالب المبتدىء حفظ نص من الاجرومية

---

١ - محمد عبده ص ١٧

٢ - المرجع السابق ص ٣٠ .

وشرح عليه لأحد مشاهـــير النحويين ، فأقبل محمد عبده على دروسه الأولى في الاجرومية ، وهو لا يفهم لها متناً ولا شرحاً بل لا يكاد يفهم منها عنوانها . وعبثاً سأل الفتى أستاذه عما تعنيه الاجرومية ، وعن معنى « الكلام هو اللفظ المركب المفيد بالوضع » ، ومعنى « الاعراب هو تغيير أواخر الكلم لاختلاف العوامل الداخلة عليها لفظاً أو تقديراً » فقد كان الاستاذ الذي لا يقتضيه غير الحفظ ، يضيق بأسئلته ذرعاً ويصرخ به :

— لقد ضايقتني يا ولد وأزهقت روحي ، فإياك وأن تسأل عن شيء !

فيقول الفتى : « ولكني لا أفهم شيئاً يا سيدي ! »

فيزجر الأستاذ في وجهه ، وينهال عليه بالشتائم ويصرخ به :

— اصمت يا منحوس وإلا كان جزاءك الضرب والطرد !..

قال الإمام : « وقضيت سنة ونصفاً لا أفهم شيئاً لرداءة طريقة التعليم ، فان المدرسين كانوا يفاجئوننا باصطلاحات نحوية أو فقهية لا نفهمها ، ولا عناية لهم بتفهيم معانيها لمن لا يعرفها » .

ثم أدركه اليأس من النجاح ، وخيل له انه لا يصلح لتلقي العلم ، فهرب من الدرس قبل ان يطرده معلمه منه ، واختفى عند أخواله ثلاثة أشهر . ثم عثر عليه أخوه فأعاده إلى المسجد الأحمدي وأراد إكراهه على طلب العلم ، فأبى قائلاً : « قد أيقنت بأن لا نجاح لي في طلب العلم ، ولم يبق عليّ إلا أن أعود إلى بلدي وأشتغل في فلاحة الأرض كما يشتغل الكثير من أقاربي .. » فيئس أخوه من نجاحه ، ولم يشأ إرغامه على تلقي العلم ما دام قد اعترف بأنه غير أهل لذلك ، وسمح له بالعودة إلى قريته ، فرجع إلى محلة نصر وفي نيته ألا يعود إلى طلب العلم أبداً ، وتزوج سنة ١٨٦٥ (١٢٨٢ هـ) على هذه النية ، وهو في حدود السابعة عشرة من عمره ..

على انه لم تنقض أربعون يوماً على زواجه ، حتى جاءه أبوه ضحوة نهار وألزمه بالذهاب إلى طنطا لطلب العلم ثانية ، وعبثاً توسل الشاب وتضرع محتجاً بقصوره عن فهم الدروس التي تلقى عليه ، وبإيمانه بأنه لم يخلق لطلب العلم بل خلق للعمل ، فقد أبى الأب أن يصغي إليه ، وأرغمه على الذهاب إلى المسجد الأحمدي ، وأصحبه

بقريب له شديد البأس ليوصله إلى هناك ..

وكان النهار شديد الحر والريح عاصفة ملتهبة ، وصورة الجامع بمعلمه البغيض ودرسه المقيت تمـــلأ مخيلة الفتى حنقاً وغضباً ، وهما يطويان الطريق على جواديهما الهزيلين ، والحارس الذي يرافقه يأبى التعريج على قرية ينتظران فيها ريثما تخف وطأة الحر .. فما لبث ان حث فرسه الخضراء ، وانطلق بها هارباً إلى منزل أخواله في قرية كنيسة اورين ، تلاحقه أطياف غامضة متداخلة من حياة ذلك المسجد الذي يؤمه الناس من كل حدب للتبرك بقبر السيد أحمد البدوي وغيره من قبور الأولياء ، ويقومون عندها بضروب عجيبة من التوسل والزلفى ، والذي يجتمع فيه من أهل الطرق والمجاذيب من يؤكد الشيوخ ان لهم لمحات في صفحة الغيب !

ومن عجائب الاتفاق ان الفتى الهارب من العلم قد وقع في كنيسة اورين على شيخ جليل من أخوال أبيه ، يدعى الشيخ درويش ، وهو رجـــل صوفي ، طيب القلب ، صافي العقيدة ، نافذ البصيرة ، كان يمتاز من غيره بفهم ما يقرأ من آيات القرآن الحكيم وكتب الحديث .. فلما عرف مقته للدراسة وكرهه للقراءة ، أخذ يتلطف به حتى ذهب نفوره بعض الشيء ورضي بأن يقرأ له في كتاب كان معه .. فجعل الشيخ يفسر له ما يقرأ بعبارة واضحة سائغة وجدها الفتى محببة إلى قلبه قريبة إلى فهمه ، فتجددت رغبته في المطالعة ، ولم يأت عليه اليوم الخامس إلا وقد صار أحب شيء إليه ما كان يبغضه من الدراسة ، وكره أولئك الشبان الذين يدعونه إلى ما كان يحب من ركوب الخيل واللعب بالسيف وغير ذلك من فنون اللهو والزهو [1] ..

وهكذا عاد الشاب إلى تلقي العلم في طنطا بروح جديدة رغيبة ، فاشتهر بين الطلاب بالذكاء . ولكن سرعان ما طمحت نفسه إلى محيط أوسع وأرقى ، فنهد إلى القاهرة سنة ١٨٦٦ (١٢٨٣ هـ) للالتحاق بالأزهر .

---

١ ـ تاريخ الاستاذ الامام ج ١ ص ٢٢ ـ ٢٣

القديم والجديد

لم يكن رأي ذلك الشاب المقبل من الريف ، في الأزهر ، خيراً من رأيه في الجامع الأحمدي ، لعقم أساليب الدراسة ، وتفاهة موضوعاتها ، وجمود الأساتذة على التراث الذي يتوارثونه من العصور المظلمة ، ويحافظون عليه كأنه كنز ثمين ، مؤثرين النقل على العقل ، نافرين من كل جديد ، يقرأون لطلابهم المتون العويصة ، ثم يقرأون الشروح على المتون ، وعلى هذه الشروح الحواشي والتقارير ، ويغرقونهم في فيض من الاحتمالات العقيمة التي لا تنتهي إلى الجزم بشيء وتدع النفس مبلبلة مشوشة ، والذهن حائراً مرتاباً ..

قال محمد عبده : « كنت أسمع الشيخ وهو يدرّس فأحسبه يتكلم بلغة أجنبية ! »

ولكن الطلاب كانوا مجبرين على الاقتناع بما يلقى إليهم ، وحفظ ما يقرأون ويسمعون ، وان لم يفهموا له معنى أو يجدوا حاجة إليه ، مما يترك في نفوسهم وعقولهم أسوأ الأثر ، وهو كما يقول الامام « الأثر الذي يجده خمسة وتسعون في المائة ممن لا يساعدهم القدر بصحبة من لا يلتزمون هذه السبيل في التعليم ، سبيل إلقاء المعلم ما يعرفه أو ما لا يعرفه بدون ان يراعي المتعلم ودرجة استعداده للفهم. غير ان الأغلب من الطلبة الذين لا يفهمون تغشهم أنفسهم فيظنون انهم فهموا شيئاً

فيستمرون على الطلب إلى ان يبلغوا سنّ الرجال ، وهم في أحلام الأطفال ، ثم يبتلي بهم الناس ، وتـُصاب بهم العامة ، فتعظم بهم الرزية ، لأنهم يزيدون الجاهل جهالة ، ويضللون من توجد عنده داعية الاسترشاد ، ويؤذون بدعاويهم من يكون على شيء من العلم ، ويحولون بينه وبين نفع الناس بعلمه » .

وقد انتقد الطالب الشاب تلك الطريقة بأرجوزة قال فيها عن جماعة المقلدين :

لو كان هـذا وصفهم مـا شنعوا　　بل وقتهم في « جـاء زيد » ضيعوا
ظنوا بأن العلم علم القول ، لا　　والله بل عـــلم القلوب فـُضّلا

داوم محمد عبده على حضور تلك الدروس ، محاولاً الانتفاع منها بقدر ما يمكن الانتفاع من ذلك الجهد العقيم ، باحثاً خلال ذلك في كتب الأزهر عن أشيـــاء لا تدرس فيه ، تائقاً إلى تلقي العلوم الفلسفية والرياضية ، ملتمساً إياهـا عند من يدعي معرفتها فيخطىء في الطلب تارة ويصيب أخرى ، إلى ان جاء جمال الدين الأفغاني إلى مصر لأول مرة سنة ١٨٦٩ (١٢٨٦ هـ) .

أقبل ذلك النابغة إلى مصر بفكره الحر الطموح ، ونفسه القوية المشتعلة حياة وعزماً ، حاملاً إلى المصريين النور الذي يبدد غياهب الظلمة التي يعيشون فيهـا ، وأخذ يبث تعاليمه الحرة التي لا عهد للناس بها ، ويقرأ لمن يؤم مجلسه ويطلب العلم على يديه ، طائفة مختارة من الكتب العربية القديمة والكتب الأوربية المعربة ، في مختلف فروع الفلسفة والتاريخ والسياسة والاجتماع ، مستخلصاً منها العبر التي تفيد وتحرر الأذهان ، وتوحي بالثورة على العتيق البالي وعلى كل قيد من القيود السياسية والفكرية .. فكان ذلك فتحاً جديداً في موضوعات التعليم ، وفي التوجيه الفكري ، يخالف ما كان سائداً حتى ذلك الحين ..

وما كاد محمد عبده يسمع بهذا المفكر المنقطع النظير ، حتى ذهب إليه وتعرف به وصحبه ، وأخذ يتلقى عنه العلوم الرياضية والفلسفية والكلامية ، ويدعو زملاءه إلى التلقي عنه . قال : « وأخذ مشايخ الأزهر والجمهور من طلبته ، يتقوّلون عليه وعلينا الأقاويل ، ويزعمون ان تلقي تلك العلوم يفضي إلى زعزعة العقائد

الصحيحة .. »

وقد أثر جمال الدين الأفغاني في محمد عبده تأثيراً كبيراً ، ووجه حياته توجيهاً جديداً ، بتزهيده في الاستغراق بالتصوف ، وترغيبه في الاطلاع على الكتب الحديثة التي تحتوي ثماراً يانعة من دوحـــة الفكر الغربي ، وتدريبه على الانشاء والكتابة في الموضوعات الاصلاحية المختلفة ، فتساهم معـه أعباء النضال الفكري والاجتماعي في حقبة هامة من تاريخ البـــلاد العربية . وكان من بوادر الدعوة الاصلاحية التي بدأ يقوم بها وهو لا يزال على مقاعد الدراسة ، ان اشتدت حفيظـة أساتذته عليه ، وفي طليعتهم الشيخ عليش رأس المتحجرين الذين نقموا على جمال الدين وتلامذته نزعتهم التجديدية ، وخروجهم على التقليـد ، ودعوتهم إلى علوم الفرنجة .. وقد لوّح هذا الشيخ بعكازه في وجه محمد عبده ، ولعله همّ بضربه ، لأنه سمعه يلقي على الطلاب دروساً لا تقرها عقليته المتحجرة ، فلم ينقطع الطالب المجدد عن قراءة دروسه ، ولكنه أخذ يضع بجانبه عصا ، ويقول لزملائه : « إذا جـاء الشيخ عليش بعكازه فله هذه العصا ! » مما حفز الأساتذة على الجهر بمعاداته والتعهد بألا يأخذ درجة ما إذا كان الامتحان . فلما أُجري الفحص ورأوا من حسن جوابه عما سألوه فوق ما كانوا ينتظرون ، لم يسعهم إلا أن يمنحوه الدرجة الثانية [1] ، وان كان أحدهم قد أقسم بأنه لو كان فوق الدرجة الأولى درجة ممتازة لاستحقها . وهي ظلامة اضطرت مشيخة الأزهر إلى إزالتها بعـــد ست وعشرين سنة ، فمنحته سنة ١٩٠٤ (١٣٢٢ هـ) شهادة العالمية من الدرجة الأولى ، فردت إليـه حقه المسلوب بعد ذلك الدهر الطويل .

وهكذا صار الشيخ محمد عبده مدرساً من مدرسي الجامع الأزهر سنة ١٨٧٧ (١٢٩٤ هـ) وهو ينهد إلى الثلاثين من عمره ... على ان هذا المنصب الذي أحرزه لم يكن في نظره غاية التحصيل ، بل توجهت همته إلى التبحر في العلم ، وكان قد شدا من الآداب العربية قسطاً وافراً ، فاتجه إلى النظر في علوم الغرب .

---

١ – تاريخ الاستاذ الامام ج ١ ص ١٠٢ – ١٠٣

أما الدروس التي بدأ يلقيها على الطلاب ، فقد خطا بها أول خطوة في سبيل إصلاح الأزهر ، وتجديد مناهج التعليم فيه ، والخروج على الطرق العقيمة التي ألفها المعلمون والطلاب جميعاً ، وادخال العلوم والموضوعات التي تقتضيها روح العصر ، وتساعد على تحرير العقول من الأوهام السائدة فيها ، وتدفع بالأمة في مضمار التقدم والانعتاق .. وقد لاقى في ذلك عنتاً ثقيلاً من زملائه المعلمين ، واتهم بالكفر والزندقة وإفساد الطلاب ، ولكنه واصل عمله الجريء غير عابىء بما يقول المتزمتون..

وكان لجمال الدين الأفغاني كما قلنا أثره البعيد في ذلك ، لأنه هو الذي نقل محمد عبده من حال إلى حال في التعليم وفي التفكير ، حتى ان محمد عبده ليقول : « ان أبي وهبني حياة يشاركني فيها علي ومحروس (وهما أخوان له كانا مزارعين) والسيد جمال الدين وهبني حياة أشارك فيها محمداً وابراهيم وموسى وعيسى والأولياء والقديسين . »

وكذلك كان للشيخ درويش الذي سبقت الاشارة اليه ، وهو الذي مهد له السبيل إلى التقدم والتطور ، أثره المتصل في حياته وتفكيره ، فقد كان يلتقي به كلما شخص أيام العطلة إلى الريف الذي نشأ فيه وأحبه ، فيتبادلان أشتات الاحاديث ، في الحقول الواسعة ، بين الزرع الاخضر والمياه الجارية ، وقد نصح الشيخ البصير ، ذلك الشاب الرغيب ، بترك العزلة ، ومخالطة الناس ، والعمل على إرشادهم . قال : « قال لي يوماً : إلى متى هذه العزلة؟ وما الفائدة من العلم وتحصيله، ان لم يكن لك نوراً تهتدي به ويهتدي الناس ؟ ان من المكروه أن تستأثر بالفائدة دون أهل ملتك ، وان من لم ينفع بما تعلّم فقد أضاع أهم ثمرة تقصد من غراس المعرفة . فعليك أن تخالط الناس وتعظهم ، وترشدهم إلى الطريق القويمة والسنة الصالحة ! فذكرت له اشمئزازي من الناس وزهدي في معاشرتهم ، وثقلهم على نفسي إذا لقيتهم ، وبعدهم عن الحق ونفرتهم منه إذا عرض عليهم ، فقال لي : هذا من أقوى الدواعي إلى ما حثثتك عليه ، فلو كانوا جميعهم هداة مهديين لما كانوا في

إعلان من مشيخة الجامع الأزهر

أنه بناء على المخاطبة الصادرة من حضرة الشيخ محمد عبده خير الله الحنفي الأزهري والاستعلام الصادر من هذا الطرف في غاية رجب ٩٤ عما تلقاه حضرة المومى إليه من كتب المعقول والمنقول وعن أهليته واستعداده للتدريس بالأزهر لمن يوثق بشهادتهم في مثل ذلك وأداء الشهادة من حضرات أفاضل العلماء المدرسين بأن المذكور قد تلقى من كتب الفقه على مذهب الإمام الأعظم أبي حنيفة من ابتداء مراقي الفلاح إلى غاية الدر المختار ومن التوحيد عقيدة السنوسي بحاشية الباجوري وبشرح الهدهدي وبشرح المصنف وحاشية الدسوقي عليه وجوهرة اللقاني بحاشية الباجوري وبشرح عبد السلام وحاشية الأمير عليه ومن الحديث الجامع الصغير بشرح العزيزي وصحيح البخاري بشرح القسطلاني ومن التفسير تفسير الجلالين بحاشية الجمل وبشرح الخطيب ومن النحو من ابتداء شرح الكفراوي على متن الآجرومية لغاية الدسوقي ومن المنطق السلم بحاشية الباجوري وبشرح الملوي مع حاشية الصبان عليه وإيساغوجي بشرح شيخ الإسلام وحاشية الحفني عليه وبشرح مختصر السنوسي ومن البيان السمرقندية بحاشية الباجوري وبشرح الملوي مع حاشية الأمير عليه وبشرح العصام مع حاشية الصبان عليه ورسالة الصبان ورسالة الدردير بحاشية الصاوي ومن الصرف ما بالألفية ولامية الأفعال بشرح بحرق وبشرح تصريف العزي ومن المعاني والبديع والبيان ما بالتلخيص بشرح السعد المختصر مع تجريد البناني عليه ومن الأصول متن جمع الجوامع وهو الآن في لياقة واستعداد للتدريس بالجامع الأزهر وعملا بالأمر الصادر في شأن من يطلب التدريس قد عقد المجلس المركب من حضرات أفاضل العلماء المنتخبين للامتحانات وجرى امتحان حضرة المومى إليه في الأحد عشر علما المعينة بالأمر بحضورنا ورأيت من حضراتهم الشهادة الانتهائية في ١٤ رجب ٩٤ بأن فيه لياقة واستعدادا للتدريس بالجامع الأزهر ويستحق أن يكون في الدرجة الثانية قد أذنا له بالتدريس بالجامع المشار إليه وفوضنا له تدريس الكتاب الذي رغبه بإنهائه وهو الشيخ خالد وبذلك صار معدودا من مدرسي الجامع الأزهر وحرر له هذا الإعلان للمعلومية وحفظا لهذا الأمر لديه نفعنا الله تعالى وإياه بسر آبائهم ولما أنه كتب للداخلية في ١٤ رجب ٩٤ نمرة ٥٥ للاستحصال على البيورلدي العالي من لدن المراحم السنية من الدرجة المذكورة باسم حضرة الشيخ المذكور فوردت إفادة من سعادة دولتلو أفندم ناظر الديوان مؤرخة ٢٠ رجب ٩٤ نمرة ٨٢ ومعها بيورلدي عالي مؤرخ غرة رجب ٩٤ من تلك الدرجة ولقد صار تسليم البيورلدي لحفظه وهذا بطرفه وقد تأشر بقيد ذلك بدفاتر الجامع الأزهر حفظا لما صار ونسأله تعالى التوفيق لأقوم طريق وحسن الختام بجاه المصطفى عليه الصلاة والسلام ٢٤ رجب ٩٤

الفقير
محمد العباسي المهدي
الحنفي المفتي
عفي عنه

مشيخة الأزهر تمنح محمد عبده شهادة العالمية من الدرجة الثانية

حاجة اليك ![1] »

وهكذا اتضحت رسالة محمد عبده في نفسه ، فنذر قواه ومعارفه لإيقاظ أمته وانهاضها إلى مستوى رفيع . وكان له من كمال الخلق ، وحسن الاستعداد ، وأصالة الرأي ، ما يؤهله للاضطلاع بأعباء هذا الواجب الكبير .

وكان طبيعياً أن يتجه أول ما يتجه إلى إصلاح التعليم في الأزهر ، وأن يحارب فيه الجمود والتقليد ، وأن تكون دروسه فيه ، كما رأينا ، بناء للعقائد ، وتحريراً للأفكار ، واحياءً للعلوم، وتربية للعقل ، وتهذيباً للخلق ، ومحاولة لتكوين الرجال العاملين المنورين ، فشعر الأزهر بروح جديدة ، واتجهت الانظار نحو هذا الأزهري الجديد فعهد اليه في أواخر سنة ١٨٧٨ (١٢٩٥ هـ) بتدريس التاريخ في « دار العلوم » فأخذ يقرأ على الطلبة « مقدمة ابن خلدون » لما فيها من الآراء الاجتماعية السديدة ، وما تكشف عنه من الاسباب والعوامل التي تؤدي إلى رقي الدول أو تؤول بها إلى الانهيار ، مطبقاً ذلك على شؤون أمته ، مستخرجاً منه أشتات الدروس والعبر ... ولم تكن مقدمة ابن خلدون قد درست قبل ذلك في مصر . يقول الاستاذ تشارلز آدمس : « كان الاستاذ الشاب يبسط آراء المؤرخ العظيم في أسباب نهوض الأمم وسقوطها ، وأصول الحضارة والعمران البشري والاجتماعي الانساني، ثم يعقب عليها بآرائه الخاصة في الشؤون السياسية والاجتماعية، تلك الآراء التي كان يستقيها من المصنفات الحديثة ثم يطبق هذا كله بطريقة عملية على شؤون أمته [2] » .

وقد تحدث مصطفى عبد الرازق عن دروس الاستاذ فقال : « كنت طالباً من صغار الطلاب ايام جاء الشيخ محمد عبده إلى الأزهر ، وكان أساتذتنا عفا الله عنهم ، لا يفتأون يذمون لنا الشيخ ويمثلونه خطراً على الدين داهماً ، فتتأثر بذلك عقولنا الطفلة ، وكنت أفرّ بديني من أن ألقى الاستاذ أو أستمع إلى دروسه مع أنه

---

١ – تاريخ الاستاذ الامام ج ١ ص ١٠٧

٢ ـ الاسلام والتجديد في مصر ص ٤٣

صديق لوالدي ! وحضرت درسه مرة لأشهد كيف تشبه وجوه الملحدين وتشبه معها عقولهم وقلوبهم . فلما رأيت الرجل بالرواق العباسي ، وسمعته يفسر كلام الله ، قلت منذ ذلك اليوم : اللهم إن كان هذا إلحاداً فأنا أول الملحدين [١]. »

وفي تلك السنة نفسها عين محمد عبده مدرساً للعلوم العربية في « مدرسة الألسن الخديوية » فبدأ يعمل فيها على تكوين نشء جديد يحيي اللغة العربية ويقارع الطغيان والاستبداد .

وإلى جانب دروسه في هذه المدارس الثلاث ، كانت داره مدرسة رابعة يؤمها الشبان من طلاب التجديد والاصلاح ، فيلقي عليهم دروساً قيمة في الاخلاق والسياسة ، وقد قرأ لهم كتاب « تهذيب الاخلاق » لابن مسكويه ، وكتاب « التحفة الادبية في تاريخ تمدّن الممالك الاوروبية » للمؤرخ الفرنسي غيزو وكان حنين نعمة الله الخوري قد ترجمه إلى العربية .

وكانت مصر في حال يرثى لها من الجهل والفقر ، وطغيان الحكومة ، وتعاظم سلطان الاجانب ، فرأى الطلاب في دروسه قبساً هادياً ، وأملاً مشجعاً ، فالتفوا حوله ، وأُشربوا روحه ، وانتموا به ، فأنجب منهم نخبة من رجال الفكر والرأي ، في طليعتهم سعد زغلول وقاسم أمين وحفني ناصف وأحمد تيمور ومصطفى المنفلوطي وعبد الرحمن البرقوقي ومصطفى عبد الرازق من المصريين واسماعيل الحافظ من طرابلس الشام واحمد المحمصاني من بيروت والشيخ الترمانيني من حلب [٢] .

وفي أواخر سنة ١٨٧٩ (١٢٩٧ هـ) أُجبر الخديوي اسماعيل على التنازل عن عرش مصر ، وتولى مكانه ابنه توفيق . وكان جمال الدين الافغاني ومريدوه قد اتصلوا بهذا الأمير ، أيام ولايته للعهد ، واتفقوا معه على تغيير شكل الحكومة ، وجعلها مسؤولة أمام مجلس نيابي ، فلما تسنم العرش ذهبوا اليه يطالبونه بإنجاز ما وعد ، فإذا به ينقلب على أصدقاء الأمس ، فيؤخذ جمال الدين من الطريق ليلاً ،

---

١ محمد عبده للدكتور عثمان امين ص ١٢٤

٢ ـ عاد محمد عبده الى التدريس في الازهر يوم تولى منصب الافتاء ، ولعل بعض هؤلاء الاعلام قد حضر دروسه في المرحلة الثانية من حياته .

ويوضع في عربة مقفلة ، ويُرسل إلى السويس ومنها إلى الهند ، ويُعزل محمد عبده من مدرسة دار العلوم ومدرسة الألسن ، ويؤمر بالإقامة في قريته محلة نصر وعدم مبارحتها حتى يؤذن له .

وكان جمال الدين الافغاني يقول لمن يسأله عن وصيته قبل مفارقته مصر :

— حسبكم محمد عبده من وصي أمين [1] !

وقيل ان آخر كلمة قالها عند مغادرته الديار المصرية :

— انني تركت في مصر الشيخ محمد عبده وكفى ... انه لمصر أقوى من أسطول وأعز من جيش !

ويروي محمد باشا المخزومي عن الافغاني قوله في أخريات أيامه بالاستانة « مصر أحب بلاد الله إليّ ، وقد تركت لها في الشيخ محمد عبده طوداً من العلم الراسخ ، وعرمرماً من الحكمة والشمم وعاو الهمم ، واني ليذهب بي العجب ويأخذ مني كل مأخذ عندما أرى المصريين في جمود ، وأولي الهمة في قعود ، وكيف لم يتسنّ إلى الشيخ في همته ونهضته ، وله من تلميذه مثل سعد زغلول ، واخوانه خير أعوان ، ولم تتألف منهم إلى اليوم عصبة حتى تصدم باطل الانكليز وتجليهم عن الهرمين وتصون الحرمين ، فلم يبق في قوس الصبر منزع ، ولا في معونة الغير مطمع [2] » .

وكان جمال الدين كلما ذكر محمد عبده يقول « صديقي الشيخ » و « قلت للصديق » أو « قال لي الصديق » فيفهم الحاضرون أنه يعني الشيخ محمد عبده .

وكان عبدالله النديم في آخر أيامه يكثر من التردد إلى منزل جمال الدين ، وكأن الغيرة قد فعلت في نفسه من كثرة الثناء على الشيخ محمد عبده ، فقال :

— يا سيد ، ما غفلت مرة عن إضافة لفظة الصديق إلى الشيخ ، كأنه لم يكن لك بين الناس صديق غيره ، إذ نراك تنعت من سواه بصاحبنا أو فلان من معارفنا !

فتبسم جمال الدين وقال :

---

١ - محمد عبده ، للعقاد ، ص ١٣١

٢ - خاطرات جمال الدين الافغاني ، ص ٢٤٥ ، النهضة العربية الحديثة لمحمد بديع شريف ص ٥١

— وأنت يا عبدالله صديقي، ولكن الفرق بينك وبين الشيخ ، انه كان صديقي على الضراء ، وأنت صديقي على السراء !

فسكت النديم ،لم يحر جواباً مع شدة عارضته وولوعه في كثرة الكلام [1] ..

---

١ ـ خاطرات جمال الدين الأفغاني ص ٢٤٩

المصلح الوطني

ظل محمد عبده مبعداً في قريته حتى أعيد تأليف مجلس النظار وعاد رئيسه رياض باشا الى مصر من رحلة كان يقوم بها ، فسعى في العفو عنه ، وكلفه المساهمة في تحرير « الوقائع المصرية » وهي الجريدة الرسمية ، ولكنه لم يستطع ان يدخل عليها شيئاً من التجديد ، حتى توسعت صلاحياتها وامتد نطاق نفوذها الى جميع الوزارات والصحف ، وعهد اليه برئاسة تحريرها ، واختار لمعاونته فيها نخبة من تلامذة جمال الدين الأفغاني الذين امتلأت قلوبهم بحب الوطن ، وتاقت نفوسهم الى تحريره ، وبرعوا الى ذلك في الكتابة والدعوة الى الاصلاح والتجديد ، وفي مقدمتهم سعد زغلول وكان يومذاك مجاوراً أزهرياً في أوائل العقد الثالث من عمره ..

فلم يمض وقت قصير حتى لمع اسمه في عمله الجديد ، وتجلى نبوغه ، وهيمن على الامة والحكومة بما يكتبه من مقالات ضافية في اصلاح العمل ، وتقويم الاخلاق ، واقرار الحق والعدل ، وخدمة المصلحة العامة ، وتحرير اللغة العربية من الاساليب والاصطلاحات التي شاعت فيها خلال عصور الانحطاط .

وكان محمد عبده قد كتب للصحف اثناء دراسته في الازهر ، فنشرت له « الاهرام » مقالات كبيرة كانت الواحدة منها تصدر متتابعة في اعداد عدة، قرظ في احداها هذه الجريدة ، وبيّن في ثانية عنوانها « الكتابة والقلم » حاجة الناس الى

الصحافة ونفعها في الحيـــاة الاجتماعية ، لسببين رئيسين ، اما الاول فلانها توقف الشعوب على خصائصها ، وتبين لها اسباب الانحطاط وعوامـــل الرقي ، وتشرح مفاسد العادات كالجهالة والتكاسل عن الصناعة والرضا بالفقر والتمسك بالخرافات وفاسد الاعتقادات ، وتحث على الاشتغـــال بالصنائع ، وطلب العيشة الراضية ، والنظر في آراء الاوائل نظر الناقد ، والتمسك في باب العقائد بما قطع به البرهان . واما الثاني فلأنها لسان سر السياسة ، توازن بين الدول وقواها ، وتبين ما في انظمتها من اختلاف ، وما في اعمالها من خير او شر ، وما يبدر عن الحكام من عدل او ظلم ، وترشدهم الى حقوقهم وواجباتهم ، مغرية محذرة ، مبشرة ومنذرة ، حتى ينتبه الغافلون ويقوى المستضعفون .

اما المقالة الثالثة فهي بعنوان «المدبر الانساني والمدبر العقلي الروحاني» وقد تحدث فيها عن استعمار الغربيين للشرقيين لقوة اولئك وضعف هؤلاء « وما ذاك إلاّ من تداني الهمم وتراكم الظـــلم ، والوقوع في حفرة الحيوانية ، والانحطاط من درجة الانسانية ، حيث فقدت منهم الغيرة والحمية ، وذلك بدل ان ينبذوا في مثل هذه الاوقات جميع التعصبات الدينية والاختلافات المذهبية ، لحماية أوطانهم ووقايتها من وطأة اعدائهم » . ثم يذكّر ابناء الشعوب المستعمرة او المهددة بالاستعمار ، بانهم ابناء وطن واحد ، متشاركون في المضار والمنافع ، لا يمس احدهم خير الا نال الآخر مثـــل ما نال صاحبه ، ويهيب بهم الى التآخي والتعاون في الذود عن اوطانهم ، ثم يقول : « فان قال قائل :

ان الديانات القت بيننا إحناً وأورثتنا أفـــانين العدوات

فكل واحد منها يتوقد من صاحبه ، لمخالفته له في مذهبه ، ومناوأته اياه في مشربه ، فكيف تميل تلك القلوب لرفع الشقاق وجمع كلمة الاتفاق والتخلص من خسة النفاق ، فنجيبه ان مثلنا في ذلك مثل أخوين تولدا من بطن واحد وأصل واحد ، قد يقع بينهما من المنازعات المنزلية والمناوشات المعاشية ، فيأخذ كلاً منهم ما شاء من الغيرة والحمية ويكاد ان يفتك بالآخر ، ومع كل ذلك انهما عند اقتراح

اجنبي على أحدهما يقوم الآخر بنصرته ولا يحجم عن رد تبعته ، فتلك العداوات الجزئية لا يصح عند العاقل ان تضر بمصالحنا الكلية .. »

وتلا ذلك مقال في « العلوم الكلامية والدعوة الى العلوم العصرية » روى فيه قصة طالب ازهري اشتغل بدراسة العلوم ، فغاضبه ابوه ومنعه عن ذلك ، قال : وليست هذه « اول قارورة كسرت ، ولا أبدع حادثة وقعت ، ولكن ذلك أكثر من الكثير وامره فاش بيننا شهير ، خصوصاً من الطائفة الشريفة التي تعد بمنزلة روح لهذه الامة ، فانهم الى الان لم ينظروا الى انفسهم ولا الينا بعين الرحمة ، ولم يروا لهذه العلوم فائدة تعود عليهم أو على ابناء ملتهم بعائدة ، ولكن اشتغلوا بما ربما كان أليق بزمان قد أفلت كواكبه وطويت صحفه وولت ركائبه ، غير ملتفتين الى اننا اصبحنا في خلق جديد ، قد طرحتنا الايام بديننا وشرقنا في بادية غصت بآساد ضارية ... » ثم يستشهد بدول الغرب ، قائلا إن العلم هو سبب قوتها وغناها وغلبها ، ويدعو الى اقتباس ما أخذت به من المعارف على اختلاف انواعها ، لبلوغ المستوى الذي ارتفعت اليه ..

ومن أروع ما يقوله في هذا الموضوع : « كنا نؤمل ان المنبج يفيق بشم روح النشادر .. في زمان جرى فيه سيل العلوم حتى عمّ أنحاء الكرة على العموم .. وظهر فيه التوازن بينها وبين احوالنـــا المهجنة ، كثروتهم وفاقتنا ، وعزتهم وذلتنا ، وقوتهم وضعفنا ، وقدرتهم وعجزنا ، وصولتهم وانهزامنـــا ، وغير ذلك من المزايا والرزايا التي لاتعد لكن صمّت الآذان وعميت الابصار ، ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم »

وثمة مقالة خامسة في تقريظ كتـــاب « التحفة الادبية في تاريخ تمدن الممالك لاوربية » للمؤرخ الفرنسي غيزو ، الذي نقله الى العربية حنين نعمة الله خوري ، اوفيه بيان لضعف الآداب العربية وحاجتها الى الاستعانة بما وصل اليه النشاط الغربي من الثمرات العلمية الناضجة .

غير ان تفكير محمد عبده الذي بدت تباشيره الطيبة فيما نشر من مقالات قيمة بجريدة الاهرام ، قد نضج في عهد « الوقائع المصرية » وتركز ، كما ان اسلوبه قد

تحرر من السجع المتكلف ، والقيود العتيقة ، والمقدمات المسهبة التى لا تمس جوهر الموضوع ، أو تمسه في إبهام وغموض ، واخذ يعلم الكتاب والقراء ان الكتابة هي « الابانة عن الغرض لا الالغاز فيه ، وأس اساس البلاغة القصد في التعبير والدقة في الاداء » .

وقد ألمّ الامام في عشرات الفصول التي نشرها بجريدة « الوقائع المصرية » بوجوه الاصلاح التي كان يهدف اليها . ومن مراجعة هذه الفصول القيمة وتدقيق النظر فيها ، يمكننا أن نستخلص اكثر مبادئه الوطنية ، ومذاهبه في الحرية ، وطرائقه في الاصلاح . فهو قبل كل شيء ، وطني واع يرى ان الوطن هو خير اوجه الوحدة ، لامتناع الخلاف والنزاع فيه ، ويقول : «ان في الوطن من موجبات الحب والحرص والغيرة ثلاثة تشبه ان تكون حدوداً، الاول انه السكن الذي فيه الغذاء والوقاء والاهل والولد ، والثاني انه مكان الحقوق والواجبات التي هي مدار الحياة السياسية ، وهما حسيان ظاهريان ، والثالث انه موضع النسبة التي يعلو بها الانسان ويعز أو يسفل ويذل ، وهو معنوي محض . فاذا تقرر ذلك مما قلناه وجب على المصري حب الوطن من كل هذه الوجوه » .

وهو مصلح اجتماعي يدعو الى الخير ويسعى لنشر المدنية،واقرار السلام والعدل، ويتوسل لبلوغ هذه الغايات النبيلة بانتقاد مساوىء المجتمع والدعوة الى الفضائل والاخلاق النبيلة ، فيهيب بمواطنيه الى انشاء الجمعيات الخيرية التي تساعد المحتاج ، وتغيث الملهوف ، وتؤمن الخائف ، وتحث على المحبة والوطنية والتعاون على جلب المنافع العامة ، ويحض المزارعين ، عماد الثروة في البلاد ، على ارجاع ما اغتصبه منهم الدائنون الاجانب وجباة اسماعيل ، بالعمل والاقتصاد في الانفاق ، ويأخذ على المواطنين عامة انهم يقولون اكثر مما يعملون ، ويود لو يكون كل شخص منهم مجداً في نيل الفضائل، عاملا على تقدم البلاد . ويقارن سمرنا في مجامعنا بسمر الأجانب ، ويأسف لإضاعتنا الوقت في لغو القول وعقيم اللهو ، بينا ينتفع الاجانب حتى من أوقات الفراغ لما يقبلون عليه من الوان الفنون وما يتسامرون به من الاحاديث الجدية المفيدة . ويقرأ في مجلة « المقتطف » سيرة عظيم وصل الى

ارفع المناصب بجده واجتهاده ، لا بلثم اعتـــاب الكبراء وبالوقوف خلف أبواب الامراء فيقول : « هكـــذا يرتفع أبناء الاوساط والآحاد من الناس في البلاد المتمدنة بالصفات الفاضـــلة ، وسعة المعلومات ، وبذل الجهد فيما يعود على البلاد بالخير والفائـــدة . » فهو شغوف بالتمدن يذكره في كل منـــاسبة ويحبب به ويدعو اليه لأنه « الضـــامن لتوطيد أركان العمران ، والكفيل بتشييد دعائم الاجتماع . »

أما الاصلاح الديني فلم تفته معالجته بين حين وآخر ، فكتب مقالاً في « حكم الشريعة في تعدد الزوجات » حمل فيه على الذين اتخـــذوا تعدد الزوجات « طريقاً لصرف الشهوة واستحصال اللذة لا غير ، وهذا لا تجيزه الشريعة ولا يقبله العقل »، ودعا الى الاقتصار على واحدة لصعوبة العدل الذي اشترطته الآية « فانخفتم ألا تعدلوا فواحدة » . وكتب عدة مقالات انتقد فيها بشدة ما يجري في المساجد من دق الطبول وآلات اللهو في ايام تعرف بالحضرات « ويجري فيهـــا من الاختلاط والتشويش ما لا يليق بأماكن العبادة » واستنكر بدعة « الدوسة » التي يستلقي فيها الناس على الارض مصطفين ثم يعلو أحد المشـــايخ على ظهورهم واحداً بعد واحد .. وقال انها تنافي الدين الذي كرّم الانسان . كما هاجم كثيراً غيرها من البدع والخرافات .

وهو داعية الى الحرية واقرار حقوق الانسان لاعتقاده بان لا وطن الا مع الحرية ، بل هما سيـــان . فان الحرية انما هي حق القيام بالواجب المعلوم، « فـــان لم توجد فلا وطن لعدم الحقوق . » وهو ينكر ان يكون لأحد المأمورين سلطة على أحد من الاهالي إلا فيما يعود على البلاد بالمنفعة العامة ، وينصح الحكام والمحكومين التزام العدل والانصـــاف ، واحترام القانون ، دون تحيز لكبير أو ممالأة لذي سلطان . لقد رأى بطش الحكام وظلمهم فقال : « انما تسعد البـــلاد وتستقيم حالها إذا ارتفع فيها شأن القانون ، واحترمه الحاكمون قبل المحكومين ، واستعملوا غاية الدقـــة في فهم فصوله وحـدوده ، والوقوف على حقيقة مغزاه ، وسهروا لتطبيق أعمالهم جزئيةً وكليةً على منطوقه الحقيقي ومفهومه .. عند ذلك تحيا البلاد حياة

حقيقية » .

على ان مفهوم الحرية عنده ليس خيالياً ومطلقاً ، فهو لا يرى حرجاً في وضع القيود على من يسيء استعمالها ، فيطالب مثلاً بمنع كتب الأكاذيب والاضاليل والخرافات من ان تُطبع ويتداولها الناس لما رأى من انتشارها واقبال الاهلين على مطالعتها ، « فاذا شب الولد ومالت نفسه الى المطالعة في الكتب ، لم يجد أمامه الا أصناف هذه الكتب الكاذبة أو الخرافية ، فيجهد نفسه في قراءتها ، فيشب وهي بين يديه ، ويموت وهو معتقد لما فيها من الاضاليل . ونجم عن ذلك انغماس الغالب في ظلم الجهالات ، وانحطاطهم عن درجات الكمالات ، وهذا من أضر المؤثرات في تأخر البلاد وبقائها في حفر الهمجية .. » وربما كان هذا من قبيل دعوته الى منع تداول الحشيش والافيون !

لقد كان محمد عبده يميل كما رأينا الى الاستعانة بالقوانين على فرض الفضائل ، والحد من الطغيان ، ودفع الامة في طريق الصلاح ، وهو يقول : « من تتبع تاريخ هذا الانسان الوحشي ، بامعان وتبصر ، ظهر له ان القوة هي التي دوخت قوى الانسان السامية وبددتها ، وأحدثت به من القبائح ما أحدثت ، ولولا أن القانون كسر صورتها وذلل صعوبتها ، لما أشرق نور الحمد على صفحات الوجود ، ولا تمتع الانسان في الازمان الأخيرة بلذة الراحة والسعادة فالحق للقانون لا للقوة . » فاذا ارادت الامة التي تصرّف ذوو البغي والغرور فيها على خلاف القانون ، ان تستعيد مجدها الأثيل ، فلا بد لها من إعادة شأن القانون .

وافضل القوانين في نظر الامام ، واعظمها فائدة ، هو القانون الصادر عن رأي الامة ، وفي ذلك يقول : « ان القانون الصادر عن الرأي العام ، هو الحقيق باسم القانون » ثم يقول : « ... ومما تقدم سرده تعلم ان اهالي بلادنا المصرية دبت فيهم روح الاتحاد ، وأشرفت نفوسهم منه على مدارك الرأي العام ، وأخذوا يتنصلون من جرم الاهمال ، ويستيقظون من نومة الاغفال ، وقد مرت عليهم حوادث كقطع الليل المظلم ثم تقشعت عنهم ، فطالعوا من سماء الحق ما كحل عيونهم بنور الاستبصار ، حتى اشرأبت مطامعهم الى بث افكارهم فيما يصلح الشأن ، ويلم

الشعث ، ويجمع المتفرق من الامور ، ليكونوا امة متمتعة بمزاياها الحقيقية ، فهم بهذا الاستعداد العظيم أهل لأن يسلكوا الطريق الأقوم : طريق الشورى والتعاضد في الرأي » .

فالشيخ محمد عبده من دعاة الشورى ، وله في هذا الموضوع آراء سديدة تدل على تبصر وعمق عظيمين . الا ان طريقه في الاصلاح هي طريق التدرج بالأمة في معارج الرقي درجة فدرجة ، لئلا تلقى على كواهل الناس واجبات لم يستعدوا لها ، وتباح لهم حقوق لا يحسنون التصرف بها . والرأي عنده ان يصار إلى تربية الامة ، وإعدادها لتلك الحقوق والواجبات ، والسير بها نحوها بطريق التطور لا بطريق الوثوب . وقد انتقد هذا الرأي من آراء الامام ، الكاتب الحر أديب اسحق .

لقد كانت طريق محمد عبده في الاصلاح العناية بالتربية ، بحيث تجعل احساس الانسان بمنافع بلاده كاحساسه بمنافع نفسه، وبنشر العلم في انحاء البلاد وتيسير سبيله امام الراغبين فيه،وبتجديد مناهج التدريس واقامتها على الاساليب الحديثة التي ترقي العقل ، وتلقن الاعتماد على النفس،والتميز بين الصالح والفاسد ، وبين الحق والوهم ، كيما تصبح اهلاً لانشاء جيل منور جديد قادر على السير بوطنه الى ما يطمح اليه من حرية وعزة ومنعة .

وكان لمقالاته العديدة في التربية والتعليم تأثير كبير في أوساط المعارف ، حدا رياض باشا رئيس مجلس النظار الى تأليف مجلس اعلى يكون له الحكم الفصل في ادارة المعارف ، وجعل الشيخ محمد عبده عضواً فيه . فكانت للامام في هذا المجلس الاقتراحات النافعة ، وقد اصطدم غير مرة بمن فيه من الاعضاء الاجانب ، ولا سيما حين اقترح جعل المدارس الاجنبية تحت مراقبة نظارة المعارف الوطنية ، لكنه استطاع بصلابته وقوة حجته اقناع المجلس باقرار اقتراحه . والراجح انه لولا الثورة التي نشبت يومذاك ، لوضعت مقررات هذا المجلس موضع التنفيذ ، واجتاز الامام شوطاً كبيراً نحو تحقيق اهدافه . وربما كان ذلك من الاسباب التي دفعته الى معارضه الحركة العرابية التي أدت الى هذه الثورة .

محمد عبده والثورة العرابية

كانت مصر في آخر عهد الخديو اسماعيل مرهقة بديون ثقيلة قاربت المائة مليون من الجنيهات ، وقد تذرع الاجانب ، اصحاب هذه الديون ، بحقهم في استيفائها ، مع فوائدها الباهظة المتزايدة يوماً بعد يوم ، للتدخل في شؤون البلاد الداخلية ، واكتساب الحقوق والامتيازات ، وفرض سيطرتهم غير المباشرة على اكثر مرافق الدولة . وكان الفلاحون يعانون العبء الاكبر من هذه الكارثة التي حلت بوطنهم ، لما فرض عليهم من ضرائب فادحة لا طاقة لهم بادائها ، حتى عم البؤس الارياف ، وامتلأت اسواق المدن بالنساء اللاتي يأتين لبيع ملابسهن وقدورهن ، لان جباة الضرائب ينتظرونهن في قراهن ، والسوط مشهر في ايديهم مهددين أزواجهن واولادهن بالجلد المهين اذا امتنعوا عن اداء ما يطلب منهم .

وقد أثارت هذه المظالم النقمة على اسماعيل،وعلى سياسته التي استنزفت ثروة البلاد، وأدت الى التدخل الاجنبي المتعاظم في كل شأن من شؤونها . وكان جمال الدين الافغاني روح تلك النقمة الصارخة ، ومضرم لهيبها في جميع الاوساط التي اتصل بها، ثم طارت شراراتها إلى كل أفق ، حتى ان علماءالازهر أنفسهم أخذوا يطعنون في اسماعيل ، ويقولون انه « معتد على القانون وظالم سياسي » ويتباحثون في عزله او التخلص منه .

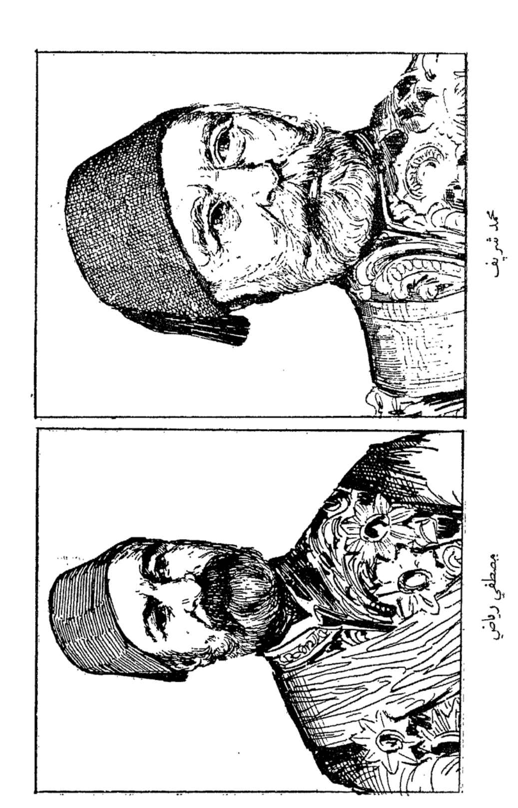
ولما وجد اسماعيل نفسه بين ذينك الخطرين العظيمين : مجابهة نقمة الاجانب أو مجابهـــة نقمة الشعب ، آثر مواجهة الخطر الأول وأخذ يشجع الحركة الوطنية في مصر ، ويوجهها ضد التدخل الاجنبي ، فأراد الاجانب إرغامه على التنازل عن العرش وعرف الباب العالي في الآستانة ذلك فبادر الى اقالة اسماعيل ليظهر بظهر صاحب السلطة في مصر ، وحل توفيق باشا محل أبيه اسماعيل .

وكان الخديو الجديـــد مناط آمال الاحرار باقرار الحكم الدستوري ووقف التدخل الاجنبي في شؤون مصر ، لما تظاهر به خلال ولايته للعهد ، من الميل الى الاخذ بمبادىء الاصلاح التي كان ينادي بها جمال الدين . غير انه لم يكد يجلس على عرش البلاد ، حتى نفى الحكيم من مصر وأبعد محمد عبده الى قريته ، وقبض على كثير من دعاة الاصلاح فزجهم في اعماق السجون .

ثم تولى رياض باشا رئاسة الوزارة ، وكان من اصدقاء جمال الدين ومريديه ، يشجعهم على انتقاد مساوىء الادارة والحكم ، وبث روح الحرية بين افراد الشعب ، وقد نفي الحكيم في غيابه عن مصر ، ولما عاد اليها سعى في العفو عن محمد عبده ، وعهد اليه بتحرير الجريدة الرسمية لمحبته اياه وثقته به ..

وفي الواقع ان محمد عبده كان يبادل رياض باشا الثقة والمحبة . ولعل غياب جمال الدين عن مصر ، وانهيار الآمال المعقودة على توفيق باشا ، قد غيّرا رأيه في الطريقة التي يجب التوسل بها لإقرار الاصلاح ، فأخذ يعمل على توجيه مساعي الاحرار الى الشعب وتعليمه وتهيئته لمبادىء الحرية ، للتدرج به نحوها درجة فدرجة ، مخافة ان يزداد النفوذ الاجنبي ، لا سيما وان انكلترة وفرنسة كانتا تتربصان لمصر الدوائر وتتسابقان الى الاستيلاء عليها .

يقول الاستاذ احمد امين : « كان رياض يريد الخير لمصر ولكن من طريق التدرج ، ويعتقد ان المصريين في حالة تدعو الى الاشفاق والاخذ بيدهم في هوادة ، وهو في هذا قوي جبار ينفذ ما يريد في عنف ... لا يعبأ اذا اقتنع بشيء من اصلاح أو بشخص من الاشخاص ان ينفذه ويؤيده مهما كانت النتائج ، والى ذلك يعتقد في الاجانب من انكليز وفرنسيين القوة ويسالمهم ... فتتألب عليه الجموع ، منهم من



محمد شريف

مصطفى رياض

كرهه لصلفه ، ومنهم من كرهه لعدله في ابطـــال السخرة والضرب بالكرباج ، ومنهم من كرهه لسيرته مع الاجانب ... وشعر النـــاس بغضب الخديوي توفيق عليه لانه يعارضه في بعض اغراضه وتصرفاته ، فشجعهم هـــذا على محاربتـــه ، وتخصصت جرائد لتجريحه وسبه ، مع انه كان مؤيدها من قبل او خالقها ... وفي هذه الظروف كان الشيخ محمد عبده على رأس الوقائع وادارة المطبوعات ، فكان يهاجم لانه من اتباع رياض ، وكان هو نفسه يشعر بالحرية التامة في نقد الشؤون الاجتماعية والعادات الدينية ، لكنه يشعر ببعض القيود فيما يمس المسائل السياسية ، إما اعترافاً بجميل رياض عليه وعلى استاذه ، وإما نزولاً على مقتضيات الوظيفة ، وإما اعتقاداً بمذهب رياض في التدرج ، وإما كلها مجتمعة [1] . »

وكان الصراع يشتد بين فئتين من دعاة الاصلاح ، فئة تـؤمـن بمبادىء الحرية وتدعو إلى الاخذ بها من طرق التدرج، وهي نشر التعليم الصحيح بين افراد الشعب على ان يكون من أهم ما يشمله تفهيم الناس الحقوق والواجبات، واستخدام الصحافة استخداماً قوياً في محاربة المفاسد وتنبيه الوعي القومي ، والاجتهاد في ان يكون على رأس الحكومة رجال عادلون ينفذون الاصلاح المطلوب ، والتدرج في الحكم النيابي بالتوسع في سلطة مجالس المديريات ... وعلى رأس هذه الفئة محمد عبده وسعد زغلول . وفئة كان اكثر افرادهـا ممن درسوا في اوربـة واخذوا ثقافتهم عنهـا ، فكانوا يناضلون في سبيل حرية الفرد ، ويطالبون باقرار مبادىء الحرية السياسية وفي طليعتها انشاء مجلس نيابي مستقل تستمد الحكومة سلطتها منه وتكون مسؤولة امامه ، وكان على رأس هذه الفئة شريف باشا ، وكان لسانها البليـغ الكاتب النابغة اديب اسحق .

وظل هذا الصراع يشتد حتى كانت الثورة العرابية ..

يقول احمـــد امين : « ومع الأسف لم يكن مصدر الثورة هذا الحزب الذي يطالب بالمجلس النيابي والحرية الشخصية ، ولو كان لاتخذت الثورة وضعاً آخر ،

---

١ – فيض الخاطر ج ٧ ص ١٧١ – ١٧٢



تمثال عرابي

ولنظر اليها على انها ثورة من الامة لتحقيق العدل . انما بدأت الثورة من الحزب العسكري وعلى رأسه عرابي يطالبون بتحقيق المساواة بين الضباط المصريين والضباط الشراكسة . ولكن اتسعت الثورة رويداً رويداً ، وزادت مطالب عرابي باشا شيئاً فشيئاً ، فتزعم – ايضاً – الوطنيين وطلاب المجلس النيابي ، وانضم اليه سلطان باشا أول الامر ، وكان من الناقمين على رياض والمطالبين بالحكومة النيابية ، وبانضمامه انضم كثير من الاعيان وعلماء الازهر ، ثم انضم الشعب باجمعه تهيجه الجرائد الثائرة ، على رأسها عبد الله نديم ، وامتزجت مطالب الجنود بمطالب الاعيان بمطالب الاهالي ، وطلب العدالة بين الضباط بطلب الحكم النيابي بطلب الغاء الاستبداد ، وكل ذلك تنفذه القوة العسكرية [1] » .

وكان محمد عبده يلتقي بادىء الامر ، بعرابي قائد الجيش ، ويناقشه في آرائه ، فيقول الزعيم ان الوقت قد حان للتخلص من الاستبداد واقرار حكومة شورية ، ويقول الامام : « علينا ان نهتم الآن بالتربية والتعليم بضع سنين ، وان نحمل الحكومة على العدل بما نستطيع ، وأن نبدأ بترغيبها في استشارة الاهالي في بعض مجالس خاصة بالمديريات والمحافظات ، ويكون ذلك كله تمهيداً لما يراد من تقييد الحكومة ، وليس من اللائق ان نفاجىء البلاد بأمر قبل ان تستعد له فيكون من قبيل تسليم المال للناشىء قبل بلوغ سن الرشد : يفسد المال ويفضي الى الهلكة » ثم يقول : « لو فرض ان البلاد مستعدة لان تشارك الحكومة في ادارة شئونها فطلب ذلك بالقوة العسكرية غير مشروع ، فلا يلبث ان يتهدم ويزول ، وأرى ان هذا الشغب قد يجر الى البلاد احتلالاً أجنبياً يستدعي تسجيل اللعنة على مسببه ... » وقد أجاب عرابي على ذلك مبتسماً : « أبذل جهدي في ألا أكون مورد هذه اللعنة [2] » .

وعلى الرغم مما يؤخذ على محمد عبده من التردد في تأييد الثورة العرابية، في اول

---

١ - المرجع السابق ص ١٧٨

٢ - مذكرات الامام محمد عبده ، كتاب الهلال ص ١٥٤

أمرها ، لاختلاف الوسائل التي لجأ اليها الزعماء عن الوسائل التي كان يريد الأخذ بها والعمل بمقتضاها ، فان ما كان يخشاه ويحذر منه قد وقع ، لأن هذه الثورة ، بما اكتنفها من الدسائس الاجنبية ، وخيانة بعض مؤيديها من الباشاوات ، واندفاع امير البلاد الى الارتماء في احضان المستعمرين انقاذاً لعرشه ، قد افضت الى الاحتلال الاجنبي [1] فقبض على زعمائها ، وحكم عليهم بالنفي المؤبد ، وحكم على محمد عبده بالنفي ثلاث سنوات بعد ان سجن ثلاثة اشهر ونيفاً .

ولا ريب في ان القارىء يتساءل عن السبب الذي سجن محمد عبده من أجله ونفي مع زعماء الثورة العرابية ، وقد بينا انه كان مخالفاً لهم في الرأي .. والواقع ان الجواب على هذا السؤال يعرض لموقف مشرف من أعظم مواقف الامام . فقد كان بادىء الامر ينهى عن الثورة ويسعى لمنعها ، ولكنها ما كادت تقع وتشق البلاد الى جبهتين : جبهة الشعب الراغب في الاصلاح والمدافع عن البلاد ، وجبهة الامير الذي يتواطأ مع الانكليز على احتلال بلاده لانقاذ عرشه ، حتّى انضم إلى الثورة ، وجاهد مع الثوار .

والواقع ان محمد عبده قد انضم الى الثورة العرابية حين تطور امرها من قضية عسكرية الى قضية قومية ، وتطورت اهدافها من المطالبة بالاصلاحات العسكرية إلى المطالبة بالحكم النيابي، بل ان الثورة ما كادت تنفجر ، حتى بدرت بوادر الاحتلال الاجنبي ، فرأى الامام ان من الواجب ان تتفق الامة كلها لمقاومة هذا الخطر الداهم ، وما لبث ان التحق بالثورة وناضل في صفوفها نضال الوطني الشريف ، وكان هو والبارودي محرري البيان الذي نشره « الحزب الوطني » عن غايات الحركة الوطنية ومبادئها .

وقد روى ابرهيم المازني في كتابه عن قصة حياته ما سمعه من والده وهو أحد الشهود الثقات عن موقف محمد عبده من الثوره العرابية قبل وبعد نشوبها فقال :

---

١ - تعرض عرابي لانتقاد بعض المفكرين والوطنيين وكان مبعث هذا الانتقاد النقمة على الاحتلال الانكليزي الذي أدى اليه اخفاق الثورة العرابية ، وقد غالى بعضهم في الانتقاد حتى بلغ حد اللوم والاتهام .

« .. ثم قامت الحركة العرابية وسارت بأسرع مما كان ينتظر ، وكان غرضها تحرير المصريين والتخلص من عناصر الترك والشراكسة المتحكمين المستولين على المناصب في الادارة والجيش ، ومضت الى غايتها في جو من الدسائس الأجنبية والأطماع الدولية ، فخشي الشيخ محمد عبده العاقبة ، وكان بعيد النظر سديد الرأي فتوقع اذا لج العرابيون فيما هم فيه ، ولم يتحرزوا أو يتوخوا الاعتدال ، ان ينتهي الأمر باحتلال الانكليز لمصر ، فكان لهذا يقاوم العرابيين مقاومة شديدة وينعي عليهم قصر نظرهم وقلة تبصرهم ، ويبسط فيهم لسانه حتى ضجوا وهددوه بالقتل إذا ظل يعترض طريقهم ويناوئهم ، وأراد بعض العرابيين من أصدقاء الامام أن يصلح ما بينه وبينهم ، وأنا أعرف هذه القصة لأن الذي حاول إصلاح ذات البين من أقربائي ، ولأن بيت جدي كان هو مكان الاجتماع .

« وتكلم العرابيون ، وتكلم دعاة التوفيق ، ثم تكلم الشيخ محمد عبده ، فأصر على رأيه ان العرابيين باندفاعهم سيجرّون على البلاد الاحتلال الأجنبي ، فأخفقت المساعي للصلح والتوفيق .

« وكان أبي من رجال الأزهر وزملاء الشيخ محمد عبده في الدراسة وتلاميذ السيد جمال الدين ، وان كان لم ينبغ كما نبغوا ، فسأل الشيخ محمد عبده :

ـ أكنت تلج هذه اللجاجة في عنادك مع العرابيين لو كان السيد جمال الدين في مصر ؟

فكان جواب محمد عبده الكلمة المترعة :

ـ يا محمد !.. لو كان السيد جمال الدين هنا لما قامت الحركة العرابية ولا احتاج أحد إليها ، لأن السيد كان يغني بشخصه عن كل ذلك ، وتمثل ببيت من رثاء المتبي :

كان من نفسه الكبيرة في جيش وان خيل انه انسان !

« ولما استفحلت الحركة العرابية وضرب الأسطول الانكليزي الاسكندرية ، انضم الشيخ محمد عبده إلى العرابيين ، ووضع يده في أيديهم ، لأن الواقعة قد وقعت وكان ما خاف أن يكون ، فلم يسعه إلا أن يكون مع قومه ـ ولو كانوا

مخطئين — على الغريب ، وكان يتمثل ببيتي الحماسة :

بـذلت لهم نصحي بمنعرج اللوى   فلم يستبينوا الرشد إلا ضحى الغد
وهل أنا إلا من غزيّة إن غوت   غويت ، وان ترشد غزية أرشد[1] »

ويعلق عباس محمود العقاد على هذا الموقف بقوله : « ويشتمل تاريخ الاستاذ الامام في الثورة العرابية على أمثلة شتى من أمثلة العظمة بالرأي الأصيـــل والنظر البعيد والغيرة الصادقة والخلق النبيل ، ولكنه لم يشتمل على موقف من المواقف التي يضرب بها المثل في سير العظماء على تقديسهم للواجب أنبل من موقفه الأخير منها ، وهي تواجه خطر الاحتلال الأجنبي ، وتتساق إلى المأزق الوبيل الذي يفض عنها الأنصار ويبعد عنها ذوي المآرب والمخاوف ، وانه لأحصف عقلاً وأبعـد نظراً من أن تخفى عليه العاقبة ولو على سبيل الترجيح ، إذا حال الأمل الطيب دون العلم بها في ذلك المأزق علم اليقين [2] »

قال الأستاذ عبد الرحمن الرافعي : « ويبدو لك مبلغ ثقة زعماء العرابيين بمحمد عبده في هذه المرحلة ، انه لما اشتدت أزمة الخلاف بينهم وبين الخديوي توفيـق ، وجاء الأسطولان الانكليزي والفرنسي في مـــايو سنة ١٨٨٢ ، ورفضت وزارة البارودي مطالب الدولتين ، اجتمع البارودي وكبار الضباط وأقسموا اليمين على ان يكونوا يداً واحدة ، فكان الشيخ محمد عبده هو الواضع لصيغة اليمين وتحليف كبار الضباط عليها . ولما اعتدى الانكليز على كيان مصر وضربوا الاسكندرية ، بذل الفقيد كل إخلاصه لمناصرة الدفاع القومي ، وكان موقفه موقف الوطني الذي يثور لكرامة البلاد واستقلالها، فدافع عنها بكل ما لديه من حول وإخلاص وقوة، ودعا إلى التطوع في صفوف الجيش المدافع عن مصر،وإمداده بالاعانات والتبرعات، وله في هذا الصدد مقالات بليغة في الوقائع المصرية [3] » .

---

١ — محمد عبده للعقاد ص ١٥٠

٢ — المرجع السابق ص ١٥١

٣ — الثورة العرابية والاحتلال الانجليزي ص ٥٤٠

والواقع ان مقالات محمد عبده في « الوقائع المصرية » قبل إسقاط وزارة رياض باشا كانت تدور حول القول بأن « عقلاء الناس يجتهدون أولاً في تغيير الملكات وتبديل الاخلاق عندما يريدون أن يضعوا للهيئة الاجتماعية نظاماً محكماً » ولكنه بعد شهر ايلول (سبتمبر) سنة ١٨٨١ (١٢٩٩ هـ) أخذ يكتب ان المصريين قد دبت فيهم روح الاتحاد وأخذوا يتنبهون من سنة الغفلة « ليكونوا أمة متمتعة بمزاياها الحقيقية ، فهم بهذا الاستعداد أهل لأن يسلكوا الطريق الأقوم : طريق الشورى والتعاضد في الرأي ... فلذا أجمعوا رأيهم على تأليف مجلس شوري » .

وفي شهري تشرين الثاني (نوفمبر) وكانون الأول (ديسمبر) من تلك السنة كتب مقال « الحياة السياسية » الذي بحث فيه على محبة الوطن ، والدفاع عنه ، وإقرار الحقوق والواجبات بين أبنائه ، إذ لا وطن بلا حقوق وواجبات ، ثم يقول فيه « ولقد كان بعض الناس يحاولون خلع الشعار الوطني عن ذوي الحقوق والواجبات في مصر ، وإلباسهم جميعاً لباس الجهالة والذل ، ولكن أبت الحوادث إلا أن تثبت لنا وجوداً وطنياً ورأياً عمومياً ولو كره المبطلون ... الخ »

ثم نشر وسعد زغلول الفصول التي بينا فيها وجوب الشورى شرعاً وعقلاً ، وكان ذلك ، كما يقول الاستاذ مصطفى عبد الرازق ، عنوان الصلح بين الثائرين وبين شيعة جمال الدين [١] .

وفي المذكرات الخاصة العجلى التي كان الامام يكتبها يوم اشتد أمر الثورة ، سطور رائعة كل الروعة ، تعبر عن مأساة نفس شاعرة أمام مأساة أمة مقهورة . قال في إشارته إلى حريق الاسكندرية وضربها والمهاجرة منها :

« نحو مائة وخمسين ألفاً من السكان مجردين من كل شيء ، أخذوا في الحركة لغير قصد ولا مأوى. الموت والفزع ملء نفوسهم على شطوط المحمودية إلى دمنهور، وجسر السكة الحديد من دمنهور إلى القاهرة .

« وكانت المهاجرة تكوّن خطوطاً سوداء تارة عريضة وأخرى دقيقة ، متحركة

---

١ - محمد عبده ص ١٢٨



أهالي الاسكندرية يدافعون عن مدينتهم

من كل جهة ، بسلسلة إنسانية طويلة. هنا ينزلون، هناك يمشون ببطء، لا وقاية ولا عيش ، وعلى طرفي تضاد مع سماء صافية وأرض خضرة نضرة ..

« ... أما الهاربون فكانوا كالأعاصير ، أو كماء انكسر سدّه فاندلق ، يتصل بعضها ببعض ، مزدحمين متراكمين ، في حالة عقلية أشبه بالجنون ، سائقين أمامهم أو حاملين على ظهورهم ما خف حمله من أمتعتهم : حيوان ، أثاث ضئيل ، ثياب رثة ، حتى بعض المفروشات التي لا قيمة لها ...

« في هذه الحالة ، حالة شعب طُرد من بيته ، كان الحر شديداً، وغيم من الغبار سدّ الأفق وأظلم الجو . نساء يبحثن عن أولادهن ، يتشاجرن بعضهن مع بعض ، يتضاربن ، في اختلاط لا يمكن التعبير عنه . عربات بلا عجل استعملت مساكن ، عربات من كل نوع ، بعضها ساقط في المحمودية ، بعضها مقلوب ، بعضها بخيل ، بعضها بغير خيل . روائح شيّ اللحم . صياح على المارة : الخبز الخبز ... »

وكتب في اليوم نفسه ، وهو يوم ١١ تموز (يوليه) ، في فقرة سابقة لهذه الفقرات العجلى :

« أحد الميرالايات الذين في معية الخديو قال له : « ما مصير الاسكندرية لو ضربها الانكليز ؟ » فأجاب : « ستين سنة ! ! » وهزّ كتفيه . فقال الضابط : « لكن السكان سيحرقونها ، فأرجو أن تتوسط لدى الأميرال ، والوقت لم يزل يسمح بذلك ، استدع ذو الفقار وأمره أن يحافظ على المدينة فعنده من الرجال الكفاية » فأجاب الخديو : « فلتحرق المدينة جميعها ولا يبقَ طوبة على طوبة ... حرب بحرب ... كل ذلك يقع على رأس عرابي وعلى رؤوس أولاد الكلب الفلاحين[1] . »

ومن هذه المذكرات الشائقة التي كتبها الامام في تلك الأيام الحالكة المشتبهة المعالم ، ومن الفصول التي كتبها بعد ذلك عن الثورة العرابية ولم يتمها ، يخرج القارىء بدروس قيمة وعبر عظيمة نلخصها بهذه السطور القليلة :

---

١ ـ مذكرات الامام محمد عبده ، كتاب الهلال، ص ١٩٢ – ١٩٥

كان الاوربيون يتصرفون في الدولة المصرية أسوأ التصرف ، ويسوقون الحكام والرعية كما يشاؤون ، بغية اخضاع مصر لا ستعمارهم السياسي بعد ان ركبوها بالاستعمار الاقتصادي. وقد حالف الامراء والحكام اولئك المستعمرين الاجانب على ابناء وطنهم مضحين به في سبيل المحافظة على مراكزهم وامتيازاتهم الطبقية ، بعد ان جرّأت الحركة العرابية الشعب على الحكام الظالمين ، ونبهته الى حقوقه المضيمة ، فتحولت الى ثورة عارمة ترمي الى تقييد سلطة الخديوي الاستبدادية ومراقبة أعمال الحكومة « فعظم على توفيق باشا ، (كما يقول الشيخ محمد رشيد رضا) ، ان يطلب منه هؤلاء الفلاحون (يريد عامة المصريين) حقوقاً ، وقد خُلقوا ، على رأيه ورأي البيئة التي تربى فيها ، ليكونوا عبيداً ،حتى آل به الأمر الى الاحتفال بانتصار الانكليز على جيشه وقبول التهاني من الوجهاء على احتلالهم لبلاده وسلبهم لملكه ! »

وفيما الحكام والأمراء يسلمون وطنهم إلى الأجانب ، كان أفراد الشعب المصري يبذلون في سبيله كل تضحية ويدافعون عنه حتى اللحظة الأخيرة ، مما دل مرة أخرى ، على أن الوطنية الصحيحة إنما تكمن في الجماهير الغفيرة المغمورة من أبناء الشعب ، مثلما دل احتلال مصر إذ حل جوره أول ما حل بالخديو توفيق باشا الذي ساعد عليه ومهد طريقه، على أن الحكومة المستبدة إذا لم تسقط بقوة الشعب، فانها لا بد من أن تسقط بقوة الاستعمار ، وتكون آلة له يذلها ويذل الأمة بها . وهو أمر يدل بدوره على ان الاستقلال والحكم الديمقراطي أمران لا ينفصل أحدهما عن الآخر ، فإذا فقد الحكم الديمقراطي الذي يؤمن لسواد الشعب حقوقهم وحرياتهم انهارت دعائم الاستقلال الوطني ، وإذا زال الاستقلال الوطني انعدمت الديمقراطية التي تكفل لأفراد الشعب حقوقهم وحرياتهم وتسير بهم باستمرار نحو قسط أوفر من الحقوق والحريات .

الثّورة العرابيّة والاحتلال البريطاني

أشرنا في الفصل السابق إلى ثورة عرابي وموقف محمد عبده منهـــا ، ولم نبحث تفاصيلها وتفاصيل الاحتلال البريطاني ، ولا بد من أن نعود فنعرض ذلك كله في شيء من الإيجاز ، نظراً لأهمية هذه الأحداث في تاريخ مصر وتاريخ الحقبة التي ندرسها في هذا الكتاب بنوع خاص .

مـــا كاد الخديوي توفيق يقيل في ١٧ آب (أغسطس) ١٨٧٩ (١٢٩٧ هـ) وزارة محمد شريف الذي كان يسعى لاستمالته إلى المبادىء الدستورية وإقنـــاعه بفوائدها ، ويبعد جمال الدين الأفغاني عن مصر ، حتى شكل وزارة موقتة برئاسته، ثم استدعى رياض باشا من أوربة فوصل في ٣ أيلول (سبتمبر) وعهد اليـه بتأليف الوزارة فألفها بعد ثلاثة أسابيع . وقد تعاظم النفوذ الأجنبي في عهد هذه الوزارة ، وبدأ الرقيبان الأوربيان يشتركان في جلسات مجلس الوزراء ، وكانت مصر تحصل على ١٥ في المائة من أرباح شركة قناة السويس فباعت الحكومة هذه الحصة مقـابل سبعمائة ألف جنيه فخسرت مصر بذلك آخر إشراف لها على القناة .

وكان عثمان رفقي وزير الحربية رجلاً ساذجاً محدود الإدراك ، بعيداً عن التبصر في العواقب ، يود حصر السلطة العسكرية في بني جنسه من الجراكسة وتجريد من ساء حظهم بالولادة في مصر منها مع معاملتهم بالاحتقـــار[1] ، فعمد في ٣١ تموز

١ ـ مذكرات الامام محمد عبده ، كتاب الهلال ص ١٠٤

(يوليه) ١٨٨٠ (١٢٩٨ هـ) إلى إصدار « قانون القرعة العسكرية » الذي يرمي إلى الحد من ترقية الضباط المصريين إلى المناصب العليا في الجيش وجعلها مقتصرة على العناصر التركية والجركسية ، فتألم الضباط المصريون وألفوا جماعة سرية للذود عن حقوقهم ، وفوضوا الأميرالاي أحمد عرابي[1] بذلك ، وأقسموا له على الوقوف إلى جانبه مهما تحرج الموقف[2] .

ثم استقر رأيهم على تحرير شكوى إلى رئيس الحكومة أشاروا فيها إلى تعصب عثمان رفقي لأبناء جنسه وإجحافه بحقوق أبناء البلاد ، وطلبوا بوضع حد لهـذه المأساة بعزل الوزير، وإلغاء الأوامر التي أصدرها، وتعديل قانون القرعة العسكرية، وقيام مجلس نواب تنفيذاً لوعد الخديوي ، وزيادة أفراد الجيش العامل إلى العدد المنصوص عليه في الفرمانات . وقد وقع على الشكوى أحمد عرابي والأميرالان علي فهمي وعبد العال حلمي .

وقد اقترح الخديوي على رياض باشا « طرد هؤلاء الضباط الفلاحين » وعدم الاهتمام بأمرهم ، بينما رأى مصطفى رياض احالتهم إلى المحاكمة لمخالفتهم القانون والنظام العسكري ، واستصدر من الخديوي أمراً بذلك . ثم دعاهم عثمان رفقي إلى ديوان وزارة الحربية بحجة التداول معهم في ترتيب حفل زفاف الأميرة جميلة شقيقة الخديوي . فلما وصلت إليهم الدعوة دهشوا لأن موضوعها لا يحتاج إلى مداولة ثلاثة من أمراء الألايات ، ولم يكن مثل ذلك بمعتاد ، ففطنوا للحيلة في تلك الدعوة ،

---

١ – ولد احمد عرابي في قرية رزنة من مديرية الشرقية ، وكان أبوه شيخ البلد . وهو من عائلة بدوية استوطنت تلك القرية من عهد بعيد . وقد تعلم في قريته ثم دخل الأزهر وقضى فيه اربع سنوات ، ثم التحق بالجيش المصري في سنة ١٨٥٤ فعانى فيه الكثير من اضطهاد رؤساء الجيش من الجراكسة والأتراك الذين كانوا سبباً في تأخير ترقية الضباط المصريين ومنهم عرابي نفسه الذى ظل برتبة قائمقام تسعة عشر عاماً . وقد حدثت مشادة بينه وبين اللواء خسرو باشا الجركسي أدت الى فصله من الجيش مدة ثلاث سنين، ثم سعى له بعض المقربين للخديوي اسماعيل فأعاده برتبته العسكرية ، فتأصلت في نفسه روح الكراهية للعناصر الأجنبية المسيطرة على الجيش المصري (مذكرات الامام محمد عبده ص ١١٣) .

٢ – مذكرات عرابي ج ١ ص ٥٨.

ودعوا من يثقون بهم من الضباط وأطلعوهم على ورقة الدعوة ، فاقتنع الجميع بأن خطراً سيحل بالثلاثة ثم بكل من يشايعهم ، أو بكل ضابط مصري على ما رجح عندهم ، وتعاهدوا على مقاومة الشر بالقوة إذا اقتضت الحال غير مبالين بعاقبة [1] .

وذهب الضباط الثلاثة ظهر اليوم الأول من شباط (فبراير) ١٨٨١ (١٢٩٩هـ) إلى قصر النيل ، يتبعهم عن بعد بعض العيون من أنصارهم ، فلما وصلوا إلى ديوان وزارة الحربية ، اعتقلتهم ثلة من الضباط الجراكسة وانهالوا عليهم بالشتائم ، وأطل عليهم الفريق خسرو كبير الجراكسة فصاح بهم شامتاً متهكماً :

ــ فلاحين شغالين بالمقاطف [2] !

وسرعان ما قاد محمد عبيد قائمقام كتيبة عابدين أفراد هذه الكتيبة وهي مزودة بكامل معداتها من مدافع وبنادق وذخيرة ، وحاصر ديوان الوزارة ، وأطلّ عثمان رفقي وأعوانه فشاهدوا الضباط والجنود المصريين في حـــالة من الغضب والحماسة بعثت الذعر في نفوسهم فتسلل مع أعوانه إلى قصر الخديوي ليحتموا به ، بينما اقتحم الجند المصريون ديوان الوزارة وأطلقوا سراح أحمد عرابي وزميليه ، وعـادوا إلى ثكنة عابدين حيث احتشد الضباط وتجمهرت طوائف الشعب ، فألقى عرابي خطاباً شرح فيه حقيقة الوضع .

ورأى الخديوي أن يعالج الأمر بالحكمة والروية ، فسأل الضباط عمن يريدونه وزيراً للحربيـــة ، فرشحوا محمود سامي البارودي ، فلبى الخديوي طلبهم وعيّن البارودي وزيراً للحربية ، وسأل الوزير الجديد الضباط عن الأوضاع التي يشكون منها ، فتقدموا إليه بمطالب عدة منها رفع مرتبات الضباط والجند إذ انها مقررة منذ ثمانين عاماً ، ورفع مستوى الحياة العسكرية ، وتعديل قوانين الجيش كالاجازات والمأكل والملبس بما يتفق والنهضة التي تجتازها البلاد ، وإعادة قائد كتيبة الفرسان أحمد عبد الغفار إلى الخدمة . وقد استجاب البارودي إلى هذه المطالب المشروعة

---

١ - مذكرات الامام محمد عبده ، كتاب الهلال ، ص ١٢٣

٢ - مذكرات عرابي ج ١ ص ٦٢

وصدرت بها قرارات وقوانين في ٢٠ نيسان (ابريل) ١٨٨١ .

إلا ان الخديوي كان يعد العدة للكيد للضباط المصريين والايقاع بهم ، بمساعدة الضباط الجراكسة ، واستمالة بعض الجنود السودانيين بالمال ، ثم اتهم البارودي بأنه آلة في أيدي رجـــال الجيش ، وانه ينقل إليهم أسرار الدولة ومداولات مجلس الوزراء ، وان وجوده على رأس وزارة الحربية يسبب الفوضى بين العسكريين ، فاضطر البارودي إلى الاستقالة ، وبادر الخديوي إلى إحلال صهره داود يكن محله .

واستهل الوزير الجديد حكمه بتجميد القرارات والقوانين التي أقرها سلفه ، وإصدار تعليمات صارمة للحد من نشاط الحزب العسكري والحيلولة دون اجتماع أقطابه، فأمر الضباط بعدم مفارقة مراكزهم، وألا يترددوا على المحافل والمنتديات، وألا يشتغلوا بالشؤون السياسية ، ثم بث عليهم العيون ترصد حركاتهم ، وكلف البوليس السري بمراقبة عرابي وعبد العال حلمي وأحمد عبد الغفار بصفة خـاصة ، وكان يمر ليلاً بالثكنات ليلمس بنفسه مدى تنفيذ أوامره [1] .

إلا ان عرابي أخذ يقاوم هذه التـــدابير ، وكان قد شعر بأنه أحرز مكانـة عالية في صفوف الشعب ، إثر حركة الضبـــاط التي انتهت بالانتصار على العناصر الأجنبية ورجال القصر ، فطفق يتنقل بين مختلف الأوساط المدنية ، متبنياً مطالب الأمة في الحياة النيابية إلى جانب ما تبناه من مطالب الجيش .

لقد كان يتحدث عن استبداد الحكام ، ذلك الاستبداد الذي أضعف الأمن على الأموال والأرواح ، وزاد من نفوذ الأجانب حتى غدت مصالح البلاد في أيديهم وتحت تصرفهم ، ويدعو إلى تأليف مجلس النواب لأنه الوسيلة الوحيدة لاتقاء شر الحكومة والحد من طغيان القصر ، وقد وجد استجابة من بعض العلماء وقـــادة الرأي ، وكان يقول لهم : « ان القوة في أيدينا ، والعلمـــاء والوجوه يعضدوننا ، ولا مندوحة للخديوي من إجابة طلبنا ، فان لم يفعل خلعناه [2] » .

١ ـ كفاح الشعب ج ٢ ص ٣٨

٢ ـ مذكرات الامام محمد عبده ، كتاب الهلال ، ص ١٤٤

وأراد وزير الحربية ان يشتت القوى العسكرية التي تناصر عرابي ، فأصدر في ١٨ ايلول (سبتمبر) أمراً إلى الكتيبة المعسكرة في القلعة بالانتقال إلى الاسكندرية، وأمراً مماثلاً إلى حـــامية الاسكندرية لتحل محل الكتيبة الأولى ، وأدرك عرابي الغرض من ذلك ، فأوعز إلى قائد الكتيبة الأولى بالعصيان ، وبعث إلى الخديوي ووزير الحربية يبلغها ان الضباط الأحرار سيقومون بمظاهرة عسكرية في اليوم التالي أمام قصر عابدين ، كما أبلغ ذلك إلى قناصل الدول وطمأنهم على رعاياهم .

وعبثاً حاول الخديوي إحباط هذه المظاهرة وبذل الجهود للحيلولة دون قيامها ، وقد ذهب بنفسه إلى القلعة برفقة رياض باشا ، وسأل الضباط عما يحملهم على مخالفة الأمر الصادر إليهم فأنكروا المخالفة ، فالتفت إلى أمير الألاي ابرهيم بك حيدر يستفهم منه ، فأجابه ان فودة بك حسن هو الذي أغرى الضباط بالمخالفة ومنعهم من التسليم ، وكان فودة بك على مقربة من رياض باشا فجذبه من طوقه وقال له :

ــ أمثلك يقاوم أوامر الحكومة ويمنع من تنفيذها ؟

يقول محمد عبده : « وبينما هم في الكلام ، إذ ضرب أحد البروجية نوبـــة « سنكي ديك » فأسرعت العساكر إلى تركيب الحراب على البنادق ، وأحاطوا بالخديوي ورئيس النظار ، وصاحوا : « اطلق البكباشي » فأمر الخديوي بتركه وأخذ يخاطبهم : « ألست خديويكم ؟ ألست ولي أمركم ؟ هل تأخر لأحد منكم راتب ، أو نقصت له مؤونة ، أو حرم من حقـــه في ملبس أو نحوه ؟ فلمَ جهرتم بالعصيان وخالفتم أوامري ؟ » فأجابوه بقولهم : « نحن جميعاً مطيعون لأوامر ولي نعمتنا ، ولكن قيل لنا ان الغاية من الأمر بالسفر هو إغراقنا في البحر عند مرورنا فوق كوبري الزيات » فأسف الخديوي لذلك وانصرف على ان يذهب إلى العباسية لمنع عرابي من المجيء إلى ميدان عابدين ، فبلغه وهو في الطريق ان الآلاي قد سبقه إلى ساحة السراي ، فرجع هو ورياض ، فوجد الساحة غاصة بالعساكر من كل فريق ، فدخلا من الباب الشرقي [١] » .

---

١ ـ مذكرات الامام محمد عبده ، كتاب الهلال ، ص ١٦٠ ، انظر ايضاً مذكرات عرابي ج ١ ص ٧٦

لقد تحركت في أصيل ذلك اليوم (٩ ايلول – سبتمبر – ١٨٨١) القوات المرابطة من ثكناتها بكامل أسلحة الميدان وملابسه ، واتجهت إلى ساحة عابدين ، واصطفت في تشكيلة رائعة ، وصوبت إلى القصر ٢٢ مدفعاً . ولما وصل عرابي إلى الساحة على صهوة جواده وهو شاهر سيفه ، وشاهد كتيبة الحرس في داخل القصر ، أرسل في استدعاء قائدها علي فهمي وعاتبه على موقفه وأمره بالانضمام إلى القوات المرابطة في الساحة ، فامتثل وسحب جنده من منافذ القصر .

وبينما كانت جماهير الشعب المصري تحتشد في ساحة عابدين ملتفة من حول الضباط المصريين الأحرار كان الخديوي توفيق يستنجد بقناصل الدول وبالمراقب المالي الانكليزي والجنرال ستون وأعضاء صندوق الدين .

ولما خرج الخديوي إلى الساحة دب الهلع إلى قلبه ، فمال على اوكلند كونفي المراقب المالي الانكليزي وسأله :

– ماذا أفعل الآن ؟

فأجابه : عندما يتقدم عرابي مره أن يسلم سيفه ، ثم در حول الساحة وخاطب كل قوة على حدة ومرها بالتفرق .

وتقدم عرابي وهو ممتط صهوة جواده وشاهراً سيفه وحوله أركان حربه وحرسه الخاص ، ثم أدى التحية للخديوي ، فهمس اوكلند في أذن توفيق :

– هذه هي ساعتك ، تناول غدارتك واطلقها عليه وبذلك تحسم الموقف .

فرد عليه توفيق في خوف :

– ولكننا بين نيران أربعة .

فعاد أوكلند يرفع من روحه المعنوية بقوله :

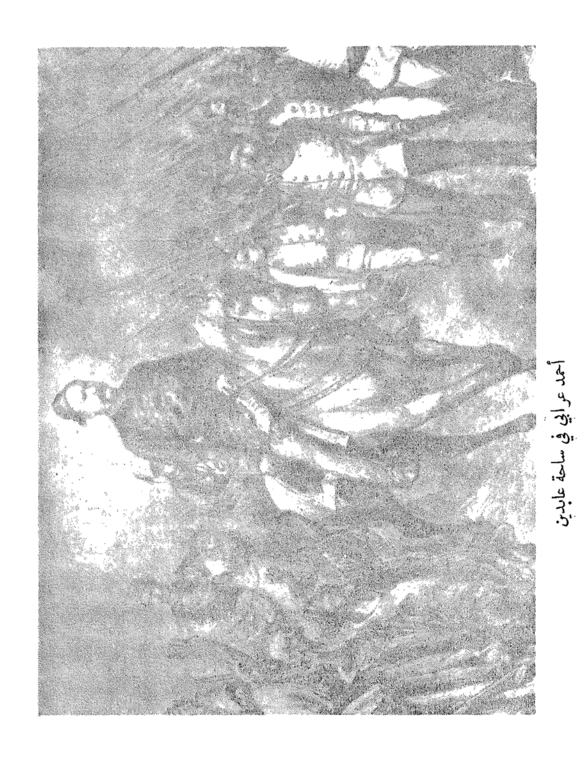
– تشجع !

– ولكن ماذا عساي أن أصنع ؟ نحن محصورون بين أربعة نيران ، انهم يفتكون بنا .

– اعمل ، كن شجاعاً .. [1]

---

١ – كفاح الشعب ص ٤٣ - ٤٤



أحمد عرابي في ساحة عابدين

فاستعاد توفيق رباطة جأشه وأراد أن يظهر سلطانه فصاح يخاطب عرابي ولكن في قنوط :
ــ ترجل واغمد سيفك ..
ففعل عرابي تأدباً في حق الحاكم الشرعي ، وصمت توفيق برهة ثم خاطب الضباط الذين يحيطون بعرابي وكان عددهم ثلاثين ضابطاً :
ــ اغمدوا أنتم أيضاً سيوفكم وعودوا إلى صفوفكم .
فلم يمتثلوا للأمر ، بل ظلوا وقوفاً في أماكنهم ملتفين حول زعيمهم . والتفت توفيق إلى عرابي وسأله :
ــ ما هي أسباب حضورك بالجيش إلى هنا ؟
فأجاب عرابي بشجاعة :
ــ جئنا لنعرض طلبات الجيش والأمة وكلها طلبات عادلة .
ــ وما هي هذه الطلبات ؟
ــ عزل وزارة رياض المستبدة ، وتشكيل مجلس نواب ، وإبلاغ الجيش إلى العدد المنصوص عليه في الفرمانات ، وتنفيذ القوانين العسكرية التي سبق ان صدقتم عليها .
ــ ان كل هذه الطلبات لا حق لكم فيها ، وأنا خديوي البلد .. لقد ورثت ملك هذه البلاد عن آبائي وأجدادي ، وما أنتم إلا عبيد احساناتنا .
ــ لقد خلقنا الله أحراراً ولم يخلقنا تراثاً وعقاراً ، فوالله الذي لا إله إلا هو اننا لن نورث بعد اليوم !
فالتفت الخديوي إلى أوكلند وقال مستنكراً :
ــ أتسمع ما يقول ؟
فأجابه أوكلند زاجراً :
ــ ليس من الملائم أن يعالج الخديوي الموقف على هذا النحو مع قواده العسكريين ، واني أنصحك بالعودة إلى القصر .
فعاد توفيق إلى القصر يجر أذيال الخيبة والخذلان ، وتولى مستر كوكس نائب

القنصل الانكليزي مخاطبة عرابي كرسول من قبل الخديوي فقال :

ـ ان عزل الوزارة من حقوق الخديوي ، وطلب تشكيل مجلس نواب ليس من حقوق العسكريين ، وزيادة عـــدد الجيش لا ضرورة له لأن ميزانية الدولة لا تساعد على هذا الوضع .

فأجاب عرابي : ان هذه المطالب لم أعمد إليها إلا لأن الشعب أقامني نائباً عنه ، انفذ هذه المطالب بوساطة هؤلاء الجند الذين هم اخوانهم وأولادهم ، فهم القوة التي تنفذ بها كل ما يعود على الوطن بالخير والمنفعة .. انظر إلى هؤلاء الألوف المؤلفة المحتشدة من وراء الجند فهم أفراد الشعب الذين أنابوني عنهم في طلب حقوقهم ، علماً بأننا لن نتنازل عن طلباتنا ولن نبرح هذا المكان حتى تنفذ .

ـ علمت من حديثك انك تنشد تنفيذ اقتراحاتك بالقوة ، وهذا أمر ينشأ عنه ضياع بلادكم وتلاشيها .

ـ كيف يكون ذلك ، ومن ذا الذي يعارضنا في شؤوننا الداخلية ؟ اننا سنقاوم كل من يتصدى لمعارضتنا أشد المقاومة إلى أن نفنى عن آخرنا .

ـ وأين هي قوتكم التي ستدافع بها ؟

ـ عند الاقتضاء يمكن ان نحشد مليوناً من الجند يدافعون عن بلادهم ، ويسمعون كلمتي ويلبون إشارتي .

ـ وماذا تفعل إذا لم تجب إلى ما تطلب ؟

ـ أقول كلمة أخرى !

ـ وما هي ؟

ـ لا أقولها إلا عند اليأس والقنوط [1] .

وبينما كان الخديوي يتداول في الأمر مع خاصته وقناصل الدول الأجنبية ، كان كوكس يغدو ويروح بين القصر وبين عرابي زاعماً بأن الخديوي سينظر في مطالب

---

١ ـ مذكرات الامام محمد عبده ، كتاب الهلال ، ص ١٦١ ـ ١٦٣ ، مذكرات عرابي ج ١ ص ٨٠ ـ ٨١ ، كفاح الشعب ج ٢ ص ٤٥ ـ ٤٦

الضباط بعد التداول مع الباب العالي ، ولكن عرابي أصر على ألا يتزحزح من مكانه حتى تجاب مطالبه .

ورأى توفيق أخيراً ألا مفر له من أن يحني رأسه للعاصفة ، فأمر رياض باشا بأن يقدم استقالته ، ثم عرض اسم حيدر يكن ليتولى رئاسة الوزارة ، فاعترض الضباط الأحرار على هذا الاسم لما تربط صاحبه من صلات القربى والمصاهرة بالخديوي ، وجرى على الألسن اسم محمد شريف ، فرحب الضباط بإسناد رئاسة الوزارة إليه ، واعتبروا ذلك انتصاراً لهم وعادوا إلى ثكناتهم .

وكان الخديوي توفيق قد أبرق إلى الباب العالي في الاستانة بتاريخ ١١ ايلول (سبتمبر) يشرح الوضع السائد في مصر ويرجو « إرسال قوة عسكرية مقدارها عشرون طابوراً على جناح السرعة ، على أن تكون قيادتها العامة منوطة بي خاصة » ثم عاد في ١٤ ايلول (سبتمبر) فأرسل إلى الباب العالي برقية أطلعه فيها على تكليف شريف باشا بتأليف الوزارة وتعهد العلماء والأعيان والعمد للحكومة بأن يطيع الجيش كل الأوامر التي تصدرها « وبما ان الأمن مستتب الآن في القاهرة وفي جميع المديريات بفضل الحضرة السلطانية السنية ، وان جميع السكان من أهالي وأجانب في غاية من الراحة والاطمئنان ، فلا نرى لزوماً لإرسال قوات عسكرية من الهيئات العالية إلى هنا [1] » .

وكانت أول خطوة اتخذتها حكومة شريف باشا ، إطلاق سراح المعتقلين السياسيين ، وإعادة المنفيين ، ورفع المظالم عن كاهل الشعب ، وتنفيذ القوانين العسكرية التي ماطل رياض في تنفيذها. ثم استصدرت في ٤ تشرين الأول (اكتوبر) ١٨٨١ مرسوماً بإجراء انتخابات عامة لتأليف مجلس نيابي ، فاستبشرت البلاد ، وسرت فيها موجة من الغبطة والحماسة ، وتألفت الهيئات الوطنية ، وظهر « الحزب الوطني » جهاراً إلى النور بعد ان كان يعمل في الخفاء ، وأخذت الصحف تعالج

---

١ – يلاحظ ان الخديوي توفيق قد جدد الولاء للسلطان العثماني واعترف له بحقوقه المزعومة في مصر ، في حين كان أسلافه يتجنبون ذلك ويعملون على تعزيز استقلالهم عنه .

أوضاع البلاد بجرأة لا مثيل لها ، وكانت حفلة افتتاح المجلس النيابي في ٢٦ كانون الأول (ديسمبر) ١٨٨١ من الأعياد القومية ورمزاً لانتصار الارادة الوطنية .

وقد غضبت انكلترة وفرنسة لاستجابة الخديوي إلى مطالب الأمة ، ولا سيما حين أصر النواب على مراجعة ميزانية الدولة ، وأراد شريف باشا أن يتوسط في الأمر بعرض جزء منها على المجلس وإبقاء جزء منها في رقابة المندوبين الأوربيين ، إلا ان أعضاء المجلس النيابي رفضوا ذلك معلنين ان اشراف الأمة ممثلة في مجلس نوابها على الميزانية هو حق من حقوقها الطبيعية ، إذ كيف يتسنى لها ان تحكم نفسها بنفسها دون ان يكون لها الاشراف على ماليتها .

وأدى الخلاف على قضية الميزانية إلى استقالة الوزارة حين تعذر التوفيق بين موقفها وموقف ممثلي الأمة ، وتألفت بضغط النواب وزارة أخرى برئاسة محمود سامي البارودي اشترك فيها عرابي وزيراً للحربية والبحرية ، فقام عرابي بحركة تطهير واسعة النطاق في صفوف الجيش، وبادر البارودي إلى تقديم مشروع الدستور على الصورة التي أرادها ممثلو الأمة في جلسة ٨ شباط (فبراير) ١٨٨٢ ، فأقيمت حفلات الابتهاج في كل مكان ، وكان في طليعتها الحفلة التي أقامتها جمعية المقاصد الخيرية وخطب فيها محمدعبده وعبدالله النديم وأديب اسحق وابرهيم اللقاني ومصطفى ماهر وفتحي زغلول ، فأشادوا بمزايا الدستور والحكومات الشورية ، ودعوا إلى الوحدة والثبات والتضامن .

وفي شهر نيسان (أبريل) اكتشف عرابي مؤامرة لاغتياله وأصحابه ، نظمتها طائفة من الضباط الجراكسة والخديوي ، فحوكم المتهمون أمام مجلس عسكري وصدر الحكم بتجريدهم من رتبهم ونياشينهم ونفيهم إلى أقاصي السودان نفياً مؤبداً ، إلا أن الخديوي رفض الموافقة على الحكم وأصرّ على تعديله ، وتمسكت الوزارة باقراره ، وأشار معتمدا فرنسة وانكلترة على الخديوي بالتصلب في موقفه ،فازدادت الأزمة بين الفريقين اشتعالاً ، إلا أن الوزارة رأت أن تحسم الخلاف بتعديل الحكم من النفي إلى السودان إلى النفي خارج القطر المصري ، فوافق الخديوي على ذلك على

ألا يجرد المحكوم عليهم من رتبهم ونياشينهم ، وقد أدى ذلك إلى تعاظم الخلاف[1] . فأرسلت الحكومتان البريطانية والفرنسية إلى الخديوي مذكرة تطلب فيها إقالة الوزارة وإبعاد عرابي من مصر ، وجاء الأسطولان الإنكليزي والفرنسي إلى مياه الاسكندرية في ٢٠ ايار (مايو) يعززان هذا التدخل بالإنذار والتهديد ، ويشدان من أزر الخديوي في المعارك السياسية المقبلة . وعلم رئيس الوزارة أن الخديوي قبل المذكرة وسرّ بوصول الأسطولين الانكليزي والفرنسي ، فقدم في ٢٦ ايار (مايو) استقالة وزارته احتجاجاً على تدخل الدول الأجنبية في حقوق السيادة الوطنية .

واغتبط الخديوي بالتخلص من حكومة البارودي التي كانت تسمى حكومة الثورة ، وطلب من شريف باشا تأليف حكومة جديدة فرفض ، وعرض ذلك على مصطفى فهمي فأبى ، وعلى عمر لطفي فاعتذر ، نظراً للنقمة الشديدة التي سادت أوساط الشعب . وتلقى الخديوي من سائر وحدات الجيش برقيات تعلن فيها انها لا تقبل بغير أحمد عرابي وزيراً للحربية وقائداً عاماً ، وجاء قناصل الدول الأجنبية إلى بيت عرابي يطلبون منه التعهد بالمحافظة على رعايا الدول الأجنبية ، فأجاب بأنه لا صفة رسمية له وأن الخديوي قد أعلن أنه سيتولى بنفسه رئاسة الوزارة ووزارة الحربية ، ورد القناصل بأنهم واثقون بأنه ليس لأحد من سلطة سواه[2] ، فاضطر إلى الإبراق إلى قادة الوحدات العسكرية طالباً منها التزام جانب السكينة والمحافظة على الأمن ومعاملة الجميع ولا سيا الرعايا الأجانب معاملة طيبة ، واضطر الخديوي إلى أن يصدر أمراً إلى عرابي يقول فيه : « ولو أنكم استعفيتم ضمن هيئة النظار التي استعفت ، ولكن مراعاة لحفظ الراحة والأمن استصوبنا بقاءكم على نظارة الجهادية والبحرية » .

وهكذا صار عرابي الحاكم الفعلي لمصر ، في فترة لا حكومة فيها ، ولا سلطة للخديوي على البلاد ، فأعلن النفير العام وراح يجمع الرجال حوله باسم الجهاد في

---

١ – عاد الخديوي توفيق فاستدعى اولئك الضباط واستعان بهم بعد اخفاق الثورة العرابية.
٢ – كفاح الشعب ج ٢ ص ٧٧

سبيل الله [1] بينما كانت البرقيات تتوالى بين قصر عابدين والباب العالي في الآستانة، في طلب قوات عسكرية تركية « يجب أن تصل في الحـــال » وذلك « لدفع شر الثوار وإنقاذ المملكة الشاهانية من خراب عام وتخليصها من مصـــائب متعددة ، وإعادة الأمن والسلام اليها ، والمحافظة على خمسة ملايين وكسور من أهل الإسلام والعجزة والنساء والأطفـــال أن يداسوا بالأقدام . كل ذلك متوقف ومرهون بحضور العساكر الشاهانية ووصولها إلى مصر » .

ولما وافقت الدولة العثمانية على إرسال هذه القوات اشترط الانكليز أن يكون مكان نزولها في بور سعيد وليس في الاسكندرية ، وأن تكون تحت قيادة القائد البريطاني العام . وتخوّف السلطان عبد الحميد من مواجهة هـــذا الموقف ، وحذره بعض الموالين لبريطانية من رجال الحاشية من إخلاء البلاد من تلك القوة العسكرية التي يراد ارسالها إلى مصر ، وهي في أشد الحاجة اليها لقمع الاضطرابات الداخلية ، فاستعاض عن الحملة العسكرية بإيفاد مبعوثين إلى مصر لدراسة الأمور !

وأراد الانكليز أن يجدوا مبرراً للتدخل ، فكانت مذبحة الاسكندرية في ١١ حزيران (يونيه) . وتتلخص قصة المذبحة في مشاجرة بين مكار ورجل مالطي من أتباع الحكومة البريطانية ، ركب معه ثم أعطاه أجره قرشاً بعد ساعـــات من الطواف في جوانب المدينة في أقسى أيام القيظ الذي بلغ أشده صيف تلك السنة ، فلما استزاده وألحّ عليه ، طعنه المالطي بمدية فقتله ثم دخل إلى منزل هناك ، فاجتمع بعض الأهلين يريدون ضبط القاتل ، فأطلق عليهم الرصاص من منافذ البيت الذي لجأ اليه ، ثم جاء مالطي آخر وأراد تفريق الحـــاضرين بضربهم بالعصي ، فضربوه وألقوه على الأرض صريعاً . ثم تكاثر رعاع الأوربيين وأطلقوا النار على الوطنيين بمسدساتهم ، ولما كان الوطنيون عزلاً من السلاح فقد دافعوا عن أنفسهم بالعصي ، واشتد اللجب ، وعلت الضوضاء ، وسلّت الخناجر ، وأطلق الرصاص ، واختلط الوطنيون بالأوربيين ، وامتدت الفتنة إلى الشارع المعروف بشارع السبع بنات

---

١ – المرجع السابق ج ٢ ص ٩٥

وشارع المحمودية وغيرهما من شوارع المدينـة . واختلف الرواة في إحصاء القتلى والجرحى، ولكنهم على اختلاف الروايات قد اتفقوا على أن قتلى المصريين وجرحاهم أضعاف من قتلوا وجرحوا من الأجانب على تعدد الأجناس [1] .

ويقول محمد أمين حسونة ان المؤامرة لافتعـــال هذه المذبحـة قد تمت في قصر عابدين ، ففي ٩ حزيران (يونيه) سافر عمر لطفي محافظ الاسكندرية إلى القاهرة ليقف بنفسه على خطة المؤامرة مع القصر ، وكانت خطوط هذه الخطة قد رسمهـــا مالت و كوكس وحيدر يكن وزير الحربية السابق، ثم اتفق على التنفيذ مع عصابة من قبيـلة أولاد علي التي كانت على صـلة وطيدة بالخديوي ، ووزع على أفرادهـــا الهراوات والأسلحة ، وأمر المحافظ رجال الشرطة بعدم التعرض للمعتدين . والتقى به ساعة وقوع الحادث أحد معارفه في منطقة زيزنيـــا في الرمل حيث كان يرتاض وسأله : « كيف تتنزه هنا والمذابح على قيد خطوات منك ؟ » فكان جوابه : « لست بقائد وهذا لا يعنيني » فعـــاد يقول له : « يكفي أن تحضر على جوادك شاهراً سيفك ، على رأس خمسين رجـــلاً من البوليس ، فينتهي كل شيء » فنهره بقوله : « انصرف ، ليس هذا شأنك ، وهل أنت محافظ المدينة ؟ » ثم تمتم بقوله : « دع أولاد الكلب يموتون [2] ! »

وقد استقبلت الأوساط الوطنيـة والعسكرية في القاهرة وقوع هذا الحادث بالاستنكار الشديد ، وعلقت عليه بأن المؤامرة مدبرة من أعداء مصر الذين يهمهم تلويث سمعتها وتشويه حركتها الوطنية، وأذاع عرابي بياناً ناشد فيه المواطنين إطاعة القانون والتزام السكينة ، في حين اغتبط رجال القصر ، وأخذوا يتندرون على عرابي ومقدرته في المحافظة على الأمن إبينما أخذ الأوربيون المقيمون في الاسكندرية ينزحون إلى السفن الراسية في المينـــاء ، وطفقت الأوساط الأجنبية تردد أن

١ - ١١ يوليه وضرب الاسكندرية ص ١٤٣ ، مذكرات عرابي ج ١ ص ١٤١

٢ - كفاح الشعب ج ٢ ، ص ٩٩ . انظر ايضاً مذكرات الامـــام محمد عبده ، كتاب الهلال ، ص ١٨٢ - ١٩٠ ، مذكرات عرابي ج ١ ص ١٤٥ - ١٤٦

الحكومة المصرية أثبتت أنها عاجزة عن حفظ الأمن وحماية أرواح الأجـــانب المقيمين في مصر .

وانتهز الخديوي هذه الفرصة فانتقل إلى الاسكندرية مع أفراد عائلته والوفد العثماني ، للابتعاد عن قوى الشعب المتكتلة المتعاظمة ، والإحتماء بالأسطول الأجنبي المشترك ، محتجاً برغبته في السهر على الأمن هناك وتدارك الأخطار في المستقبل .

وكانت البلاد ما تزال تحكم بدون وزارة ، فتم الاتفاق في ٢٠ يونيه (حزيران) على تأليف وزارة برئاسة اسماعيل راغب ، على أن يحتفظ عرابي فيها بوزارة الحربية والبحرية . وكان عرابي قد أدرك الخطر المحدق بالبلاد فشرع في تحصين القـــلاع وتعزيز الاستحكامات في الاسكندرية ، استعداداً لدفع غارة الأسطول عنها . إلا أن الأميرال سيمور رأى في ذلك تهديداً له ، فأرسل إلى طلبـة عصمت باشا قـائد منطقة الاسكندرية في ٤ تموز (يوليه) مذكرة يطلب فيها الكف عن أعمـــال التحصين لأنه اعتبره عملاً عدائياً موجهاً إلى الأسطول . وعلى الرغم من أن وكيل وزارة الحربية المصرية ذهب يوم ٦ تموز (يوليه) لمقابلة سيمور وقدم له تقريراً أكد له فيه ان الأعمال الاصلاحية في القلاع قد أوقفت ، وان هذه الأعمـــال لم يكن يقصد منها تهديد الأسطول البريطاني أو الاضرار به [١] ، فان الأميرال قدم في ١٠ تموز (يوليه) انذاراً شديد اللهجة طلب فيه من القائد المصري تسليم البطـــاريات المنصوبة في شبـه جزيرة رأس التين وعلى الشاطىء الجنوبي لمينـــاء الاسكندريـة لتجريدها من السلاح ، وإلا ضرب الحصون بقنابل الأسطول .

وكان الأميرال سيمور قد تلقى في ٢ تموز (يوليه) أمراً من الأميرالية البريطانية بالاتصال بقائد الأسطول الفرنسي في المياه المصرية وإشراكه في ضرب الاسكندرية بالقنابل ، فإذا لم يقبل القائد الفرنسي ذلك ، قام بالمهمة منفرداً . وكانت فرنسة قد شعرت في اللحظة الأخيرة بأن بريطانية قد استدرجتها في المسألة المصرية لتنفرد وحدها بالغنيمة ، فرفضت الاشتراك في المغامرة ، لا سيا وانها كانت حديثة العهد

---

١ – قصة الكفاح بين العرب والاستعمار ص ١٦٤

باحتلال تونس .

وقد أجاب مجلس الوزراء على الانذار بالرد التالي : « ان مصر لم تعمل شيئاً يقضي بإرسال هذه السفن الحربية المتجمعة ، ولم تعمل السلطة المدنية ولا السلطة العسكرية أي عمل يسوغ مطالب الأميرال إلا بعض اصلاحات اضطرارية في أبنية قديمة ، والطوابي الآن على الحالة التي كانت عليها عند وصول هذه السفن . ونحن هنا في وطننا وفي بيتنا ، فمن حقنا بل من الواجب علينا أن نتخذ عدتنا ضد كل عدو مباغت يقدم على قطع أسباب الصلة السلمية التي تقول الحكومة الانكليزية انها باقية بيننا ، ومصر الحريصة على حقوقها ، الساهرة على تلك الحقوق وعلى شرفها، لا يمكنها أن تسلم أي مدفع أو أية طابية دون أن تكره على ذلك بحكم السلاح ، فهي لذلك تحتج على البلاغ الذي وجهتموه اليوم ، وتوقع مسؤولية جميع النتائج المباشرة وغير المباشرة التي تنجم اما عن هجوم الأسطول أو عن إطلاق المدافع ، على الأمة التي تقذف وسط السلام القنبلة الأولى على الاسكندرية ، المدينة الهادئة ، مخالفة بذلك حقوق الانسان وقوانين الحرب . وأيضاً نقرر من باب المسالمة ، قبول إنزال ثلاثة مدافع يختارها الأميرال ، وإذا أبى وأصر ، تلقى عليه مسؤولية التعدي ، وذلك بعدم المجاوبة إلا بعد إطلاق القنبلة الخامسة [1] » .

ولكن المنطق ، وحقوق الانسان ، والقوانين الدولية ، والمبادىء الانسانية ، لم تكن قادرة على ان تحول دون بريطانية والمضي في عدوانها إلى النهاية . يقول العقاد : « وعند مشرق الشمس من يوم الثلاثاء الحادي عشر من شهر يوليه سنة ١٨٨٢ ، أخذ الأسطول البريطاني في إطلاق قذائفه على الاسكندرية ، فجاوبته إحدى قلاعها بعد الطلقة العاشرة ، وجاوبته القلاع الأخرى بعد الطلقة الخامسة عشرة ، واستمر إطلاق النيران من الأسطول على المدينة إلى الساعة الخامسة ، ولم ينقطع تماماً إلا عند الغروب . وكان قائد الأسطول قد أجاب وكلاء الدول في الاسكندرية مطمئناً لهم عندما سألوه عن خطر البقاء في الاسكندرية بعد إنذارها

---

١ - المرجع السابق ص ١٧٤ - ١٧٥


الجنرال سيمور

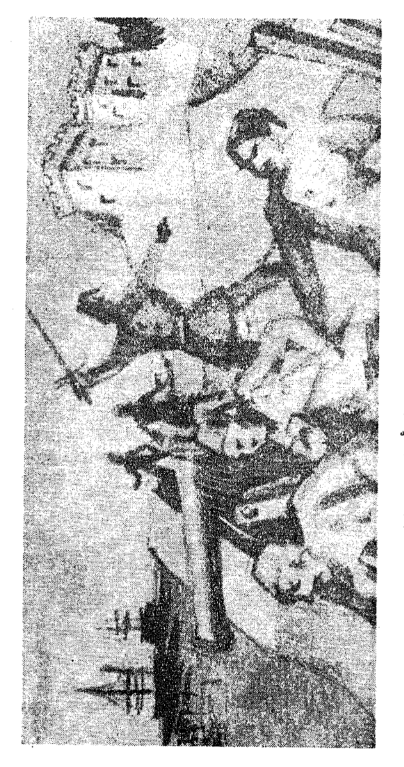
بالضرب ، فأكد لهم انه سيعمد إلى القلاع دون غيرها بقذائفه فلا خوف على أحد من سكان المدينة ، ولكن القذائف قد أصابت المساكن الأوربية والمصرية خبط عشواء[1] » .

كانت حصون الاسكندرية تمتد على طول الشاطىء من العجمي إلى أبي قير وعددها ١٨ حصناً ، عدا حصني كوم الدكة وكوم الناضورة ويقعان داخل المدينة ، وكان هناك ٤٩ مدفعاً من طراز ارمسترونغ و٢٢٩ مدفعاً من الطراز القديم القصير المرمى مركبة في هذه الحصون . وكانت مدفعية السواحل مكونة من ١٧٦٢ مقاتلًا تعززها كتيبتان من الفرسان وحامية الاسكندرية المؤلفة من أربعة ألوية مشاة مجموعها ١٢٠٠٠ جندي و ٧٠٠ من جنود المدفعية . أما قطع الأسطول البريطاني فكانت مؤلفة من ثماني مدرعات وخمس سفن مدفعية وسفينة للطوربيد وأخرى كشافة،وهي مزودة جميعاً بسبعة وسبعين مدفعاً من طراز ارمسترونغ[2].

وكان عرابي قد تولى القيادة العامة للدفاع عن الاسكندرية ، فأبدى الجنود المصريون بسالة فائقة وصموداً عظيماً في تلك المعركة غير المتكافئة ، وتطوع فريق من الأهلين لنقل الذخائر والمؤن إلى المقاتلين والعناية بالجرحى منهم . ولكن الأسطول كان يتفوق بالقوة والخبرة ومعرفة مواقع المدفعية والذخيرة لدى خصومه ، وكانت مدافعه أثقل وزناً وأبعد مرمى ، فلم يقبل المساء حتى دكت الحصون جميعاً .

وقد شهد المعركة السيد جان نينيه عميد الجالية السويسرية في مصر ووصفها في كتابه « عرابي باشا » فقال : « يجب أن نعترف بأن هذه مجزرة همجية لا ضرورة لها ، ولم يكن لها أي مسوّغ ، وليس الباعث عليها سوى الشهوة الوحشية المتعطشة إلى القتل وسفك الدماء ، وقد كان بودي أن أسائل أولئك الضباط الذين كانوا يباشرون الضرب ويقذفون قنابل المتراليوزات : هل يستطيعون حينما يعودون إلى

١ - ١١ يوليه وضرب الاسكندرية ص ٥ . انظر ايضاً مذكرات عرابي ج ١ ص١٦٣-١٧٥
٢ - كفاح الشعب ج ٢ ص ١١١



الحامية المصرية تواجه الأسطول البريطاني

بلادهم ويجلسون حول موائد الشاي في بيوتهم أن يتحدثوا إلى ذويهم عن آثار الفتك والتدمير التي خلفتها تلك المجازر البشرية ؟ اني أشك في ذلك ، فليت شعري أي اهانة لحقت الأمة البريطانية حتى تثأر لنفسها بهذه الفظائع ! »

ويستطرد السيد نينيه فيصف بطولة المصريين في دفاعهم فيقول : « ومع ذلك فما كان أبدع هذا المنظر ، منظر الرماة المصريين الذين كانوا قائمين على مدافعهم وهي مكشوفة في العراء كأنما هم في استعراض حربي ، لا يرهبون الموت الذي يكتنفهم إذ لم يكن لهم دروع واقية ولا متاريس ، وكانت معظم هذه الحصون بلا ساتر ، ومع ذلك كنا نلمح هؤلاء الشجعان من أبناء النيل وسط الدخـــان الكثيف كأنهم الأبطال الذين سقطوا في حومـــة الوغى ثم يُبعثون ليكافحوا العدو من جديد ويستهدفوا لنيران مدافعه .. وكان الائمة يزورون الحصون ويشجعون المقاومة ، وقام الجميع بواجبهم من جند ورجال ونساء وصغار وكبار ، ولم يكن ثمة أوسمة أو مكافآت تستحث أولئك الفلاحين على أداء واجبهم ، بل ان عاطفة الوطنيـــة والثورة على الفظائع التي استهدفوا لها كانت تستثير الحماسة في صدورهم ، وهم هم أولئك الشجعان المجهولون الذين لم يفكر أحد في آلامهم [1] » .

ويقول عرابي : « ومن الأسف ان مقذوفات المدافع القديمة (المصرية) كانت لا تصل إلى المراكب الانكليزية ، ومدافع الارمسترونغ لم تكن لها مساطر تُعرف بها المسافات وتحكم الاصابة بواسطتها ، اللهم إلا مسطرة واحدة كانت في محل التعليم بالعباسية استحضرت ليلاً ، وسلمت إلى الشهم المقدام سيف النصر بك قومندان طابية الفنار ، فكان يطلق المدافع بنفسه وينتقل من محل إلى آخر ، ويحكم الاصابة بواسطة المسطرة المذكورة ، فكان معظم الدوارع التي تعطلت من جراء المقذوفات التي أحكم هو إطلاقها ، ولو كانت مدافع الارمسترونغ كلها ذات مساطر لأمكنها تعطيل جميع الدوارع الانكليزية بما تقذفه من المقذوفات الصائبة [2] » .

---

١ – قصة الكفاح بين العرب والإستعمار ص ١٧٩ – ١٨٠

٢ – مذكرات عرابي ج ١ ص ١٧٠

وقد غطت المدينة سحب الدخان والشظايا ، وأصابت القنابل المدارس والمستشفيات ودور العبادة والمساكن الآمنة . وبلغ عدد القتلى من المصريين في غضون يومين ألفي قتيل وعدداً كبيراً من الجرحى ، أما خسائر البريطانيين فلم تتجاوز خمسة قتلى و١٥ جريحاً . أما الخديوي فقد انتقل مع أفراد عائلته وأعضاء الوفد العثماني إلى قصر رأس التين في موكب تخفق فوقه الرايات البيضاء ، بعد أن أبلغ الأميرال بذلك ، فلما وصل إلى القصر كانت هناك ثلاث مدرعات من الأسطول البريطاني ترسو بازائه وقوة مؤلفة من سبعمائة جندي من القوات البحرية البريطانية تحرسه ، وقد تلقاه في ساحة القصر الأميرال سيمور مهنئاً إياه بسلامة الوصول . وفي أصيل ١٢ تموز (يوليه) شبت الحرائق في مدينة الاسكندرية ، وشوهد أفراد من قبيلة أولاد علي ممن اشتركوا في مذبحة ١١ حزيران (يونيه) يشتركون في عمليات الحريق والسلب والنهب . وفي اليوم التالي كانت الجثث تملأ الشوارع والكلاب تتجمع عليها لتنهشها ، وغدا الجو مزيجاً من اللهب والدخان والحرارة التي تلفح الوجوه . فبادرت القوات البرية البريطانية بالنزول إلى المدينة بحجة إطفاء الحرائق والمحافظة على الأمن ، وصدرت الأوامر بتعيين اللورد شارلس بوسفورد حاكماً عسكرياً لمدينة الاسكندرية ، وعُلق على جدران الشوارع اعلان جاء فيه : « ان أميرال القوات البحرية البريطانية في المياه المصرية كلف من قبل الخديوي بالمحافظة على الأمن وأن يأمر بإطلاق النار على كل من يحرق بيتاً أو متجراً ، وأن يساق إلى السجن كل شخص يوجد في حالة نهب أو تقع عليه شبهة » وأذاع الخديوي توفيق منشوراً يهدد كل من يقاوم الانكليز في احتلالهم لأرض البلاد ، وقد جاء فيه : « ليكن معلوماً عند السلطات الملكية والعسكرية في منطقة قناة السويس ان أميرال الأسطول الانكليزي وقائد الجيوش البريطانية العام ، إنما أتيا إلى مصر لإعادة الأمن والنظام اليها .. ومن ثم سمحنا لهما باحتلال جميع الأمكنة التي يريان في احتلالها ما يساعد على قمع العصيان ، ومن خالف أمرنا هنا ينزل به أشد العقاب [1] »

١ – كفاح الشعب ج ٢ ص ١١٢ – ١١٦ ، مذكرات عرابي ج ١ ص ١٨٠ – ١٩٠ ، ١١ يوليه وضرب الاسكندرية ص ١٤٤ – ١٥٠

وهكذا بدأ الاحتلال البريطاني لمصر بحجة المحافظة على الأمن ولمدة أيام محدودة، وتطاولت تلك الأيام وتتابعت حتى غدت اثنتين وسبعين سنة !

وقد رثى أديب اسحق مدينة الاسكندرية بعد العدوان عليها بقصيدة رائعة قال فيها :

يا وارد الاسكندرية طامعاً	بمنافع الاصدار والايراد
أقصورها خفيت عن الأنظار أم	آثار قصري في القفار بوادي
هذي عروس الشرق ماتت فاكتسى	حزناً عليها الغرب ثوب حداد
بالأمس كانت والبياض دثارها	واليوم صارت أرسماً بسواد
كانت ملاذ الخافقين فأصبحت	والخوف منها مبعد القصاد
كانت موارد للظماء وقد غدت	ما ان بها من مورد للصادي
كانت مواقع نعمة فقدت وما	فيها سوى البأساء للمرتاد
كانت وكان الدهر سيد أهلها	فأصابها بالأهل والاسعاد
كانت وكنا لا ينام حسودنا	صارت وصرنا راحة الحساد
كم حامل خرجت بها محمولة	فوق الكواهل أو على الأعواد
ومعمر لم يبق في الدنيا له	غير السكينة من منى ومراد
ومريض قوم غاب عنه طبيبه	وجفاه أنس الأهل والعواد
خرجوا وهم لا يهتدون سبيلهم	والنائبات روائح وغوادي

الشيخ في لندن وباريس

كان اول ما دشن الاحتلال البريطاني عهده به في مصر ، محاكمة زعماء الثورة العرابية امام محاكم انكليزية عسكرية تشكلت لهذا الغرض ، وقد صدر الحكم بنفي عرابي من مصر وكان خصومه يصرون على أن تنزل به عقوبة الاعدام ، كما صدرت أحكام عديدة مختلفة بحق طائفة كبيرة من المفكرين والوطنيين ، وقد حكم على محمد عبده في ٢٤ كانون الأول (ديسمبر) سنة ١٨٨٢ (١٣٠٠ هـ) بالنفي من القطر المصري مدة ثلاث سنين ، وحكم بمثل ذلك على ابراهيم اللقاني المريد الثاني لجمال الدين الأفغاني الذي كانت تعاليمه من العوامل الفعالة في انفجار تلك الثورة ، فارتحلا وغيرهما من المنفيين إلى بيروت ، فقابلهم أهلها بحفاوة عظيمة . غير ان إقامة الشيخ لم تطل فيها ، إذ كتب اليه السيد جمال الدين أن يوافيه إلى باريس ، وكان قد نهد اليها بعد اعتقاله في كلكته مدة الثورة العرابية ، فشخص الإمام إلى العاصمة الفرنسية ، حيث اشترك مع الأفغاني في تأسيس جمعية « العروة الوثقى » وإصدار المجلة التي عرفت بهذا الاسم .

من تلك العاصمة الكبرى من عواصم الفكر والحرية في الغرب ، ومن غرفة صغيرة على سطح بناية شاهقة في شارع سيز على مقربة من ساحة المدلين ، كان جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده يرسلان على صفحات « العروة الوثقى » إلى الشرق

الغارق في ظلمات الجهل والعبودية ، شرارات هادية توقظ النائمين من أهله وتحرك الخاملين وتثير المستعبدين ، فكان لمقالات تلك الصحيفة المنيرة التي جمعت بين الحكمة وفصل الخطاب ، مع الاخلاص في تحرّي الحق ، ومخاطبة القلب الشاعر المتحمس للقلب الرغيب الصادي ، تأثير كبير في إيقاظ العالم الإسلامي ، وان لم تستطع أن تدفع عنه غائلة الاستعمار الذي نذرت نفسها لمكافحته وفضح دسائسه والتشهير بجرائمه .

وقد أعدّ القلوب لذلك التأثير ما اشتهر عن جرائم الاستعمار البريطاني الذي كان يحاسب الناس على خطرات قلوبهم وهواجس نفوسهم ، ومـا كان لاحتلال الانكليز لمصر من وقع أليم في نفوس العرب خاصة والمسلمين عامة ، والأمل بإنقاذ هذا القطر من عدوانهم بسعي هذين الحكيمين ، فلا غرو أن يكون لذلك كله من السلطان الروحي عليها ، ما تجلى نوره في مرآة « العروة الوثقى » وانعكس عنها على الشرق ، مصارعاً ما يكتنفه من ظلمات بعضها فوق بعض ..

ولسنا نستطيع نسبة أبحاث « العروة الوثقى » إلى واحد من ذينك الحكيمين بمفرده ، فقد كان السيد الأفغاني مدير سياستها ، وكان الإمـام محمد عبده رئيس تحريرها . وروي عن الأمير شكيب أرسلان أنه سمع الإمام يقول : « ان الأفكار في « العروة الوثقى » كلها للسيد ليس لي منها فكرة واحـدة ، والعبارة كلها لي وليس له منها كلمة واحدة » ، ونحن نعتقد بأن هذا القول مبالغ فيه ، والراجح أن السيد جمال الدين هو الذي كان يرسم الخطوط الفكرية الرئيسية لتلك الابحاث، وان الشيخ محمد عبده هو الذي كان يصوغها بقلمه البليغ وبيانه الرفيع .

ويقول المستر بلنت ان البيئة الفرنسية التي عاش فيها محمد عبده كان لها أثر كبير في نفسه ، فلم يمض على اقامته في باريس شهران حتى أصبح « أوربياً متفرنساً » ، وأقلع عن حلق رأسه حلقاً تاماًعلى عادة المشايخ ، فاستطال شعر رأسه ولحيتـه. وأصبح مظهره يحاكي مظهر الفنانين الأوربيين شأنه في ذلك شأن أستاذه جمال الدين ، وانه كان يعتمر هناك بالطربوش لا بالعمامة [1] .

---

١ – محمد عبده ، لعثمان امين ، ص ٧٥ ، الاستاذ الامام محمد عبده لعبد المنعم حمادة ص٩٩



أحمد عرابي في طريقه إلى المحكمة العسكرية

ولم يقتصر نشاط الحكيمين في باريس على العمل في جمعية « العروة الوثقى » واصدار مجلتها ، بل كانا دائبي السعي لنشر أفكارهما والنضال في سبيلها ، بجميع الطرق والوسائل . ومن هذا القبيل رحلة قام بها الإمام إلى لندن « ليستكشف – كما قالت العروة الوثقى – مناصب الفخاخ السياسية التي ما مرت عليها قدم شرقي إلا سقطت منها فيما يعسر الخلاص منه ، وليسبر أغوار المطامع الانكليزية التي لا يدرك منتهاها ، تلك المطامع التي بعدما التهمت ثلث المسكونة ، وطوّقت كرة الأرض بالفتح والاستملاك ، لم تزل في مد لا جزر معه ، ولا يزال رجال حكومة بريطانيا في قَرَمٍ شديد لابتلاع ممالك العالم » .

وقد لاقى الشيخ خلال هذه الرحلة كثيراً من رجال السياسة البريطانية،وجرت بينه وبينهم أحاديث مسهبة في المسألة المصرية ، نشر بعضها في صحف لندن ، وأهمها مناقشة خطيرة دارت بينه وبين اللورد هرتنكتون وزير الحربية الانكليزية سأله اللورد فيها : ألا يرضى المصريون أن يكونوا في « أمن وراحة » تحت سلطة الحكومة الانكليزية ؟ وهل ينكر ان الجهالة عامة في مصر ، وان الكافة لا تفرق بين الحاكم الأجنبي والحاكم الوطني ؟ فأخذت الشيخ حدة وقال : « ان النفرة من ولاية الأجنبي ونبذ الطبع لسلطته مما أودع في فطرة البشر ، وليس بحتاج إلى الدرس والمطالعة ، وهو شعور إنساني ظهرت قوته في أشد الأمم توحشاً كالزولوس الذين لم تنسوا ما كابدتموه منهم في الدفاع عن أوطانهم ... الخ »

وقد علقت جريدة « العروة الوثقى » على هذه المقابلة وعلى أقوال اللورد هرتنكتون فيها بعددها الرابع عشر ، بسطور رائعة تتلهب حماسة وثورة ومما جاء فيها :

« إن كانت هذه عقيدة رجال الحكومة الانكليزية في الأمم التي يتسلطون عليها ، فأيّ معاملة تكون لهم ؟ ألا يعاملونها معاملة العجماوات والحيوانات الرتّع ؟ بلى ، هكذا يعاملون ، وهكذا تصرفهم في البلاد الهندية يشهد بأفصح لسان على ما يعملون ، فالمصريون الآن بين أمرين أفضلها أيسرهما : اما أن يتكاتفوا ويتضافروا ويبذلوا أموالهم وأرواحهم ، في حفظ شرفهم الإنساني ومكانتهم

العربية ، وأداء حق عقيدتهم الدينية ، ويخلصوا أنفسهم من عبودية قوم لا ينظرون اليهم إلا كما ينظرون إلى البغال والحمير ، وان هموا بذلك وجدوا لهم من اخوانهم المسلمين أنصاراً ينتظرون الآن حركة منهم ، وهذا أشرف الأمرين . وإما أن ينسلخوا من جميع الخصائص الانسانية ، ويخلعوا حلية الإيمان ، ويتبرأ منهم شرف العرب ، وليجعلوا نير العبودية على أعناقهم ، وليقاسموا الحيوانات في حظوظها ، وليستعدوا لكل ذلة ، وليقبلوا كل ضيم ، وهذا أعسر الأمرين وأدناهما .. »

وقد أرسلت جريدة « بول مول غازيت » أحد مندوبيها لزيارة الشيخ ، فلقيه وظفر منه بحديث نشرته في عددها الصادر بتاريخ ١٧ آب (أغسطس) سنة ١٨٨٤ مع مقدمة عرّفت بها محمد عبده تعريف المعجب بجدة ذكائه وقوة حجته ، ولم نر بدأ من اثبات هذا الحديث بنصه نظراً لظرافته ودلالته على مواقف الإمام :

سأل مندوب الجريدة الشيخ محمد عبده عن رأيه في حالة مصر وقتئذ ، وعن السياسة التي ينبغي اتباعها ، فأجاب :

ـ لقد وجّه إليّ هذا السؤال مراراً منذ جئت إلى لندن ، وكل انكليزي لقيناه يؤكد لنا أنه يريد الخير لمصر . لكن أين هم رجال السياسة عندكم الذين حاولوا تأييد تصريحاتهم وتأكيداتهم ؟ اننا معشر المصريين من أرباب حزب الحرية كنا نظن أن الانكليز يناصرون قضية الحرية ، لكننا لم نعد نعتقد بمثل هذه الظنون ، فإن الحقائق أقوى وأبلغ من الكلام . إننا نرى أن انتصاركم للحرية إنما هو انتصار لما فيه مصلحتكم ، وأن عطفكم علينا كعطف الذئب على الحمل ! لقد قضيتم على عناصر الخير فينا ، لكي يكون لكم من ذلك حجة للبقاء في بلادنا !

المندوب : صدقني ، هذا ليس بصحيح ، وان يكن يبدو كذلك . فلا المستر غلادستون ولا أحد من الوزراء يريد شيئاً آخر غير الجلاء عن مصر في أقرب فرصة وعلى أتمّ وجه .

الشيخ : إذا كان الأمر كذلك فلمَ لا تغادرون بلادنا في الحال ؟ لقد علّمنا الانكليز شيئاً واحداً هو التضامن في رغبتنا أن نراكم ترحلون عن بلادنا .. حتى أننا تطاحنا وأردنا أن نحطم استبداد حكامنا .. شكونا من الأتراك لأنهم أجانب عن

وطننا ، ورغبنا لبلادنا اصلاحاً سياسياً وتقدماً يشبه تقدم اوربه في طريق الحريه . لكننا الآن نعلم أن هنالك ما هو شرّ من استبداد الحكام ، وشرّ من ظلم الأتراك . وليس في مصر من قد بلغ به الظلم حداً يرجو معه مساعدتكم . إنّ لنا رجاءً واحداً هو أن تغادروا بلادنا حالاً من غير رجعة !

المندوب : وتوفيق (الخديوي) هل تصفحون عنه كما صفحتم عن الأتراك ؟

الشيخ : توفيق باشا أساء أبلغ السوء ، لأنه مهد لدخولكم بلادنا . ورجل مثله ، انضم إلى أعدائنا أيام الحرب ، لا يمكن أن نشعر إزاءه بأدنى احترام . لكنه إذا ندم على ما فرط منه ، وإذا عمل على الخلاص منكم ، فربما غفرنا له سوءاته . اننا لا نريد خونة وجوههم مصرية وقلوبهم انكليزية !

المندوب : والفرنسيون ؟ إذا تركنا مصر الآن فهذا معناه انهم يحتلون بلادكم بدلاً عنا .

الشيخ : لا تظن ذلك . الفرنسيون يعرفون اننا لا نقبل حكمهم ، كما لا نقبل حكمكم . نقاومهم كما قاومناكم . اننا لا نريد لوطننا حكاماً أجانب عنا ، كائنة من كانت بلادهم . ونحن نعرف كيف نجعل حكمهم فينا أمراً مستحيلاً . ومهما يكن الحال ، فالفرنسيون لا يستطيعون أن يسيئوا الينا أكثر مما أسأتم الينا أنتم .

المندوب : والمهدي ؟

الشيخ : لا خطر على مصر من حركة المهدي ، إنما الخطر من وجودكم أنتم فيها . وانكم إذا غادرتم مصر ، فالمهدي لن يرغب في الهجوم عليها ، ولن يكون في هجومه أدنى خطر . وهو الآن محبوب من الشعب ، لأنهم يرون فيه المخلص لهم من الاعتداء الأوربي ، وسينضمون اليه عند قدومه .

المندوب : أليس السودانيون قوماً متعصبين ؟

الشيخ : ليس السودانيون أكثر تعصباً مني . حينما كنت أعلم الفلسفة في القاهرة ، كان كثيرون من الطلبة المصريين يخشون حضور دروسي ، بينما كان هناك أربعة وثمانون طالباً من السودان ، وكانوا جميعاً يحضرون للاستماع إليّ !

نعم ليس السودانيون متعصبين ، لكنهم إذا شعروا بالخطر الأجنبي يتهدد بلادهم ، ثاروا وأصبحوا حينئذ متعصبين ، وما مثلهم في ذلك إلا مثلكم أنتم إذا رأيتم جيشاً من المسلمين في شوارع لندن !

المندوب : ألهذا الشعور علاقة بخبر الهياج في بلاد العرب ؟

الشيخ : الخبر صحيح ، وكنا ننتظره منذ زمان . ولا شك ان تعاهدكم مع الأحباش قد سهل الهياج . فالمسلمون إذا هددوا قاموا للجهاد ، وليس أهـــل اليمن أشد تعصباً من أهل السودان ، ولكنهم يحبون حريتهم كما يحبها العرب جميعاً .

المندوب : وماذا يجب أن نفعل لإيقاف هذه العاصفة ؟

الشيخ : كفوا عن تهديدنا وغادروا مصر .

المندوب : ولكن ماذا يكون مصير المسيحين في مصر إذا تحقق جلاء جيوشنا عنها ؟ فهلا تحدث فيها مذابح جديدة ؟

الشيخ : لم يحدث في مصر مذابح اللهم إلا المذابح التي سببها الانكليز أنفسهم، ان وصول أسطولكم إلى الاسكندرية هو الذي دفع الغوغاء إلى الشغب فيها ، وان إنزالكم جيوشكم بها هو سبب حدوث الاضطراب في طنطا . لم يقتل من المسيحين أحد قبل حضوركم إلى مصر ، ولن يحدث شيء من ذلك بعد جلائكم . فلا نزاع بيننا وبين المسيحين .

المندوب : إذن فأنت تعتقد أن لا شيء يحول دون السلام والرغد في مصر إلا وجودنا فيها ؟ ألست تود أن يعود حزب الحرية قبل مغادرتنا ؟ ألا ترغب في أن تعود أنت ورفاقك إلى مصر ؟

الشيخ : انني كنت أقترح سياسة جديدة لو خطر ببالي أن لدى حكومتكم أدنى رغبة جدية في خير بلادنا ، ولكن الأمر ليس كذلك ، فما فائدة الكلام ؟

المندوب : لكن تكلم فاني أرى ، كيفما كانت رغبة الحكومة ، ان في انكلترة كثيرين ممن يريدون إنصاف مصر بأي ثمن .

الشيخ : إذا رأت انكلترة أن تتدارك خطأها كما قلت ، فيجب عليها : أولاً أن تقدم إلينا دليلاً على إخلاصها وحسن نيتها ، فتأمر بإرجاع جيوشها من مصر . ثانياً أن

تتفق مع دول أوربة ومع سلطان تركية على إقامة حاكم جديد في مصر ، وليس لي أن أذكر ذلك الحاكم ، بل ينبغي على كل حال أن يختار من الرجال المحبوبين من الشعب المصري ، وان يكون تعيينه لمدة محدودة نحو سبع أو ثماني سنين ، وفي نهاية تلك المدة يحق للشعب أن يختار بنفسه من يحكمه .

المندوب : وإذا وجد حاكم كهذا فهل تعود أنت ورفاقك المنفيون إلى مصر ؟ وماذا تقول في عرابي ؟

الشيخ : أحب أن يعود عرابي إلى مصر . وإني أرى خير منصب له أن يكون رئيساً لمجلس النواب الذي ينشأ لمراقبة حاكم مصر ، وعرابي خطيب ، وأفكاره نبيلة ، وهو رجل مخلص ، ونفوذه يتجه نحو الخير ، لكنه لا يعنى بالتفاصيل ، فلا يصلح لتولي الأعمال الادارية . فان أرجعتموه فليكن رئيساً للمجلس إذا انتخبه الأعضاء .

المندوب : والوزارة ؟ ان حكومتنا تشكو من انها لا تجد مصريين من أهل الكفاية لتولي الحكم في البلاد .

الشيخ : إذا كانت حكومتكم فشلت في إيجاد هؤلاء الرجال فالذنب ذنبها . مصر لا يعوزها رجال ذوو كفاية شرفاء ، لكنكم تطلبون أشخاصاً ينفذون ما تريدون ، وليس في مصر رجل مخلص لبلاده يقبل أن يعمل لمصلحة الحكومة الانكليزية . دعونا نختار لنا حاكماً ، وستروننا متضامنين في العمل معه . اننا معشر المصريين نريد الاصلاح ، نريد العدالة ، ونريد التعليم . نريد حاكماً نستطيع احترامه . دعوا أمتنا تختار زعيمها ودعوها تحكم نفسها بنفسها .

المندوب : وهل جميع المصريين آراؤهم مثل آرائك ؟ اني أميل إلى الظن ان تسعين في المائة من الفلاحين يفضلون حكومة مسيحية [1] تخفف عنهم ثقل الضرائب على حكومة اسلامية تفرضها عليهم .

الشيخ : تلك أوهام ! لقد أثقلت ظهور الفلاحين بالضرائب ، لكنهم في الوقت

---

١ – يريد « اوربية » ويلاحظ ان محمد عبده لم يتقيد بتعبير المندوب الصحفي .

الحاضر لا يشكون منها ، وإنما يفكرون قبل كل شيء في تخليص بلادهم من حكم الأجنبي ، بل انهم ليفضلون ان يدفعوا أكثر مما يدفعون لتحقيق هذه الغاية . اني أعلم ذلك ، فاني على اتصال بالمراسلين في جهات كثيرة من مصر . يمكنكم إذن ان تلغوا جميع الضرائب ، فلن يحمدوا لكم هذا الصنيع ، إذا كنتم تتخذون من ذلك عذراً للبقاء في بلادهم . لا ، لا ! اتركونا وشأننا ، فإننا إذن نسأل الله أن يجزيكم خيراً عما صنعتم . ولكن لا تحاولوا أن تسدوا إلينا جميلاً لا نرتجيه منكم ، فان معروفكم قد مسّنا بضرر بليغ [1] » .

وكان الحكيمان يعمدان في محاولتهما إنقاذ مصر والسودان من الاحتلال البريطاني إلى وسائل عدة ، عدا مقالاتهما اللاهبة المتعاقبة . ومن هذه الوسائل ما هو جريء خطير ، ومنها ما هو ضعيف ساذج . وكانا لا يفتآن يشيدان بثورة محمد أحمد المهدي في السودان وتعظيمها ، محاولين بذلك « إقناع » الدولة البريطانية بسحب جيوشها من السودان وتركه لأهله . ثم بدت لهما سذاجة آمالهما ، فأخذا يفكران في الذهاب إلى السودان خفية ، وتنظيم قوة المهدي توسلاً إلى إنقاذ وادي النيل بها ، وتأسيس دولة قوية تعمل على تحرير الشرق من نير الاستبداد والاستعمار .

وقد ركزت انكلترة جهودها في منع وصول أعداد «العروة الوثقى» إلى القرّاء في الهند ومصر وبقية البلاد العربية ، بعد ان لمست السحر الذي أحدثته في النفوس، والوعي الذي بثته في العقول [2] ، فاشتد الخطر على من يقرأها في هذه الأقطار ، واضطر المصلحان إلى إغلاقها، فكان العدد الأخير منها هو العدد الثامن عشر المؤرخ في ٢٦ ذي الحجة سنة ١٣٩١ — ١٦ تشرين الأول (اكتوبر) سنة ١٨٨٤ — وعاد محمد عبده إلى مصر متخفياً ، بعد ان ألمّ كما يقول الشيخ محمد رشيد رضا ، بسورية وتونس، وكان غرضه الأول الذهاب منها إلى السودان ، ثم يتبعه السيد جمال الدين. وعودة محمد عبده إلى مصر متخفياً في تلك الأيام أمر شك به بعض الباحثين ،

---

١ — محمد عبده للدكتور عثمان امين ص ٨٦ - ٩٢
٢ — قادة التحرير العربي في العصر الحديث ص ١١٦

ولكن الشيخ محمد رشيد رضا أكده غير مرة في سفره النفيس عن حياة الأستاذ الامام، ونشر للاستشهاد عليه، رسالتين من رسائل الامام كتبهما إلى بعض أعضاء جمعية «العروة الوثقى»، وقد جاء في أولاهما بتاريخ ٧ جمادى الأولى سنة ١٣٠٢ (١٨٨٤ م): «... واني أكتب إليك اليوم من:

بلاد بها عق الشباب تمائمي وأول أرض مس جلدي ترابها

غير انه لا يراني فيها إلا المخلصون، ولا يعرفني فيها إلا العارفون .. الخ.»

وقال في الرسالة الثانية في التاريخ نفسه: «.. ذهبت إلى باريس فما عتمت ان تلقيت من الرأي الجديد ان اتجه نحو المشرق، حيث مسيل الحادثات ومخرق الذاريات، فمررت على بلاد كثيرة منها مدينة تونس، عملت في جميعها على إحكام العروة وتمكين عقودها. ثم اصعدت بعد ذلك إلى:

بلد خلعت به عذار شبيبتي وطرحت في كف الخطوب بناني

وأنا فيه أتعرف الوجوه وأتنكر للعيون، واسأل الله نجاح العمل واقبال الأمل .. الخ.»

ولسنا نقطع في شيء بصدد هذه الرواية، ولسنا ندري، ان صحت، ما الذي صنعه الشيخ في مصر وقتئذ، وما الذي حال دون إتمام الغاية من رحلته وهي الذهاب إلى السودان، ولم نقع على ما يبدد الغموض الذي يكتنف هذه الفترة القصيرة في حياة محمد عبده فيما طالعنا من الكتب التي ترجمت له أو بحثت عنه. كل ما نعرفه ان الامام ما لبث ان أقبل إلى مدينة بيروت التي كان قد اختارها داراً لإقامته مدة إبعاده عن وطنه.

منفيٌ في بيروت

أقبل محمد عبده إلى بيروت سنة ١٨٨٥ (١٣٠٣ هـ) ، فأقبل عليه وجوه أهلها ورجال العلم فيها ، وتوثقت عرى الصداقة بينه وبين عدد من اللبنانيين ، في مقدمتهم ابرهيم اليازجي وعبد القادر القباني ومحمد اللبابيدي وسعيد الشرتوني وعبد الباسط فتح الله في بيروت ، ومحمد رشيد رضا وحسين الجسر ومحمد كامل البحيري وعبد الله البركه وعبد العزيز سلطان وعبد الله المسقاوي في طرابلس ، والأمير شكيب ارسلان . يقول تشارلز آدمس : « وسرعان ما أصبح بيته كعبة للعلماء والطلاب وعشاق المعارف من جميع الطوائف [1] » .

وكان يسمر أكثر لياليه في دار الحاج محيي الدين حماده رئيس بلدية بيروت وعميدها وقتئذ ، ويدرّس أكثر أيامه في الجامع الكبير أو في جامع الباشورة ، دون ان يلتزم في دروسه كتاباً ، وإنما يرتجل ما يفيض عن عقله وقلبه . فأقبل الناس على منتدى سمره ومجلس درسه إقبالاً لم يُعرف في هذا البلد لأحد من قبله . ولعل عهد الامام هو أول عهد توافد المسيحيون فيه إلى الجامع ، ليجلسوا إلى جانب اخوانهم المسلمين ، ويستمعوا معهم إلى دروسه وحكمه . وكان الشيخ سعيد الشرتوني صاحب كتاب « أقرب الموارد » يقول عنه : « هـذا الرجل إذا تكلم

---

١ – الاسلام والتجديد في مصر ص ٥٥

يخرج النور من فيه [1] » .

قال الأمير شكيب أرسلان: إن مجلس الشيخ كان يضم علماء السنة ومجتهدي الشيعة وعقال الدروز ، وإلى جانبهم أساقفة النصارى وأحبارهم من كل فريق ، كما كان يضم بعض الملحدين أحياناً ، إذ وجد فيه الجميع مرجعاً عاماً لسعة عقله وعلو إدراكه واحاطة نظره .

وينوّه الأمير بما كان للشيخ من أثر في إظهار حقيقة الاسلام لمن كانوا يجهلونه ولا يعرفونه إلا عمن تمثل فيهم من الشيوخ الجامدين المتزمتين ضيقي أفق النظر ، فلما عاشروه رأوا فيه غير من عرفوا إلى ذلك العهد « وبعد ان كانوا يرون في الاسلام شيخاً معمماً قصير أمد الفكر ، أو بالكثير فقيهاً جامداً متورعاً ، صاروا يرون فيه بحسب تمثيل الأستاذ الامام إياه ، فقيهاً نيراً وفيلسوفاً كبيراً واجتماعياً محنكاً ، وهناك شاهدوا الاسلام كما كان عليه مثل الغزالي أو كما كان عليه ابن رشد ... [2] »

وكان مدحت باشا أبو الأحرار قد غرس في بيروت ، حين كان والياً فيها ، بذور نهضة ثقافية ، وأسس جمعية المقاصد الخيرية فأنشأت عدداً من المدارس الابتدائية للذكور والأناث في أحياء المدينة . فلما قدم الشيخ محمد عبده إليها ، كانت تلك البذور قد نبتت ، وسمت الهمة بمن يتعهدون غراسها إلى إنشاء مدرسة عالية داخلية سميت المدرسة السلطانية ، فدعوه إلى التدريس فيها ، فلبى دعوتهم ودخل المدرسة في مطلع سنتها الثالثة ، فجدد برامجها ونظم إدارتها وأدخل عليها كثيراً من العلوم الحديثة ، وأخذ على عاتقه تعليم التوحيد والمنطق والمعاني والانشاء والتاريخ الاسلامي والمعاملات من الفقه الحنفي في صفوفها العليا ، حتى كانت دروسه تستغرق في بعض الأيام ساعات النهار كلها .

قال السيد عبد الباسط فتح الله أحد تلامذته النبهاء : « ومن الغريب ان نشاطه

---

١ - تاريخ الاستاذ الامام ج ١ ص ٤٠٠

٢ - المرجع السابق ج ١ ص ٤٠٥



السلطان حسين كامل



الخديوي عباس حلمي الثاني

في آخر درس لم يكن يقل عن نشاطه في الدرس الأول بل كان يُرى في تزايدٍ ما تناقص النهار ، وكانت دروسه كلها على نحو ما ذكر في مقدمة رسالة التوحيد وأماليه يلقيها على الصفوف كل بحسب حاله واستعداده «في أسلوب لا يصعب تناوله وان لم يُعْهَد تداوله ، ما عدا فقه المعاملات فانه كان يقرأ فيه كتاب مجلة الأحكام العدلية [1] » .

ويؤكد أصدقاؤه وطلابه انه لم تمض على ذلك عدة أشهر حتى دخلت المدرسة في طور جديد لم تكن تعرفه من قبل وما كان إدراكه في تلك البرهة اليسيرة لأحد من عمدتها بالحسبان ، وان دروس الامام لم تقتصر على تلقين قواعد العلم الجافة ، بل كان يستخلص منها العبر ، ويستعين بها لتوجيه تلامذته في الطرق القويمة مثيراً في نفوسهم الرغبة الصادقة في خدمة وطنهم وإصلاح أمتهم والكفاح في سبيل الحرية والخير .

ويروي السيد عبد الباسط فتح الله ان زوجة الامام توفيت وهو في بيروت ، وتركت له بنت نفاس ، وليس في بيته أنثى تقوم بأعبائه ، وهو في المنفى ، رميّ غربة وضحيّ نكبة ، فأضابه غم قطعه عن التدريس أياماً ، وأكبر الأصحاب مصابه ، واضطربت له المدرسة . فلما استأنف الحضور تحير التلامذة كيف يقابلونه ، وبأي لسان يعزونه ويخاطبونه ، فما هو إلا وقد دخل عليهم ، فسلم وجلس والكل مطرقون منصتون ، لا يدرون ماذا يقولون ولا ما يصنعون ، فبادرهم بقوله : أظن ان النوبة نوبة الانشاء ! فتلجلجت الألسنة ولم تبن ، فحل عقدها بقوله : اكتبوا ! وأملى عليهم :

تعزّ فان الصبر بالحر أجملُ   وليس على ريب الزمان معوّلُ

حتى أتى على آخر القصيدة ، ثم أنشأ يشرحها على عادته في مثل ذلك الدرس ، فأدرك التلامذة انه يلقي عليهم في صورة الدرس المعتاد ، درساً أبعد مرمى وأسمى

---

١ ـ انظر مقال عبد الباسط فتح الله عن اقامة الامام في بيروت في مجلة « الكشاف » وفي كتاب تاريخ الاستاذ الامام ج ١ ص ٣٩٤

غاية ، في الحكمة العملية والأخلاق .

ولكن تقدم المدرسة السلطانية وازدهارها ، وما تربي عليه الناشئة من الروح الوطنية والنزعة الاستقلالية ، قد أوغرت صدور الحكام الأتراك على مديرها الشيخ أحمد عباس [1] فبدل بمدير آخر أخذ يغير في نظام المدرسة ، ويعدل بها عن غايتها المثلى ونهجها القويم، فاستقال محمد عبده منها . وما لبث إلا قليلًا حتى أذن له بالعودة إلى بلاده ، فرحل إليها تصحبه زوجته الثانية التي بنى بها في بيروت بعد وفاة زوجته الأولى وهي رضا حمادة كريمة الحاج سعد الدين حمادة أخي الحاج محيي الدين .

وكان الشيخ أثناء إقامته في بيروت ، يعكف على الكتابة والتأليف في أوقات فراغه ، فنقل إلى العربية : « رسالة الرد على منهب الدهريين » لجمال الدين الأفغاني وصدرها بجمل من سيرة الحكيم ، وشرح كتابي « نهج البلاغة » للامام علي بن أبي طالب و« مقامات بديع الزمان الهمذاني » ، ووضع رسالة مسهبة في إصلاح التعليم الديني بعث بها إلى شيخ الاسلام في الاستانة . وكتب عدة مقالات لجريدة « ثمرات الفنون » التي كان يصدرها في بيروت الشيخ عبد القادر القباني ، منها بحث في الموضوعات الأدبية والاجتماعية،ومنها ما عرض للمسألة المصرية بالدرس والتحليل، منددأ بموقف الدولة الانكليزية التي قلبت وجوه المسائل ، واتخذت من الشؤون الداخلية في مصر حجة للعدوان عليها ، وهو أمر كانت تنزع إليه منذ وقت طويل، فاختلقت له العلل وتجنت على المصريين من أجله بما لم يجنوه .

ومن تلك المقالات ما تناول الخلافات الطائفية بالتشجيب ، رداً على القائلين بأن مرد الخلل في المحاكم الأهلية بمصر إلى وكيل الحقانية بطرس باشا غالي الذي زعموا انه يؤثر أبناء طائفته القبط ويقيم منهم في مناصب القضاء من لا أهلية فيه لإجادة العمل، واحتجاجاً على ما أثار ذلك القول من حملة شديدة على الأقباط عامة في بعض الصحف المصرية . فقد قال الامام ان انتقاد شخص بعينه لا ينبغي ان يتخذ ذريعة للطعن

---

١ - أسس الشيخ احمد عباس بعد ذلك المدرسة العثمانية ثم الكلية الاسلامية وكانت له يد كريمة في تربية جيل من شباب العرب الواعين وفي نشر الفكرة العربية في العهد العثماني .

في طائفة بأسرها « إلا إذا كانت الطائفة أو الأمة من قوم أجانب على البـــلاد ومتغلبين عليها بقوة قاهرة أو حيلة غادرة ، وكانت أعمال آحادها مبنية على أصول سنها المتغلبون ، فيكون عمل الواحد كأنه صادر عن الجملة كما في أعمال الانكليز بمصر ».. في مثل هذه الحالة وحدها يجوز للناقد ان « يأخذ الجماعة بإثم الواحد منهم، ويستصرخ أبناء الوطن جميعاً لكشفهم عن بلاده ، واستخلاص الحق منهم لأربابه »؛ أما ان يعمد أناس « إلى إحدى الطوائـف المتوطنة في أرض واحدة ، فيشملوها بشيء من الطعن ، أو ينسبوها إلى شائن من العمل ، تعللاً بأن رجلاً أو رجـالاً منها قد استهدفوا لذلك ، فانه مما يرسل العداوات إلى عمائق القـــلوب ، ويدلي بالضغائن إلى بواطن الأفئدة ، وإذا تنافرت الطوائف تشاغلت كل منهـا بما يحط شأن الأخرى ، فكانت كل مساعيهم ضرراً على أوطانهم » ثم يشيد بطائفة الأقباط التي أوصى بها النبي خيراً ، وينوّه بمواقفها الوطنية .

وقد رحل مدة إقامته في بيروت إلى بيت المقدس ودمشق وبعلبك وطرابلس، وتجول في أنحاء لبنان ، فعرف البلاد معرفة دقيقة ، وعني عناية خاصة بناحيـــة التعليم فيها ، فرأى من النقائص والمفاسد ما حمله على توجيه تقرير بشأنها إلى والي بيروت ، داعياً فيه إلى تدبرها ومعالجتها . والناحية المهمة في هذا التقرير دعوته إلى إنشاء المدارس الوطنية، وتحذيره من المدارس الأجنبية أو المدارس الوطنية بالاسم، الأجنبية بالحقيقة ، لما رأى من آثارها في مقاومة المبادىء القومية والدعوة للدول المستعمرة .

وواضح ان الامام بدعوته إلى تأسيس المدارس الرسمية ، لم يكن يرمي إلى محاربة الثقافة الأجنبية التي كان دائم الاعجاب بها والحض على اقتطاف ثمـــارها ، فالثقافة شيء ، واستغلالها لدعوة استعمارية أو مبادىء رجعية شيء آخر ، وهـذا ما حاربه محمد عبده . لقد حارب الأساليب التي يتبعها المستعمرون ، بوساطة التربية الفاسدة والتعليم المضلل ، لتهديم القومية ، ومبادىء الحرية الصحيحة ، وإشاعـــة الانحلال الخلقي ، والتطلع إلى الدول الأجنبية المستعمرة المكشرة عن أنيابهـــا لتفترس ، وكأنها دولة ممدّنة منقذة سمحة لا تريد للشعوب المستضعفة إلا الصلاح

والخير .

ولعل أطرف أعمال الأستاذ الامام في بيروت ، تأسيسه مع السيد ميرزا باقر وجماعة من أصدقائه ومن مريدي السيد جمال الدين الأفغاني ، جمعية دينية غايتها التقريب بين الأديان السماوية الثلاثة وإزالة الشقاق بين أهلها .

وكان السيد ميرزا باقر مفكراً عجيباً ، ذا ذكاء خارق ، وحجة قوية ، ومقدرة فائقة في اللغة الانكليزية ، نشأ في فارس وجاب كثيراً من بلدان العالم ، واعتنق كثيراً من الآراء والمعتقدات ، ثم انتهى إلى صحبة جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده في باريس ، والعمل معهما في مجلة « العروة الوثقى » ومرافقتهما في أسفارهما واتصالاتهما برجال الفكر والسياسة للاستعانة بمعرفته للغات الأجنبية . وحين تعطلت « العروة الوثقى » وتفرّق رجالها سافر السيد ميرزا باقر إلى بيروت ، فالتقى بالشيخ محمد عبده ، وأقنعه بإنشاء هذه الجمعية التي أطلقا عليها اسم « جمعية التأليف والتقريب » .

وقد انضم إلى هذه الجمعية عدد من المفكرين الايرانيين والأتراك والهنود ، وبعض الانكليز واليهود ، وكان داعيتها في لندن القس اسحق تيلر . فكانت تبشر بالأخذ بما تتفق عليه الأديان الثلاثة ، وترك ما يفرق بين شعوبها ، وتدعو إلى الحرية الدينية التي تعني عدم التعصب في الدين ، ووضع الكتب الصالحة التي تحكي عن الأديان الثلاثة بروح الانصاف والمحبة ، ويقول أعضاؤها ان سعادة العالم الانساني لا تتم إلا باتفاق أهل الأديان السماوية الثلاثة اليهودية والنصرانية والاسلام ، حتى صار هذا الخاطر لدى بعضهم كالسيد ميرزا باقر والقس اسحق تيلر ، وجداناً ملك عليهم أمرهم وحملهم على الدعوة الجاهدة إليه بالقول والكتابة .

وقد كاتب محمد عبده اسحق تيلر ، وأثنى على مواقفه وخطبه في الكنائس الانكليزية ، داعياً إلى ذلك التقارب الديني ، ومما جاء في إحدى هذه الرسائل ، وهو يوضح الآمال التي عقدت على تلك الدعوة :

« أنت أول رئيس ديني صدع بالحق في أهل ملته ، وانك لتجد لك مؤيدين ، وإن كثيراً من ذوي الألباب ليجدون في قولك مواقع للصواب ، وإن هذا الأمر

الذي قمت به لعظيم الفائدة جم العوائد ، نحس منه تحرك نفوس أهـــل الملتين إلى الملاقاة على صراط الوحدة الحقيقية . وانك ان كنت واحداً فكل شيء مبـــدأه الواحد ثم يكثر حتى لا يحصر، وإن كان هذا الغرس الطيب قد أخرج اليوم شطأه، فسيؤازره السعي حتى يغلظ ويستوي على سوقه فيعجب الزراع . وإنّـــا نرى التوراة والانجيل والقرآن ستصبح كتباً متوافقة ، وصحفاً متصادقة ، يدرسها أبناء الملتين ، ويوقرها أبناء الدينين ، فيتم نور الله في ارضه ، ويظهر دينه الحق على الدين كله ، واني لا أشك في أن لك الرغبة التامة في نشر مذهبك هذا وترويجه بين الأمم الشرقية والغربية . وقد سعينا في ترجمة خطابك ونشره في الجرائد العربية ، فان كان عندك مقالات أخرى فنرجو إرسالها لنعمل على ترجمتها ونشرها بين أهل المشرق من العرب والترك وغيرهم،ولكن تمام العمل إنما يكون بإرسال رجال ممن وافقوك في المشرب الصحيح لينشئوا مدارس في البـــلاد المشرقية خصوصاً بلاد سورية ، وليطبعوا هذا الرسم الشريف في النفوس الصافية من أبناء الطوائف ، فتنمو بركته وتجزل ثمرته، وإنني على عجزي مستعد لمساعدتك فيما تقصد من تقريب ما بين الملتين بكل ما يمكنني ، والسلام على من اتبع الهدى [1] » .

ولكن هذه الجمعية لم تعش طويلاً ، وقد بدأت تنحل بتفرق مؤسسيها وعودة محمد عبده إلى مصر [2] .

وعودة الاستاذ الامام إلى وطنه يكتنفها شيء من الغموض . فقد كان من المفروض ان يعود إلى مصر أواخر سنة ١٨٨٥ (١٣٠٣ هـ) وهو التاريخ الذي تنتهي فيه مدة النفي الذي حكم به ، ولكنه لم يعد إليها إلا أواخر عـــام ١٨٨٨ (١٣٠٦ هـ) ، ومن الكتاب الذين أرخوا حياته من يذهب إلى ان العيش قد طاب

---

١ - تاريخ الاستاذ الامام ج ٢ ص ٥٨٢

٢ - راجع: « تاريخ الأستاذ الامام » لمحمد رشيد رضا، الجزء الأول ص ٨١٧ وما بعدها، والجزء الثاني ص ٥٨٢ وما بعدها ، وكتاب « الأستاذ الامام محمد عبده » لعبد المنعم حماده ص ١٢٢ - ١٤٠ ومحمد عبده لعثمان امين ص ١٠٣ - ١٠٦ واعداد جريدة « ثمرات الفنون » الصادرة في اواخر سنة ١٨٨٧ واوائل سنة ١٨٨٨

للامام في بيروت ، ووجد فيما كان يقوم به من عمل وفيما كان يلقيه من دروس ، ما ألهاه عن العودة إلى بلاد خرج منها مغضوباً عليه ، ثم رجع إليهـــا من تلقاء نفسه عندما خامره الميل إلى الرجوع . ومنهم من يرى ، وهو الرأي الذي نرجحه لما سنعرف من سيرته في مصر مما يقيم الدليل عليه ، أن الخديوي لم يسمح لمحمد عبده بالرجوع إلى وطنه بعد انتهاء مدة نفيه ، فظل في بيروت حتى سعى أصحـــابه والمعجبون به ، ومنهم الأميرة نازلي والغازي مختار باشا وسعد زغلول ، لدى اللورد كرومر ، فصدر عفو الخديوي عنه بسبب الضغط الانكليزي ، وان اللورد لم يقبل شفاعة الأصدقـاء في رجل يعـــلم ما كان من أمره مع جمال الدين في « العروة الوثقى » التي هاجمت انكلترة أعنف هجوم وعدّتها أكبر خصم للمسلمين ، إلا بعـد ان استوثق من انه لن يشتغل بالسياسة العليا ، بل سيقصر جهده على الاصلاح الديني ونشر التعليم .

ويميل العقـــاد إلى الاعتقاد بأن عودة محمد عبده إلى مصر إنما كانت ضرباً من الابعاد من بيروت ويفسر ذلك بقوله : « وقد عاد إلى بيروت وهو في حكم المنفي عن مصر مدى الحياة ، ولكنه خرج منها بأعجوبة من أعاجيب السياسة تصدق عندنا تجارب الشيخ الحكيم للفضل السياسي الذي يُحسن فيه صاحبه وهو ينوي أن يسيء . فقد توسط له في العودة إلى مصر اثنان هما الغازي أحمد مختار باشا وكيل السلطان بالقاهرة ، والأميرة نازلي فاضل وريثة البيت المنافس لبيت اسماعيل من فروع الأسرة الخديوية ، ومركزه الاستانة . ذلك فضل باطنه الذي لا خفاء بـه أن الرجل أقصي من بيروت بطلب خفي من السلطان العثماني ، ليأمن عاقبة دعوته إلى الاصلاح والحرية في إحدى عواصم الدولة العثمانية والبلاد العربية ، ولولا ذلك ما جاءت الوساطة — من كلا طرفيها — من هذا الطريق [1] » .

وهناك من ذهب إلى رأي غريب نستبعد ان يكون له أثر من الصحـــة ، على الرغم مما نعرف من سخافات ذلك الزمان ومن سخافات العهد الحميدي على الأخص ،

---

١ — محمد عبده ص ١٤٥

ولكننا نورده هنا تفكهة وحسب ... وهو ان الشيخ محمد عبده وطائفة من علماء الشام ، قد بعثوا إلى القس اسحق تيلر ، على أثر إنشاء جمعية التأليف والتقريب ، برسالة في موضوع توحيد الاسلام والنصرانية الذي كان يدعو إليه القس في لندن ، فلما علم السلطان عبد الحميد بالأمر كلف سفيره في لندن استقصاء حقيقة الموضوع ، والوقوف على أسماء موقعي الرسالة ، فقابل السفير القس وحصل منه على هذه الأسماء ، فأبعد السلطان أصحابها جميعاً من البلاد العثمانية ، ومنهم الأستاذ الامام .. اما السر في غضب السلطان فهو انه خشي ان يعتنق الانكليز الاسلام ، فتصبح الملكة فيكتوريا ملكة المسلمين ، ويذهب السلطان من السلطان .. وسبحان مدبر العقول [1] !

---

١ – من مذكرات المستر بلنت ترجمة محمد امين حسونة ، العدد ٣١٠ من مجلة «الرسالة» . وهناك روايتان مشابهتان لهذه الرواية تجدهما في كتاب « محمد عبده » لعثمان امين ص ١٠٥ وفي تاريخ الأستاذ الامام ص ٥٨٤

عدو السياسة!

من الناس من لا يستطيعون إلا ان يكونوا مناضلين سياسيين ، فهم أبداً في غمرات الكفاح يخوضونها ببسالة في سبيل حرية أمتهم واستقلال وطنهم ، لأنهم فطروا على ذلك الكفاح ، وأوتوا موهبة خاصة في الجدل السياسي والنضال الشعبي، وفي مخاطبة الجماهير وتنظيمها وقيادتها ، ولا نقول في التهريج والتدجيل ، لأننا نتحدث عن السياسيين المخلصين لمبادئهم حقاً وصدقاً ، المتفانين فيها بتجرد عظيم ، لا عن أولئك الذين يتخذون المبادىء الجميلة مطية للاستغلال والظهور .

ومنهم أناس لا يقلون عن أولئك وطنية وحمية ، ولكنهم لا يستطيعون مع ذلك أن يكونوا رجال سياسة وحسب ، ينذرون لها جماع وقتهم وموهبتهم ، فان فعلوا ذلك حيناً من الزمان ، كانوا خلاله سياسيين بالضرورة لا بالفطرة ، ثم ارتدوا إلى عملهم الأصيل الذي هو أقرب إلى نفوسهم ، وأوصل بسجيتهم ، وأدعى إلى إبراز مواهبهم وإلى الانتفاع بها . وليس ذلك بضائرهم في شيء ، إذا كانوا يعتقدون بأنهم إنما يستطيعون خدمة مبدأهم السياسي بصورة أوفى وأجدى ، بالنسبة إليهم ، بذلك العمل الذي وهبوا له وبرعوا فيه ، وإذا كان هذا المبدأ ينتظم حقاً كل فعل يصدر عنهم وكل بادية تبدر منهم . ولئن قلنا غير ذلك ، لهدمنا بخفة وطيش ، مبدأ الاختصاص والملكة والاستعداد ، وطالبنا الناس جميعاً بأن يتحولوا إلى سياسيين يتخذون من السياسة حرفة لهم .

لا ريب في ان هنالك أوقاتاً ينبغي لكل رجل شريف ان يتحول فيها إلى مناضل سياسي ، بل إلى جندي متطوع من جنود الوطن والمبدأ . تلك أيام الحرَج، أيام الانقلابات الحاسمة في حياة شعب من الشعوب . أما في أيام الاعداد والدعوة والتنظيم ، فلا شك في ان من واجب كل انسان ان تكون له عقيدة سياسية ، وان تكون هذه العقيدة قائمة على أساس من العلم والمنطق ، مسايرة لتطور المجتمع ، مؤيدة لقوى التقدم والتحرر، ولكن ليس من واجب كل انسان ان يكون سياسياً وحسب ، منصرفاً إلى السياسة وحدها ، أي إلى العمل السياسي وحده ، جاعلاً منه حرفة ، بل ان ذلك ليس بالأمر المستطاع ، ما دامت مواهب الناس متعددة ، وكفاياتهم مختلفة وأعمالهم شتى ، وما دامت حاجات الأمة ، وخدمة المبدأ السياسي نفسه ، تقتضي الانتفاع بهذه المواهب والكفايات والأعمال ، على تعددها وتباين ألوانها وفي جميع ميادينها .

ورب معترض يقول ان كل يوم ينقضي ، هو يوم حاسم في تاريخ الأمة وفي تاريخ الانسانية . وهو قول حق، فما الانقلابات الكبرى التي غيرت وجه التاريخ، إلا نتيجة تفاعل مستمر وصراع دائم بين قوى التقدم وقوى الرجوع ، يفضيان إلى انقلاب فجائي حاسم . ولكن هذا الأمر نفسه ، ليس إلا دليلاً على ان الطبيب في مستوصفه والرسام في مرسمه والأديب في مكتبه والمعلم في مدرسته والعامل في مصنعه والعالم في مختبره والفلاح في حقله ، إذا كانوا يعتنقون مبدأ سياسياً معيناً ، كل قد أصبح جزءاً منهم لا ينفصل عنهم ، أو أصبحوا جزءاً منه لا ينفصلون عنه ، لأنهم بعملهم الذي قد يبدو للوهلة الأولى انه بعيد عن السياسة بمفهومها المحدود الشائع ، ونتاجهم وحديثهم واتصالهم الشخصي ، إنما يعملون على تهيئة ذلك الانقلاب وتعهده كل حسب طريقته وموهبته وقدرته ، بكل وسيلة ، ومن كل وجه ، وفي كل يوم ، بل في كل ساعة من ساعات حياتهم التي اتصلت بحياة أمتهم ، متجاوبة معها ، متأثرة بها ومؤثرة فيها ، مختبرة نزعاتها وحاجاتها ، وموجهة إياها نحو الحق والحرية والخير . أما الرجل السياسي ، وأعني محترف السياسة ، فهو ينظم جهود هؤلاء ، ويوجهها نحو الغاية المنشودة ، ويهب إلى قطف الغراس التي يتساهمون زرعها

ويشتركون في تعهدها بعرق جباههم حين تدعو الحاجة إلى الكد والجهد ، وبدم قلوبهم حين تدعو الحاجة إلى بذل الدم .

وقد رأينا ان الامام محمد عبده ، الذي أحب وطنه أعظم الحب ، وأحرقته الرغبة في تحريره ، قد خاض غمار السياسة في فترة من حياته ، مدفوعاً بالحماسة التي أثارتها في نفسه آلام بلاده ، متأثراً إلى حد كبير بصحبة جمال الدين الأفغاني ، ذلك السياسي المفطور على الكفاح والمراس والمغالبة ، الذي لم يعاشر امرءاً إلا ألهب الثورة في قلبه ، ولم يدخل بلداً إلا أثار الهياج في شعبه ، ولكنه ما كاد يفترق عنه حتى عاد إلى فطرته الأصيلة ، فكانت السياسة رأياً يعتنقه ومبدأ يبشر به، بالطريقة التي تتفق وميله وتلائم طبعه ، وهي طريقة التربية والتعليم والارشاد والاصلاح .

وقد روي أنه في آخر عهده مع السيد جمال الدين في باريس ، بعد اضطرارهما إلى تعطيل جريدة « العروة الوثقى » وتخاذل المسلمين عن مساعدتها ، ضعف أمله في نجاح سياسة الحكيم ، فقال له : « أرى أن نترك السياسة ونذهب إلى مجهل من مجاهل الأرض لا يعرفنا فيه أحد ، نختار من أهله عشرة فتيان أو أكثر من الأذكياء السليمي الفطرة ، فنربيهم على منهجنا ، ونوجه وجوههم إلى مقصدنا ، فإذا أتيح لكل واحد منهم تربية عشرة آخرين ، لا تمضي بضع سنين إلا ولدينا مئة قائد من قواد الجهاد في سبيل الاصلاح ، ومن هؤلاء يرجى الفلاح ! » فقال له السيد : « إنما أنت مثبط ، نحن قد شرعنا في العمل ولا بد من المضي فيه ما دمنا نرى له منفذاً . [1] »

وهو قول ساذج ، يدل أبلغ الدلالة على سجية محمد عبده ، وعلى الميل الأصيل الذي فطر عليه ، ولكنه لا يدل على ان الامام قد تنكر لمبادئه ، لرغبته في خدمتها عن طريق أخرى ، فليس موضع الانتقاد في مسلك محمد عبده ، أو في مسلك غيره من رجال الفكر ، الطريقة التي يراها أكثر ملاءمة لمواهبه ومبادئه في آن واحد ، والتي يعتقد بأنه بانتهاجها إنما يستطيع خدمة وطنه خدمة أوفى وأجدى ، ولكن

---

١ – تاريخ الاستاذ الامام ج ١ ص ٨٩٤

هذه الطريقة تصبح موضع الانتقاد الشديد متى تعارضت مع تلك المبـــادىء، وأضرّت بمصلحة الوطن من قريب أو من بعيد .

وقد قلنا في فصل سابق ان اعتقـــاد محمد عبده بأن مصر لم تتهيأ بعد للحكم الشوري وعليها أن تستعد له بالتربية والتعليم والتوجيه، قبل النضال في سبيله والسعي لإقراره ، كان من المآخذ التي انتقدهـــا فيه مفكر حر كأديب اسحق ، ونقول الآن ان رغبة الامام في التجديد الديني وفي اصلاح الأزهر ، واعتقاده مخلصاً بأن ذلك أول واجباته الاجتماعية والوطنية ، لرؤيته ما للأوهام الشائعة باسم الدين ، وما للأزهر بما يسوده من فساد وفوضى ، من أثر سيء في حيـــاة الشعب المصري ، قد دفع به إلى موقف سلبي من السياسة ، مفرط في السلبية ، أثار عليه خصومـة وطني كبير كمصطفى كامل .

وما من شك في أن رسالة محمد عبده لم تكن سياسية محضة ، بقدر مـا كانت دينية واجتماعية وثقافية تؤثر في المجرى السياسي بصورة غير مباشرة ، فلو انه اكتفى بعد عودته إلى مصر باعتزال العمل السياسي المبـــاشر ، والانصراف إلى العمل الاجتماعي والثقافي الذي يخدم النهضة الوطنية ، ويعزز الوعي السياسي ، ويوجه إلى طريق الحرية القومية ، لما كان في موقفه مجال للانتقاد ، ولمـا كان لخصومـه سبيل لمهاجمته ولومه . ولكن الشيخ تعدى ذلك إلى تسفيه السياسة والسياسيين عـامة ، والتنفير منها ومنهم ، متناسياً ان بلاده تخوض كفاحاً داميـــاً في سبيل استقلالها وحريتها ، هي أحوج ما تكون فيه إلى ما يشجع ويحفز ، لا إلى ما يثبط همتها في النضـال ويضعف عزيمتهـا في الكفاح ، كقوله : « إن شئت أن تقول إن السياسة تضطهد الفكر أو العلم أو الدين فأنا معك من الشاهدين . أعوذ بالله من السياسة ، ومن لفظ السياسة ، ومن معنى السياسة ، ومن كل حرف يلفظ من كلمة السياسة، ومن كل خيـال يخطر ببالي من السيـاسة ، ومن كل أرض تذكر فيهـا السياسة ، ومن كل شخص يتكلم أو يتعلم أو يجن أو يعقل في السياسة ، ومن ساس ويسوس، وسائس ومسوس ! » فإن قوله هذا إذا صح في « السياسة » التي يمـــارسها بعض الانتهازيين والمضللين والمتسلطين الذين يسخرون المبادىء لخدمة أشخاصهم وأغراضهم،

فانه لا يصح مطلقاً في سياسة وطني شريف كمصطفى كامل .

يضاف إلى ذلك حرص محمد عبده على مهادنة المستعمرين كي يأمن جـانبهم ، فيمضي في مسعاه إلى الاصلاح الداخلي الذي ينشده — إذا سلمنا بأن قضية الاصلاح الداخلي هي قضية منفصلة عن النضال في سبيل التحرر الوطني — فإن هذه المهادنة ما لبثت أن تحولت إلى صداقة توثقت عراهـا بينه وبين اللورد كرومر العميد الانكليزي في مصر ، فكانت سلاحاً في يد خصومه للطعن فيه .

ويبرر الشيخ نهجه هذا بقوله ان الاستبداد لا علاج له إلا وحدة الأمة وجمع كلمتها ، وان الطريق القويمة الموصلة إلى هذه الغاية هي تربيتها على الوجه الذي كان يراه ، والذي لم يكن قادراً على القيام به لولا مداراة الانكليز . ويصرح بأنه إنما خلق ليكون معلماً ، وهو قادر على خدمة أمته بالتربية والتعليم ، فلا يصح أن يوجه عنايته إلى السياسة فيضيع استعداده هذا . وكان يأخذ على الأميرة نازلي وعلى السيد جمال الدين نفسه ، انصرافهما إلى السياسة ، لاعتقاده بأن افادتهما تكون مضاعفة لو وجها عنايتهما إلى نشر الثقافة ، قائلًا : ولكن من سوء حظ المسلمين ان كل من كان فيه استعداد لشيء يشتغل بغيره !

أما مريدو الاستاذ الامام فقد دافعوا عن موقفه بما يتفق ووجهة نظره ، فقال حافظ ابرهيم في كتابه « ليالي سطيح » ، في حوار أداره بين بطله سطيح وأحد تلامذة الامام ، فقال الأول : « وأين مكانك من العلم ، وأين منك منزلة الحلم ؟ » فقال الآخر : « حسبي اني من تلاميذ حكيم الاسلام الاستاذ الامـام طيب الله ثراه وجعل النعيم مثواه » قال سطيح : « .. اني لأرى رأياً حصيفاً ، وأسمع قولاً شريفاً ، فمن أي تلاميذه تكون وقد سمعنا انهم فريقان : فريق قد اختصه بسياسته، وفريق قد اختصه بعلمه ، وقد أثنى عليهما العميد ، وتنبأ لهما بالطـالع السعيد ؟» فأجاب الثاني : « لا علم لي بما تقول . وقد كنت ألصق الناس بالامـام ، أغشى داره ، وأرد أنهاره ، وألتقط ثماره ، فما سمعته يقول في ذكر السياسة قبحها الله ، ولكن كان يملأ علينا المجلس سحراً من آياته ، وينتقل بنا بين مناطق الإفهام ومنازل الأحلام ، ويسمو بأنفسنا إلى مراتب العارفين بأسرار الخلائق وحكم الخالق ، وكان

وربما ساق الحديث إلى ذكر أحوال هذا المجتمع البشري فأفاض في شؤون الاجتماع وحاج العمران ، ووقف بنا على أسرار الحياة ، فان كانوا يسمون تلاميذه أحزاباً ، ويقسمون تعاليمه أبواباً ، فتلاميذه حزب العلم والعرفان ، وتعاليمه سياسة التقدم والعمران .

على أنه كان من أشد الناس تبرماً بالسياسة وأهلها حتى أعلن براءته من الالتصاق بها ، فقال عنها ما قال . ولكنه كان يحتك بها ما دعت إلى ذلك الحال ، فيرصد حركاتها رصداً ، ويصد غاراتها صداً ، خشية أن تقطع على العلم سبيله ، وأن تقف حجر عثرة في طريق الفضيلة . ولولا ذلك لقطعت عليه سلك أمانيه ، وحالت بينه وبين ما كان يبتغيه . فلكم تلطف في ابتزاز قواها ، وتحامى جهده طريق أذاها ، حتى إذا ظفر بطلبته وفاز برغبته ، واستمد منها ما شاء ، تحت حماية الافتاء ، عطف على العلم بذلك الامداد ، ورد عليه ما سلبت يد الاستبداد ، ولعله أوهم العميد بيقظة حزب جديد ليرد عاديته ويفسد عليه سياسته في مصادرة العلم ومصادقة الحلم . أما ترى بربك أثر ذلك في المدارس ، وما عبثت به يد ذلك السائس ؟ ولولا أن الامام مادهم حبل الوداد ، وجاذبهم فضل النصح والارشاد ، لأصابه ما أصاب حكيم الأفغان ، وقضي على هذه الأمة بالحرمان [1] ...»

وقال محمد رشيد رضا : « ... وغرضه من ذم السياسة ومن نهي العاملين من المسلمين لاحياء العلم والدين عنها ، وارشادهم أن يكونوا في ظلهم بمعزل عن تأييدها أو مقاومتها ، هو أن السياسة في جميع بلاد المسلمين استبدادية جائرة ، سواء أكان حكامها وساستها من أهلها أم من الأجانب المتغلبين عليها ، فتأييد سياستهم بالعلم والدين افساد لهما ، ومقاومتها بهما عرضة لمنع اقامتها والتنكيل بأهلها ، فالطريقة المثلى اجتنابها ، ومداراة أهلها ، واقناعهم بكل وسائل الاقناع الممكنة بأن الاصلاح العلمي أو الديني المطلوب هو خير لبلادهم ورعاياهم ، ونافع لهم أو غير ضار بهم . وحسب العامل المصلح تمكنه من العمل ، فان استطاع بهذه المسالمة والمحاسنة

---

١ – ليالي سطيح ، كتاب الهلال ، ص ١٦٩ – ١٧١

أن يجد مساعدة من الحكام بشرط ترك الحرية له في العمل فذلك أفضل وأكمل »
إلى أن يقول: « يقول محبو السياسة والمشتغلون بها ان هذه المسالمة للسياسة والمداراة لرجالها إقرار ضمني للاستبداد ومساعدة سلبية عليه . ويقال لهم ان هذا لا يمنع غير هؤلاء المشغولين عن السياسة بعمل آخر نافع للأمة ، ان يعملوا هم لهـا من طريق السياسة . فتقسيم الأعمال الكبيرة وتوزيعها شرط من شروط اتقانها والنجاح فيها » وهي حجة تتوقف قيمتها ، كما بينا على مدى الخدمة التي يقدمها المرء ، بعمله الذي يبدو للوهلة الأولى بعيداً عن السياسة لأنه لا يتصل بها اتصالاً مباشراً ، لمبـادىء الكفاح السياسي ، من تربية قومية ، وتوجيه وطني ، وحث على الكفاح في سبيل الحق والخير والحرية .

وقال السيد محمد رشيد رضا في فصل عقده على المقارنة بين جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده ، وبيان مذهبيهما في الاصلاح : « وقد شرع هذان الحكيمان المجددان في مصر بنوعي التجديد السياسي والعـلمي اللذين يشملان جميع أنواع التجديد التي اشتدت اليها حاجة الأمة ، ثم اقتصرا على التجديد السياسي في أوربة بمساعدة جمعية العروة الوثقى التي أسساها لهذا الغرض، وأنشآ باسمها تلك الجريدة العربية التي هزت العالم الإسلامي كله هزاً ، وكادت تدعّ الشرق إلى الثورة دعّـاً ، فزلزلت الدولة البريطانية زلزالاً شديداً ... ثم تفارقا فاشتغل كل منهما بما خلق ميسراً له ، فكان رأيه تبعاً لميله واستعداده ، وكل منهما ضروري لا بد منه : الاصلاح والتجديد من طريق السياسة ، والاصلاح والتجديد من طريق التعليم والتربية ، وان شئت قلت : تجديد الأمة بإصلاح الدولة ، وتجديد الدولة بإصلاح الأمة ، لا بد من كل منهما ، وكل منهما يفضي إلى الآخر ، ولكن الأول أدنى وأسرع ، والثاني أثبت وأدوم. »

وهذا في رأينا هو القول الفصل في هذا الموضوع .

وبعد أن يبين صاحب « المنار » العوامل التي يعتقد بأنهـا هي التي عملت على توجيه كل منهما في السبيل التي اختطها لنفسه ، كالنشأة والتربية والبيئة، ويعدد أعمال الامام في الميدان السياسي يقول : « ... ولما لم يفد كل هـذا ، يئس الشيخ من العمل السياسي الذي كان استعداده له مستمداً من روح السيد ، ورجع إلى ميـله

الغريزي ، وهو الاصلاح من طريق التربية والتعليم لتحرير العقل .. كان أستاذنا يائساً من ملوك المسلمين وأمرائهم ورؤسائهم من الباشوات وأمثالهم . وزاده يأساً منهم فشل أستاذه في الاصلاح السياسي من قبلهم ، مع اعترافه له بأنه أعلى منه همّة وأشدّ تأثيراً ، وان روح كلامه يؤثر في كل من أسمعه في كل موضوع كلمه به.»

اما علاقة الامام باللورد كرومر فقد قال محمد رشيد رضا بصددها : « كان اللورد يجله ويقدره ، ويستشيره في بعض المسائل الحكومية المهمة ، ويتحامى ان يهيج وجدانه ووجدان حزبه الراقي على الانكليز، وكان الأستاذ يداريهم لعلمه انه لا يستطيع البقـــاء في مصر بدون ذلك ، وكان المفسدون المحالون (النامون) يصورون هذه العلاقة للخديوي بأنها تأييد للاحتلال البريطاني على البلاد ، أو على شخص سموه على الأقل،وأظن ان الخديوي لم يكن يشك في وطنية الشيخ وإخلاصه لبلاده ، ولا يرتاب في ترفعه عن التقرب إلى اللورد بمساءته ، فان لم يكن هذا الترفع للاخلاص لأميره فهو لكرامة نفسه وابائها . »

وعلى هذا جميع الذين ترجموا له .

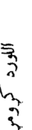
وقد روى الصحفي المصري المعروف أحمد حافظ عوض في ذكريات شخصية له نشرها في مجلة « الهلال » انه لما اشتد الخلاف بين محمد عبده والخديوي عبـــاس ، ووصلت الحال بينهما إلى الكراهية الشديدة والحقد والرغبة من جانب الخديوي بنوع خاص ، في القضاء على الشيخ الامام وإخراجه من الافتاء والأزهر ، لم يكن في وسع الشيخ احتفاظاً بما يعمل له من ترقيـــة الأزهر والاصلاح في المؤسسات الاسلامية ، إلا أن يعتمد على من يكون في مقدوره صد اعتداء الخديوي ونفوذ مشيئته في الشيخ ، ولم يكن ثمة إلا اللورد كرومر ، وبذلك توطدت دعائم مودة وتقدير متبادل بين الرجلين ، وصار في استطاعـــة الشيخ أن يؤثر في ممثل الدولة البريطانية ويدفعه إلى مساعدته فيما يراه حقـــاً ، وفيما يعتقده الشيخ من أبواب الاصلاح .

ويضيف حافظ عوض : « وكثيراً ما كان الشيخ يعارض اللورد كرومر ، ويعمل بلباقة ولباقة على استغلال مركزه الاسلامي فيغيّر اللورد فكره وينفذ



الدون جورست





اللورد كرومر

أغراض الشيخ. وأنا أعتقد شخصياً انه قد كان للشيخ الامام سلطة كبيرة أو غريبة على اللورد كرومر آتية من طريق الثقة التي كان اللورد قد وضعها فيه ، ولما آمن به من اعتقاده في نزاهة الامام وبعد نظره وحسن تقديره ، ولما كان يراه في الشيخ من الاخلاص والكفاءة والرجولة والترفع عن الغايات والأمور الصغيرة ، وتلك الصفات التي يحبها الانكليز في كل الأمور ، ولو لم يظهروا هذا التقدير إذا كانت لهم مآرب سياسية خطيرة » ويعود حافظ عوض إلى موضوع الخلاف بين الخديوي والامام فيقول : « الكلام في هذا الموضوع يفتح أبواباً بقيت على ظواهرها مغلقة مفككة غير مقررة ، وليس في استطاعتي وقد عرفت أو اتصلت بأثر هـذا الاضطراب بين رجلين كانا هما وحدهما في ذلك العهد الممثلين للأمة المصرية : الأول الخديوي بما له من السيادة الشرعية والثاني صاحب السيادة العقلية أو العلمية أو النفسية على الطبقة الناشئة من المتعلمين والمثقفين وعند أعيان البلاد وكبرائها ممن كانت لهم اتصالات وارتباطات بالشيخ محمد عبده في وظيفتي الافتاء والتدريس في الأزهر » .

ويتحدث العقاد في كتابه عن الامام عمن يعدون الأمم للاستقلال بالدعوة السياسية ومن يعدونها للاستقلال بالتربية والتعليم ، ثم يقول : « وأياً كان رأي التاريخ في جدوى الخطتين على قضية مصر ، فلا خلاف في رجحان كفة محمد عبده على كفة خصومه بميزان الصدق والاخلاص والمروءة الجديرة بأمثاله من دعاة الاصلاح . لأنه آمن بخطته ولم يعطل على أحد خطة يؤثرها ويطمئن إلى عقباها . ولكن خصومه قد سوّغوا أسوأ ظنونه في السياسة يوم صدوه عن طريقه ، ونصروا عليه أعداءه وأعداء رسالته الباقية . وكان أسوأ ما صنعوه أن يحسبوا عليه حماية القانون لمنصبه إخلالاً بالوطنية وهم يحمدون لولي الأمر أن يطأطىء رأسه لراية الاحتلال كي يغنم من المحتلين إغضاءهم عن عبثه بوظائف الحكومة ، وهو لا يرمي بذلك العبث إلى شيء غير محاربة العلم واتهام الدين بما هو بريء منه ، إذ يجعله حائلاً بين المسلم وبين علوم الحضارة في القرن العشرين [1] » .

---

١ ـ محمد عبده ص ١٦٩

ويقول العقاد في مكان آخر : « ويشاء الله أن يبرىء هذه النفس الزكية من كل ملامة يتجنى بها المتجني عليه فيما اختاره لنفسه من ايثار خطة التعليم والاحسان في خدمة قومه على خطط خصومه المشغولين بسياسة الصحف والأحزاب ، فما كانت لتعوزه رحمه الله زيادة لمستزيد في بغض المكائد السياسية والايمان بفسادها وافسادها لكل ما تمتد إليه من « اختصاصها » كما يقولون وغير اختصاصها ، ولكنه كان يخطو في عمله خطوة بعد خطوة ، وكأنه بحاجة إلى التذكير الجديد بلؤم تلك السياسة خوفاً عليه من نسيانه ، وفي كل خطوة من تلك الخطوات كانت تبرز له الأدله من هنا وهناك على استقامة خطاه واعوجاج الخطى من جانب خصومه : هنا نفع لا ريب فيه من خطة التعليم والاحسان ، وهناك ضرر لا ريب فيه من سماسرة السياسة يلاحقه في أشرف أعماله وأكرم آماله ، فما من مشروع من المشروعات التي ذكرناها فيما تقدم سلم من الوشاية الخفية أو المكابرة الصحفية ، ولا نذكر المكائد التي رصدت له في مساعيه لطلب الكتب النادرة التي كان يعهد بطبعها إلى جماعة إحياء الكتب العربية ، ولا المكائد التي رصدت له في جمع التبرعات لمنكوبي حرب السودان ، ولكننا ندل على خسة هذه المكائد بالاشارة إلى أغربها وأبعدها عن التصديق : وهي وشاية الوشاة عند الوكالة البريطانية بالجمعية الخيرية الاسلامية لاتهامها بأنها تجمع الأموال لاعانة مهدي السودان وتزويده بالذخيرة والسلاح ، واجترائهم في ذلك على تلفيق الأختام المزورة والبصمات المزيفة التي أقنعت دار الوكالة وأثارت شبهاتها فأمرت بتفتيش مكاتب الجمعية ومراقبة مراكزها ، ولولا تصدي الاستاذ الامام لاحتمال التبعة في كل ما يثبت على الجمعية من هذه الوشايات ، واجتهاده لكشف دخائل التزوير في تلك الوثائق المزيفة لقضي على الجمعية في مهدها وقضي معها على حسناتها وصدقاتها [1] » .

ومهما يكن من أمر فان رأي الامام في الانكليز ، أو في رجال الاستعمار الانكليزي على الأصح ، لم يكن رأي معجب بهم ولا مؤيد لهم ، وقد ظل على هذا

١ ـ محمد عبده ص ٢٣٤

الرأي حتى آخر لحظة من حياته . ويروي الشيخ محمد رشيد رضا انه كان يتجول مع الامام في ريف مصر مرةً فرأيا فلاحاً يمتص عوداً من قصب السكر مبالغاً في امتصاصه ، فلا يلقيه إلا بعد جفافه ، فقال له : « انظر إلى هذا الرجل كيف يمتص هذا القصب . هكذا يفعل الانكليز في امتصاص ثروة البلاد واستخدام الرجال القادرين على العمل فيها . هم يحافظون على الشيء أو الشخص ما وجدوا فيه فائدة لهم ، حتى إذا ما رأوا انه لم يبق فيه أدنى فائدة لهم ألقوه كما يلقي هذا الرجل ما يمتصه من ألياف القصب إذا جف ولم يبق فيه شيء من الحلاوة » .

ونحن إذا تدبرنا الوصف الذي وصف به نفسه ومذهبه ، والذي استشهدنا به في مستهل حديثنا عنه ، وتأملنا في قوله : « أما أمر الحكومة والمحكوم ، فتركته للقدر يقدّره ، وليد الله بعد ذلك تدبّره ، لأنني قد عرفت انه ثمرة تجنيها الأمم من غراس تغرسه وتقوم على تنميته السنين الطوال ... فهذا الغراس هو الذي ينبغي ان يُعنى به الآن » إذا تدبرنا هذا الوصف تبيّنا ما فيه من اليأس والمرارة !

ولعل خير ما يقال في هذا الشأن ، قول الأستاذ أحمد أمين : « ان العظيم يجب أن يقدّر من جميع جوانبه لا من جانب واحد . وقد كان الشيخ محمد عبده مصلحاً دينياً ، ومصلحاً اجتماعياً ، ومصلحاً للغة والأدب ، وشخصية بارزة في التفكير ، وأخيراً سياسياً . فان هو لم يوفق في سياسته هذه ، فهذا لا يقلل من نواحيه القيمة الأخرى[1] . »

---

١ ـ فيض الخاطر ج ٧ ص ١٩٨

في القضاء والإفتاء

عاد محمد عبده إلى القاهرة أواخر عام ١٨٨٨ (١٣٠٦هـ) وهو في حدود الأربعين من عمره ، وسكن في شارع الشيخ ريحان على مقربة من سراي عابدين ، كي يناطح تلك السراي مناطحة كما قال !

وكان بين أصدقائه من تلقاه بالسرور والاجلال ، ومن تجنبه وتجاهل وجوده ، وقد ضرب على الفريق الأول مَثَل سليمان باشا أباظه ، إذ كان يسير معه مرة في الشارع ، فرأى ان بعض الوجوه تتنكر للامام ، فجعل يمشي بجانبه متأخراً عنه قليلًا ليكون معه كالتابع مع المتبوع ، فجاءه أحد الجبناء وأسرّ إليه :

— من هذا الذي تمشي معه متأدباً ؟ ألست تعلم أن أفندينا غضبان عليه ؟

فأجابه رافعاً صوته : انه صديقنا ، واننا نجله لعلمه وفضله ووفائه ، ولم تكن صداقتنا له لأجل أفندينا فنتركها لغضبه عليه .

اما الفريق الثاني فقد ضرب عليه مثل وجيهين كانا يتظاهران قبل نفيه بالصداقة له ، فدخل يوماً على مختار باشا الغــازي فوجدهما عنده ، فلما رآياه تغير وجهاهما وامتقع لوناهما واتخذا قيام الغازي له سبباً لتوديعه والخروج من حضرته بسرعة كأنهما لم يرياه .

ولكن الامام والخديوي توفيق باشا لم يلبثا ان تراضيا أو تهادنا ، لسعي كثير

من الوجهاء لدى الخديوي للعفو عنه . فقبل توفيق باشا مسعاهم ، ولكنه ظل يكره الامام في أعماق قلبه لأنه يعرف ما كان له من أثر كبير في دعوة الاصلاح السياسي والحركة الفكرية اللتين تمخضتا بالثورة، على الرغم من خصومته للثورة العسكرية في مستهل أمرها ، ويثق بأنه إنما يريد تربية الأمة المصرية على روح الحرية وتهيئتها لأن تكون مصدر الادارة والحكم في بلادها ، وهو يكره ذلك ويكره محمد عبده من أجله ..

ومن ثم حال الخديوي دون تحقيق رغبة الشيخ في التدريس بدار العلوم، ليحول بينه وبين نشر أفكاره التحررية في الأمة [1] ، بالتعليم والمعاشرة ، وأراد إشغاله عن ذلك فأمر بتعيينه قاضياً في المحاكم الأهلية بإحدى مدن الريف ، فلما بلغه الخبر تألم وقال :

– انني لم أخلق لأكون قاضياً أقول حكمت على فلان بكذا وعلى فلان بكذا ، وإنما خلقت لأكون معلماً [2] !

ثم رغب إلى ناظر الداخلية أن يرجو الأمير استبدال التدريس في مدرسة دار العلوم بمنصب القضاء ، وقال له :

– انني أعلم انه لا ارتقاء في التدريس واني أرتقي في القضاء إلى أعلى درجة فيه، ولكنني لا أحبه .

فلم يقبل الأمير ذلك الرجاء قائلًا :

– انني لا أحب أن يربي التلاميذ على أفكاره السياسية !

فاضطر محمد عبده إلى قبول منصب القضاء، فعين في محكمة بنها ، ثم في محكمة الزقازيق، ثم في محكمة عابدين بالقاهرة. ثم ارتقى سنة ١٨٩٠ (١٣٠٨هـ) إلى منصب مستشار في محكمة الاستئناف .

ويؤكد الذين عرفوه انه كان قاضياً مجتهداً يتقيد بالعدل والانصاف أكثر مما

---

١ – الاسلام والتجديد في مصر ص ٦٦

٢ – المرجع السابق ص ٤٢ ، تاريخ الاستاذ الامام ج ١ ص ٤٢٠

يتقيد بالقانون والرسوم ، « ذلك انه لم يكن يحكم بظاهر عبـــارة القانون وتطبيق الوقائع عليها ، بل كان يتحرى اظهار الحق واصابة العدل في القضايا ، فان انطبقت على القانون وإلا عمد إلى وسيلة أخرى ولا سيما الصلح » وقد سأله المستشار القضائي المستر سكوت عن حقيقة موقفه في عدة قضايا من هذا النوع رفعت إليه من أجلها شكاوى بحق محمد عبده ، فسأله الشيخ :

ـ هل العدل وضع لأجل القانون أم القانون وضع لأجل العدل ؟

فقال المستشار : بل القانون وضع لأجل العدل ، والعدل هو المقصود بالذات .

فشرح له حينئذ تلك القضايا وبين له انه لم يحكم فيها إلا بالعدل ، فاقتنع المستر سكوت وأكبر اجتهاده !

وكان الجـــانب الخلقي بارزاً في احكامه التي تشتد على المرابين والفاسقين والمزورين ، وكان يتسقط شاهد الزور حتى يقر فيحكم عليه ويخرجه من المحكمة إلى السجن ، وقد أقرت الحكومة عمله هذا وأدخلته فيما بعد في القانون . وكان يجتهد في الاصلاح بين الأهل وذوي القربى ، وقد ثبت له بإحصاء الدعاوى السنوية ان أكثرها كان بين الأقربين ، فقال في خطبة ألقاها بالجمعية الخيرية : « ان العـداوة بين الناس صارت على أشدها للأقرب والقريب فالبعيد فالأبعد ، أي على خلاف ما تقتضيه الفطرة السليمة ووشيجة الرحم وهداية الدين » .

وروى العقاد قصة واحدة عاشها بنفسه تغني عن عشرات القصص التي تصف مسلك محمد عبده في القضاء ، فقال :

« وكاتب هذه السطور قد سمع بمحمد عبده نصير المظلوم قبل أن يسمع بمحمد عبده المصلح العظيم .

« سمعت في بلدتي بأقصى الصعيد ، وفي باكورة صباي ، بمأثرة من مآثر هـذا القلب الكبير ، لم تكن إلا مثلًا واحداً من مئات المآثر التي سمعنا بها بعد ذلك حيث نزلنا من أقاليم هذا البلد ، ولا يزال الكثير منه معروفاً مروياً في اقليمه، وان لم يصل نبأه إلى غير أهله .

« شغلت بلدتي أسوان قضية كبيرة تقلبت بين محاكم الصعيد والعاصمة أكثر من عشر سنوات ، وأوشك الخصم القوي فيها أن يظفر بالحكم الأخير وأن يجرد خصمه الضعيف من حقه ، مستعزاً عليه بقوة المال والجاه وسعة الحول والحيلة ، وقد شاعت الاشاعات التي تحققت بعد ذلك عن الرشوة المبذولة ، بالوف الجنيهات، ثمناً لذلك الحكم الأخير الذي ينقضي به الأمر ولا يقبل المراجعة والاستئناف .

« وقبل صدور الحكم بأيام يلتقي الخصم الضعيف بنائب بلدته في مجلس الشورى، فيستمع منه لإشاعة الرشوة ويرجحها له بما علمه من توكيد أنصار الخصم القوي ومن قسم مغلظ أقسمه أمامه أقربهم إليه : ليصدرن الحكم كما أملاه صاحبهم على فلان باشا وليسمعن نبأه بعد أيام !

« وكان نائب البلدة في مجلس الشورى يعرف الاستاذ الامام من زمالته له في المجلس ، فاصطحب المسكين إلى عين شمس ، وترك صاحب القضية يبسطها للاستاذ الامام بسذاجته التي تنم على الصدق الأليم والحسرة البالغة ، فلم يكد هذا الرجل المثقل بشواغل وطنه الكبار يستمع إلى كلمة المظلمة والرشوة حتى اعتذر لضيوفه جميعاً وأفرغ من وقته زهاء ساعتين للاصغاء إلى قصة هذه القضية منذ نشأت قبل عشرة أعوام ، وترك الرجل يقول ويعيد كما يشاء على ديدن المظلوم الملهوف في سذاجته وابتهاله واضطراب نفسه بين خوفه وأمله ، فلم يتعجله ولم يقتضب عليه لجاجة شرحه وتكراره ، ولم يدعه تلك الليلة إلا على وعد بأن يلقاه عند باب وزارة العدل في موعد افتتاح الدواوين .

« وفي اليوم التالي لم يذهب المفتي إلى دار الافتاء ، بل توجه تواً إلى دار وزارة العدل وكلف الرئيس المسؤول أن يبعث في طلب ملف القضية من المحكمة ، فقضى اليوم يراجع أوراق الملف مراجعة القاضي الخبير بأصالة الأسانيد وأساليب المراوغة وعلامات الغرض والتمحل في التأجيل والتعجيل ، وأيقن بصدق الدعوى وخطر الحكم المنتظر فيها ، فصنع ما لا يقوى على صنعه غيره ، واستصدر الأمر بإسناد رئاسة الدائرة إلى قاض آخر لا ترتقي الشبهة إلى ذمته وعلمه ، وصدر الحكم الأخير بالحق الذي يعرفه أهل البلدة جميعاً ، فظل أبناؤها يتحدثون بهذه القضية كما يتحدث

المؤمنون بكرامة القديسين [1] » .

ومن طريف ما يروى انه لما كان قاضياً بالزقازيق سأل رجل امرأة سوء عن حالها ، فقالت :

— زي الزفت ، وإذا بقي القاضي أبو عمة هنا فانه سيقطع رزقنا من هذه البلدة !

ويحكى ان الذين كانوا يختلفون إلى جلساته من المتقاضين والمحامين وغيرهم ، عرفوا عادة من عاداته لم يكن ليشعر بها ، وهي انه إذا ثبت عنده اجرام مجرم وأراد الحكم عليه بعقاب شديد كالإعدام أو السجن مدة طويلة ، أمال عمامته على جبهته في حركة لاشعورية تنم عن الاستغراق في التفكير .. فاتفق انه فعل ذلك مرة ، فصاح الجاني الذي علم انه سينطق بالحكم عليه :

— بعرضك اعدل العمة حتى أقول الصحيح .

فضحك الشيخ وضحك الحاضرون واشتهرت هذه الحكاية بين الناس .

وابان اشتغال محمد عبده بالقضاء أخذ يتعلم اللغة الفرنسية ، وقد قال في ذلك : « وجدت انه لا يمكن لأحد أن يدعي انه على شيء من العلم يتمكن به من خدمة أمته ، ويقتدر به على الدفاع عن مصالحها كما ينبغي ، إلا إذا كان يعرف لغة أوربية ! »

وكان الميل إلى تعلم لغة أجنبية قد خامره أثناء الحوادث العرابية ، فتعلم تهجية اللغة الفرنسية ثم تركها ونسيها تقريباً . وحين سافر إلى فرنسة وأقام فيها عشرة أشهر ، حال عمله في « العروة الوثقى » واجتماعه الدائم بجمال الدين ورفاقه من العرب دون اهتمامه بدراسة اللغة الفرنسية دراسة منظمة . فلما اشتغل بالقضاء في المحاكم الأهلية ، رأى ان الحكم فيها ولا سيما في الجنايات على الأصول الفرنسية ، وان أكثر القضاة يغلب عليهم العلم بتلك القوانين في لغتها ، فعاوده ميله القديم حتى لا يكون أقل معرفة بالقوانين [2] .

---

١ — محمد عبده ص ١١٦ — ١١٧

٢ — تاريخ الاستاذ الامام ح ١ ص ١٠٤

إلا ان الرغبة في معرفة القوانين الجنائية كي لا يكون أضعف فيها ممن يجاس معهم في مجلس القضاء ، لم تكن حافزه الوحيد إلى تعلم اللغة الفرنسية ، وإنما كان دافعه الأول هو يقينه بأن اللغة الأجنبية حاجة لا بد منها للنهل من موارد الثقافة العالمية ، وفي ذلك يقول : « ان الذي زادني تعلقاً بتعلم لغة أوربية هو اني وجدت انه لا يمكن لأحد أن يدعي انه على شيء من العلم يتمكن به من خدمة أمته ، ويقتدر به على الدفاع عن مصالحها كما ينبغي ، إلا إذا كان يعرف لغة أوربية . كيف لا وقد أصبحت مصالح المسلمين مشتبكة مع مصالح الأوربيين في جميع أقطار الأرض . وهل يمكن مع ذلك لمن لا يعرف لغتهم أن يشتغل للاستفادة من خيرهم ، أو للخلاص من شرّ الشرار منهم [1] ? »

كان الشيخ حينذاك في الرابعة والأربعين من سنه . قال : « فبحثت عن معلم فوجدت أستاذاً لا بأس به ، فدعوته ، فجاءني حاملاً كتاب نحو في يده فسألته :

— ما هذا ?

فقال : كتاب نحو .

فقلت له : لا وقت عندي لأن أبتدىء وإنما عندي زمن لأن أنتهي .

ثم ناولته قصة من تأليف الكسندر دوماس وقلت :

— أنا أقرأ وأنت تصلح لي النطق وتفسر لي الكلم ، وما عدا ذلك فهو عليّ ، والنحو يأتي في أثناء العمل .

وهكذا أتممت الكتاب وكتاباً بعده وثالثاً عقبه ، وكنت أطالع وحدي بصوت مرتفع كلما وجدت نفسي في بيتي خالياً، فتعلمت مبادىء اللغة الفرنساوية، وحصلت منها ما كان يمكنني من القراءة والفهم، لكن ما كنت أستطيع الكلام.»

وكان كلما سافر إلى فرنسة وإلى سويسرة بعد ذلك ، أيام العطلة الصيفية ، يحضر دروس العطلة في كليات باريس وجنيف ، حتى اتقن تلك اللغة وترجم عنها كتاب « التربية » للفيلسوف الانكليزي هربرت سبنسر . ويقول الاستاذ لطفي

١ — تاريخ الاستاذ الامام ج ١ ص ١٠٤

السيد مستشهداً على تضلع الامام بالفرنسية، انه كان يجلو لاخوانه وتلامذته ما غمض من عبارات الفيلسوف الفرنسي تين في كتابه المشهور عن « الذهن » .

ويضيف الدكتور أمين عثمان إلى ذلك قوله : « ونحن نعلم من جهة أخرى ان الاستاذ الامام قد أملى في مرض موته فصلًا بالفرنساوية نشره المسيو دي جرفيل في كتاب له عن « مصر الحديثة » بعنوان « وصية سياسية للمرحوم المفتي الشيخ محمد عبده [1] » .

وظل محمد عبده مستشاراً في محكمة الاستئناف تسع سنوات . وفي ٢٥ تموز (يوليو) سنة ١٨٩٩ (١٣١٧ هـ) عين عضواً في مجلس الشورى . وكان رئيس المجلس عمر لطفي باشا ، وهو أبغض الناس عليه بعد سلطان باشا لما علمه من خيانتهما لوطنهما أثناء الثورة العرابية ، فأنشأ يقول :

— انه ليشق عليّ ان أحضر جلسات هذا المجلس تحت رئاسة هذا الخائن لوطنه الجاني عليه ، وأنا لا أستطيع ان أراه فكيف أعمل في مجلس هو رئيس له !

ومن عجائب الاتفاق انه لم يمض شهر واحد حتى توفي عمر لطفي باشا ، فأصبح لمحمد عبده في مجلس الشورى الرأي العالي والصوت المسموع . وكان ينفق أكثر وقته في دراسة المسائل التي تعرض عليه للوصول إلى النتائج الصحيحة التي تقيم ميزان العدل، وتنفع البلاد ، ويوجه الرأي العام إلى الأخذ بمبادىء الديمقراطية والفصل في الأحكام بالشورى .

وبعد أيام من تعيين محمد عبده في مجلس الشورى ، صدر أمر الخديوي عباس حلمي الثاني بناء على قرار مجلس النظار بتعيينه مفتياً للديار المصرية . وكان الشيخ حسونة قد استقال من مشيخة الأزهر ومنصب الافتاء ، فطمح الامام إلى ان يخلفه في كلٍّ من المنصبين ، ليقبض على ناصية الأزهر ، ويتمكن من تنفيذ المشاريع التي وضعها لإصلاحه ، فحال الخديوي دون تحقيق أمانيه .

ولم تكن تلك المرة هي الأولى أو الأخيرة التي وقف فيها الخديوي الجديـــد

---

١ — محمد عبده ص ١٠٩

موقف الخصومة من محمد عبده ، بعد ان قرّبه منه أول عهـــده ، وعزز آماله في تحقيق الاصلاح الذي ينشده وكان يلجأ إليه ويستعين به في حل كثير من المشكلات. وما زالت هذه الخصومة تتعاظم حتى تحولت إلى عداء صريح .

ذلك ان استئثار المحتلين بدعوى الاصلاح والتنظيم في دواوين الحكومة جميعاً لم يدع للخديوي مكاناً يعمل فيه منطلق اليدين غير الجامع الأزهر وديوان الأوقاف والمحاكم الشرعية ، وهي الجهات الدينية التي أمسك المحتلون عن التعرض لها إلا فيما يتعلق منها بميزانية الدولة ، فأصبح من همّ الخديوي ان يبسط سيطرته الكاملة على هذه المؤسسات ، ولم يكن يقاوم نفوذه فيها غير محمد عبده . ومن هنا بدأ الصراع بين أعظم رجلين في مصر لذلك الحين كما يقول العقاد: « أعظم رجل في مصر بعرشه الموروث وولايته الشرعية وحقوقه الرسمية ، وأعظم رجـــل في مصر برجاحة لبه ومتانة خلقه وعلو همته وصدق غيرته على حرية وطنه والنهوض بأمته [1] » .

ولعلّ أهم ما أثار الخديوي على الامام ، قضية المزرعة الخديوية . ذلك ان محمد عبده قد أصبح بحكم منصبــــه في الافتاء ، عضواً في المجلس الأعلى لديوان الأوقاف . واتفق ان الخديوي عرض على مجلس الأوقاف الأعلى طلب استبدال بعض أراضي الأوقاف المعدة للبناء في الجيزة ، بمزرعة من مزارع الخديوية ، وبني الطلب على ان ريع المزرعة يفوق ريع تلك الأرض ، بما يقتضي ان يزاد عليها ثلاثون ألف جنيه ، وهي تكون بالتالي أنفع للوقف . فقال المفتي بوصفه المسؤول الأول عن هذا الأمر : « الأنفع للوقف في مثل هـذا ، إنما يُعرف بتقدير الثمن لا بالغلة السنوية ، فلا بد من تعيين لجنة من أهـل الخبرة برئاسة مهندس الأوقاف لتقدير ثمنها وثمن تلك المزرعة » . ووافقه على هذا صديقه حسن باشا عاصم نائب الخديوي في المجلس . فلما تألفت اللجنة وقامت بعملها ، تبين ان الأمر الذي تتحقق به منفعة الوقف اعطاؤه عشرين ألف جنيه فوق المزرعة [2] ، فكانت جملة خسارة

---

١ — محمد عبده ص ٢٠٣

٢ — مذكراتي في نصف قرن ج ٢ ص ٤٥ — ٤٦

الخديوي خمسين ألفاً . فنقم على محمد عبده وعلى عاصم باشا ، فأقال هذا من منصبه ، وأخذ يكيد للثاني لإخراجه من إدارة الأزهر كما سنرى في الفصل التالي .

وكان شأن كساوى التشريفة في الأزهر كشأن المرتبات والجرايات ، يختص بها الشيخ الأكبر من يشاء ، ولا وجه لمراجعته أو الاحتجاج عليه ، وحدث ان انحلت كسوة من الدرجة الأولى من كسى التشريف بموت أحد كبار العلماء ، فأرسل الخديوي إلى شيخ الأزهر من يبلغه أمر سموه بتوجيه هذه الكسوة إلى الشيخ محمد راشد الامام الخاص لسموه ، فلم ينفذ ، فاستاء أشد الاستياء ، فلما اجتمع عنده علماء الأزهر في مقابلة التشريفات الشهرية ، قال لشيخ الأزهر بصوت الاستياء واستفهام الاستنكار :

— ألم آمرك بتوجيه كسوة فلان إلى فلان ?

فتلعثم الشيخ في الاعتذار ، فقال الشيخ محمد عبده بصوت جهوري جريء :

— ان الذي قرره مجلس إدارة الأزهر هو التنفيذ لأمر أفندينا ، لأنه مقتضى ما نص عليه القانون المتوّج باسم سموه . وأما الأوامر الشفوية فلا نعرفها ، فإذا شاء أفندينا ان تكون كساوى التشريف العلية بمقتضى إرادته الشخصية، فليصدر بذلك قانوناً آخر يفسخ هذا القانون ، أو مادة قانونية نصها : كساوى التشريف للعلماء توجه بأمرنا [1] » .

فاشتد غضب الخديوي لهذه الجرأة في مخاطبته ، ولكنه كظم غيظه وسكت على مضض عظيم .

ثم اتفق ان قام عباس باشا باستعراض جيش الاحتلال بنفسه تحت العلم الانكليزي ، مع ان سلفه الخديوي توفيق كان يكتفي بالترائي للجيش من شرفة القصر ، فكتب الشيخ محمد رشيد رضا صديق محمد عبده وتلميذه في جريدة «المنار» مقالاً شجب فيه موقف الأمير وقال انه كان له تأثير عظيم في النفوس ، وقد امحى به وبما سبقه من قبله « ما كان يتوهمه الدهماء من ان الأمير هو المعارض للمحتلين ،

١ — تاريخ الاستاذ الامام ج ١ ص ٥٧٣

وان النظار هم المشايعون لهم ، وعلموا انه أشد من نظاره وفاقاً معهم ، لأن أولئك يوافقونهم لمكان القوة فيما يريدون ، وهو يمنحهم أكثر مما يطمعون ... » فلما قرأ الخديوي ذلك استشاط غضباً ، « لأن صيته بمقاومة الاحتلال كان رأس ماله في التحبب إلى الشعب وتبغيض النظار إليه » . واستحضر بطرس باشا غالي وزير خارجيته فأعطاه « المنار » وأمره بأن يذهب به إلى اللورد كرومر ، ويترجمه له ويبين له ان الذي أغرى صاحب « المنار » بهذه الكتابة هو أستاذه الشيخ محمد عبده لأنه يكره الاتفاق مع الانكليز . وصدرت « المؤيد » في اليوم التالي ، وهي في طليعة الصحف المؤيدة للقصر ، وفيها الرد العجيب التالي :

« لم يدر صاحب جريدة « المنار » الذي إن خرج عن مدار بحثه ضل وإن دخل في غيره ذل ، ان الجناب العالي وقف تحت ذلك العلم بحضرة جلالة الملك ادوارد السابع ملك الانكليز وامبراطور الهند ولم يكن جناب اللورد كرومر في ذلك الموقف إلا صورة من صور الملك التي يمثله بها في هذا اليوم مائة قائد فوق كرة الأرض... وينكر صاحب المنار استعراض الجناب العالي لعساكر جيش الاحتلال مشيراً إلى اكتفاء المغفور له الخديوي السابق بالاشراف عليه من نوافذ القصر، كأنه لم يدر ان مولانا الخديوي الحالي حفظه الله عسكري النشأة يرتدي في الأعياد والمواسم الكسوة العسكرية ، وهو عالم بدقائق الحركات الحربية بحيث لو أخذ بيده قيادة جيش جرار لكان من أمهر قادة عصره . وماذا يريد بقوله: وقف الجناب العالي تحت العلم الانكليزي في أول يوم من شهر الصيام ؟ وأي دخل للأيام والأيام أخوة والليالي أخوات ، ولم يعلم بأن مائة مليون من المسلمين يحيون هذا العلم في ذلك اليوم ، يوم الاستعراض [1] » .

وقد حاول الخديوي التفريق بين محمد عبده ورشيد رضا بانتهاج أساليب الدس الرخيصة ، فبعث الشيخ محمد شاكر وبطرس غالي إلى محمد عبده ، وأذن لهما بالتصريح له بأن الخديوي يرضى عنه ويساعده كل المساعدة على إصلاح الأزهر

---

١ — عدد ٢١ يناير ١٩٠٥ ، نقلاً عن محمد عبده للعقاد ص ٢١٥

بشرط أن يبعد عنه صاحب « المنار » ويقطع صلته به. وكان بطرس غالي أول من فاتح محمد عبده في رأي الخديوي ، فقال له :

— إذا كنت أنا انساناً ذا قيمة في الوجود فإنما ذلك بأخلاقي لا بوظيفة الافتاء ولا بغيرها ، وأي خلق يكون لي إذا كنت أترك صحبة السيد رشيد رضا لأجل الخديوي . وكيف لا أترك صحبتك أنت أيضاً لأجل الخديوي إذا أراد ؟ أحب أن تعلم ويعلم الخديوي انني أفضل ان أعيش أنا والسيد رشيد رضا هنا في رمل عين شمس على البقاء في منصب الافتاء وعضوية مجلس إدارة الأزهر ، لأن هذا الرجل متحد معي في العقيدة والفكر والرأي والخلق والعمل .

ولما جاء الشيخ شاكر يحمل نفس رأي الخديوي لمحمد عبده ، قال له الاستاذ الامام :

— كيف أرضى بإبعاد صاحب « المنار » عني وهو ترجمان أفكاري .

ولما يئس الخديوي من تغيير نفس محمد عبده على رشيد رضا ، لجأ إلى صاحب « المنار » عسى أن ينجح فيما أخفق فيه مع الاستاذ الامام ، فجاء أحد المقربين من القصر إلى رشيد رضا وقال له ان الخديوي يحبه ويحترمه ويود مساعدته على خدمة « المنار » للاسلام بالمال والنفوذ ، وانه هو الذي قطع الطريق على نفسه بتشيعه للشيخ محمد عبده ، ثم أضاف إلى ذلك ان الخديوي يعدّ الآن حملة من أشهر الكتاب للطعن في الفتوى الترنسفالية ، ويطلب من رشيد رضا السكوت فقط عن الدفاع عن المفتي ، فقال رشيد رضا ان هذه مسألة دينية وهي من أخص مباحث « المنار » فلا يمكنه السكوت لمن يخوضون فيها بغير علم ، وأوضح انه يدافع عن الحق لا عن شخص المفتي . وتعدد الرسل الموفدون من الخديوي فكان جواب رشيد رضا لكل من أراد منه الوقوف موقفاً سلبياً من الامام :

— ان الاصلاح الذي أدعو إليه لا ينهض إلا بزعيم تثق به الأمة ، ولا أعرف أحداً أجدر من محمد عبده به أو يساويه في استحقاق هذه الزعامة ، فأنا أدعو إلى تعميم الثقة به [١] .

---

١ — رشيد رضا الامام المجاهد للدكتور ابرهيم العدوي ص ٢٠١ — ٢٠٣

وعمد الخديوي عندئذ إلى إثارة الشيوخ الرجعيين ، فحملوا على الامام حملات شعواء لحريته ، وتجديده ، ومشاريعه الاصلاحية ، وكان أهم هذه الحملات وأكثرها صخباً ما دار حول قضية الفتوى الترنسفالية المشهورة .

وتتلخص هذه القضية في ان رجلاً من الترنسفال قـَدِم إلى مصر وسأل المفتي عن ثلاث مسائل : عن جماعة يلبسون « البرنيطة » لقضاء مصالحهم عند المسيحيين ، وعن أكل الذبائح التي يذبحها المسيحيون هناك مع العلم بأنهم يذبحونها بغير تسمية بعد ضربها على رأسها بالبلطة ، وعن صلاة الشافعيين خلف الحنفيين . فأفتاه محمد عبده بجواز لبس « البرنيطة » وأكل ذبيحة أهل الكتاب وصلاة الشافعي خلف الحنفي . فعلم الخديوي بذلك ، وظن ان الفتوى مخالفة للشرع فأوعز إلى جريدة تدعى « الظاهر » كان قد أنشأها لاستخدامها في مثل هذه الأغراض ، بالحملة على المفتي ، وحاول الاستعانة بالسلطان عبد الحميد لاستصدار فتوى من شيخ الاسلام في الآستانة بأن مفتي مصر قد أفتى بما يخالف الشرع ، واستكتب بعض مشايخ الأزهر عريضة ذكروا فيها الأسئلة والأجوبة على غير وجهها ، وقالوا ان الشيخ محمد عبده صار معزولاً من الافتاء ، لأنه لم يستند في فتواه على شيء من نصوص مذهب أبي حنيفة بل أخذ برأيه الخاص .

وأعجب العجب ما أثارته هذه المسألة من مقالات واحتجاجات . ولعل أعجبها على الاطلاق ما كتبه محمد أبو شادي المحامي صاحب جريدة « الظاهر » الآنفة الذكر ، وكان يرأس تحريرها شيخ يدعى محمد الشربتلي كان قد أصدر جريدة باسم « النهج القويم » وقد اتهم الشيخ محمد عبده مرة بالكفر فحاكمته النيابة وسجنته ، فان أبا شادي هذا قد رفع تقريراً مسهباً بهذا الشأن إلى « حماة الملة وعلماء الدين وعواهل الأمة المحمدية وحراس شريعتها » في جميع أقطار العالم ، منبهاً إياهم إلى انه سيعرض عليهم واقعة « من أعظم الوقائع وأشدها على الأفئدة المؤمنة » ليروا بعض ما يتوخاه المفرطون في أحكام الدين ، بحجة الدعوة إلى الحياة الراقية ، كأن هذا الرقي « يستدعي في نظرهم هدماً للملة بمعاول التطرف الشديد ، وزلزلة في أرض الوجود الاسلامي شرقاً وغرباً . ترونها وهي تملي عليكم عبارات تسيل بها عبارات

العيون ، ويتوجع بها كل فؤاد حي محزون،هي الواقعة ذات الضجة الهائلة والصلصلة المستمرة فصلناها لكم الخ . »

ثم يستصرخهم ويستحث هممهم « إلى وقاية أحكام دين الله في هذا الوسط المفعم بالشرور ، هذا الوسط الذي اندلع فيه لسان الغرور ، هـذا الوسط الذي ظهرت فيه الرذيلة على الفضيلة ، هذا الوسط الذي أصبح الدين فيه أعزل بلا سلاح ، هـذا الوسط الذي سطت فيـــه الشهوات على القلوب ، فتمردت النفوس وآثرت إثارة الخطوب . هو هذا الوسط الذي حورب فيه الدين من حماته ، وحوربت فيه الملة من رجالها ، حوربت الشريعة من أنصارها، حوربت فيه الفضيلة من مظاهرها، حوربت فيه الأحكام من أساطينها ، حوربت فيه ملة الرسول ، من كل ذي نشأة غلب على فؤاده الفضول فذهب مذهب الشذوذ في المعقول والمنقول . »

ثم يقول : « رفعنا إليكم أيها العواهل هذه السطور تناديكم بصوت الملة ولسان الدين ، وتوجه أنظاركم إلى بدعة لو تركت لأفضت إلى ضلال مبين ، فالبـــدار البدار إلى مقاومة هذا الصغار . البدار البدار إلى حفظ الدين فهو خير شعار. البدار البدار إلى تقوية أركان الملة التي أخذ المدلهون بمدنية الغرب في تقويضها ونقض بنيانها القائم على أساس الحكمة .. » وأمثال هذا من الجمل المؤثرة والكلمات الرنانة ، التي يجيد استعمالها أولئك الذين يريدون إظهار الباطل بمظهر الحـــق ، والتي لم ننقلها إلا لتكون نموذجاً على تفكير بعض الناس في ذلك الزمان ، وعلى تفكير بقاياهم الذين لم ينتفعوا بعبرة ولم يأخذوا بتجديد ..

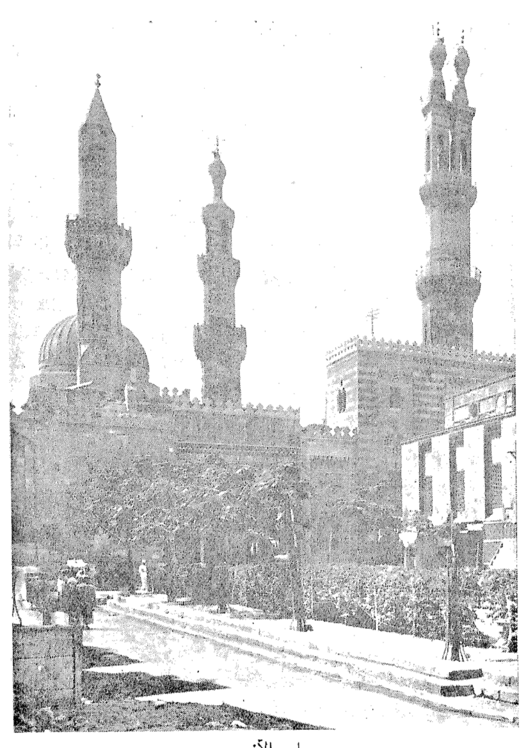
وقد كثر اللغط حول هذه المسألة ، واشترك في مناقشتها العلمـــاء من جميع الأقطار الاسلامية ، ولم يعمد محمد عبده إلى تبرير موقفه وإثبات رأيه ، وإنما ترك أنصاره يدافعون عن وجهة نظره ، فقالوا ان الاسلام لم يقيد أهـله بزي مخصوص لأن الزي من العادات التي تختلف باختلاف حاجات الشعوب وأذواقهم وطبائع بلادهم ، وقد لبس النبي من لبوس المسيحيين والمجوس والمشركين . وان الآية التي تقول : « وطعام الذين اوتوا الكتاب حل لكم » صريحة الدلالة على ان جميع طعام أهل الكتاب من اللحم وغيره حلال عند المسلمين . وان صلاة الشافعي خلف الامام

الحنفي أو غيره أو بالعكس ، جائزة ، وإنما استنكرها الجاهلون لاستنباطات بعض الفقهاء المعروفة الناشئة عن التعصب للمذاهب الذي يفرق بين المسلمين ويجعلهم شيعاً كل شيعة تبطل عبادة الأخرى ، وليس هذا من الدين في شيء .

ثم اجتمعت جماعة من كبار علماء المذاهب الأربعة في الأزهر ، ووضعت بياناً أيدت فيه فتوى الامام محمد عبده بنصوص المذاهب الأربعة . فكان هذا البيان القول الفصل في هذا الموضوع ، وتبين ان الرجعيين المتشدقين بمعرفة الدين وحمايته هم المفرّطون فيه الغارقون في الضلالة والجهل [1] .

وقد بحث العقاد قضية هذه الفتوى وعلق عليها بقوله : « ولم يبح المفتي عادة، واحدة يحرمها الخديوي وحملة الأقلام الذين سخرهم في الحملة الشعواء على فتوى الترنسفال ، فانهم كانوا جميعاً يلبسون القبعات ويأكلون في المطاعم الأوربية وفي بيوت الأجانب ويغشون الولائم الرسمية وغير الرسمية داخل القطر وخارجه . ومن شهد منهم صلوات الجمع فإنما كان يشهدها ومعه مئات من المسلمين من أتباع المذاهب الأربعة .. ولكن الفتوى عمل من أعمال المفتي يجب إحباطه والتشهير به وتنفير الناس منه مهما يكن في ذلك من الضرر بالاسلام والمسلمين . وقد يكون في ذلك اعراض الوطنيين السود عن الاسلام بعد إقبالهم عليه ، وقد يكون فيه تعويق لجهاد المسلمين المهاجرين عن كفاح الحياة في افريقية الجنوبية مع سائر المهاجرين الذين تعفيهم عقائدهم من تلك القيود ، وقد يكون فيه استخفاف المسلم بتكاليف دينه إذ ثقلت عليه في لبسه ومأكله وعبادته مع أبناء ملته ووطنه ، وقد يكون فيه المساس بسمعة الدين بين أهل الحضارة وتمثيله لهم في صورة العقبة المتحجرة التي تأبى على المسلم ان يجتمع على معيشة واحدة مع أبناء الحضارة الأوربية .. وقد يكون فيه كل ذلك ، بل كان فيه كل ذلك لو أفلح كيد المضللين كما أرادوه . ولكن ماذا يعنيهم ذلك كله إذا اشتفت صدورهم من الرجل المغضوب عليه وأفسدوا عليه عمله في خدمة الاسلام والمسلمين أو في خدمة ما يشاء من مقصد عام، ما داموا لا يجدون

١ — محمد عبده ص ٢١٢ — ٢١٣



جامع الأزهر

له مقاصد خاصة يفسدونها عليه ؟ إلى هذا الحضيض أسفّت جماعة الحملة على فتوى الترنسفال ، ولا نظن ان نقل الكثير أو القليل من كلامهم الذي ملأوا به الصحف بضعة أشهر يزيد القارىء علماً بمبلغ ذلك الاسفاف ، فان الاتجاه باسم الدين لمحاربة الدين هو عنوان عملهم الوضيع ، وانه لعنوان يغني عن أسوأ ما كتبوه تحته من كذب فاضح وهزء مرذول » .

لقد كانت الفتاوى العديدة التي أفتى بها تتناول الأمور التي نشأت عن مخالطة المسلمين في مصر لغيرهم ممن يخالفونهم في القومية والدين ، كما تمس أحوال المدنية الحديثة ولا سيما ما نشأ عن الظروف التي جعلت المصريين يخضعون للقانون أكثر من خضوعهم للشريعة ، وكانت فتاواه كلها ، كما يقول تشارلز آدمز ، تتميز بروح من الاستقلال والتحرر من أغلال التقييد ، وتزخر بالرغبة القوية في جعل الاسلام ملائماً لحاجات المدنية الحديثة ، ولكن هذا الاستقلال في الرأي هاج معارضةً مرّة ممن ظلوا يستمسكون بأهداب القديم [١] .

ومن الفتاوى الشهيرة التي أفتى بها أيضاً ، فتواه في مسألة وردت إليه من الهند يسأله صاحبها هل يجوز استعانة المسلمين بالكفار وأهل البدع والأهواء لنصرة الملة وحفظ حوزة الأمة ، وقد أجاب عليها بقوله : « لقد قامت الأدلة من الكتاب والسنة وعمل السلف على جواز الاستعانة بغير المؤمنين وغير الصالحين ، على ما فيه خير ومنفعة للمسلمين ، وان الذين يعمدون إلى هذه الاستعانة لجمع كلمة المسلمين وتربية ايتامهم [٢] ، وما فيه خير لهم ، لم يفعلوا إلا ما اقتضته الأسوة الحسنة بالنبي عليه الصلاة والسلام وأصحابه ، وان من كفـّرهم أو فسّقهم فهو بين أحد أمرين إما كافر أو فاسق ، فعلى دعاة الخير ان يجدّوا في دعوتهم ، وان يمضوا على طريقهم ، ولا يحزنهم شتم الشاتمين ، ولا يغيظهم لوم اللائمين ، فالله كفيل لهم بالنصر ، إذا اعتصموا بالحق والصبر [٣] » .

---

١ — الاسلام والتجديد في مصر ص ٧٦

٢ — يبدو ان السائل يسأل عن التعاون مع بعض الجمعيات الخيرية الاجنبية .

٣ — تاريخ الاستاذ الامام ج ١ ص ٦٦٦

وثمة فتوى أخرى أثارت خصوم محمد عبده ومطاعنهم ، وهي : هل يجوز للمسلم أن يودع أمواله في صندوق التوفير وأن يأخذ عليها فائدة ، وقد أحلّ الامام ذلك وأباحه [1] .

ووجه محمد عبده خلال عمله في الافتاء ، جانباً كبيراً من اهتمامه لإصلاح المحاكم الشرعية . وليس من يجهل أهمية هذه المحاكم في الحياة الاجتماعية بالبلاد الاسلامية . فان الاسرة قوام المجتمع يصلح بصلاحها ويفسد بفسادها ، وقد أنيط حفظها ، وتأمين حقوق أعضائها ، وتوثيق أواصر القربى والمودة بينهم ، بالمحاكم الشرعية التي لها وحدها حق الفصل في هذه الشؤون ، عدا عما لها من نظر في حقوق الميراث ، وأصول الأوقاف والاستحقاق فيها . فكيف بالاسرة وبالمجتمع ، وبالميراث والأوقاف ، إذا فسدت هذه المحاكم فتعطلت فيها الأصول ، وضاعت الحقوق ، واشتبه أمر الشوائع ، وكثر الخطأ في تطبيقها ؟

لقد رأى الامام ذلك ، وعمد إلى التحري عن أسبابه ، عقب تعيينه في منصب الافتاء ، فطاف كثيراً من المحاكم ودرس أعمالها دراسة دقيقة ، وتعرّف أحوال قضاتها من قوة أو ضعف ومن ضبط العمل أو الاهمال فيه ، وعرض ذلك على ما تقرر من أحكام الشرع ، وما وضع لهذه المحاكم من اللوائح ، وخرج بآراء سديدة سجلها في تقرير كبير يتألف من ثلاث وثمانين صفحة ، قدمه إلى ناظر الحقانية وبيّن فيه ان أسباب الفساد في هذه المحاكم إنما ترجع إلى « إهمالها وعدم تعهدها بالمراقبة والتفتيش ، ودخول النظارة (الوزارة) في كثير من الأعمال القضائية التي يرجع فيها القضاة والمتقاضون إليها،وعذر النظارة ان القائمين بأعمال هذه المحاكم متمسكون بعوائد يزعمونها شريعة وما هي منها في شيء ، ويحافظون على رسوم وألفاظ ان اقتضاها حال لم يقتضها حال آخر ، مع ان روح الشرع إنما هو الحق والعدل ، والتزام الصدق في القول والاخلاص في العمل » .

اما شكوى الناس من هذه المحاكم فانها تنحصر في «صعوبة المعاملة مع الكتاب»

---

١ — الاستاذ الامام محمد عبده لعبد المنعم حماده ص ١٧٤

وطول الزمن على القضايا خصوصاً ان كانت مهمة ، وخفاء طرق المرافعات حتى على العارفين بأحكام الشريعة فضلاً عن سائر العامة ، وهوى القاضي أو ضعف يقظته » واما شكوى القضاة فانها « تنحصر في رداءة مقامهم ، والتقتير عليهم في المرتبات وسائر النفقات التي لا بد منها » . وكذلك يشكو النظام « من التساهل في المحافظة عليه » .

وفند الامام هذه النقاط واحدة فواحدة ، فأوجب على الحكومة واجبات نحو القضاة والكتبة كإصلاح أماكنهم ، والتوسيع عليهم في النفقة ، وتأمين استقلالهم في الرأي ، والعناية بتنفيذ أحكامهم . وأوجب على هؤلاء ان يكونوا من المتعلمين في الأزهر ، بعد إصلاح التعليم فيه بإنشاء قسم للتعليم القضائي يتخرج منه القضاة وقسم آخر يتخرج منه الكتاب . وأشار بثلاثة أمور :

١ — توسيع دائرة اختصاص المحاكم الشرعية ، وهو أمر لا مانع للحكومة من تنفيذه إلا تمسك بعض المتنطعين ممن ينتسبون إلى الشرع ويجهلون مقاصده ، بعوائد وألفاظ في المرافعات الشرعية ليست من الشرع في شيء ، وهم بتنطعهم هذا يجعلون الحكم بالشرع متعذراً ، وهي أعظم جناية عليه .

٢ — عدم حصر منصب القضاء الشرعي في الحنفيين ، لأن فقه المذاهب الأربعة متقارب ، والاختلاف في الفروع مذكور في أغلب كتب الفريقين ، فيمكن لمن برع في فقه الشافعية مثلاً ان يفهم فقه الحنفية بسهولة .

٣ — ان تؤلف لجنة من العلماء لوضع كتاب في أحكام المعاملات الشرعيـة ينطبق على مصالح الناس في هذا العصر ، يكون سهل العبارة لا خلاف فيه كما عملت الدولة العثمانية في مجلة الأحكام العدلية . « ولا يكون هذا الكتاب وافياً بالغرض واقياً للمصالح إلا إذا أخذت الأحكام من جميع المذاهب الاسلاميـة المعتبرة ، ليكون اختلافهم رحمة للأمة » .

ولكن هذا التقرير ، وما تضمنه من دعوة إلى تنظيم المحاكم الشرعية ، وإصلاحها وتوضيح أحكامها ، لم يلاقيا غير الاحتجاج الصارخ والشغب الصاخب في أوساط الشيوخ والقضاة ، والادعاء بأن ما يريده محمد عبده غير جائز شرعاً ، لأنهم لا يرضون

باتباع غير ما اتبعه آباؤهم .

وقد انتهت الفتنة التي أثارها التقرير ، بسكوت الحكومة عن المشروع الذي أعدته لإصلاح المحاكم الشرعية بموجبه . وقال الشيخ محمد رشيد رضا تعليقاً على معارضة الشيوخ في ذلك الاصلاح : « تكاد حماية الدين والمحافظة على الشريعة عند هؤلاء تذهب برسومها كما ذهبت بروحها ، فان السماء والأرض تستغيثان من حال المحاكم الشرعية ، وتلجأان إلى الحكومة طلباً لإصلاحها ، ولكن الشيوخ عقبة في طريق كل إصلاح ، وحجتهم الوهميـــة المحافظة على الدين الذي لا يعرفه سواهم ، وقوتهم غرور العامة بهم وتصديق دعاويهم ، والحكومات تحترم دائماً عقائد العامة وعاداتها وتقاليدها حقاً كانت أو باطلة ، لئلا تهيج عليها الرأي العام .. » ثم قال : « وهذه بعض آثار التقليد الأعمى للميتين والجمود على العادات الموروثة ، وليس كل علماء الأزهر على هذا الجمود ، بل السواد والدهماء منهم ، وإنما العامة مع الأكثرين حتى يظهر خطأهم الذي لا يعلو حكمه حكمُ انسان .. »

إصلاح الأزهر

كان محمد عبده لا يفتأ يندب جمود العلماء والفقهاء ويندد بطريقة التعليم في الأزهر والأموي والزيتونة وجامع القرويين ، فهي كلها في رأيه طريقة واحدة عقيمة ، قد ابتلي بها العالم الاسلامي في جميع أقطاره ، تشغل الطلاب في وجوه الاحتمالات وتأويل العبارات التي تضيع أوقاتهم فيما لا فائدة فيه .

ويروي الأمير شكيب ارسلان انه لما زاره في مصر سنة ١٨٩٠ (١٣٠٨ هـ) أوصى رفيقه الشيخ عبد الكريم سليمان بالذهاب معه إلى كبار مشايخ الأزهر، فلما زارا الشيخ الانبابي وجدا عنده عالماً يدعى الشيخ الظواهري . فلما ذكر الشيخ عبد الكريم اسم الأمير شكيب وقال انه من جبل لبنان ، قال الشيخ الظواهري :

— وأين جبل لبنان هذا ؟ أفي الغرب ؟

قال الأمير شكيب : « فكدت أصعق من الدهشة لجهل هذا الشيخ ، إلى هذا الحد ، معرفة البلدان .

ولما رجعنا إلى البيت أخبرنا الاستاذ محمد عبده بما وقع ، فقال لنا :

— نعم ، وهذا الشيخ الظواهري الذي يجهل أين جبل لبنان هو من علماء الطبقة الأولى » .

وعاق الأمير على ذلك بقوله : « وهذا وأشباهه كان من أسباب نعي الشيخ

محمد عبده على جمود العلماء الأزهريين ، ونفورهم من العلوم العصرية ، وحصرهم جميع قواهم العقلية في دروس معلومة يجهلون كل شيء سواها ، حتى أصبحوا كأنهم ليسوا من أهل العصر ، بل ليسوا من أهل هذه الدنيا [١] » .

وقد رأى الامام ما للأزهر الذي يضم عدة آلاف من الطلاب يتوافدون إليه من جميع البلاد الاسلامية ، ثم يعودون إلى بلادهم ليقوموا فيها ، بما اكتسبوه من صفة دينية ، بمهمة الوعظ والارشاد ، من أثر في تكوين العقلية الاسلامية ، واعتقد بأن صلاح أهل الأزهر صلاح للبلاد وأهلها ، « فإنا لا نسمع إلا مقالهم ، ولا نرمق إلا أحوالهم ، بل لا نسمع إلا بآذانهم ، ولا نبصر إلا بأبصارهم ، ولا نـــذوق إلا بذائقتهم ، ولا نتكلم إلا بألسنتهم » . فوجه أعظم همه إلى إصلاح هذا المعهد الكبير ، بحيث يخرج للعالم الاسلامي قوماً متنورين ينبثون في جميع أنحائه فيحملون مثل رسالته ويقومون بمثل دعوته ، لا سيما وان التعليم المدني الذي كان عهدذاك محدود الأفق ضيق المدى ، قد رجع القهقرى بعد الاحتلال الانكليزي سنـــة ١٨٨٢ (١٣٠٠ هـ) ، إذ اقتصد الانكليز في نفقات التعليم بحجة إنقاذ مالية البلاد ، فألغوا معظم المدارس الخاصة ، وأوقفوا إنشاء المدارس الابتدائيـــة ، وأبطلوا المجانية في التعليم ، فازداد إقبال الطلبة على المدارس الدينية ، كما كان أكثر معلمي المدارس المدنية من متخرجي الأزهر .

وكان يرى ان دون ذلك الاصلاح عقبات من غفلة المشايخ ، ورسوخ التقاليد البالية فيهم ، ومحاربتهم كل جديد وان كان فيه الصلاح ، وتمسكهم بكل قديم وإن كان فيه الفساد والخلل ، ونقمتهم عليه دعوته التي تسيء إليهم ، وتسفه آراءهم ، وتنتقص من مكانتهم ، وتهددهم في أرزاقهم ، وتنعتهم بالجهـــل والعجز عن مسايرة الزمن ، ومتابعة النهضة ، وما يتطلبانه من حرية في الرأي وتطور في التفكير .

وقد حاول مرة إقناع محمد الانبابي شيخ الأزهر يومذاك ، بتدريس « مقدمة ابن خلدون » في الأزهر ، ووصف له حسناتها وعدد فوائدها ، فرفض الشيخ ذلك

---

١ — تاريخ الاستاذ الامام ج ١ ص ٤١١ — ٤١٢

وكانت كل حجته : « ان العادة لم تجر بذلك ! »

غير ان الصعوبات التي لقيها لم تكن لتصرفه عن غرضه ، حتى لقد اعتزم إما أخفق تماماً في مسعاه ، ان يؤلف كتاباً في بيان حقيقة الأزهر ، يمثل فيه أخلاق أهله ، وعقولهم ، ومبلغ علمهم ، وتأثيرهم في الوجود ، وينشره باللغة العربية وبإحدى اللغات الأجنبية حتى يعرف المسلمون وغيرهم ما هي عليه هذه الكلية العظيمة من ضعف وتأخر .

والحق ، ان أهمية مساعي محمد عبده في هذا السبيل ، لا تبدو قيمتها إلا لمن يعرف حقيقة الحال التي كان الأزهر والأزهريون عليها من الفوضى ، ثم يذكر ما لهذه المؤسسة العلمية وما لرجالها من تأثير عظيم في جمهور المصريين وعامة المسلمين . لأنهم في نظرهم المرجع الأسمى لتفسير أحكام الشريعة ، والمثل الأعلى للعلم والتقى والفضيلة والبصر بالأمور .

وان أهمية هذه المساعي لتبدو بصورة أجلى وأوضح ، إذا علمنا أن كل إصلاح حاول إدخاله على الأزهر كان يلاقي من أهله مقاومة وانتقاداً واتهاماً بالكفر والعمل على إفساد الخلق وزعزعة العقيدة ، لأن كل جديد في رأيهم بدعة ، وليس أحسن عندهم من إبقاء القديم على قدمه . فإقرار النظام محل الفوضى يذهب بروحانية الجامع ، واستبدال الحنفيات بحوض الوضوء يزيل بركته ، وإنشاء الصيدلية فيه لمعالجة المرضى بالعقاقير الأوربية خروج على ما عرف به السلف الصالح من التسليم لقدر الله ، والاهتمام بالنظافة تفرنج وتخنث يبعدان بالطلاب عن روح الرجولة والفضيلة .. بل ان احتذاء الامام النعال الاوربية وتطويل شعر رأسه كانا موضع انتقاد منهم واتهام شديدين [1] .

اما إصلاح مناهج التعليم وإدخال العلوم الحديثة ، فيكفي أن تسمع هذا الحوار

---

١ — راجع : تاريخ الاستاذ الامام ، الجزء الاول ص ٤٨٧ — ٥٥٤ ومحمد عبده لمصطفى عبد الرازق ص ٣٤ — ٤٥ والاستاذ الامام محمد عبده لعبد المنعم حماده ص ١٥٥ — ١٥٨ ، ومحمد عبده لعثمان امين ص ١١١ — ١١٤ ، وفيض الخاطر لأحمد امين الجزء السابع ص ١٦١ — ١٦٦ و ٢٩١ — ٢٠٠

الذي دار بشأنه بين محمد عبده والشيخ محمد البحيري أحد كبار العلماء وعضو مجلس الادارة ، لتعلم أي عنت جابهه في سبيله ، وترى الفارق الكبير بين عقليته وعقلية ذلك الجيل ... فقد قال البحيري أثناء مناقشة المجلس الذي سعى الامام لإنشائه كما سنرى بعد قليل ، في المنهاج الذي سيقدم للطلاب :

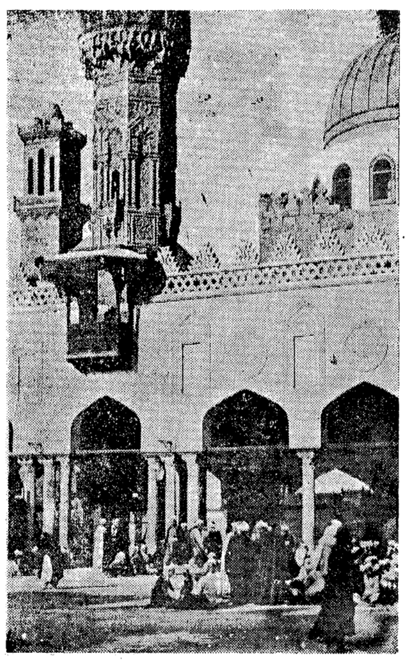
— إننا نعلمهم كما تعلمنا !

فقال محمد عبده : وهذا الذي أخاف منه !

قال البحيري : ألم تتعلم أنت في الأزهر وقد بلغت ما بلغت من مراقي العلم وصرت فيه العلم الفرد ؟

فقال محمد عبده: ان كان لي حظ من العلم الصحيح الذي تذكر ، فانني لم أحصله إلا بعد ان مكثت عشر سنين أكنس من دماغي ما علق فيه من وساخة الأزهر وهو إلى الآن لم يبلغ ما أريد له من النظافة !

وإليـــك وصف الامام للأزهر في تقرير كتبه عن التعليم في مصر : « الجامع الأزهر مدرسة دينية عامة يأتي إليها الناس إما رغبة في تعلم علوم الدين رجاء ثواب الآخرة ، وإما طمعاً في بعض الامتيازات لطلاب العلم فيه . ولا يزال بعضها إلى اليوم . ولكن مما يؤسف عليه انه لا نظام لها في دروسها ، ولا يسأل فيها التلميذ أيام الطلب عن شيء من أعماله ، ولا يبالي أستاذه حضر عنده في الدرس أم غاب ، فهم أم لم يفهم ، صلحت أخلاقه أم فسدت . ويمر عليه الزمان الطويل لا يسمع فيه نصيحة من أستاذه تعود عليه بالصلاح في دنياه أو دينه ، وإنما يسمع منه ما يملأ القلب بغضاً لكل من لم يكن على شاكلته في الاعتقاد حتى من بني ملته، ويطبق على الذهن غفلته ، ويستفزه الطيش لتصديق كل ما يسمع ، إذا كان موافقاً لمبـــدأ التعصب الجاهلي ، فأغلب الأوقات تمر على أهل الجد منهم في فهم مباحثات لبعض المتأخرين لا فائدة فيها . ولا يتعلمون من الدين إلا بعض المسائل الفقهية وطرفاً من العقائد ، على نهج يبعد عن حقيقته أكثر مما يقرب منها . وجل معلوماتهم تلك الزوائد التي عرضت على الدين ويُخشى ضررها ولا يرجى نفعها . ثم ان المعروفين بالعلماء ، وهم الذين يتممون دروسهم في هذه المدرسة ، ويؤذن لهم بالتدريس فيهـــا ، هم قدوة



الفناء الداخلي لجامع الأزهر

الناس وائمتهم، مع انهم أقرب إلى التأثر بالأوهام والانقياد إلى الوساوس من العامة، وأسرع إلى مشايعتها منهم ، وذلك بما ينشأون عليه من التعليم الرديء والتربية المتخلفة التي لا ترجع إلى أصل صحيح . »

وقد وصف الاستاذ أحمد أمين في كتابه « فيض الخاطر » وضع الأزهر وحياة الطلاب فيه ، وصفاً شائقاً مسهباً ، يرسم لمن يشاء التوسع في هذا الموضوع صورة دقيقة لهذه الجامعة الكبرى ، وينقله إلى الجو الذي عاش فيه محمد عبده تلميذاً ومدرساً ومصلحاً ، وقد ختمه بقوله : « ومثل هذه البيئة تنتج عقولاً جامدة ونفوساً خامدة إلا أن يتدارك كما الله بمدد من الخارج ، وقد ذكر الشيخ محمد عبده نفسه انه حاول ان يغسل أثر هذه البيئة فنجح في بعض وفشل في بعض . فان رأيت نابغة خرج منها فبرغمها لا بفضلها[1] » .

ولعل هذا المعنى بالذات هو الذي قصد إليه الاستاذ مصطفى عبد الرازق إذ قال : « .. ولست تجد في شخص الشيخ محمد عبده ولا في آثاره العلمية والأخلاقية، أثر شيوخه الأزهريين[2] » .

هذه الكلية التي تحولت إلى تكية « حتى ادعى العلم فيها من ليس من أهله ، وتظاهر بطلبه كل فار من خدمة الجند ، فشوهد فيها تلاميذ يربو سنهم على الستين ، وعلماء لا يعرفون من العلم إلا أسماء العلوم[3]» . وحتى قال الشيخ أبو العيون انه شاهد كثيراً من الطلبة الذين لبثوا فيها خمسين سنة، وستين سنة ، وأكثر من ذلك، وهم يطلبون العلم[4] ، هي التي حلم محمد عبده بإصلاحها ، وقضى عمره كله ساعياً لهذا الاصلاح ، ورجاء جعلها مدرسة حقيقية تؤدي وظيفتها كما ينبغي لها ، فتخرج للبلاد قضاة عادلين ، ومعلمين ماهرين ، ووعاظاً هادين ، ومواطنين واعين منورين ، يكافحون الخرافات التي عمت البلاد باسم الدين ، ويأخذون بوطنهم إلى معارج

---

١ – فيض الخاطر ، ج ٧ ص ١٦٠ – ١٦٤
٢ – محمد عبده ، لمصطفى عبد الرازق ، ص ٤٤
٣ – المرجع السابق ، ص ٤٣
٤ – الكتاب الذهبي ، منشورات الهلال ، ص ٥٣

العمران والرقي .

ولم يتح للأستاذ الامام ان يخطو خطوة فعالة نحو تحقيق هذا الحلم ، إلا بعد وفاة الخديوي توفيق باشا وجلوس عباس باشا حلمي على كرسي الخديوية ، فقد تجددت بصعود هذا الأمير الشاب آمال البلاد في مقاومة الاحتلال ، لما بدا منه أول عهده من التبرم بالتدخل الأجنبي في شؤون الدولة . فطفق محمد عبده يسعى لإقناعه بالعمل على إصلاح الأزهر والأوقاف والمحاكم الشرعية ، قائلاً له : « ان لدى أفندينا هذه المصالح الثلاث العظيمة ، فيمكنه ان يصلح الأمة كلها بإصلاحها ، وقد تركها الانكليز له لأنها دينية ، فهم لا ينازعونه فيها الآن ، ولا يؤمن تدخلهم في شأنها إذا طال العهد وساعدت الفرص ، فيجب المبادرة إلى هذا الاصلاح » .

وقد توصل بعد نضال شديد إلى إقناع الأمير وحمل الحكومة على إنشاء قانون تمهيدي للاصلاح يقوم بتنفيذه مجلس منتخب من أكابر العلماء في الأزهر ، ويضم عضوين منتدبين عن الحكومة هما الشيخ محمد عبده وصديقه الشيخ عبد الكريم سلمان لا رأي لشيخ الأزهر ولا للمجلس في انتخابها أو في استبدال غيرهما بها .

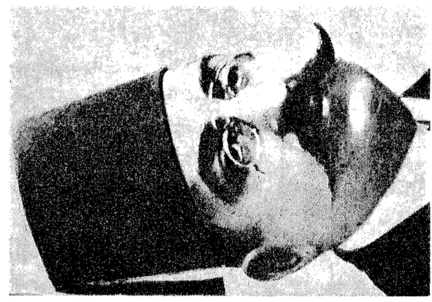
وكان محمد عبده يحب ان يجري الاصلاح في الأزهر بإقناع كبار مشايخه ورضى أهله ، لأنه يخشى أن تؤدي مقاومتهم المشروع إلى إخفاقه ، فبدأ باستمالتهم بزيادة رواتبهم ، « لأن من عادتهم ، كما يقول الشيخ محمد رشيد رضا ، الاهتمام بالماديات قبل كل شيء » ، وذلك بالسعي لدى الحكومة لتعيين مبلغ من خزينتها لمساعدة الأزهر ، فأجيب طلبه وعين للأزهر في ميزانية سنة ١٨٩٥ (١٣١٣ هـ) مبلغ كبير من المال على أن ينفق بنظام معلوم ، مع الوعد بزيادة هذا المبلغ في فرصة أخرى إذا عاد بفائدة جدية ، فكان ذلك حجة له على وجوب وضع قانون لمرتبات العلماء وأولادهم الشهرية والعائدات السنوية الموقوفة لهم ، ليكون لكل عالم حق معلوم يتناوله في وقته من غير سعي ولا زلفى ، لأن الرأي فيها كان لشيخ الجامع وحده يعطي من يشاء ويمنع من يشاء .

ثم وجه عنايته في مجلس الادارة إلى نظام التدريس والامتحان وبيان وسائل العلوم ومقاصدها ، وجعل التدريس فيها على طريقة توصل إلى الغاية منها .

وقصة الامتحان وأهميته يرويها لنا الشيخ عبد الكريم سلمان بقوله: « .. ما من شيخ من الذين تولوا مشيخة الأزهر ، زاد في عدد من يمتحنون في كل عام على ستة نفر ، وفي بعض السنين كانوا لا يتجاوزون أربعة ، والذين كان يساعدهم الحظ ويؤخذون للامتحان كانوا لا يصلون إلا بعناية الراجين وإلحاح الملحين ، ولم يكن للدور ولا للأقدمية ولا للذكاء ولا للشهرة بالتحصيل مدخل في نيل الحق ، بل السلطان القوي هو شفاعة أولئك الشفعاء الذين لا يشفعون إلا للغني وإن كان غبياً ، ويضيعون حق الفقير وإن كان ذكياً . وبذلك تراكمت في قلم كتاب الأزهر عرائض الامتحان حتى صارت لا يُدرى أولها من آخرها ولا عاجلها من آجلها . ويئس مقدموها من إجابتهم ففترت عزائمهم عن التحصيل وانقطع معظمهم عن المجيء إلى الأزهر إلا في القليل من السنة الدراسية ، وتعدى هذا اليأس إلى من يليهم في الزمن . فجفت آمالهم ، وعلموا ان الدور إن وصل إليهم فإنما يصل بعد الهرم .. »

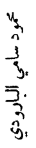
ولجأ محمد عبده إلى الأمير مرة أخرى من أجل تحقيق هذه المطالب ، فأمر ديوان الأوقاف بصرف عدة ألوف من الجنيهات للأزهر بُينت وجوه نفقاتها ، وخصص قسم منها لتنظيم دار الكتب الأزهرية ، ذلك أن الأزهر كانت له خزائن كتب وضع بعضها في الأروقة والحارات وبعضها في المساجد القريبة منه ، ونيط حفظها بأشخاص يقال لهم المغيرون ، « فشتتوا جمعها ، ومزقوا جلودها وأوراقها ، وتركوا ما لا عناية لهم به في التراب . وهذا غير ما تصرفوا فيه تصرف الملاك . وصار بأيدي باعة الكتب يباع على نفاسته بالثمن البخس » . فعين لها مجلس الادارة بوحي محمد عبده ، موظفين لجمعها وترتيبها ، ورصد المال لتكميلها وتجليدها وشراء كتب جديدة تضاف إليها . وقد قضى الموظفون في هذا العمل وقتاً طويلاً حتى جعلوا من تلك الأوراق المشتتة مكتبة ثمينة .

يقول الشيخ عبد الكريم سلمان : « وإني لأعرف كتباً كثيرة مما تجده الآن كاملاً ، كان الكتاب الواحد منها بعضه في خزانة فلان وبعضه الآخر في خزانة فلان وباقيه في خزانة فلان، ولم تجتمع أجزاؤه بعضها على بعض إلا بطريق المصادفة الحسنة . وأعرف كذلك ان بعض الكتب النفيسة النادرة الوجود وجد في دشت



محمد فريد





محمود سامي البارودي

كان في خزائن الجامع العيني ، ولم يعبأ به أحد ممن تولوا تغييرها للطلاب ، ولم يعن بفرز الدشت لتوجد تلك النفائس بين أوراقه إلا بعد ان صدر أمر أحد مشايخ الجامع بإحراقه ، وتدارك الأمر من يعرف قيمة العلم ولا يبالي بالتعب في المحافظة عليه . وقد رأيت بعيني كثيراً من المصاحف الشريفة وهي بين الأتربة مع انها أجود المصاحف خطاً وورقاً .. الخ » .

ونظر محمد عبده إلى الحالة الصحية في الأزهر فوجدها على اسوأ ما تكون. وقد وصف الشيخ عبد الكريم سلمان هذه الحالة في كتابه « أعمال مجلس إدارة الأزهر، من ابتداء سنة ١٣١٢ إلى غاية سنة ١٣٢٢ » فقال: « كانت أمكنة الجامع الأزهر من صحنه ، إلى مقاصيره ، إلى أروقته ، إلى مغاطسه وميضآته. وكنفه ، مجتمع أوساخ ، ومهب روائح عفنة ، ومنبع وخامة ، وبؤرة أمراض معدية ، فإذا دخل الداخل إلى الصحن وجد فيه بقايا الكراث والفجل وقشور البصل وفضلات الخبز العفنة وجلود الفسيخ وقمامات الكنس أكواماً ، وإلى جوانبها ما يراق من مياه الشرب المأخوذة من الصهاريج ، وما تحمله النعال من وحل الطريق ، حيث يتأبط المجاور مداسه بلا نفض ولا تنظيف ، وبين هذا وذاك كثير من البصاق والنخامة والنخاعة . ثم إذا ذهب إلى جهة الميضأة وجد حواليها أمثال ذلك ، ورأى قطع الخبز المبلول تعوم في مائها وهي تتدفق بما يسيل من أفواه المتوضئين وأنوفهم ساعة الوضوء ، وربما وجد على جوانبها بعض الفضلات . وإذا قصد المغاطس وجد عليها طبقة كالدهن من الادران ، وشم فيها ما لا تحتمله الأنوف والأبدان » .

وبعد ان يصف الحارات وغرف السكنى والأروقة المتعددة ولا سيما رواق الصعايدة ورواق الشوام ورواق المغاربة ورواق البرابرة ، بما لا يقل عن ذلك ، يقول : « هذا حال المكان ، واما حال السكان فقد كانوا لا يخلصون من الأمراض المعدية وأعمها الجرب والرمد الصديدي ، وفيهم المسلول والمجذوم والمصاب بالزهري وان كان هؤلاء قليلين ، وأهم ما كانوا يستعملونه للجرب هو كبريت العامود ، ولا تسل عن الدرس إذا كان بين طلبته جربان قد طلي بالكبريت والقطران ، فقد يختلط هذا بسواه ويزدحمون ، ويا لله والله أكبر إذا كان الفصل فصل القيظ ، فهناك

تنتشر الروائح الكريهة ، وتسري العدوى إلى معظم المجاورين ... »

نظر الشيخ محمد عبده إلى هذا فأنكره ، وحمل مجلس الادارة على تعيين طبيب للأزهر ، وإنشاء صيدلية خاصة به في الجامع نفسه ، واستبدال الأنابيب المعروفة بالحنفيات بالميضأة ، وبالمغاطس الحمامات ، وتوسيع الغرف ، وإقامة المطابخ في الأروقة بعيداً عن غرف السكنى ، وإقفال الصهاريج لتحل محلها المياه النظيفة من من مياه الشركة .

على ان الشيء الأساسي الذي سعى الامـــام لإصلاحه في الأزهر هو أصول التعليم ، وطرق الانتفاع بالعلم ، والعلوم الحديثة والأساليب الجديدة التي حاول إدخالها عليه، وما أراد ان يضعه للطلاب والمدرسين من واجبات ينبغي لهم التزامها، وآداب يجب عليهم التقيد بها ، فحتم على الطالب المواظبة على الدروس ، وان لا يشتغل أثناء الدرس بغيره ، ولا يكلم فيه أستاذه ، وان تكون سيرته الشخصية ملائمة لشرف العلم والدين .. الخ ، وحتم على الأستاذ ان يكون القدوة الحسنة للطلبة في حسن الأخلاق « وان يجتنب تلك العادة القبيحة : عادة سب الطلبـــة وشتمهم الشتم القبيح بسب الآباء والأمهات ، وضربهم بالعصي والنعال [1] » وان يحضّر درسه ويراجعه قبل إلقائه ، متجنباً الاحتمالات البعيـدة ، والاعتراضات ، وخلط مسائل علم بمسائل علم آخر ... الخ . وهي أمور يطول شرحها إذا أردنا الوقوف عند كل منها . وعلى من يشاء التوسع قراءة أحاديث الشيخ عبد الكريم سلمان في كتابه السابق الذكر عما كان عليه « العلماء » الأزهريون من جهل وتأخر، ليعرف أهمية المطلب الذي كان ينشده محمد عبده ويناضل في سبيله بإلحاح عظيم .

ولكن مساعي محمد عبده ما لبثت ان أوقفت في منتصف الطريق ، بل في أول الطريق ، لما لاقت من مقاومة عنيفة شديدة ، ولما اتهم به صاحبها من إلحاد وعمل على الافساد . وما كادت تضعف صلاته بالخديوي عباس حلمي ، حتى اشتد ساعد خصومه من شيوخ الأزهر ورؤسائه البارزين ، فأخذوا يعارضونه معارضة صريحة ،

---

١ - تاريخ الاستاذ الامام ج ١ ص ٤٥٧

ويمتنعون عن تنفيذ قرارات مجلس الادارة ، وهو يناضل في سبيلها جاهداً صابراً ..

ثم تعاظم غضب الخديوي على الامام ، وأخذ يقرب منه شيوخاً يدعون انهم يجمعون له الجن ويطلعونه على أعمالهم ، وكان يشكو من مسلك محمد عبده في حضرته ويقول :

— انه يدخل عليّ كأنه فرعون !

ويستمع محمد عبده إلى هذه الشكوى فلا يزيد على أن يقول :

— وأينا فرعون ؟!

وكان أهم ما أحفظ الخديوي على محمد عبده ، توهمه ان الشيخ يريد ان يجعل من الأزهر آلة سياسية في يده ، ومنع الشيخ له من الاستيلاء على أموال الأوقاف كما فعل في قضية المزرعة الخديوية التي روينا قصتها ، وحملة جريدة « المنار » عليه لما عرف عن صاحبها من صحبة الامام والدعوة لآرائه ... فأخذ يشجع « العلماء » الرجعيين والشيوخ الخرافيين على مقاومة إصلاح الأزهر وإضافة ما يسمى بالعلوم الحديثة إلى منهاجه ، فتبارت أقلام الكتاب منهم في الجرائد ، في الشكوى من هذه العلوم والخوف منها على الدين القويم لأن « الخدمة التي قام بها الأزهر للدين ولا يزال يؤديها له ، هي حفظ الدين لا غير ، وما سوى ذلك من أمور الدنيا وعلوم العصر فلا علاقة للأزهر به ولا ينبغي له[1] » ، وقد حوله الاصلاح إلى « مدرسة فلسفة وآداب تحارب الدين وتطفيء نوره في هذا البلد وغيره من البلاد الاسلامية التي تبعث إليه بالطلبة المستفيدين ، ويبعث إليها بالعلماء المرشدين . »

وما علم هؤلاء ان ما ذهبوا إليه في مقاومة العلم والثقافة وحرية الرأي ، هو عكس ما يقوله الاسلام بنفسه ، وخلاف ما انتهجه المسلمون أيام حضارتهم ، وانهم إنما يصمون شريعتهم بأسوأ ما توصم به الشرائع ، إذ يزعمون انها عدوة للرقي والمدنية ، لا تجتمع وإياها على صعيد واحد . ناهيك بما يدل عليه مسلكهم هذا ، من جهل مطبق أو تجاهل مجرم ، بأن الغرب لم يتقدم ويسُدْ إلا بما عرف من فنون

---

١ — محمد عبده للعقاد ص ١٩٠

العلم وثقف من أسباب الحضارة ، وبأن الشرق لم يبق متسكعاً في دياجير الاستعباد والانحطاط إلا لما يتصف به أهله من انحلال وتواكل ، ولأنهم إنما يستجلبون فنونهم وصنائعهم من الغرب ، ولا يتخذون من ذلك شيئاً بأنفسهم وأيديهم ، فهم يقبلون استعباد الغربي لهم وتحكمه في شؤونهم ولا يقبلون علومه وفنونه ليصعدوا إلى مستواه ويحاربوه بسلاحه !..

وسئل الشيخ عبد الرحمن الشربيني الذي كان مرشحاً لرئاسة الأزهر وقد تولاها بعد هذا التصريح ، عن رأيه في الاصلاح ، فأنكر طرق التعليم الجديدة ومناهجه الحديثة لأنها تلقن الشك حيث يجب التسليم .. وقال « اني أسمع منذ سنوات بشيء يسمونه حركة في الأزهر ، أو إصلاح الأزهر ، ولكنني لم أرَ لهذه الحركة وهذا الاصلاح حتى الآن من نتيجة تذكر سوى انتشار الفوضى في ربوعه، وذهاب ما كان من مودة ورحمة ومهابة بين الطلبة وبين مشايخهم الأجلاء ، وجليل خدمتهم له ، وما يحملون من شريف شرع الله — عزضة للسخرية من بعض الطلبة المخدوعين الذين سمعوا بسبنسر وفلسفته فهرفوا بما لم يعرفوا ، واشتغلوا بما يلهيهم من هذا وأمثاله عما وجدوا في الأزهر من أجله ، وهو طلب علوم الدين لا غير ... حتى ان من العلماء من ينزل وهو في موقف الخدمة للعلم الشريف إلى دلالة الطلبة على جريدة فلان ليقرأوها أو مجلة فلان ليتصفحوها ، ومثل هذا في تاريخ الأزهر من قبل ما سمعت ولا رأيت [1] ... »

وكان أولئك الناقمون يتوجهون دائماً بالخطاب إلى الخديوي المعظم ، ليشمل المدارس الدينية بعنايته « ويقطع منها جراثيم الفساد والانحطاط ! » وما لبثوا ان حملوا السيد علي البيلاوي شيخ الجامع يومذاك على الاستقالة ، بشغبهم وتهجمهم ، وأقنعوا عبد الرحمن الشربيني بأن مهمة إزالة الفساد الذي يسمى بالاصلاح قد انحصرت في شخصه ، ثم صدر أمر الخديوي بتعيينه خلفاً للبيلاوي ، وخطب الأمير

---

١ – يعرض الشربيني بالامام محمد عبده الذي كان يتحدث عن فلسفة سبنسر وينصح بقراءة المقتطف والهلال والمنار .

في حفلة الانعام عليه بالخلعة فعرّض بالاصلاح والمصلحين وغمز من الشيخ محمد عبده والشيخ محمد رشيد رضا دون ان يسميها ، ومما جاء في خطابه قوله : « ان الجامع الأزهر قد أسس وشيد على أن يكون مدرسة دينية تنشر علوم الدين الحنيف في مصر وجميع الأقطار الاسلامية .. وأول شيء أطلبه أنا وحكومتي أن يكون الهدوء سائداً في الأزهر الشريف ، والشغب بعيداً عنه ، فلا يشتغل علماؤه وطلبته إلا بتلقي العلوم الدينية النافعة البعيدة عن زيغ العقائد وشغب الأفكار . لأنه هو مدرسة دينية قبل كل شيء[1] » .

وعلى اثر ذلك لم يجد محمد عبده وزميله الشيخ عبدالكريم سلمان بداً من الاستقالة من عضوية مجلس إدارة الأزهر ، ولكن الامام ظل يواصل دروسه في الجامع على الرغم مما يلاقي من مقاومة شديدة .

وقد كان لاستقالة محمد عبده من مجلس إدارة الأزهر صدى أسف واستنكار عظيمين في جميع الأقطار الاسلامية ، لاعتقاد المنورين في كل مكان ، بأنه قد تألق به في الاسلام مصباح منير خليق بأن تستوقد منه ألوف المصابيح ، فهو في نظرهم أكبر زعيم للاصلاح في عصره ، وأقوى العاملين على تحرير الاسلام من التقاليد الجامدة والخرافات الباطلة ، والسير بأهله إلى المستوى اللائق بهم بين الأمم الراقية الحية .

وقال الكثيرون من هؤلاء ان حركة الاصلاح قد قضي عليها ، وان هذه المدرسة العظيمة ستبقى على تقاليدها القديمة وطرقها العقيمة وأوضاعها البالية ، وعلى ما هي فيه من تأخر وجمود .

وعظم الصراع بين الخديوي وأنصاره من الشيوخ الرجعيين ومحمد عبده ومريديه الأحرار القلائل ، فما وجدوا فرصة للطعن فيه وفيهم إلا أمطروهم بالتهم الجزاف والظنون الكواذب . حتى انهم لم يتورعوا عن نشر صورة مزورة للامام في جريدة « الحمارة » الهزلية تصوره وهو يرقص مع سيدة أجنبية وكلبها يجر طرف جبته من

---

١ – محمد عبده للعقاد ص ١٩٠

الخلف . ولكن زيفها ثبت بوضوح ، وتقدم أحد المصورين إلى المحكمة ، وأظهر عملياً كيف تم التزييف ، وكان تعليق المثقفين الواعين على تهويل الخصوم بهـــذا الموضوع : « ان الحمارة قد ضحكت على الحمير ! »

ويقول اللقاني في قصيدة له في قصة هذه الصورة :

مكيدة لفقوها	بصورة مستعاره
ودبروها وكانوا	بقبة[1] الاستشاره
ولطخوا بعد هذا	بالطين وجه الحماره

وكان آخر محاولاتهم الرخيصة في هذا الشأن ، ما قاموا به من ضجة مصطنعة حول الفتوى الترنسفالية التي روينا خبرها في الفصل السابق .

وكان الأستاذ الامام قد سعى ، إلى جانب كفاحه في سبيـــل الأزهر ، إلى إصلاح المساجد ، مستغلاً من أجل ذلك منصبه في الافتاء وفي إدارة الأوقاف ، إذ « كان ائمة المساجد وخطباؤها أحقر الموظفين في مصر وغيرها ، لأن أكثرهم من العوام الخرافيين ، وأفقرهم بقلة رواتبهم ، إلا من له مال موروث كأرث الامامة والخطابة ، فما القول في سائر خدَمة بيوت الله من مؤذنين وملاحظين ومرتلين[2] » !

لقد أراد ان ينشيء للمساجد إدارة خاصة في مصلحة الأوقاف ، وان يكون خطباؤها وائمتها من العلماء المرشدين ، وان تقام بها الدروس والمواعظ النافعـــة لتكون وسيلة للارشاد العام في القطر كله ، ومدارس للأميين الذين يؤلفون السواد الأعظم من الأمة والذين « استحوذ عليهم الجهل ، وأفسدت الخرافات عليهم فطرتهم وصحتهم ولا يبالي بهم أحد ، وخطبة الجمعة التي شرعت لتكون درساً عاماً في كل أسبوع لجميع المسلمين بما فرض عليهم من صلاة الجمعة وسماع خطبتها — إذا لم تزدهم جهلاً وفساداً — فانها لا تـُصلح من فسادهم شيئاً ، فان أكثرها في فضائل الشهور

---

١ – يعني بالقبة قصر الخديوى المعروف .

٢ – تاريخ الاستاذ الامام ، ج ١ ص ٦٣٠ - ٦٣٥

والمواسم ، والاغراء بالكسل والتواكل ، والاعتماد على مكفرات الذنوب المجرئة على المعاصي ، وأكثر ما يذكر فيها من الأحاديث النبويـــة من الموضوعات أو الواهيات .. [1] »

وكان من البديهي أن الرجعيين الجامـــدين الذين عارضوا في إصلاح المحاكم الشرعية ، وقاوموه في إصلاح الأزهر ، سيحاربون إصلاح المساجـد أيضاً ، إبقاء للقديم على قدمه ، وحماية لما يزعمون انه الدين والدين براء منه ، فارجئت اللائحة التي قدمها بذلك إلى مجلس الأوقاف ، من أسبوع إلى أسبوع ، ومن شهر إلى آخر ، وخاضت الصحف في هذه القضية بين مؤيد ومستنكر ، وكتب الشيخ محمد رشيد رضا في جريدة « المنار » : « .. لا يجهل أحد أن أكثر الائمة في هذا العهـد من الجهال حتى بأحكام الطهارة والصلاة ، وأكثر الخطباء يغلطون على المنبر حتى بآيات القرآن ، ويأتون في وعظهم بما يتبرأ الدين منه من الغش والكذب على رسوله ودينه بسرد الأحاديث الموضوعة والخرافات المصنوعة . أليس من العجائب أن يوجد في المسلمين من يحافظ على هذه المنكرات ويطلب بقاءها وعدم إزالتها باسم الدين ، وهو يُعدّ مع هذا من علماء المسلمين ؟ [2] » .

وكان الخديوي وقاضي مصر في طليعة معارضي الاصلاح ، ولكن محمد عبده استطاع أخيراً حمل مجلس الأوقاف على إقرار لائحته في أول تموز سنة ١٩٠٤ (١٣٢٢هـ) بعد مناقشتها وتعديلها. فغضب قاضي مصر، ورفع إلى الخديوي عريضة يحتج فيها على بعض ما جاء في اللائحة ويدعي انه مخالف لشروط بعض الواقفين . فترجمت « المعية » شكوى القاضي وأرسلتها إلى الوكالة الانكليزية لإعطاء الرأي فيها ، مع ان المحتلين كانوا قد أعلنوا انهم لا يتعرضون لأمر مـــن أمور الدين . فعجب أناس من حظ الدولة الانكليزية من الأمة التي تحكمها والبلاد التي تحتلها ! وقارن آخرون بين المصريين الذين يأبون إلا حمل الانكليز على التدخل في شؤون داخلية لا يريدون التدخل فيهـــا ، والبوير الذين كانوا يحاربون الانكليز يومذاك

---

١ – ٢ : تاريخ الاستاذ الامام ، ج ١ ص ٦٣٠ – ٦٣٥

مستميتين في سبيل حريتهم واستقلالهم !

ولكن مـــاذا كان جواب الوكالة الانكليزية ؟ لقد قالت ان اللورد ذهب للاصطياف ، وسيتكرم بالنظر في اللائحة متى عاد . فلما عاد اللورد من إجازته، كان العداء قد استفحل بين الخديوي ومحمد عبده ، فلم يعد يكتفي بإيقاف تنفيذ لائحة المساجد ، بل وجه عزيمته إلى إخراجه من منصب الافتاء ومن إدارة الأزهر . وتلا ذلك مرض الامام ورفاقه ، فلم يعد للبحث عن لائحـة المساجد فائدة ، إذ زالت تلك الارادة القوية المصرة على تنفيذها .

ويقول الدكتور تشارلز آدمز في التعليق على ما بذله الامام من جهود متواصلة في سبيل إصلاح الأزهر ، لما كان يعلقه عليه من كبير الأهميه ، ولأنه كان معقـد رجائه في القيام بإصلاح شامل للاسلام :

« لقد كانت الجهود التي أنفقها خلال الأعوام العشرة الأخيرة من حياته، متجهة إلى تحقيق هذه الأغراض ، على انه مما يؤسف له ، ان مقدار ما وفق إليه من نجاح لم يكن متناسباً مع عظمة أغراضه ، ولا مع اخلاصه في مساعيه ، وما بذل من جهد مشكور .

« في الحق انه أدرك جزءاً من وطره ، وحقق الجانب العادي من غاياته ، امـا النواحي الروحية ، وهي أجل خطراً ، فكل ما نستطيـع أن نقوله في شأنها هو انه نجح في وضع الأسس التي يمكن أن يقوم عليها البناء في المستقبل .

« وليس لك ان تستنتج من هذا ، ان كل الأزهريين أو كثرتهم كانوا يعارضون كل إصلاح ، فان كثيراً من قادتهم كانوا يدركون ضرورته ، وقد عاونوا الامـام وشجعوه في جهوده ، عندما كان يحظى بتأييد الخديوي ، ولكنه لسوء الحظ تغير عليه وانقلب تأييده له إلى معارضة قوية للاصلاحات التي كان ينادي بها ، فرجحت كفة المحافظين . ولما يئس محمد عبده من إدراك النجاح ، استقال من مجلس الادارة في ١٩ مارس سنة ١٩٠٥ ، واستقال معه صديقه الشيخ عبد الكريم سلمان ، وعضو آخر هو الشيخ أحمد الحنبلي ، وكان هذا آخر عهده بالأزهر ، لأنه توفي بعـــد شهور قليلة ، وعاد الأزهر وقتـــاً ما إلى سيرته الأولى ونهجه المألوف لا يزعجه من

الأمر شيء[1] » .

وكتب رشيد رضا عقب استقالة الأستاذ الامام مقالاً رائعاً في « المنار» بعنوان « حقيقة الأزهر » شرح فيه أهمية هذا المعهد وما تعرض له من ارتفاع وانخفاض مع تطورات المسلمين ، ثم نقد طريقة التدريس فيه وتحدث عما قام به محمد عبده من محاولة صادقة لإصلاح هذا المعهد فقال : « للناس في وظيفة الأزهر وحاله آراء وخواطر مختلفة يقل فيها الصواب . كان الأزهر مدرسة كسائر المدارس الاسلامية الكبرى في الشرق والغرب يشتغل فيها المسلمون بجميع العلوم التي كانت معروفة في الأرض أيام لا علم إلا علمهم ، ولا عمران إلا عمرانهم ، ولا مدنية إلا مدنيتهم .

ولما فتكت الأدواء السياسية والاجتماعية بعمرانهم ضعف فيهم العلم ، ودرست مدارس العراق والأندلس ، وهما جناحا عمران الاسلام ، وبقيت مدرسة الأزهر في القلب أو الوسط ، قد أصابه التدهور في طرق التدريس والاستبعاد عن مسايرة التطور شأن ما حدث للمسلمين عامة ، حتى ظهر الأستاذ محمد عبده الذي سمت به همته إلى السعي في إصلاح الأزهر ، معتقداً ان إصلاحه خير إصلاح لحال المسلمين الدينية والدنيوية ، ولإصلاح كل من يساكنهم في بلادهم بالتبع لهم ، وانه خير وسيلة للتعارف بين الشرق والغرب ، وخير صلة بين المدنية القديمة والمدنية الجديدة[2] . »

وقد ساء الخديوي ثبات رشيد رضا على إخلاصه للأستاذ الامام حتى بعد وفاته سنة ١٩٠٥ (١٣٢٣هـ) ولجأ إلى محاولات عجيبة لتحطيمه أو إرغامه على السكوت، ومن أطرف هذه المحاولات انه أبلغ وزارة الداخلية ان خطاباً جاء من السلطات العثمانية بالآستانة تطلب رشيد رضا لأداء الخدمة العسكرية ، ورد السيد رشيد على وزارة الداخلية بتقديم المستندات التي تعفيه من الخدمة العسكرية باعتباره من رجال الدين ، فضلاً عن انتهاء المدة القانونية التي يصح فيها اشتغاله بالجندية[3] .

---

١ — الاسلام والتجديد في مصر ص ٧٣
٢ — رشيد رضا الامام المجاهد ص ٢٠٦
٣ — المرجع السابق ص ٢٠٧

مأساة نفس

رأى محمد عبده آماله تنهار واحداً بعد آخر ، وخصومه يتألبون عليه من كل صوب . فالخديوي يكيد له ، والشيوخ الجامدون يناصبونه العداء ، ويوجهون إليه التهم الكواذب ، ويغرون به كل سفيه ذي لسان سليط ووجه وقاح ، والجرائد الهزلية تشهّر به وتصوره بأقبح الأوضاع ، والحزب الوطني يناوئه ويرميه بالمروق من الوطنية لاستعانته بالانكليز في سبيل إصلاح الأزهر ، هذا الحلم الذي نذر من أجله حياته كلها وعقد عليه أمله كله ، ثم أخفق فيه ايّما إخفاق ..

ويا لله وإصلاح الأزهر ، كما يقول أحمد أمين، « ما حاوله أحد ونجح، ولا الشيخ محمد عبده، لان كل المحاولات كانت تتجه إلى هامش الموضوع لا أساس الموضوع، وكانت عن سبيل استرضاء أهله والخوف من أيّ قلق واضطراب ، والأزهريون يتزعمهم طائفة ألِفت القديم حتى عدّته ديناً ، وكرهت الجديد حتى عدته كفراً . وعاشت في المغارات فلم تر ضوءاً ، وأفنت عمرها في فهم لفظ ، وتخريج جملة ، وتأويل خطأ ، فلم تر حقائق الدنيا . فإذا أتى مصلح سمم أهله الجوّ حوله ، واحتموا بالدين يخيفون به الحكومة ، ويكسبون به عامة الشعب ، وخنقوا الطائفة القليلة من شبابه النازعين إلى التجديد ، وحرصوا على مراكزهم أن يكتسحها الاصلاح وجاههم ان ينتقل إلى يد المصلحين فيضطر المصلح — أخيراً — إلى الانسحاب ان غضب ، أو المساواة والرضا بالموجود إن لم يغضب . وتضطر الحكومة أن تتخلى

عن إصلاح الأزهر حياً في السلامة ، وتتركه يأكل بعضه بعضاً [1] .. »

لقد قاوم محمد عبده ما وسعته المقاومة ، ولكن أعصابه ما لبثت ان تحطمت ، وأصبح نهباً لليأس والرجاء ، فهو لا يريد الاستسلام إلى القنوط ، لأنه قنوط من صلاح وطنه وشعبه ، وما أصعب الحكم على أمة بأسرها والتسليم بأنها أمة لا يرجى لها صلاح .. لقد كان يرى في تلك الشجرة الجرداء ، ورقات خضر يرجو أن تكون بدء حياة جديدة .. وفي سبيل تباشير الربيع هذه تحمّل كلّ عواصف الشتاء !

ومن عجب ان هذا الشيخ الذي أبى مغادرة الأزهر ، على الرغم من انفصاله عن مجلس إدارته ، وبعد كل ما عاناه في سبيله ، إنما كان يلتمس المدد لعزيمته والقوة لرجائه ، في رحلاته المتواصلة إلى بلاد الغرب .. فهو معجب بالشعوب الغربية والمدنية الغربية كل إعجاب ، وما مصدر هذا الاعجاب إلا انتشار المعرفة بين تلك الشعوب ، وقيام هذه المدنية على العلم والفن . ألم يقل في « العروة الوثقى » حين كان يشرف على باريس من غرفته الصغيرة القائمة على سطح بناية شاهقة :

« ان أبناء الأمم الغربية إذا عمدوا إلى قصد لا يفترون في طلبه . وعلو الهمم فيهم يجعل لديهم كل صعب سهلاً ، وكل بعيد قريباً : يقتحمون المخاطر لاكتساب الشرف . ولقد بلغوا من محبة المجد حداً لا يرونه غذاء لأرواحهم فقط ، بل عدّوه من مادة النماء لأبدانهم ... لهذا ترى الرجل منهم يجوب فيافي افريقية ويتسنم جبال سيبيريا ، ويخالط قبائل وشعوباً لا يعرف لهم لغة ولا أخلاقاً ، ويتكبد مشاق الحر والبرد والجوع والعطش ، وينازل الموت مع من يخالطه من تلك القبائل البعيدة عنه في جميع أوصافهم وهو في كل وقت يقع بين أنياب المنية منهم ثم يخلص بما يقتدر عليه من الوسائل . كل هذا يحتمله طلباً لشرف يكسبه لذاته ، أو ابتغاء مجد يحصله لأمته ... »

ألم يكتب في « الأهرام » حين كان لا يزال على مقاعد الدراسة في الأزهر : « .. فعلينا ان ننظر في أحوال جيراننا من الملل والدول ، وما الذي نقلهم عن

---

١ — فيض الخاطر ، ج ٧ ، ص ١٩٢

حالهم الأول ، وأدى بهم إلى ان صاروا أغنياء أقوياء ، حتى كادوا ان يتسلطوا علينا بأموالهم ورجالهم ، إن لم نقل قد تسلطوا بالفعل ، فإذا حققنا السبب وجب علينا ان نسارع إليه حتى نتدارك ما فات ونستعد لخير ما هو آت . وها نحن بعد النظر لا نجد سبباً لترقيتهم في الثروة والقوة إلا ارتقاء المعارف والعلوم فيما بينهم حتى قادتهم إلى رشادهم فتنوروا خيراتهم فاكتسبوها ، ومضراتهم فنكبوا عنها وتركوها ، فإذن أول واجب علينا هو السعي بكل جد واجتهاد في نشر هذه العلوم في أوطاننا . »

فلا بدع ان يقول في السنين الأخيرة من حياته في حديث له عن الأثر السيء الذي تركته في نفسه أسفاره إلى البلاد العثمانية : « .. وقد سافرت بعد ذلك مرات إلى أوربة وافريقية فكان أثر الأسفار في بلاد المسلمين زيادة البصيرة في ذلك الذي عرفته أول الأمر ، وأثر الأسفار في أوربة قوة الأمل في إصلاح أحوال المسلمين .. فما من مرة أذهب إلى أوربة إلا ويتجدد عندي الأمل في تغيير حال المسلمين إلى خير منها، وذلك بإصلاح ما أفسدوا من دينهم، وتشحيذ عزائمهم إلى معرفة شؤونهم، وامتلاك ناصيتها بأيديهم دون افراط ظَلَمتهم . وهذه الآمال وان كانت تضعف في نفسي عندما أعود إلى دياري لكثرة ما ألاقي من العنت ، وشدة ما أصادف من المصاعب ، وسوء ما أرى من انصراف المسلمين عن النظر في منافعهم ، وشدة عداوتهم لأنفسهم ، وقوة رغبتهم في تمكين ظالميهم من رقابهم ، وحبهم في الاستعباد لهم لغير سبب معقول .. لكنني متى عدت إلى أوربة ومكثت فيها شهراً أو شهرين تعود إليّ تلك الآمال ، ويسهل عليّ تناول ما كنت أعده من المحال ! »

وها هو ذا يقف أمام كنيسة موريالي القديمة في بلرم بصقلية ، فيعجب بجمالها وقدمها ، وتهتف نفسه هتاف الزهو والحسرة في آن واحد ، فيقول : « ان العرب، رحمهم الله ، لم يمسوا هذه الكنيسة بسوء مع عظمة سطوتهم ، وامتداد ملكهم في سيسيليا » ثم يتساءل عن العرب أين هم ؟ ويجيب : « يمكن ان يقول قائل : انهم في جزيرة العرب ، أو في الشام ، أو في العراق ، أو في مصر ، أو في تونس والجزائر ، أو في المغرب الأقصى .. أفلم يكفك كل هذا العدد في أكثر من ألف

بلد ، حتى تقول أين هم ؟ ولكنني أقول له : إنما يكون القوم أولئك القوم ، إذا بقيت لهم أخلاقهم وحياة أرواحهم ، فان كان لم يبقَ سوى أشباح تشبه أشباحهم ، فليسوا بهم ، ولي الحق أن أقول عن العرب : أين هم ؟ [1] »

ومن ثم كان لا يفتأ يردد في حرقة ومرارة : « .. أما قومي فأبعدهم عني ، أشدهم قرباً مني ، وما أبعد الانصاف منهم .. يظنون بي الظنون ، بل يتربصون بي ريب المنون، تسرعاً منهم في الاحكام، وذهاباً مع الأوهام ، وولعاً بكثرة الكلام، وتلذذاً بلوك الملام . أقول فلا يسمعون، وأدعو فلا يستجيبون ، وأعمل فلا يهتدون، وأريهم مصالحهم فلا يبصرون ، وأضع أيديهم عليها فلا يحسون ، بل يفرون إلى حيث يهلكون ، شأنهم الصياح والعويل ، والصخب والتهويل ، حتى إذا جاء حين العمل صدق فيهم قول القائل في مثلهم :

لكن قومي وإن كانوا ذوي عدد　　　ليسوا من الشر في شيء وان هانا

وأقول : ولا من الخير ! وإنما مثلي فيهم مثل أخ جهله إخوته ، أو أب عقته ذريته، أو ابن لم يجن عليه إلا أبواه وعمومته مع حاجة الجميع إليه وقيام عمدهم عليه، يهدمون منافعهم بإيذائه ولو شاءوا لاستبقوها باستبقائه ، وهو يسعى ويدأب ليطعم من يلهو ويلعب ... على اني أحمد الله على الصبر وسعة الصدر إذا ضاق الأمر ، وقوة العزم وثبات الحلم، وان كنت في خوف من حلول الأجل قبل بلوغ الأمل، خصوصاً عندما أرى ان العمل في أرض ميتة لو ذابت عليها السماء مطراً لما أنبتت زرعاً ولا اطلعت شجراً ، أفزع لذكرى هذا وأجزع ، ويكاد قلبي يتقطع ... »

ويقرأ في الصحف ان الكنيسة الروسية قد حرمت الأديب العظيم ليون تولستوي ، لما أخذ عليها من بدع خرجت بها عن روح الدين الداعي إلى الحب والاخاء والمساواة ، فيرى ما بينها من تشابه كبير : ويبعث إليه برسالة يقول فيها: « ... ورفعت صوتك تدعو الناس إلى ما هداك الله إليه ، وتقدمت أمامهم بالعمل

---

١ – تاريخ الاستاذ الامام ، ج ٢ ، ص ٤٧٧



الشيخ محمد عبده في إحدى زياراته لأوربة، ويرى في الصورة وإلى يمينه الأميرة نظلي حليم وأمامه علي بك كمال الصحفي التركي الذي شنقه الكماليون

لتحمل نفوسهم عليه ، فكما كنت بقولك هادياً للعقول كنت بعملك حاثاً للعزائم والهمم ، وكما كانت آراؤك ضياء يهتدي به الضالون ، كان مثالك في العمل إماماً يقتدي به المسترشدون ، وكما كان وجودك توبيخاً من الله للأغنياء ، كان مدداً من عنايته للضعفاء والفقراء . وان أرفع مجد بلغته وأكبر جزاء نلته على متاعبك في النصح والارشاد ، هو هذا الذي سماه الغافلون بالحرمان والابعاد ، فليس ما حصل لك من رؤساء الدين سوى اعتراف منهم أعلنوه للناس انك لست من القوم الضالين، فاحمد الله على ان فارقوك في أقوالهم كما كنت فارقتهم في عقائدهم وأعمالهم .. الخ »
ثم يكتب إليه رسالة ثانية يقول فيها ، ولعلها جواب على كتاب وصله منه : « أيها الروح الزكي ، صدرت من المقام العالي إلى العالم الأرضي ، وتجسدت فيما سموه بتولتسوي . قوي فيك اتصال روحك بمبدئه، فلم تشغلك حاجات جسدك عما تسمو إليه نفسك ، ولم تصب بما أصيب به الجمهور الأعظم من نسيان ما فصلوا عنه عن عالم النور ، فكنت لا تزال تنظر إليه النظرة بعد النظرة ، وترجع إليه البصر الكرة بعد الكرة ، فوقفت بذلك على سر الفطرة . وأدركت ان الانسان خلق ليتعلم فيعلم فيعمل ، ولم يخلق ليجهل ويكسل ويهمل .. »
ويجتمع بالفيلسوف الانكليزي هربرت سبنسر ، فيقول له الفيلسوف فيما يقول: « ان الحق للقوة » فتثير هذه الكلمة دفين ألمه ، لما يرى عليه أمته من ضعف سببه التأخر والجهل ، ويقول : « لقد جاءت هذه الكلمة منه مصحوبة بشعاع الدليل ، فأثارت حرارة وهاجت فكراً ، لو جاءت من ثرثار غيره كانت تأتي مقتولة ببرد التقليد ، فكانت تكون جيفة تعافها النفس فلا تحرك إلا اشمئزازاً وغثياناً ... هؤلاء الفلاسفة والعلماء الذين اكتشفوا كثيراً مما يفيد في راحة الناس ، أعجزهم أن يكتشفوا طبيعة الانسان ويعرضوها عليه حتى يعرفها فيعود إليها . هؤلاء الذين صقلوا المعادن حتى كان من الحديد اللامع المضيء ، أفلا يتيسر لهم أن يجلوا ذلك الصدأ الذي غشى الفطرة الانسانية ، ويصقلوا تلك النفوس حتى يعود لها لمعانها الروحي؟ حار الفيلسوف في حالة أوربة فأظهر عجزه مع قوة العلم ،فأين الدواء[١] ؟»

١ - تاريخ الاستاذ الامام ج ١ ص ٨٦٩

ويزوره الصحفي الانكليزي هارولد سبندر ، في الأزهر ، فيراه جالساً في غرفته الصغيرة في برج عال يشرف منه المطل على ذلـــك السوق العلمي العجيب الواسع الأرجاء ، حيث يتلاقى الطلبة من أقصى بلاد الاسلام ، وحيث تختلط اللغـــات واللهجات المتباينة بترتيل القرآن ودروس المعلمين ، وهو يشرف على ذلك كله وقد أرهقته المتاعب وأثقلت ظهره السنون ، فيقول له متنهداً :

« ها أنا ذا كما ترونني وحيداً ، ليس لي من الأساتذة من يساعدني ولا من دعاة الخير من ينصرني. أريد ان أعلّم في هذه الجامعة شيئاً نافعاً، بدلاً من هذه الشروح العتيقة البالية الخالية من المعنى ، والتي هي أشد ضرراً من كتبكم القديمة المؤلفة في القرون الوسطى .. ولكن هل أجد من يساعدني على ذلك ؟ وان لم أجد فهل أفلح فيه وحدي ؟ »

وقال سبندر معلقاً على هذه في رثائه لمحمد عبده : « ان الشيخ لم يلبث ان جاءه الجواب على هذه المسألة ، فانه أفرط في بسالته بمحاولته ما كان يحاوله ، فان الأرض في غاية الصلابة ! على انه ربما كانت هذه المحاولة غير ضائعة كلها ، ومهما يكن الأمر فليس الأزهر أول مدرسة رجمت أنبياءها [1] ! »

وفي السنة الأخيرة من حياة الامام بدا لبريطانية انها إذا نزلت للمصريين عن سلطانها على الحكومة لم يتأولوا ذلك بالاضطرار إليه خوفاً من اثارة قضية مصر في محيط السياسة الدولية ، ولكنهم يتقبلون منه ما يرضيهم باختيـارهم ويرضي الدولة المحتلة باختيارها . فأرسلت صديق العرابيين القديم المستر بلنت يسأل مفتي الديار المصرية رأيه في أسس الدستور التي يقام عليها بناء الحكومة ونظام الادارة، فكانت خلاصة جوابه أن يكون الدستور مقيداً لسلطة الاحتلال وسلطة الخديوي ، وان يكون إعلانه ضماناً من السلطتين باحترامـــه ومنع المساس بحقوقه ، وان يكون للرئيس المصري حق جدي في ديوانه فلا يكون عمله فيه عالة على الرؤساء الانكليز ، وان يكون نظام التعليم اجبارياً في جميع أنحاء البلاد ، وان تكون للمجلس النيابي

---

١ -- محمد عبده للدكتور عثمان امين ص ١١٣ - ١١٤

حقوق الاشراف على السلطة التنفيذية أو سلطة الوزارة ، فإذا اختلف مجلس النواب ومجلس الوزراء عرض الخلاف على هيئة مشتركة من النواب وقضاة محكمة الاستئناف ، وتلتزم الوزارة بحكم هذه الهيئة فلا يكون لولي الأمر من سلطان على هذا الحكم ، إلا ما يتقبله الوزراء ويتحملون تبعته في حدود الدستور والقانون (١) .

ثم تتحطم قواه دفعة واحدة ، ويعتريه مرض عضال بينما كان يعد العدة لتحقيق تلك الأمنية التي سبق ان عرضها على جمال الدين ، بإنشاء معهد في جوار بيته لتخريج الدعاة ورسل الاصلاح ممن يتقبلون دعوته ويؤمنون بمقاصده ، فيود الرحيل إلا أوربة للاستشفاء ، ولكن الأطباء يمنعونه من ذلك ، ويُنقل إلى الاسكندرية فيحل ضيفاً على صديقه ومريده محمد راسم الذي أفرد له ولأسرته داراً خاصة ، وأحاطه بعناية فائقة ، ولكنه لم يلبث ان وافاه الأجل في اليوم الحادي والعشرين من تموز (يوليه) سنة ١٩٠٥ (١٣٢٣ هـ) ، وقالت الصحف المؤيدة له ، في نعيه ، انه مات مطعوناً بأسنّة المقاومة الرجعية التي لقيتها مبادؤه ، موت شهيد في سبيل الصلاح والخير .

ويغضب الخديوي عباس حلمي على رجال الفكر الذين اشتركوا في تشييع الامام الراحل وفي رثائه وتأبينه . ولا يتورع عن الكتابة إلى أحمد شفيق باشا مقرّعاً إياه بصفاقة لا مثيل لها لأنه لم يحل دون ذلك ، في رسالة لا نرى بدأ من نشرها كنموذج من أدب البلاط المصري :

« كان الجناب العالي يظن انكم تحافظون على تنفيذ رغباته السنية غاية المحافظة ، وكان يعلم انكم تقدرون أوامره العالية حق قدرها ، وكان يعتقد انكم لا تخطون خطوة إلا في سبيل رضاه وبأمره الكريم ، وكان يتيقن انكم تكونون على من رغب عنه ومع من رغب فيه ، ولكن قدر فكان .

« قلتم في جوابكم الأخير ان المفتي مكث أربعة أيام كوامل من يوم الجمعة ٧ الجاري إلى يوم الثلاثاء ١١ منه والروح تنازعه وهو ينازعها ، إلى ان غلبته فتركته ،

---

١ — محمد عبده للعقاد ص ١٦٦

أي انكم كنتم متوقعين له حصول الأمر آناً بعد آخر خلال هذه المدة ، بل على ما بلغنا ان أقاربه حتى الحكومة جهزت له ما يلزم لتشييع جنازته قبل موته بيومين ، وسعادتكم على ما أنتم عليه من معرفة الحقيقة والحالة ، فلمَ لم تستفهموا باشارة برقية عما يلزم وقت ان تبلغ الروح الحلقوم؟ هذا أمر واجب عليكم كان اللازم ان توجهوا فكركم إليه قبل كل شيء ولكنه يا للأسف فاتكم .

« علمتم بموته فكان من الضروري ان تعلموا أيضاً بأنه سترد إليكم تعليمات بخصوص ذلك الحادث ، وما كنتم تبرحون السراي ولا إلى منزلكم حتى تأتي أوامر الخديوي اللازم اتباعها .

« أُخبِرَ الجناب العالي أطال الله بقاءه باشارة برقية عن هذا الحادث ، فما معنى ذلك ؟ معناه ان ما الذي يعمل في هذه الظروف ؟ وتعتقدون ان الجناب العالي لا بد وان يصدر أوامره بما يعمل ازاء هذا الأمر ، فإذا صدرت بعمل شيء فقوموا بتنفيذه ، وان وردت بدونه فاعلموا ان الأمر مهمل « الجنازة حارة والميت كلب » فلا تعملوا شيئاً !

« يظهر ، والله أعلم ، انكم أردتم بالمسير وراء نعشه المجاملة بعد الموت ، وهو على ما تعهدونه عدو الله وعدو النبي وعدو الدين وعدو الأمير وعدو العلماء وعدو المسلمين وعدو أهله ، بل وعدو نفسه ، فلمَ هذه المجاملة ؟!

« صدرت إليكم أوامر بما يُعمل ، فلمَ لم تبذلوا جهودكم في تنفيذها ، ولمَ لم تسعوا وراء سريان مفعولها حتى بذلك تكونون قد أديتم ما فرضه عليكم الاخلاص ؟

« قلتم ان الأوامر وردت والجثة بين مصر والاسكندرية فلم يمكن تنفيذها بالثغر ولكن نفذت بالقاهرة، فأين ذلك التنفيذ وقد سار في الجنازة القاضي والشيخ حسونة !

« قلتم في جوابكم انكم منعتم الشيخ علي يوسف من كثرة الاطناب والمدح ، فما فائدة ذلك وأنتم أول من يعلم ان مثل ذلك ألفاظ سيالة تنقضي بمجرد النطق فلا أثر لها ، لكن تنفيذ الأوامر هو الذي يترتب عليه المقصود . على ان « المؤيد » أفرغ جعبته في مدح الرجل فلم يبق شيئاً مما منع عنه، ولو فرضنا ان المؤيد لم يذكر

شيئاً للرجل ، فهناك جرائد أخرى لا يمكن منعها تقوم بالاطناب والمدح ، وقد قامت فعلاً والأوامر العالية على خلاف ذلك . سعادة أحمد زكي باشا موجود عندكم فلمَ لم تستشيروه ؟ ألم يعلموا سبب إمتناعه عن تشييع الجنازة ؟ ألم تعتقدوا ما كان عليه المفتي من العداء والمعاكسة للدين وأهله وانصاره ؟! ولكنه أمرٌ فات والرجل مات وغير ممكن رد ما قد فُعل [1] » .

وتنقضي أعوام ... ويلتقي الخديوي بالشيخ محمد رشيد رضا صديق الامام الفقيد وتلميذه ، فيقول له : « تعال يا شيخ رشيد ، تعال ... الله يرحم الذي كنت تعمل معه أينما ذهب ... انه قد ثبت عندي انك تعمل لخدمة الاسلام لا لنفسك.. وانني قد جربت « هؤلاء العلماء » ١٨ سنة ، وكنت أحسن الظن بهم ، ولكنني لم أرَ أحداً منهم يهتم إلا بالجراية والجنيه ، وكسوة التشريف [2] ! »

ثم تنقضي أعوام أخرى فإذا بسعد زغلول ، صديق الامام وتلميذه ، يتولى وزارة المعارف ، فيحقق حلماً من أحلام أستاذه ، بإنشائه مدرسة القضاء الشرعي ، ولكن بالاستقلال عن الأزهر .. ثم يتعاون مع قاسم أمين ، وهو تلميذ آخر من تلامذة الامام ، على إنشاء الجامعة المصرية ، فيتحقق بذلك حلم ثانٍ من أحلام محمد عبده ، في نشر المعارف الصحيحة والعلوم الحديثة ، ولكن عن غير الطريق التي انتهجها وكابد فيها ألوان العنت والاضطهاد ...

فكأن العصر قد فرض منطقه ، والزمان قد قال كلمته !!

---

١ – مذكراتي في نصف قرن ، لأحمد شفيق باشا ، ج ٢ ص ٧١ وما بعدها .
٢ – تاريخ الاستاذ الامام ، ج ١ ص ٥٧١

شخصية الإمام

كان محمد عبده أسمر اللون ، متوسط الطول ، مشرق الطلعة ، حاد البصر ، ذا ابتسامة جذابة محببة إلى القلوب .

وكان مع العلم الوافر ، والتقى والفضيلة والمهابة ، متصفاً بالكياسة والرقة وجميل العشرة، تسير أخلاقه جنباً إلى جنب مع معارفه ، فهو مثال للعلم مع العمل، والقوة مع الوداعة ، والذكاء مع البساطة ، يشبه في ذلك كل عظيم حق .

وقد طبع على شرف النفس ، وعلو الهمة ، وجرأة القلب ، والجهر بالحق ، وصدق اللسان ، والترفع عن الدهان والتملق ، والتواضع مع البسطاء ، والعزة مع الكبراء ، حتى قال الخديوي الذي لم يكن يستطيع التمييز بين الكبر والتكبر :

— انه يدخل عليّ وكأنه فرعون !

ومن أبرز صفاته الشجاعة الأدبية التي قال في أحد دروسه انها هي التي تعتق الأفكار من رق التقاليد ، فتكون حرة مطلقة العنان في ميدان العلم ، جديرة بالسبق إلى معرفة الحق وبيانه ، وان من فقد هذا الخلق لا ينتفع بعلم ولا يكون مستقلاً برأيه حتى الاستقلال .

وكان من خلائقه الانصاف في الرأي ، والبعد عن الغرور والمكابرة ، والوفاء لأصدقائه ، والسعي في دفع الشر عنهم وفي سوق الخير إليهم بأشد مما يسعون

لأنفسهم ، فكان في ذلك قدوة لمعاشريه والمتصلين به ، يربي نفوسهم بخلقه وسيرته ، كما يربي عقولهم بعلمه وحكمته ، وكان هؤلاء مغتبطين بصداقته يعدونها من أفضل الحظوظ ، لما تشيع فيهم من الثقة والطمأنينة ، وتبعث فيهم من الصفاء والمتعة ، حتى قال حافظ ابرهيم لأحد أصدقائه : « اننا لم نقع في حاجة إلى رفد الشيخ لنا في الرزق وضرورات المعيشة ، ولا في الدفاع عن حياتنا أو شرفنا ، ولكننا نشعر في أعماق أنفسنا بأننا ، بوجوده ، في أمنة من الحاجة ومن الظلم ، وان كل ما عسى ان نحتاج إليه نجده عنده ، فنحن لا نحسب مع وجوده حساباً لحاجة أو لعدوان » .

وما أروع ما وصفه به صديقه وتلميذه قاسم أمين إذ قال : « ان الكثيرين كانوا يعترضون على الامام قائلين : ما هذا الشيخ الذي يتكلم باللغة الفرنساوية ، ويسيح في بلاد الافرنج ، ويترجم مؤلفاتهم ، وينقل عن فلاسفتهم ، ويباحث علماءهم ، ويفتي بما لم يقل به أحد من المتقدمين ، ويشترك في الجمعيات الخيرية ، ويجمع المال للفقراء والمنكوبين ؟ إن كان من أهل الدين ، فليقض حياته بين الجامع والبيت ، وان كان من رجال الدنيا ، فإنا نراه يعمل فيها وحده أكثر من جميع الناس ! »

ويفيض قاسم أمين في الحديث عن شخصية الامام ، الذي كان رجلاً عظيماً لأنه عاش لأمته ورسالته أكثر مما عاش لنفسه وأسرته ، ولأنه وصل إلى مقام الامامة بأوسع معناها ، ذلك المقام الذي « مكنه من ان يمسك بيده زمام أمة بأسرها ، ويحركها نحو الخطة التي رسمها ، ويسوقها إلى طريق المستقبل الذي هيأه لها » . ولم يستمد مقامه هذا « من منصب عال في الحكومة ، ولا من رتبة رفيعة ، ولا من ثروة طارئة ، ولا من نسبة إلى بيت قديم ، ولا من شيء آخر من ألقاب الشرف المعروفة التي اخترعت لتحل محل شرف النفس» ، وإنما هو مقام اكتسبه بفضائله الشخصية ونفسه الطيبة .

وكان مسكنه بصحراء عين شمس يتألف من فدان في الأرض الخلاء تخلى له عنه المستشرق ويلفرد بلنت يوم أمر بمغادرة مصر ، فبنى عليه منزلاً متواضعاً .

وكان مجلسه لا يخلو من دعابة حلوة أو من سخرية بارعة . قال له أحد تلامذته



الشاعر والمستشرق الارلندي ويلفرد بلنت وزوجته حفيدة الشاعر بيرون ، وكانا من اصدقاء عرابي ومحمد عبده وكثيرين من الوطنيين المصريين ، وقد وضع بلنت عن الحركة الوطنية في مصر كتابه الشهر « التاريخ السري لمصر » وبذل جهدا كبيرا لتبرئة عرابي وكلف احد كبار المحامين الانكليز بالدفاع عنه امام المحكمة الانكليزية العسكرية التي التأمت في القاهرة عقب الاحتلال ، فحكم عليه بالنفي وكان المستعمرون واعوانهم في مصر يميلون الى الحكم عليه بالاعدام .

في الأزهر مرة وهو يلقي دروسه في التفسير : « إن ما قلته لا يوافق عليه الجمل » يعني كاتب حاشية الجلالين ، فأجابه :

— إنني أقرر ما يدل عليه النظر الكريم والأسلوب البليغ ، ولا يعنيني أوافق الجمل أو الحمار عليه أم خالفا [1] !

وكان مرة يلقي درسه وقد تحلق حوله الطلاب الأزهريون ، فدخلت الرواق بنت في الثانية عشرة من عمرها ، فتخطت الرقاب حتى وصلت إلى والدها فأسرت إليه كلمة وخرجت ، وقد كثر التفات الشيوخ إليها استغراباً لجرأتها ، فسكت الأستاذ هنيهة ثم قال ، وكانت الضجة قائمة يومذاك حول كتاب « المرأة الجديدة » لقاسم أمين :

— إياكم تكون دي المرأة الجديدة اللي بيقولوا عنها !

وروى الأستاذ أحمد لطفي السيد ان الامام لما عاد من رحلته إلى السودان سنة ١٩٠٥ (١٣٢٣ هـ) نزل بالمنيا ، فأقبل للسلام عليه رجال القضاء الأهلي والشرعي ووجوه البلد . فلما احتشد الجمع قال أحد « العلماء » من رجال المحكمة الشرعية :

— ان كثيراً من المسيحيين يدخلون في الاسلام ، وقد تضاعف بذلك شغلنا !

فسأله الامام : فيمَ تشتغل أيها الشيخ ؟

فأجاب : نعلمهم أركان الدين .

فقال : يكفي ان تقول له : صلِّ وصم وزكِّ وحج .

فأضاف الشيخ : ولا بد من ان نعلمه الوضوء !..

فقال الامام : قل له اغسل وجهك ويديك إلى مرفقيك ، وامسح رأسك ، واغسل رجليك .

فقال الشيخ: ذلك لا يكفي، لا بد من ان نعلمه حدود الوجه من أين يبتدىء وإلى أين ينتهي ...

فقال الامام : سبحان الله يا سي الشيخ ! قل له يغسل وجهه ... كل انسان

١ — محمد عبده للدكتور عثمان امين ص ١٥٢

يعرف حدود وجهه من غير حاجة إلى مِصباح[1] !

وروت ابنة الامام « ست هانم المفتية » كما تسميها صديقاتها في حديث نشرته السيدة أمينة السعيد في مجلة « المصور » ان والدها كان أنيقاً إلى أبعد حدود الأناقة، يختار لملابسه أجمل الألوان ، ويعيش بأسلوب الرجل العصري المتحضر ، ولم يكن يحرم نفسه من متعة فاضلة ، ومن ذلك سهراته مع المطرب الشيخ يوسف المنيلاوي، فقد كان بين الحين والحين يدعو أصدقاءه لقضاء الليل في الاستمتاع بروائع الفنان الكبير .

لقد خرج محمد عبده على المألوف في التعليم وفي التفكير . فقد كان اتجاه التعليم قبله ينحو إلى تقييد الفكر ، والحد من حرية الفرد في تفكيره ، والأخذ بما قال به الأقدمون ، والتسليم بما جاء في الكتب القديمة أياً كانت ، فالانسان عبد من سبقوه مقيد بما قالوا سواء أكان ما قالوه حقاً أم باطلاً ، فدعا الامام إلى التحرر من هذه القيود ، وإطلاق حرية العقل ليفكر ويبدع ... فليست الفكرة الراجحة لديه هي الفكرة التي قالها مؤلف بالذات أو جاءت في كتاب بعينه ، بل هي التي رجحت لديه باعتبار مقاييس التفكير العام للانسان[2] .

ودعا الامام إلى إعمال العقل ، حتى في شؤون الدين ، فالمرء لا يكون مؤمناً لديه إلا إذا عقل دينه وعرفه بنفسه حتى اقتنع به . ومن ربي على التسليم بغير عقل ، والعمل ، ولو صالحاً ، بغير فقه ، فهو غير مؤمن ، لأنه ليس القصد من الايمان ان يُذلّل الانسان للخير كما يُذلل الحيوان ، بل القصد منه ان يرتقي عقله وترتقي نفسه بالعلم والعرفان فيعمل الخير لأنه يفقه انه الخير النافع للناس المرضي لله[3] .

وهو يأبى الذل للتقاليد حتى في العلم ، فيقول : « لا ينبغي ان يذل فكره لشيء سوى الحق ، والذليل للحق عزيز . نعم يجب على كل طالب علم ان يسترشد بمن تقدمه سواء أكانوا أحياء أم أمواتاً ، ولكن عليه ان يستعمل فكره فيما يؤثر

---

١ - المرجع السابق ص ١٢٦

٢ - راجع الاستاذ الامام محمد عبده ، لعبد المنعم حمادة ، ص ٣٢٨

٣ - راجع الاسلام والتجديد في مصر ، ص ١٢٣

عنهم ، فان وجده صحيحاً أخذ به ، وان وجده فاسداً تركه . وحينئذ يكون ممن قال الله تعالى فيهم : « فبشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب ! » وإلا فهو كالحيوان والكلام كاللجام له والزمام ، يمنع به من كل ما يريد صاحب الكلام منعه منه ، ويُقاد إلى حيث يشاء ذلك المتكلم ان يقاد إليه من غير عقل ولا فهم » .

ولم يكن الامام في دعوته إلى العلم لذاته ، وكوسيلة للاعتماد على النفس ، وتكوين الشخصية العاقلة المفكرة ، ليستثني المرأة من دعوته فهو نصير من أنصار المرأة ، يحارب تعدد الزوجات لايمانه بأن الشرع قد قيده بشرط يخرج عن طوق الناس ، ويدعو إلى تربية الأناث وتعليمهن تعليماً لا يقل عن تعليم الذكور ، وإصلاح الحياة الاجتماعية والعادات التي تمس حياة المرأة .

وكان الشيخ على الرغم من مسلكه الديني ، بعيداً عن التعصب الممقوت ، ناهياً عنه ، يقول ان « المفرط في تعصبه يدافع عن الملتحم به بحق وبغير حق ، ويرى عصبته منفردة باستحقاق الكرامة ، وينظر إلى الأجنبي عنه كما ينظر إلى الهمل ، لا يعترف له بحق ولا يراعي له ذمة ، فيخرج بذلك عن جادة العدل ، فتنقلب منفعة التعصب إلى مضرة ويذهب بهاء الأمة ، بل يتقوض مجدها ، فان العدل قوام الاجتماع الانساني ، وبه حياة الأمم ، وكل قوة لا تخضع للعدل فمصيرها إلى الزوال ، وهذا الحد من الافراط في التعصب هو الممقوت على لسان صاحب الشرع ﷺ بقوله : « ليس منا من دعا إلى عصبية ! »

ومن ثم اتصلت دعوته إلى تقوية أواصر الرابطة الوطنية بسيرته كلها . وقد رأينا في الفصول السابقة كيف عقد في جريدة « الأهرام » وهو لا يزال طالباً في الأزهر فصلاً أدار أكثره حول العقيدة الوطنية ، ممثلاً اختلاف أبناء الوطن الواحد من ذوي المذاهب المختلفة ، باخوة يعيشون في منزل واحد ، مهما اختلفوا وتنازعوا ، فان واحدهم ليخف إلى نصرة الآخر متى تعرض لعدوان رجل غريب عنهم . ثم رأيناه أيام « الوقائع المصرية » وأيام « العروة الوثقى » يدافع عن وطنه أشد دفاع ، ويدعو إلى الأخذ بمبادىء الشورى ، لضمان حقوق المواطنين ، إذ لا وطن

بلا حقوق . ورأيناه بعد ذلك وهو منفي في بيروت يدفع عن القبط تهمة التهاون في أداء واجباتهم الوطنية ويشيد بمكارمهم ومناقبهم ، لمناسبة الحملة التي شنتها عليهم بعض الصحف المصرية ، في انتقادها لبطرس باشا غالي .

ويقول محمد رشيد رضا الذي عاشره وعرفه أكثر من أي شخص آخر ، انه « كان من التآلف بين جميع الطوائف في بيروت على عهده ما لم يُعهد له نظير .. » وانه كان يدعو جميع الطوائف المصرية إلى التعاون في مصالحها الوطنية المختلفة .

وهذا ما جعل مفكراً كالدكتور يعقوب صروف يعاتب أصدقاء الامام ومريديه ساعة دفنه بقوله: « اني أسمعكم تقولون فقيد الاسلام والمسلمين ولا تزيدون، انه فقيد الفكر والعلم حيث كان .. انه فقيدنا أجمعين [1] » .

ويتحدث مترجمو الشيخ محمد عبده بإسهاب عن فضيلة من فضائله وهي كرمه ومروءته وإحسانه في صمت إلى الكثيرين من أصدقائه وغير أصدقائه من المعوزين والضعفاء ، ونحن نكتفي بنقل سطور قلائل من فصل كبير عقده العقاد على هذه الناحية من حياة الأستاذ الامام ، فقد قال: « ان الشيخ محمد عبده كان رائد الخدمة الاجتماعية في وطنه قبل ان تعرف في هذا الوطن وفي غيره مصالح الخدمة الاجتماعية التي سميت بعد ذلك بأسماء الوزارات والدواوين ، ولم يكن يقنع بما يسديه من الخير بيده حتى يكون هذا الخير في مجاله الواسع عملاً عاماً للمجتمع يتعود القائمون عليه ان يوطدوا قواعده ويتعاونوا على تنظيمه ويتكفلوا له بضمان البقاء بعدهم لمن يخلفهم عليه [2] » .

أما الدين فكان وجداناً له يتجسد في كل عمل من أعماله وقول من أقواله ، لاعتقاده بأن الايمان الصحيح هو ما ظهر أثره في الأخلاق والأعمال ، وهو لا يتصور إمكان اجتماعه مع الذل والصغار وإقرار الباطل ، والتمسك بالخرافات التي تتنافى مع العقل .

---

١ – محمد عبده للعقاد ص ٢٥٩

٢ – محمد عبده ص ٢٢٧

وكان يكبر الرسول العربي إكباراً لم يروَ إلا عن عظام ائمة الاسلام . ومن أجل هذا نفسه كان يجل الرسول عن ان تنسب إليه مناقب ومعجزات وأحاديث منها الضعيف والموضوع ومنها ما هو منفّر عن الاسلام ، وشبهة على الايمان ، وان يُطرى بما يُعقل وما لا يُعقل ، وما يُقبل في الشرع وما لا يُقبل ، لأن ركن الدين عنده ، ليس الغلو في الاطراء ، بل اليقين المنطقي القائم بالدليل والبرهان . قال في « رسالة التوحيد » بعد ان عدد فضائل الرسول : « أأقول ما هذا بشراً إن هذا إلا ملك كريم ؟ لا ، لا أقول ذلك ، ولكن أقول كما أمره الله ان يصف نفسه : أن هو إلا بشر مثلكم يوحى إليه ! »

وقد اتهم الامام بالكفر كما رأينا ، وهو غير ما جاء في سيرته التي دونها مريدوه وأصحابه. ولعل أصدق ما قيل في عقيدته، قول تلميذه الأستاذ مصطفى عبد الرازق: « ان منزعه فيها كان منزع الفيلسوف ابن رشد » .

كلمات مختارة لمحمد عبده

لا يرجع عن الحق أو يكتم الحق لأجل الناس ، إلا الذي لم يأخذ إلا بما قال الناس ، ولا يمكن ان يأتي هذا من موقن يعرف الحق معرفة صحيحة .

العفة ثوب تمزقه الفاقة .

إنما بقاء الباطل في غفلة الحق عنه .

لا يكون أحد صادقاً ومخلصاً حتى يكون شجاعاً .

ما رأيت بلداً جعل فيه الدين دكاناً مثل هذا البلد .

أخفى شيء على الانسان نفسه ، وليس من السهل عليه ان يعرف دخائلها .

لا يمكن للانسان ان يعمل بمصلحة العامة ما لم يحس برابطة بينه وبينهم .

ان الذي يحفظ العلم هو العمل به .

من أكبر التقوى السعي في مصلحة الأمة ونفع الناس .

الباطل لا يصير حقاً بمرور الزمن

من الناس من يحبون ان يقعدوا في صندوق من الجهل ويقفلوه على أنفسهم حتى لا يأتي فاتح يفتحه ويفرّج عنهم .

أشد التعب ان ترى من حولك مرضى ولا تستطيع معالجتهم .

قالوا تصان البلاد ويحرس الملك بالبروج المشيدة ، والقلاع المنيعة والجيوش العاملة والأسلحة الجيدة ، قلنا نعم هي احراز وآلات لا بد منها للعمل فيما يقي

البلاد ، ولكنها لا تعمل بنفسها ولا تحرس بذاتها فلا صيانة بها ، ولا حراسة إلا ان يتناول أعمالها رجال ذوو خبرة وأولو رأي وحكمة يتعهدونها بالاصلاح زمن السلم ويستعملونها فيما قصدت له زمن الحرب .

ان في الوطن من موجبات الحرص والغيرة ثلاثة تشبه ان تكون حدوداً : الأول انه السكن الذي فيه الغذاء والوقاء والأهل والولد ، والثاني انه مكان الحقوق والواجبات التي هي مدار الحياة السياسية ، وهما حسيان ظاهريان ، والثالث انه موضع النسبة التي يعلو بها الانسان ويعز أو يسفل ويذل وهو معنوي محض . فإذا تقرر ذلك مما قلناه وجب على الانسان حب الوطن من كل هذه الوجوه .

لا وطن إلا مع الحرية ، بل هما سيان ، فان الحرية إنما هي حق القيام بالواجب المعلوم ، فان لم توجد فلا وطن لعدم الحقوق .

إنما تسعد البلاد وتستقيم حالها إذا ارتفع فيها شأن القانون واحترمه الحاكمون قبل المحكومين ، واستعملوا غاية الدقة في فهم فصوله وحدوده والوقوف على حقيقة مغزاه ، وسهروا على تطبيق أعمالهم جزئية وكلية ، على منطوقه الحقيقي ومفهومه ، عند ذلك تحيا البلاد حياة حقيقية .

هلاك العامة فيما ألفت .

الذل يميت الارادة .

من لا صديق له فهو عدو نفسه وعدو الناس

من أهم ما يجب التصريح به بيان ما انتشر بين العامة مما يحسبونه ديناً وهو عند الله ليس بدين .

الحياء أحسن فضيلة في الانسان تمنعه عما لا يليق به ، ونعم الخلق الحياء .

من يدعي أنه على حق ولا يعمل به فهو كاذب .

الدليل على صدق الانسان فيما يدعيه من الاخلاص أن يبذل من نفسه في سبيله، فان لم يبذل فهو كاذب ، ومهما بلغ الانسان ولم يظهر هذا المحك اخلاصه فهو غير مخلص .

من الناس من يطلب كماله بتنقيص الكامل وهذا نهاية الخسران .

لا صلاح مع الجهل .

تغنّغ بعض الناس بلفظ الاجماع حتى أصبحت لهم ديدناً ، وحتى زعموا ان كل ما عليه العامة فهو إجماع .

إنما يأتي بالمبالغة في قوله ، من كان مجازفاً في رأيه ، والعقل السليم لا يتعدى الصدق .

ما خلق الله في العالم من هو أشأم على نفسه من الحاسد .

تنقضي الأجيـــال والأعوام ولا يمكن ان ينقضي النظر في الحقائق الكونية ولا في الحقائق التي في نفس الانسان .

إذا وجد الحب في قلب اسعده وأذهب شقاءه ، وأسعد المحبات محبة الصداقة ، فإذا وجدت المحبة الخالصة الصحيحة بين شخصين أسعدتهما أعظم سعادة، ومن الأسف ان كثيراً منا لا يمكنهم أن يقدروا المحبة قدرها .

من أكبر التقوى علو الهمة، ومن أكبرها السعي في مصلحة الأمة ونفع الناس.

من شر الهوى على الانسان ان يتعلق بما سمع ، وطالب الحق لا يتعلق بقول غيره إلا إذا عرف انه يوصله إلى الحق .

الكتاب الثالث

سعد زغلول

رائد الكفاح الوطني في الشرق العربي

ان سعد زغلول هو أستاذي وأستاذ
جميع الحركات الوطنيـة في الشرق

غاندي

من صلب الشعب

إذا ذكرت نهضة مصر الحديثة، كان اسم سعد زغلول في طليعة الأسماء اللامعة التي تتبادر إلى الذهن وتهجس في الضمير، لأنه رمز كفاحها من أجل الحرية في حقبة عصيبة من تاريخها، ولأن هذا الكفاح الدامي هو الحافز الأول لكل نهضة جاءت من بعده، في العلم والفن والسياسة والاجتماع، وهو مصدر كل خلجة من خلجات الوعي فيها وملهم كل ابداع.

مرتفع القامة مستقيمها، عريض الكتفين قويها، ورأسه الشامخ ينسلخ من بين كتفيه كأنه رأس أبي الهول، يحمله عنق فخور به، يجلله الشعر الأبيض كأنه لبد الأسد، وعيناه تقدحان الشرر إذا غضب، ولكنهما تمطران الرحمة إذا أشفق، وشارباه يكادان يصيحان: إن هذا إلا رجل مقاتل، أو رجل جهاد لا رجل دس.. وفمه المحكم اقفاله يدلك على ان هذا الرجل إذا صمم فلا سبيل إلى الرجوع عن تصميمه، وإذا عزم فلا مزد لعزمه. وكل ما فيه يشير إلى القائد... هكذا وصفه صديقه وتلميذه مكرم عبيد[1].

عاش هذا القائد الفذ سبعين سنة اتصلت حياته خلالها بكل ناحية من نواحي

---

١ – انظر المكرميات ص ٣٩

المجتمع المصري ، فكان زعيماً مقدماً في كل منها ، ذا أثر بعيد وطابع خاص وشخصية بارزة فيها جميعاً . فسواء نظرت إليه كثائر من ثوار الأزهر ، أو نابغة من نوابغ المحامين ، أو قاض من أفذاذ القضاة ، أو وزير لامع في الدولة ، أو نائب جريء في مجلس النواب ، أو زعيم حكيم للأمة ... وسواء نظرت إليه في بيته أم في الشارع ، في الحكم أم في المنفى ... فلن تجد فيه إلا مثلاً عالياً ، واماماً سابقاً ، ورائداً من رواد الفكر والعمل والكفاح .

ولقد اشترك في ثورة عرابي سنة ١٨٨٢ (١٣٠٠ هـ) وهو في ميعة الشباب فكان فيها رمزاً لمصر الفتية المجاهدة لاستبقاء شخصيتها وسط عوامل الفناء المحيطة بها من كل صوب ، وقاد ثورة سنة ١٩١٩ (١٣٣٨ هـ) وهو في الستين من عمره فكان فيها رمزاً لمصر الناهضة التي نضجت في مصهر الآلام ، وخرجت من المحن المتعاقبة عليها أوفى كرامة وأوفر حكمة وأقوى بأساً . وبين هاتين الثورتين ، وقبلهما ، وبعدهما ، اتصلت حياته بحياة أمته ، متجاوبة معها روحاً وعملاً ، متأثرة بها ومؤثرة فيها ، مطردتين معاً في تناسق رائع ، حتى ليصح القول ان سعد زغلول قد جمع في شخصه تاريخ مصر الحديث وبه تمثلت نهضتها .

*

اختلف الباحثون في نسب سعد زغلول فمنهم من نسبه إلى المغول أو الترك ، ومنهم من زعم انه من المغرب ، وقال آخرون ، وهو الذي نرجحه ، انه من أسرة بدوية عربية قدمت إلى مصر وعاشت فيها منذ مئات السنين . اما هو فلم يكن ليعتد بنسبه ، ولم يكن بالتالي ليحفظه أو يبحث عنه ، ولكنه كان يفخر بأنه من صلب الأمة المصرية ومن صميم الفلاحين المصريين . وقد خطب مرة فقال : « لم أكن أميراً فيكم ، ولا أنا من بيت كبير ، بل أنا فلاح ابن فلاح ، من بيت صغير يقول خصومنا إنه حقير ، ونعمت الحقارة هذه ! »

وقد ولد في تموز (يوليه) سنة ١٨٥٧ (١٢٧٤ هـ) ، وقيل في حزيران (يونيه) سنة ١٨٦٠ (١٢٧٧هـ) ، ونشأ في جيل من المصريين كان قد بدأ يتطلع إلى النور ، بعد ان فدحه ما يعاني من ظلم الأتراك والمستتركين وما عقبه من ظلم الانكليز ،

وبعد ان تسامع بصرخات الحرية التي تعالت في الغرب وبالثورات الدامية التي انفجرت في سبيلها ، فكأنه أرسل في الوقت المناسب ليعبر عن مطامح ذلك الجيل، ويسدد خطاه نحو الحرية والنور ، ويكون رائد كفاحه الوطني المجيد .

كان سعد فلاحاً لكنه لم يكن من الفلاحين المدقعين ، فقد كان لأبيه ابرهيم زغلول المقام الأول في بلدته « أبيانة » بأقليم الغربية ، وهو اليد العاملة والرأس المفكر فيها ، فأحس ابنه بالفقر ولكنه لم يتمرس فيه تمرساً يحد من طموحه ويخمد من مواهبه . وشاهد الجهل فيما حوله لكنه لم يركبه فيصرفه عن انتهاج الطريق القاصد . وقضى سني حداثته في تلك البيئة الريفية التي كان يسودها من ظلم الموظفين الأتراك ارهاق شديد ، حتى ان مأمور أحد الأقسام شنق عمدة وصلبه ثلاثة أيام لأنه تطاول عليه في الكلام ! وقد تولى الجنود الجراكسة حفظ الأمن فيها وهم أول العابثين به والمستبدين بالأهلين ، فكانت بيئة مضطربة ، متحفزة ، تتمخض بثورة الفلاحين المصريين على الظلم والاستبداد ، تلك الثورة العارمة التي قادها فلاح آخر هو أحمد عرابي الذي نشأ مثله من صلب الشعب .

ومات ابرهيم زغلول ، وابنه سعد في السادسة من عمره فعاش وأمه في كنف أخيه . وكان هذا المصاب الذي حرمه حنان الأبوة ورعايتها ، عاملاً جديداً من العوامل الكثيرة التي مهرته بطابع الكفاح العنيد ، لأنها صهرته في مصهر الألم الحافز لكامن القوة والبأس، وعودته الشعور بذاته والاعتماد عليها في معترك الحياة، وهي خلة أساسية من خلال الرجل العظيم .

ولم يكن في اقليم الغربية مدرسة عصرية ، فأدخله أخوه في الكتاب ليتلقن مبادىء الكتابة والقراءة والنحو والتجويد ، فلبث فيه بضع سنين ، ثم أرسله سنة ١٨٧١ (١٢٨٨هـ) إلى الأزهر ليتفقه في الدين . وكأنما كان سعد زغلول والاصلاح على موعد في القاهرة . ففي تلك السنة نفسها قدم إلى مصر جمال الدين الأفغاني ليبث دعوته الجريئة إلى التحرر والتجديد ، وانتشرت الجمعيات السرية في أنحاء مصر للعمل على إنقاذها من المظالم ومن إرهاق الناس بالضرائب ، وبدأت تنمو بذور الثورة العرابية التي ترمي إلى إحلال العنصر الوطني في الحكم محل الأتراك

والجركس .

وكان سعد يسكن في غرفة واحدة ، في درب الأتراك بحي الأزهر ، مع أربعة آخرين من الطلبة ، وكانوا يضيئون غرفتهم بقنديل يشعل بالزيت ويكلفهم طول الشهر عشرة مليمات ، يدفع كل منهم نصيبه فيها . ولكن أحد هؤلاء الطلبة ، وهو ابرهيم الهلباوي، أراد ان يضايق سعداً من باب المداعبة ، فحرض بقية المشايخ عليه ، متهماً إياه بأنه أكثرهم انتفاعاً بالقنديل لأنه أكثرهم قراءة بالليل ، ولذا حق عليه أن يدفع أربعة مليمات ! ولكن سعداً دافع عن نفسه ، وضرب لهم مثلاً غاية في الطرافة ، إذ قال : « لو ان رجلاً علق على باب بيته فانوساً ليضيء له ، فانتفعت بهذا الضوء غازلة أو ناسجة وهي في منزلها ، وزاد إنتاجها ، فهل يعني هذا ان للرجل الحق في مقاسمتها إنتاجها الذي زاد ؟ كلا بالطبع ، وهكذا حالكم معي ، فقنديلكم مشعل طول الليل ، قرأت عليه أو لم أقرأ .. وليس لكم ان تطالبوني بأكثر مما يدفعه أي واحد منكم ! »

ثم انتقل سعد والهلباوي وشيخ آخر يدعى البسطاويسي إلى غرفة أخرى في حارة القرد المتفرعة من شارع المقريزي خلف الأزهر، أجرها ستة قروش في الشهر، وعجزوا في أحد الشهور لأزمة طارئة عن سدادها،وأخفقت جميع المحاولات التي قاموا بها لإقناع صاحبة المنزل بتأخير الدفع ، وأنذرتهم بأنها سوف تلقي في الصباح بكل متاعهم إلى الشارع . واجتمع الطلاب الثلاثة تحت القنديل يفكرون في مخرج، فخطرت لسعد فكرة ما لبثوا ان عمدوا إلى تنفيذها ، ذلك ان صاحبة البيت كانت قد فقدت ولداً في بلاد الغربة ، فكان يشجيها ان ترى غريباً مريضاً ، فلما أقبلت في الصباح وهي تهدد وتتوعد ، وجدت الشيخ البسطاويسي مستلقياً في الفراش بحجة المرض ، فاغرورقت عيناها بالدموع ، وأصرت على ان تعالجه بنفسها ، وراحت تسقيه ألواناً من الوصفات الشعبية . وبعد أيام جاءت النقود وانتهت الأزمة، وأراد البسطاويسي مغادرة الفراش ولكنه لم يستطع ، لأنه كان قد أصيب بالمرض فعلاً !

ومن ذكريات تلك الأيام الطريفة ، ان المجاور الشاب سعد زغلول أحب فتاة من درب سعادة، وراح يوسّط من يعرفهم عند والدها ليوافق على زواجه من ابنته،

ولكن الأب قارن بين المجاور الأزهري الرقيق الحال والتاجر الذي تقدم إليه طالباً يد ابنته ، فقبل التاجر ورفض سعد زغلول !

وفي تلك السنة نفسها تولى رئاسة الأزهر الشيخ محمد المهدي العباسي وهو من أوائل المصلحين ، فانقسم قادة الرأي في مصر ، وشيوخ الأزهر وطلابه ، إلى فريقين: المحافظين الذين يحرصون على انتهاج السنن القديمة في التعليم، وبقاء الأوضاع الاجتماعية على ما كانت عليه منذ مئات السنين ، والمجددين الذين يريدون نبذ كل قديم متحجر ويدعون إلى أسلوب من الحياة والتفكير فيه جدة وتحرر ومسايرة لروح العصر . فلم يتردد الفتى الريفي في الانضمام إلى هؤلاء . وكان على سعد ان يختار أساتذته فاختار جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده رسولي الدعوة الحارة إلى التجديد ، وكان عليه ان يصطفي من زملائه وأترابه في الأزهر وخارجه رفاقاً له ، فاصطفى اللقاني وأبا خطوة وعبد الكريم سلمان وأديب اسحق طليعة المجددين من الشباب .

وانتظم الفتى في حركة الاصلاح ، وخاض معركته العنيفة ، حتى وجد نفسه ذات يوم وهو ينتظر هبوط الليل ليعلق تحت جنحه ، على أعمدة الجامع الأزهر ، مناشير سرية بيّن فيها مواضع الخلل في المعهد وعيّن وسائل العلاج . فكانت هذه المناشير أول صيحة أرسلها في سبيل الحرية .

ولما حيل بين جمال الدين وحلقات الأزهر ، أنشأ ذلك الطالب المجدّ يختلف إليه في داره فيأخذ عنه مبادئه الثورية ويذيعها بالخطابة بين زملائه أو بالكتابة في الصحف ، متأثراً بجرأته وحماسته وصلابته في الحق . ويروى انه حين رأى السيد جمال الدين لأول مرة قال : « هذا بغيتي ! » وان السيد استكتب تلاميذه مقالاً عن الحرية أجاد سعد في كتابته ، فقال : « مما يدل على ان الحرية ناشئة في مصر ان يجيد في الكتابة عنها هذا الناشىء » . ثم تولى الشيخ محمد عبده تحرير « الوقائع المصرية » صحيفة الحكومة ، فاختار سعداً سنة ١٨٨٠ لمساعدته في تحريرها ، وانتفع سعد كثيراً بصحبة الشيخ والعمل معه ، وقبس الكثير من أدبه وخلقه .

وفي هاتين المدرستين اللتين تكمل احداهما الأخرى، مدرسة جمال الدين الأفغاني

ومدرسة محمد عبده ، نضج سعد ودخل معركة الحياة لينشيء فيها مدرسة جديدة هي مدرسة سعد زغلول التي كملت تينك المدرستين ، وأقامت الكفاح الوطني في مصر والشرق العربي على أساس متين .

وعلى الرغم من ان « الوقائع المصرية » كانت صحيفة رسمية ، فقد أطلق سعد لقلمه العنان فيها ، وأخذ ينتقد نظام الحكم الفردي بالقول الصريح المحكم ، ويبرهن على ان الشورى والدستور وإنشاء مجلس النـــواب هي أمور من صلب الشرع الاسلامي ، في مقالات قيمة تدل على قوة العقيدة الوطنية ونزعة الحرية في نفسه الفتية ، ومنها فصل عن الشورى يقول فيه : « المستبد عرفاً من يفعل ما يشاء غير مسؤول ، ويحكم بما يوسم به هواه ، وافق الشرع أو خالفه ، ناسب السنة أو نابذها. ومن أجل هذا ترى الناس كلما سمعوا هذا اللفظ أو ما يضارعه ، صرفوه إلى هـذا المعنى ونفروا من ذكره ، لعظم مصابهم به وكثرة ما جلب على الأمم والشعوب من الأضرار ، وحق لهم النفور والاشمئزاز ، إذ لم ينالوا من جرائه إلا وبالاً ، ولم يلقوا من احكامه إلا نكالاً ، بل شاهدوا النفوس تذهب فيه ظلماً ، وتؤكل فيـــه الأموال أكلاً لمّاً ، وتسفك الدماء زوراً ، وتدمر البلاد تدميراً ، فلا تثريب عليهم إذا كرهوا سوقه في سياق المدح ولو يراد به غير ما عرفوه . ولقد تبين لك ممـــا قدمناه ان الشريعة لا تبيحه ، وإنما توجب تقيد الحاكم بالسنة والقانون.ومن البديهي الواضح ان نصوص الشريعة لا تقيد الحاكم بنفسها ، فانها ليست إلا عبارة عن معاني أحكام مرسومة في أذهان أرباب الشريعة وعلمائها ، أو مدلولاً عليها بنقوش مرقومة في الكتب ، ولا يكفي في تقيد الحاكم بها مجرد علمه بأصولها ، بل لا بد في ذلك من وجود أناس يتخلقون بمعانيها ويظهرون بمظاهرها ، فيقومونه عند انحرافه عنها ، ويحضونه على ملازمتها ، ويحثونه على السير في طريقها ، ومن أجل ذلك دعا سيدنا عمر رضي الله عنه الناس في خطبته إلى تقويم ما عساه يكون فيه من الاعوجاج في تنفيذ أحكام الشرع الشريف . وقال تعالى : « ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، وأولئك هم المفلحون ... الخ » .

كان حكام مصر تلك الأيام ، يرهقون كاهل الشعب المصري بالضرائب للانفاق

على بذخهم وترفهم ، وانكلترة الطامعة بمصر تغريهم بالمضي في الترف والبذخ وتمدهم بالمال ليزدادوا اغراقاً فيها ، فيؤخذون بالاغراء ، ويتورطون في الديون ، ويمعنون في الإسراف ، ويقومون بمشاريع ينوء بها عاتق الدولة ولا يفيد منها أحد كما يفيد الغرباء عنها ، الطامعون بها . فالرأسماليون الانكليز كانوا يقرضون المال كمرابين ، ثم يقبضونه كمقاولين ، ثم يطالبون به كدائنين . ويجد الحكام المصريون أنفسهم مضطرين إلى إرهاق الفلاح المصري وعامة المصريين من جديد ، بضرائب فادحة جديدة للانفاق على ملاذهم وتحقيق مشاريعهم ، ووفاء ربا الديون التي أنفقوها على تلك الملاذ والمشاريع . وهم فوق هذا يظلمون ويستبدون ، ويغالون في الظلم والاستبداد .. حتى نفدت طاقة الأمة المصرية على الاصطبار .. فانفجرت تلك الثورة الطامية على السياسة المالية الخرقاء، وعلى استبداد الحكام من أتراك ومصريين، وعلى دسائس الانكليز الطامعين بالبلاد .. وأيد هذه الثورة كل مصري لأن كل مصري كان يناله من ذلك العسف ألوان ، وسار في خضمها كل وطني حر ، وما أكثر الوطنين الأحرار في عهد كان على رأس شيوخه جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده، وعلى رأس شبابه مصطفى كامل وسعد زغلول،وعلى رأس ثورته أحمد عرابي!

إلا ان الثورة العرابية لم تفلح مع هذا كله ، لأنها كانت موجة نقمة لم تنظم ، ووطنية لم تنضج ، ونهضة لم تتعهدها عقول خبيرة حازمة تحسن توجيه الجماهير الشعبية والاحتياط للدسائس الأجنبية وخيانة الحكام ، فباءت من ثم بالاخفاق الذريع . وقد عملت انكلترة على إحباطها ، واتخذتها ذريعة لاحتلال مصر ، وإخضاعها إخضاعاً مباشراً ، وإدخال الموظفين البريطانيين في جميع الدوائر الهامة ولا سيما في وزارتي المالية والحربية . فكانت كارثة كبرى أدت إلى ردة رجعية في البلاد ، إذ تداعى الايمان من جرائها بالنهضة الوطنية والثقة بمستقبلها ، فلاذ ضعاف العزائم والضمائر بأعتاب الحكام والمستعمرين ، وتعرض الوطنيون الشرفاء إلى ألوان شتى من الاضطهاد ، وشاعت في مصر كلها روح القنوط والاستسلام .

وقد اشترك سعد في الثورة العرابية وسار في طليعة صفوفها ، ولكن حين تداعت هذه الثورة لم يتداع في قلب سعد الايمان بمستقبل الحركة الوطنية والعزم على

مواصلة الكفاح الوطني حتى يبلغ نهايته المرجوة ، ولم يتنكر سعد لمن اضطهد من رجالها وشردوا في المنافي وزجوا في غيابات السجون ، بل ظل صلباً في عقيدته، ثابتاً في ميدانه ، وفياً لأساتذته واخوانه من المجاهدين .

وكان سعد قد انقلب « أفندياً » فخلع العمامة والجبة والقفطان ، وعيّن سنة ١٨٨٢ (١٣٠٠ هـ) معاوناً في وزارة الداخلية ثم ناظراً لقلم قضايا الجيزة . فلما نشبت الثورة العرابية فصل عن وظيفته ، ولما أخفقت حاربه أعداؤها . ثم اتهم عام ١٨٨٤ (١٣٠٢ هـ) وصديق له يدعى حسين صقر ، بتأليف جماعة سرية اسمها « جماعة الانتقام » لاغتيال الأشخاص الذين خاصموا العرابيين أو خانوهم أو بطشوا بهم ، فلم يقم في المحاكمة أي دليل على صحة التهمة الموجهة إليهما . ولكنهما بقيا معتقلين على الرغم من إعلان براءتهما ، لعزم الحكومة على نفيهما إلى السودان ، غير ان تنفيذ عقوبة النفي بعد صدور حكم البراءة كان تحدياً للقضاء الأجنبي الذي نظر في تلك القضية ، فاضطرت الحكومة إلى الافراج عنهما بعد ان طال اعتقالهما ٩٨ يوماً . ومن أطرف ما رواه سعد عن هذه الحادثة ان محافظ العاصمة لم يكن لديه دليل على اشتراكه بجمعية الانتقام سوى شطر من بيت وجده مكتوباً بغير خطه على غلاف كتاب ، وهو « لي في ضمير الدهر سر ظاهر » فكان المحافظ يقول له : « ما هو هذا السر ان لم تكن فيه إشارة إلى جماعة سرية ؟ » وقد روى سعد هذه النادرة لكاتب كبير سأله هل حاول وهو في الأزهر نظم الشعر على عادة الطلاب الأزهريين في ذلك الزمان ؟ ثم علق عليها بقوله :

– هذا ما صنعته بنا شطرة واحدة لم ننظمها فكيف بالشعر لو نظمناه !

وقد اضطر سعد تلك السنة إلى ممارسة المحاماة ، وإنما نقول انه اضطر إلى ذلك لأن هذه المهنة كانت عهدذاك مكروهة مزدراة أشبه بالشعوذة والاحتيال . قال في خطبة له : « نظرت إلى المحاماة فإذا من رزئت به من الذين كانوا عنوان سمعتها وذكرها كأنهم الشوك يؤذي الناس ويعذبهم ، وذلك انهم كانوا يسيئون إلى عباد الله بخياناتهم وزيغهم عن طريق الحق والهدى ، ولذلك ترددت بادىء بدء ، ثم قلت في نفسي : « ما ضرك لو كنت وردة بين هاتيك الاشواك ! فلما استقر بخاطري ان

القيام بالواجب خير للمرء حتى وان كان بحرفة هي بأهلها من سقط المتاع ، أقدمت مستحصد العزم على الاشتغال بهذه الحرفة بين أولئك الذين عددتهم شوكاً ». وقال: «اشتغلت بالمحاماة متنكراً على أهلي وأصحابي .. واتصلت بها والخجل يستر وجهي لسقوط اعتبار من كانوا يتعاطونها . كان اسم المحامي مساوياً لاسم المزور ، وكان لا يستطيع ان ينتسب لأي بيت من البيوت العالية ، وكنت أجتهد ألا يعرفني إلا أرباب القضايا ، وإن كنت لا أجهل ماذا تكون العاقبة » .

وكان المحامون مشهورين يومذاك بمهارتهم في شتم بعضهم بعضاً ، فلما وقف سعد في أول مرافعة له أمام محكمة الاستئناف ، طفق زميله يطعن فيه دون أن يعرفه، وزعم انه محام قديم معروف بالاحتيال ، فلما جاء دور سعد بدأ مرافعته بقوله : « إن كلام زميلي ينحصر ، بعد حذف المطاعن ، في كذا ... » وانتقده دون ان يجاريه في شتائمه . ثم جرى على هذا الأسلوب ، وجرى عليه آخرون .

مارس سعد المحاماة تسع سنوات بما عرف عنه من الاباء والعزة والاستقامة والدفاع عن الحق وحده ، فارتفع بهذه المهنة إلى المستوى الذي ينبغي لها، ولم يكن في وسع البيئة الموبوءة التي كانت تحيط بها أن تجر إليها رجلاً كسعد . فالتمع اسمه مقترناً بالاكبار والاعجاب ، وعظمت الثقة به في أوساط القضاء ، واشتهر بأنه لا يدافع عن باطل ولا يقبل إلا القضية العادلة ، وان القضية الرابحة هي التي يدافع عنها .

يقول أحمد بهاء الدين ان الحكومة كانت تنظر إلى سعد في أول عهده بالمحاماة « نظرة ارتياب فتلقي القبض عليه بتهمة تأليف « جمعية الانتقام » ثم لا تجد دليلاً فتفرج عنه . وفي آخر عهده بها تنظر إليه الحكومة نظرة اطمئنان فتعينه قاضياً ، ويكون أول محام مصري يجلس في كرسي القضاء [1] » .

ومن أطرف ما حدث له ان أحد الأعيان من أبناء المنوفية جاءه ذات يوم وقال له :

---

١ – أيام لها تاريخ ص ١٠١

– انني أعلم انك مسافر غداً إلى شبين الكوم للمرافعة في إحدى القضايا ، ولي هناك قضية أرجو ان تتولى فيها المرافعة عني ..

ثم أخرج كيس نقوده وعدّ منها خمسين جنيهاً ذهباً ، ودفع بها إليه عربوناً على أن يدفع مثلها إذا كسب له القضية. فلما قص عليه تفاصيل قضيته رد إليه ماله قائلاً:

– ان قضيتك خاسرة ولا فائدة من المرافعة فيها ، فوفر عليك مالك !

ولكنه أبى وتشدد ، فقال له :

– إذن سأترك لك فرصة للتفكير إلى غد ، لعلك مقتنع بنصيحتي ، فتوفر مالك وجهدك ، أما إذا صممت على رأيك فسأكون في محطة القاهرة في السابعة صباحاً في طريقي إلى شبين الكوم .

وقبيل قيام القطار بقليل قدم الرجل المنوفي يلهث ، ومال على يد سعد يريد ان يقبلها راجياً ملحفاً في الرجاء ، ان يقبل الدفاع في قضيته، ودفع له مقدم الأتعاب.. فلم يسعه إلا القبول .

وبين القاهرة وشبين الكوم لم تفارقه الدهشة لسذاجة الرجل الذي أكد له ان قضيته خاسرة ، ومع ذلك صمم على ان يترافع فيها ، وعلى ان يقبض ذلك المبلـــغ الضخم كمقدم للأتعاب !

وتشاء المصادفات ان يمضي سعد اليوم بطوله وهو يترافع في القضية الأولى التي كان قد أشبعها درساً وتنقيباً ، ولم يبق من وقت المحكمة إلا دقائق قليـلة هي التي استغرقتها مرافعته في القضية الثانية ، قضية الرجل المنوفي .. وشد ما كانت دهشته في نهاية الجلسة، حين خسر القضية الأولى التي سهر فيها الليالي وربح القضية الأخرى التي كان يرفض الدفاع فيها !

وجاءه الرجل في اليوم التالي ببقية الأتعاب ، وأفاض عليه من شكره وإعجابه ما لا مزيد عليه . وقد اعترف سعد بأن هذه القضية كانت سببـــاً في رواج عظيم أصابه كمحام ، ذلك ان الرجل لم يدع مجاساً في المنوفية أو في غيرها إلا وتحدث فيه عن نبوغ سعد زغلول وكيف انه كسب له القضية التي أضناه اليأس منها !..

وكان سعد يرافع عن المظلومين الفقراء بغير جزاء ، وقد روت زوجته السيدة



أم المصريين ومكرم عبيد وقرينته في أسوان

صفية زغلول (أم المصريين) انه قال لها أيام النهضة الوطنية سنة ١٩١٩ (١٣٣٨هـ) :

— الآن نوفي كل ما فاتنا من دفاع عن المظلومين .. فهذه قضية المصريين جميعاً ، والغني منهم في طلب الاستقلال فقير .

ولا ريب في ان اشتغاله بالمحاماة ، قد أفاده فائدة عظمى ، فوسع أفق معارفه، وزاد خبرته بالحياة ، وأراه رأي العين ما يضطرب فيه وطنه من علل وما يعانيه مواطنوه من مظالم ، ونمّى فيه ملكته الخطابية وحجته المنطقية وتصرفه في أساليب البيان ، حتى أضحى مضرب المثل في نبوغه القانوني .

وكان العهد يبعد بثورة عرابي ، والأمور تصير إلى شيء من الاستقرار ، وان كان استقراراً على الألم والتربص والانتظار ، والمجاهدون السابقون الذين ظلوا على قيد الحياة يعودون من المنافي أو يخرجون من السجون ، ومنهم الشيخ محمد عبده الذي رجع إلى وطنه وتولى فيه عدة مناصب قضائية ثم أضحى مستشاراً في محكمة الاستئناف ، فاقترح على زملائه القضاة الانتفاع من مواهب سعد في القضاء ، فعين سنة ١٨٩٢ (١٣١٠ هـ) نائب قاض في محكمة الاستئناف ، فكان أول محام في مصر عين قاضياً ، وقد بقي في القضاء أربع عشرة سنة ، وما زال يرقى فيه حتى بلغ أعلى مناصبه .

وفي هذا العهد، خطب سعد زغلول صفية ابنة مصطفى فهمي باشا رئيس الوزراء وتزوجها في شهر شباط (فبراير) سنة ١٨٩٦ (١٣١٤ هـ) وهي في الثامنة عشرة من عمرها وهو في حدود الثامنة والثلاثين. فوجد فيها زوجاً كريمة أحبته كل الحب، ووفت له أعظم الوفاء ، وتوفرت على العناية به ، وأحاطته بالجو الوادع الذي يستطيع السكون إليه ، وشجعته على العمل والكفاح ، فكانت ربة منزل ورفيقة نضال وشريكة حياة ، وكان بيتها مصدر راحة وسعادة لزوجها العظيم ، ومصدر نشاط روحي لنساء جيلها ورجال مصر السياسيين ، يستروحون فيه من نسيم الحياة الرفيعة ما لا يجدونه في أي مكان . قال لها في فجر الثورة :

— يا صفية ، انني وضعت رأسي على يدي هذه .

وبسط لها يناه ، فأجابته :

ــ وضع رأسي على يسراك !

وبما روي ان سعداً كان شغوفاً بالمطالعة ، بعد الساعات التي ينصرف فيها لقراءة كتاب ممتع أهنأ ساعات حياته ، وكان بعد زواجه لا يظهر في الحفلات مع زوجته ، فأشيع أنه متزوج من امرأة أخرى ، وسألت صفية هانم إحدى صديقاتها يوماً :

ــ أصحيح أن سعداً قد تزوج امرأة أخرى ؟

فقالت : نعم .. وهي تقيم معي في هذا البيت !

وأخذت السيدة من يدها إلى مكتب سعد وأشارت إلى مكتبته قائلة :

ــ هذه هي ضرتي !

وكان سعد ينشد في بيته الدعة والراحة ، ليقوى على العمل والجهاد ، فيكل كل شيء من مهام البيت لزوجته . وقد قيل لها مرة :

ــ أين زوجك ؟ ألا يسمع له صوت ؟

فأجابت : ان صوته يسمع في كل مكان إلا هذا المكان !

ولم ينجب هذا الزواج الموفق ولداً ، فكان سعد يعزي صفية بقوله : « لقد فاتنا النسل فأصبحت هذه الأمة كلها من أبنائك وأبنائي ، ونعم العوض الذي عوضنا الله ! » .

ومن هنا سميت تلك السيدة الجليلة أم المصريين.

ثورة في القضاء

كانت سيرة سعد زغلول في القضاء سيرة القاضي العادل والمجتهد الثائر الذي لا يبالي مخالفة زملائه فيما اطمأنوا إليه من فهم ظاهر القانون في سبيل التمسك بجوهره والغرض الانساني الذي وضع من أجله ، ولا يتردد في الخروج على التقاليد المتبعة والسنن الموروثة إذا ما تبين له أنها تعترض ظهور العدالة أو تعترض تحقيقها .

وقد ظلت هذه الصفحة الرائعة من حياة سعد مطوية منسية ، حتى أتيح لها كاتب فذ هو الأستاذ عبده حسن الزيات المحامي ، فنقب عنها ونشرها من مكامنها في دور المحفوظات والمجموعات القانونية وملفات القضايا ، مدققاً فيها محللاً إياها مقارناً بينها ، فأدى خدمة عظيمة للقضاء المصري والبحث العلمي والنهضة المصرية . وليس من اختصاصنا البحث في الناحية الحقوقية من اقضية سعد ، وإنما الذي يعنينا في هذه الترجمة ان نعرض إلى ناحية الحرية فيها ، وهي ناحية لا تقل أهمية وعظمة عن تلك.

كانت مزية سعد زغلول الكبرى في وظيفته القضائية ، انه جمع بين العدالة والمصلحة الاجتماعية العامة . فهو لم يكن بالقاضي الذي يتعبد للنص القانوني فيضحي بالعدالة في سبيله، بل كان قاضياً جريئاً مجتهداً لا يتمسك بحروف القانون ولا يتحرج في تفسيره بما يتفق والمصلحة العامة ، لأن الأصل في القانون في رأيه ، هو خدمة هذه المصلحة ، فإذا تعارضت مع بعض نصوص التشريع لنقص أساسي في هذه

النصوص أو لتأخرها بالنسبة إلى تطور الأوضاع الاجتماعية ، لم يتردد في مناقشتها والتصريح ببطلانها ورفض الحكم بها ، وان لم يجد أحياناً نصاً غيرها يعارضها به ويدفعها .

وما أكثر ما كان يرد في « حيثياته » ، وهي الأسباب التي يبني عليها الحاكم حكمه ، قوله : « وحيث ان قواعد العدل والانصاف تقضي ... » أو قوله : « وان العدالة الانسانية التي وضع القانون لاحترامها ... » أو قوله : « وحيث أن هذا يعد من قبيل خيانة الأمانة الممقوتة ذمة ... » وغيرها من اقواله الكثيرة التي تدل على ان المواد القانونية لم تكن لها قيمة لديه إلا بمقدار ما تحقق مبادىء العدل والانصاف وترضي الذمة ! ولا بدع في هذا ، فان سعد زغلول هو الذي قال في الجمعية التشريعية بعد ذلك بسنوات عدة : « في أي شرع يمنع القاضي من إبداء رأيه بحسب ذمته ؟ أمن أجل ان نوافق في الظاهر ، المبادىء القانونية ، نخالف مكارم الأخلاق ؟ » .

ومن الأمثلة العديدة على ذلك قوله في إحدى حيثياته : « ... من حيث أن الدفع بكون ورثة الناظر على وقف لا يلزمون بتقديم حساب عن مدة نظارته إذا مات مجهلاً (أي دون ان يبين حساب الوقف) ، لا يمكن قبوله ، لأن اجهال المورث تقصير لا يمكن ان يتحمل تبعته غير تركته ، وإذا صح هذا المبدأ يكون حملاً للخونة من النظار على الغدر بالأوقاف التي تكون تحت نظارتهم ، وإرشاداً لهم للتخلص من عواقب غدرهم بواسطة الاجهال ، ولا يصح لشريعة تحترم الوقف وتحافظ عليه ان تقرر مبدأ مثل هذا » . وقوله في حكم أصدره على دائرة تفتيش ري الاسكندرية لأنها هدمت بناء ولم تعوض على أصحابه ، محتجة بالمادة التي تعفي الحكومة من المسؤولية عن أي ضرر ينشأ بسبب أعمال الري : « وحيث ان المادة السابعة منها قضت حقيقة بعدم مسؤولية الحكومة عن الضرر الذي ينشأ عن أعمال تفتيش الري ، غير انه لا يمكن ان يكون المراد بهذا ، الاجراءات الاستبدادية المخالفة للعدل والقانون ، والمضرة بحقوق الأفراد ، وليست فيها مصلحة عامة الناس ، لأن ذلك لا ينطبق بوجه من الوجوه على مبدأ الحكومات العادلة ، ولا يصح

ان تتضمنه شرائعها » .

وليس أكثر من الأحكام التى أصدرها بتلك الروح ، فقد قبل مرة التماس إعادة النظر في قضية فات أمد معارضتها واستئنافها إذ ثبت له ان المدعى عليها ، وهي أميرة خطيرة ، قد عمدت إلى الغش ، وترتب على هذا الغش تأثير في رأي القضاة الذين أصدروا الحكم ، مع ان الأسباب القانونية لم تكن متوافرة ، إذا أراد التمسك بنصها الحرفي ، للحكم بقبول الالتماس . وحكم في إحدى القضايا لفلاح مستأجر يستأديه بعض الأمراء اجرة لأرضهم، حكماً يرضي المدعى عليه ولا يرضي المدعين ، وكان للمحكمة سبيل من القانون لعكس هذا القضاء ، لو كانت تخضع لمؤثرات الجاه والنفوذ .

وكان يحرص حرصاً دقيقاً على تأمين حقوق الدفاع وتوفير ضماناته ، وما أكثر ما نقضت هيئة النقض التي كان عضواً فيها من الأحكام ، لأن المتهمين فيها ، بل المتقاضين أياً كانوا، سواء أوجدوا في مواقف الادعاء أو الدفاع، الاتهام أو الابراء، لم يتمتعوا بحرية الدفاع على أكمل وجوهها . ولعل هذا الدافع هو الذي كان يدفعه إلى الخروج على المادة التى سجلت ان الاقرار القضائي لا يتجزأ في الأمور المدنية لأن عدم تجزئة الاعتراف في رأيه لا يمنع على أية حال من إثبات ما ينافي الوقائع التي احتواها هذا الاعتراف بالطرق الجائزة قانوناً بما فيها القرائن . ولعله هو الذي كان يدفعه أيضاً إلى كراهة ضياع الحق لتقادم العهد فيحاول عدم الأخذ بهذا المبدأ.

وقد قرر مرة « ان المباحث التى يجريها رجال الادارة ، والاقرارات التي تحصل أمامهم من أحد الخصوم ، والتحقيقات التي يعملها الخبراء المعينون بحكم المحاكم ، لا يمكن ان تكون ، بمقتضى المبادىء القانونية، حجة يحتج بها أمام القضاء، ولا يصح ان يترتب عليها بنوع أصلي حق لخصم على الآخر ، إنما يجوز الاستعانة بها لتقوية أدلة تتقدم للمحاكم بالطريقة القانونية » . فللقاضي وحده أن يحقق ، وكل إقرار في غير مجلسه ليس إقراراً ، إذ لا نعرف ما هي الظروف التي تلابسه . وبرأ في أحد أقضيته متهمين مشبوهين اعترفوا أمام الشرطة وأمام النيابة بتهمة سطو منسوبة إليهم ، ولكنهم عدلوا عن اعترافهم أمام القضاء ، لأنه « لا يصح ان يتخذ

هذا الاعتراف أساساً لحكم ترتاح ذمة القضاء إليه ، مهما كانت صفة المتهم وسيرته » ولأن الشك قد ساوره في تحقيقات الشرطة .

وقد حمل في قضاء آخر حملة عنيفة على ما يقوم به رجال الدرك والشرطة من أعمال الضغط والتعذيب والتهديـــد ، وقضى بتبرئة المتهمين في تلك الدعوى على الرغم من الأدلة المتوافرة بحقهم « لأنه لا يصح التعويل على هـذه الأدلة لاستعمال الشدة في جمعها ومخالفة القانون في التحقيقات التي كانت أساساً لها ، ولانتقاضها في حد ذاتها ، وقيام كثير من الشواهد والبينات على انتفائها » وبعد ان يفند أكاذيب الخفراء وتلفيقات المأمور « الذي كان يريد إثبات التهمة ضد المتهمين بأي وجه كان مهما كلفه ذلك من الشدة ومخالفة القانون » يقول : « وحيث انه على فرض ان يكون الباعث له على هذه الشدة وتلك المخالفة فرط الاجتهاد في إظهار ما يعتقـده حقيقة والتهور في ضبط الوقائع ، وان يكون حسن النية في جميـع اجراءاته ، فان ذلك لا يفيد إلا تخفيف مؤاخذته على هذه الاجراءات ، ولكنه لا يفيد صحتهـــا وجواز بناء الحكم ضد المتهمين عليها .. وحيث ان محكمة الاستئناف لم تر وجهاً لاستغراب محكمة أول درجة من حصول هذا التلقين علناً بمعرفة العمدة ، لأنـه تبين مما سبق ان هذا العمدة لقن نفس المأمور سبباً للجناية لم يقله المصاب ، ولأن العمدة الذي يعلم من مأموره تلك الشدة التي سبق بيان بعض من آثارها ، وتلك المجاهرة بمخالفة القانون ، لا يبعد عليه ان يلقن المصاب تحت حماية المـأمور أسماء المتهمين ظلماً وزوراً . وحيث ان وقوع مثل هذه التصرفات بحجة إظهار الفاعل أو كشف الحقيقة ، أشد خطراً على النظام العام من خفاء الجاني أو تخليصه من العقاب، لأنه لا شيء أسلب للأمن ، وأقلق للراحة أو أزعج للنفوس ، من ان يعبث بالنظام من عهد إليه حفظ النظام ، وحيث أنه لا يصح ان تكون مثل هـــذه التصرفات أساساً للحكم ، بل لا يصح غض النظر عن المؤاخذة عليها ، لأن ذلك مما يضر بالقضاء ويجعله عوناً للظلم بدل ان يكون نصيراً للعدالة .. » إلى آخر ما جاء في هـــذا القرار الرائع الذي يعطي درساً عظيماً لكثير من القضاة ورجال الأمن . وقد قيل ان سعداً لم يكتف به بل بادر إلى إقامة الدعوى على ذلك المأمور الذي قام بأعمال

الضغط والتعذيب .

وثمة درس يلقيه سعد زغلول على الموظفين عموماً ويثبت فيه للمواطنين حقاً عليهم لا يزالون ينكرونه أو يتجاهلونه أو يتهربون منه . فقد رفعت النيابة العامة قضية على أحد الصحافيين لأنه نسب إلى بعض كبار الموظفين عملاً يتنافى والامانة الموكولة إليهم ، فقضت محكمة الدرجة الأولى باعتبار الفعل قذفاً لا يجوز معه للمتهم إثبات ما تضمنه كما ينص القانون ، وحكمت عليه بالسجن سنة واحدة ، فرفضت دائرة سعد هذا التطبيق وأعلنت جواز الاثبات وألا عقوبة مع حصوله ، ثم تبين لها ان المتهم لم يتقدم بما يثبت قوله فكان في حكم القانون مفترياً فأدانته . وقد جاء في نص القرار :

« ... وحيث ان المحكمة اعتبرت هذه الأمور قذفاً لا يجوز الاثبات على ما تضمنه عملاً بالمادة ٢٢٧ وعقوبته تنطبق على المادة ٢٧٨ عقوبات . وحيث أنها أخطأت في هذا الاعتبار لأن المطعون فيهم من الموظفين ، والأمور المنسوبة إليهم متعلقة بوظائفهم ، ولا يدخل هذا النوع من الطعن تحت الأحكام المدونة في المادتين المذكورتين لأنهما واردتان في الكتاب الثالث المختص بالجنايات والجنح التي تقع ضد الأفراد لا ضد أرباب هذه الصفات العامة ، ولأن للطعن في حق أرباب هذه الصفات أحكاماً خاصة بهم مبينة في الكتاب الثاني المتعلق بالجنح والجنايات التي تقع ضد المصلحة العامة ، وحيث انه لم ينص في الكتاب الثاني المختص بالجنح والجنايات التي تقع ضد المصلحة العامة على عدم قبول إثبات ما حصل الطعن به كما نص على ذلك الكتاب الأول ، ولم يستعمل لفظة القذف التي لا تفيد في ذاتها صحة المقذوف به ولا كذبه ، وإنما استعمل عوضاً عنها لفظة الافتراء التي تفيد بصريحها اسناد أفعال مكذوبة مخلة باعتبار من اسندت إليه . وحيث ان بهذه التفرقة بين الطعن في أفراد الناس والطعن ضد الموظفين حكمة لاحظها القانون المصري كما لاحظها غيره من القوانين التي أخذ عنها أحكامه ، وهي ان سيرة الانسان الخصوصية لا تتعلق إلا به ولا هم لغيره في معرفتها ولا حق له في تشهيرها ، بخلاف سيرته في وظيفته العمومية فان لكل الناس شأناً فيها وفائدة في الاحاطة بها وحقاً في ان يأخذوا عليه هفواته

وغلطاته فيها ، ولا شيء عليهم في نشر ذلك متى كان الأمر صحيحاً ... الخ » .

أصدرت محكمة الاستئناف التي كان سعد من أعضائها هذا القرار في سنة ١٨٩٥ (١٣١٣ هـ) ، قبل تسع سنوات من تعديل قانون العقوبات الذي ألحق بالمادة ٣٠٢ منه فقرة جاء فيها : « ومع ذلك فالطعن في موظف عام أو شخص ذي صفة نيابية عامة أو مكلف بخدمة عامة لا يدخل تحت حكم هذه المادة إذا حصل بسلامة نية وكان لا يتعدى الوظيفة أو النيابة أو الخدمة العامة ، وبشرط إثبات كل فعل أسند إليه » . أي ان التفريق لم يكن واضحاً في نصوص القانون يوم صدر ذلك القرار ، بين الشخص العادي والشخص المكلف بخدمة عامة ، وقد اعتمد سعد زغلول وزملاؤه في اقرار هذا التفريق على مجرد التباين بين كلمتي القذف والافتراء . ويوضح الغاية الوطنية العامة التي كان يرمي إليها سعد من وراء ذلك ، حكم آخر شدد فيه الجزاء على موظف قام باختلاس مع انه اقترف هذا الجرم خارج نطاق وظيفته ، لأن المتهم « موظف عمومي وطبيعة وظيفته تقضي ان يكون على جانب عظيم من عفة النفس واستقامة الضمير ، ولذلك يتعين تشديد عقابه حتى يكون خطر مثله مأموناً » !

وإليك درساً آخر يلقيه ذلك الرجل الكبير على الحكومة نفسها : أقامت الحكومة دعوى على ورثة تزعم انهم استولوا على أرض تملكها ، ويزعمون ان هذه الأرض مما ملك مورثهم ويقدمون ورقة تتضمن إشارة إلى خريطة حكومية ذكرت فيها الأرض بوصفها ملكاً له ، فردت محكمة سعد الدعوى لأن « الحكومة مع اعترافها بوجود هذه الخريطة في تلك الافادة ، ومع تكرر الوعد من مندوبها لأهل الخبرة باحضارها ، لم تقدمها ولم تمكنهم من الاطلاع عليها بل أخفتها عنهم وأظهرت غيرها ، ثم انها تمسكت برسم زعمت انه ممضي من محسن باشا بختمه ، ولما أنكر امضاءه عليه سحبته بحجة تحقيق الامضاء ولم تعد إلى التمسك به مرة أخرى ، ولكنها تمسكت بتقرير قومسيون اداري تعين بناء على شكوى محسن باشا ، وحيث انه لا يمكن التعويل على هذا التقرير لأنه لم يكن له أدنى صفة قضائية ، والخطة التي جرت الحكومة عليها في هذه الدعوى لا توجب ارتياح القضاء لأعمال مندوبها

فيها ..» !

كان سعد القاضي يأخذ بمبدأين أساسيين يلخصهما قول مجلة الأحكام العدلية المأخوذة عن المذهب الحنفي : « درء المفاسد مقدم على جلب المنافع » وقولها : « يُزال الضرر الأشد بالضرر الأخف» وقد وصف الأستاذ عبده الزيات مسلك سعد في الأحكام الجنائية بقوله: « لم يكن بالمتحرج في تأويل النص المعاقب ولا بالمترخص فيه ، ولم يكن الجانح إلى الادانة ولا الشغف بالتبرئة ، ولم يصطنع قسوة الحكم كمبدأ ولا اختط التسهل طريقة . كلا ، وإنما كان القاضي الذي تصفه كلمة جامعة مانعة هي كلمة « الموزون » بما تحمل من موازين العدل والرحمة والتدقيق والنظر إلى حقوق القانون والمتهم والمجني عليه والمجتمع وتقديس حرية الدفاع، إلى غير ذلك من المعاني » إلا انه لم يلبث ان قرر انه كان أقرب إلى السماحة ورحابة الصدر ، آخذاً بكلمته المأثورة: « خير للعدالة ان يُبرأ المجرم من ان يدان البريء » ثم قال: « وهو حين يدين شديد التحرج ، لا يكتفي بأن يقتنع وإنما يرى حقاً عليه ، للعدل وللضمير الاجتماعي وللمتهم نفسه ، ان يقنعهم بما اقتنع به ، فالقاضي – كما قيل – ليس حسبه أن يكون عادلاً ، وإنما يجب فوق ذلك ان يحقق للعدل مظهره ».

ولكن هذا القلب الرحيم لا يستسلم لرأفة عمياء ، لأن الرأفة بالمجرم العريق في الاجرام قسوة بالأبرياء ، ومن ثم لم يتردد سعد في إصدار عدة أحكام بالاعدام بحق مجرمين اقترفوا آثاماً وحشية مع سبق العمد والاصرار ، على الرغم من ان مفتي الديار المصرية ومفتي أسيوط لم يريا في قضيتين منها مسوغاً للاعدام . وكذلك تنقلب هذه الرحمة إلى صرامة في دعاوى المحتالين والخونة من القوام والأوصياء وناظري الأوقاف ، وفي حرصه على حماية الضعفاء حتى من أنفسهم .

هل من حاجة بعد هذا كله إلى القول ان سعد زغلول كان أحرص ما يكون على تحقيق المساواة التامة أمام القانون ، وعلى التصون عن العبث الذي يجر إليه التقيد بالشكليات ، وسد الذرائع على الكيد والمطال ? وهل من حاجة إلى التنويه بما امتاز به من الصبر الشديد ، والتحليل العميق ، والبصر النافذ ، ووضع الأمور في نصابها ، ودقة التمييز بين الهدى والضلال ? ليرجع من ينشد زيادة في التفصيل عن

هذه الحقبة الهامة من حياة سعد إلى كتاب « سعد في أقضيته » فسيجد فيه كل ما يشاء من متعة عقلية ، وحجة منطقية ، وتوفيق بين مبادىء العدل ونصوص التشريع . أما نحن فاننا سنكتفي بالحديث عن مأثرتين من مآثر القاضي سعد هما مفخرتان من مفاخر القضاء المصري .

أما المأثرة الأولى فهي انه قرر مرة تبرئة متهمين اثنين من ستة حكمت محكمة أسيوط بادانتهم وقضت الأشغال الشاقة على أولهم أعواماً عشرة وعلى سائرهم أعواماً أربعة ، فلما كانت جلسة النطق بالحكم القي على لسانه تأييد لقضاء أسيوط عليهما . ومضى الخطأ غير ملحوظ ، حتى إذا أخذ يملي الأسباب على كاتب الجلسة تبين له ، فاستمر في إملاء الأسباب القاضية ببراءتهما على الرغم من احتجاج الكاتب بأن الحكم قد نفذ وسيق المتهمان إلى الليمان ، وأمر بإدخال القضية في الجلسة من جديد مع ان قلم الجدول لا يسمح بإدخالها لأن القضايا تحمل أرقاماً في جدول النيابة وأرقاماً في قلم المحكمة وتقدم إلى الجلسات على هذا الأساس والنيابة لم يبق عندها قضية لهذين المتهمين . ثم يمضي إلى مقر النائب العام فيستصدر أمراً بالافراج عن السجينين البريئين فوراً على الرغم من فقدان السبب القانوني الذي يخول إطلاق سراحهما مع وجود الحكم بحقهما ، واعترضت النيابة ... ولكن سرعان ما قضت المحكمة في جلستها التالية ، وقد اقحمت فيها هذه القضية اقحاماً ، بتبرئة المتهمين .

أما المأثرة الثانية ، فهي تتناول قضية متهم بقتل عامل من عمال شركة أبي قير أدانته محكمة الاسكندرية بالجريمة واستأنف هو حكمها عليه ، فاشتم سعد في القضية « رائحة كريهة » كما قال ، وذهب بنفسه مع جميع أعضاء المحكمة إلى محل الواقعة فأعادوا التحقيق فيها ، ثم ارتحلوا إلى الاسكندرية فسمعوا الشهود في قسم بوليس محرم بك ، ولما تبين له التزوير المدبر في هذه القضية من العمدة بإيعاز من ذوي نفوذ في تلك الأنحاء،بدا له ان تنظر هيئة المحكمة بالقضية في الاسكندرية نفسها ، لتكون العبرة من حكمها ببراءة المتهم أشمل وأفعل ، كما يكون تنفيذ عقوبة الاعدام أحياناً في المكان الذي اقترف الجاني اثمه فيه . ولم يكن نظام محكمة الجنايات أو دوائرها المتنقلة قد استحدث بعد ، فليس في مصر كلها إلا

محكمة جنايات استثنائية واحدة هي دائرة الجنايات الكبرى ومقرها محكمة الاستئناف بالقاهرة ، فهل يجوز لها ان تنعقد في مدينة أخرى ، وفي بيت ليس هو مقرها الشرعي ؟ لقد أثيرت أمثال هذه الاعتراضات على رأي سعد، ولكنه لم يقبل ان تحول الشكليات دون تحقيق الغاية النبيلة التي قصد إليها ، ولم يلبث ان نفذ فكرته كما أراد . وما هي إلا أعوام قليلة حتى أصبح هذا العمل الشاذ قاعدة ، وأقرت الدولة نظام دوائر الجنايات المتنقلة .

ولا بد من ان ننوه هنا بنضال سعد في سبيل استقلال القضاء وكرامته بحيث لم يتهيب منذ أول عهده به ، تخطئة مجلس الوزراء ورفض العمل بقرار أصدره لأنه ليس قانوناً صادراً من السلطة التشريعية ، وان نشير إلى سعيه الدائب لتوسيع اختصاص المحاكم الأهلية والحد من صلاحية المحاكم المختلطة ، ومعارضة الرأي السائد يومذاك بأن قانون المحاكم المختلطة عام يجب تطبيقه على جميع الدعاوى ، وثورته في ذلك العهد السحيق على نظرية « الصالح المختلط » الذي كانت المحاكم المختلطة تتذرع به للقول باختصاصها كلما مست القضايا ما تسميه « الصالح العام » ـــ أي المصلحة العامة ـــ فكانت مواقفه الفذة في هذا الصدد بدء جهاده في مكافحة الامتيازات الاجنبية وتمصير القضاء .

وكان القضاء مدرسة جديدة لسعد زغلول في المعرفة والحجة والمراس والخبرة بالحياة . وقد اختلف يوماً ، أثناء عمله فيه ، وأحد القضاة الانكليز ، فغمز القاضي الأجنبي ، وكان رئيساً للجلسة التي وقع فيها الاختلاف ، بكفاية سعد للمناقشة في ذلك الموضوع ، واستطال عليه بشهاداته التي لا يحمل سعد شيئاً منها ، فعكف مدة ثلاث سنوات على تعلم اللغة الفرنسية والعلوم التشريعية حتى نال اجازة الحقوق وهو قاض متزوج قد تجاوز سن الأربعين .

الوزير المجازف

كانت انكلترة توطد أقدامها في القطر المصري وتثبت حكمها فيه ، بالرغم من زعمها انها إنما دخلته لصيانة العرش وقمع ثورة الشعب على الأمير ، وبالرغم من ان ممثليها قد أقسموا على ذلك بالشرف الانكليزي وقطعوا عليه اشتات الوعود . وقد تذرعت للبقاء أول الأمر برغبتها في تنظيم الادارة المصرية تنظيماً يكفل سداد الديون الأجنبية . ثم ادعت انها تريد تربية الأمة المصرية وإعدادها لحكم نفسها ، إلا ان هذه الأقنعة المضللة ما لبثت ان تمزقت ، وبدا وجهها الاستعماري الصريح .

وكانت موجة اليأس والذهول التي تركها إخفاق الثورة العرابية في النفوس قد زالت ، ونشأ جيل جديد رأى فوقه ، منذ فتح عينيه إلى النور ، نير الأجنبي الدخيل وسيطرته الباغية ، فمضى يناضل لتحطيم ذلك النير الفادح، تحت زعامة مصطفى كامل الذي كان كالنجم الخاطف لم يكد يتألق حتى اختفى . وتألفت حركة وطنية غير منظمة كل التنظيم ولا واعية كل الوعي، تداخلها أحياناً تيارات غريبة عن الوطنية، كالتيار العثماني والتيار الديني ، وتيار آخر لا يقل عنها خطراً هو الاتجاه بالأمل إلى دولة غربية أخرى تدفع بها سيطرة الانكليز .

وكان سعد على اتصال بهذه الحركة الوطنية ، إلا ان عمله حينذاك في حقلها الاجتماعي كان أظهر من عمله في ميدانها السياسي . فقد كان المجتمع المصري يعاني

عللاً جمة أهمها الفقر والجهل وما ينتج عنها من التفسخ الخلقي والانحلال الاجتماعي وشيوع الفوضى والرشوة وسوء الادارة . فكان سعد خلال اشتغاله بالمحاماة والقضاء دائباً على مقاومة هذه الأمراض بالقول والعمل .

وفي سنة ١٩٠٦ (١٣٢٤ هـ) وقعت فاجعة دنشواي ..

وملخص تلك الفاجعة ان جماعة من الضباط الانكليز خرجوا في حزيران (يونيه) من تلك السنة إلى الصيد حول قرية دنشواي، وقد نبههم الدليل إلى تحريم الصيد في تلك الأماكن ، فلم يكترثوا له وانطلقوا يرسلون قذائفهم على أبراج الحمام وأجران الحصيد ، فاشتعلت النار فيها . فنشب بينهم وبين الفلاحين شجار جرح فيه عدد من الفلاحين وثلاثة من الضباط وقتلت أم محمد زوجة مؤذن القرية . ولما رأى الضباط انه ليس في وسعهم مقاومة السكان لكثرة عددهم ، فروا من أمامهم وجروا في الشمس المحرقة ما يقرب من ثلاثة أميال ، فأصيب أحدهم بضربة الشمس وسقط ميتاً .

وكان الانكليز الذين أقلقتهم الروح الوطنية الصاعدة في مصر ، يرقبون فرصة لإخماد جذوتها بإلقاء الذعر في القلوب . فأخذت صحفهم تصور الحادثة كعدوان من الأهلين على الضباط الانكليز،مبعثه التعصب الشرقي، وبادروا إلى اعتقال العشرات من الأهلين ، وأرسلوا المشنقة وأدوات التعذيب إلى دنشواي ، تلك القرية الوادعة النائمة في أحضان الريف الأمين،ثم أرسلوا من بعد ذلك محكمتهم العسكرية الخاصة التي تألفت للنظر في هذه القضية وحدها ، فقضت قضاء مبرماً بإعدام أربعة من المتهمين بينهم شيخ في الخامسة والسبعين ، وبالسجن المؤبد على اثنين منهم، وبالسجن خمسة عشر عاماً على متهم آخر ، وسبع سنوات على ستة ، وسنة واحدة على خمسة مع جلد كل منهم خمسين جلدة ، وجلد خمسة آخرين خمسين جلدة لكل واحد منهم. وكان تحامل المحكمة الخاصة بادياً للعيان، فلم تمكن المتهمين من الدفاع عن أنفسهم، واعتبرت كل من يشهد لمصلحة أحد منهم شاهد زور !

وأمر المستر متشل مستشار وزارة الداخلية بأن يجلد الفلاحون ويشنقوا علناً ، فنفذت فيهم العقوبة في ٢٨ حزيران (يونيه) ١٩٠٦ ، أمام أهلهم الأقربين ،



لوحة تمثل أولى ضحايا دنشواي .. أم محمد التى أصيب ابنها برصاص الانكليز
وقد وقفت تشكو أمرها والانكليز يصوبون بنادقهم إليها

وأمام ألوف الفلاحين الذين تقاطروا من القرى المجاورة لرؤية ذلك المشهد من مشاهد القرون الوسطى يمثل في القرن العشرين ، تنفيذاً لعدالة الانكليز الذين جاءوا يلقنوننا أصول المدنية والاخاء !

وقد أثارت تلك الفاجعة نفوس المصريين ولكنها كانت ثورة حبيسة وصف قاسم أمين المظهر الذي بدت فيه يوم تنفيذ الحكم الشنيع ، فقال : « رأيت عند كل شخص تقابلت معه قلباً مجروحاً وزوراً مخنوقاً ودهشة عصبية بادية في الأيدي وفي الأصوات . كان الحزن على جميع الوجوه : حزن ساكن مستسلم للقوة ، مختلط بشيء من الدهشة والذهول . ترى الناس يتكلمون بصوت خافت وعبارات متقطعة وهيئة بائسة . منظرهم يشبه منظر قوم مجتمعين في دار ميت ، كأنما كانت أرواح المشنوقين تطوف في كل مكان من المدينة [1] » .

وقد كان لهذه المأساة صداها في قصائد الشعراء فقال حافظ ابرهيم بعد صدور الحكم فيها بخمسة أيام ، مخاطباً الانكليز بسخرية مرّة من قصيدة طويلة :

أيها القائمون بالأمر فينا ... هل نسيتم ولاءنا والودادا ؟!
خفضوا جيشكم وناموا هنيئاً ... وابتغوا صيدكم وجوبوا البلادا
وإذا أعوزتكمُ ذات طوق ... بين تلك الربا فصيدوا العبادا
إنما نحن والحمام سواء ... لم تغادر أطواقُنا الأجيادا
لا تظنوا بنا العقوق ولكن ... أرشدونا إذا ضللنا الرشادا
لا تُقيدوا من أمة بقتيل ... صادت الشمس نفسه حين صادا
جاء جهالنا بأمر وجئتم ... ضعف ضعفيه قسوة واشتدادا
أحسنوا القتل ان ضننتم بعفو ... أنفوساً أصبتمُ أم جمادا ؟

أما شوقي فقد قال في ذكرى دنشواي بعد مرور عام على حادثتها في سبيل طلب العفو عن سجنائها وفي قصيدته وصف مؤثر لهذه المأساة :

---

١ ـ كفاح الزعماء ص ١١٥

يا دنشواي على رباك سلام ذهبت بأنس ربوعك الأيام
شهداء حكمك في البلاد تفرقوا هيهاتَ للشمل الشتيت نظام
يا ليت شعري في البروج حمائمٌ أم في البروج منية وحِمام ؟
نيرون لو أدركت عهد كرومرٍ لعرفت كيف تنفذ الأحكام
نوحي حمائمَ دنشواي وروّعي شعباً بوادي النيل ليس ينام
إن قامت الأحياء حالت بينه سَحَراً وبين فراشه الأحلام
متوجع يتمثل اليوم الذي ضجت لشدة هوله الأقدام
السوط يعمل والمشانق أربعٌ متوحداتٌ والجنود قيام
والمستشار إلى الفظائع ناظر تدمى جلودٌ حوله وعظام
في كل ناحية وكل محلة جزعاً من الملأ الأسيف زحام
وعلى وجوه الثاكلين كآبة وعلى وجوه الثاكلات رَغام

ويقول العقاد في مأساة دنشواي انها «حادث إذا قيس بآفاقه المكانية فهو حادث في قرية نكب فيه بعض أبنائها بالموت أو التعذيب. ولكننا لا نعرف بين حوادث مصر في القرن العشرين حادثاً آخر كان له مثل ما كان لهذا الحادث من الأثر في حياتها الوطنية ، لأن القومية المصرية قد ولدت حقاً في ذلك اليوم ، وكانت قبل ذلك جنيناً طال به الاستكنان في رحم الزمان » ثم يتساءل عن السبب الذي جعل لذلك الحادث المشؤوم كل ذلك الأثر في تاريخ النهضة المصرية ، ويجيب بقوله : « الذي جعل له كل ذلك الأثر انه أدخل الثورة على الاحتلال إلى أكواخ الفلاحين ، وكان الاحتلال قبل ذلك يزعم ان الفلاحين من حزبه وانه جاء إلى مصر لإنقاذ أصحاب « الجلابيب الزرق » من طبقة الأفندية والباشوات . وكانت الدعوة الوطنية من قبل مقصورة على الطلبة والشبان المتعلمين أو على فريق من أصحاب العلاقات الحكومية الذين يعملون بمعزل عن الشعب في نطاق الوظائف وما يتصل بها من المساعي والأغراض . ولم يكن الفلاحون أقل من المتعلمين في المدن بغضاً للاحتلال واعتزازاً بكرامة الاستقلال ، ولكنهم قوم عمليون كجميع الفلاحين في سائر الأمم ، فكانوا يتساءلون فيما بينهم : هل تجدي دعوة الأقلام والألسنة في كفاح دولة لا تغيب عن أملاكها الشمس ولا تغلبها دولة في مجال كفاح؟ فيترددون

ويصمتون ، ويلي لهم في هذه الحالة النفسية التي رانت عليهم فترة من الزمن انهم تعبوا في عهد القلاقل وصدموا في عهد الثورة ، فثابوا إلى الوجوم والانتظار . فلما كانت حادثة دنشواي أحس كل فلاح انه قد ظلم مع أولئك المظلومين ، وان وطأة الاحتلال تدوسه في وكره وتلاحقه في جحره ، وان دعوى الرفق به والغيرة على حريته وكرامته كذب يزوره المحتلون ليمعنوا في إذلاله والتسلط عليه ، ويأبوا عليه حتى غضبة الحيوان الذي يباح له ان يغضب لحقه في عقر داره ، وان يدافع عن نفسه الأذى أهون ما يكون الدفاع . وبطلت بعد ذلك كل دعوى للمحتلين في ولاء الفلاح لسلطان « المصلحين » كما كانوا يسمون أنفسهم ليحجبوا بستار الاصلاح عار الاحتلال ! »

ولم تقتصر موجة الاستنكار التي أثارتها مأساة دنشواي على مصر وحدها بل تركت صدى بعيداً في العالم كله ، وأشار إليها برنارد شو بأسف عظيم في مقدمة كتابه « جزيرة جون بول الأخرى » فقال ان الفلاحين المصريين لم يتصرفوا في هذا الحادث ، غير التصرف الذي كان منتظراً من جمهرة الفلاحين الانكليز لو انهم أصيبوا بمثل مصابهم في المال والحرمات ، وان الضباط لم يكونوا في الخدمة يوم وقوع الحادث بل كانوا لاعبين عابثين وقد أساءوا المعاملة ، وربما احتمل الفلاح الانكليزي عبثاً كهذا لأنه على ثقة من التعويض ، ولكن القرويين المصريين لم يكن لهم أي أمل في انصاف أو تعويض. وقال ان أحد المشنوقين كان شيخاً طاعناً في السن ، فلو حكم بالسجن لمات قبل انقضاء عدة سنوات . ولام برنارد شو اللورد كرومر لوماً عنيفاً ، وسخر من تصرفات ومزاعم وكيله المستر فندلي ، ومنها قوله في تبرير عقوبة الجلد بأن المصريين لا يهمهم الموت كما تهمهم العقوبة البدنية ، وأجاب عليه متسائلاً : إذا كان الأمر كذلك فلماذا أعدم الأربعة الآخرون ، ألم يكونوا من المصريين !

وقد اثار مصطفى كامل في لندن وباريس حملة شعواء على كرومر احتجاجاً على فعلته النكراء ، فغادر منصبه في مصر وحل محله السير الدون غيرست الذي أبدى استعداده لتنفيذ سياسة حزب الأحرار البريطاني الحاكم يومذاك في ترضية الشعور



مصطفى كامل

المصري أملًا في تدعيم مركز بريطانية على ضفاف النيل [١] .

وكان من المساعي التي لجأت إليها السلطة البريطانية في مصر لترضية الشعور المصري ، تعديل الوزارة المصرية تعديلًا يرضي المصريين ، فاختيار سعد زغلول وزيراً للمعارف لدعوته الدائبة إلى نشر العلم وإنشاء الجامعة المصرية . وعلقت « اللواء » جريدة مصطفى كامل وأنصاره من الوطنيين المتطرفين يومذاك على هذا التعيين بمقال نوهت فيه بأخلاق سعد وما اشتهر به من الكفاية والدراية والعلم الغزير وحب الانصاف والعدل ، وقالت : « ولما كانت الوزارة من سنوات مضت إلى اليوم منصباً لا عمل فيه ، وكان المستشارون الانكليز أصحاب السيطرة الثابتة في النظارات ، حق للناس ان يتساءلوا عما يعمله سعادة سعد بك زغلول في نظارة المعارف: هل سيكون كبقية الوزراء أمره وأمر المعارف بيد دانلوب؟ أم يكون وزيراً اسماً وعملًا ، ويحيي سلطة المصريين ؟ اللهم اننا نعرف سعد بك زغلول في ماضيه وحاضره أشد الناس تمسكاً باستقلاله وحقوقه ، وأكثرهم انتقاداً على الذين تركوا سلطة مناصبهم لغيرهم، وسمعناه يقرع بلهجة حادة الكسالى والمقصرين كباراً كانوا أو صغاراً . فإذا بقي سعد بك في وظيفته كما هو وكما كان — وهو ما نعتقد — أمّلنا خيراً كبيراً للمعارف ورجونا سريان هذه الروح إلى بقية النظار وعودة الحياة المصرية إلى الوزارة [٢] » .

وتابعت السلطة الانكليزية نهجها المألوف .. فبعد ان عينت سعداً للوزارة بدأت تثير حوله الدسائس وتضع في طريقه العراقيل ، كي يخفق في مهمته فتتخذ إخفاقه دليلًا على ضعف كفاية المصريين لحكم أنفسهم . ولم تنقض فترة وجيزة حتى نشب صراع عنيف بينه وبين المستشار دانلوب الذي كان يتفرد في كل أمر عملًا بقول اللورد كرومر : « ان الانكليزي رئيس ولو كان مرؤوساً ، وان المشورة منه أمر نافذ وان جاءت في قالب النصيحة » كما نشب الصراع بينه وبين كل عتيق ، وكل خلل ، وكل استهانة بكرامة المصريين . وقد جابه في هذا الصراع عدداً كبيراً من

١ - تاريخ الشعوب الاسلامية ج ٥ ص ٤٢
٢ أيام لها تاريخ ص ١١

الشخصيات البريطانية حتى سمي « الوزير المجازف » ، ولم يكن في هذه التسمية شيء من الغلو ، وسعد يسلك هذا المسلك في وقت أوشك أمير البلاد ان يفقد فيه عرشه ، لأنه خالف قائد الجيش البريطاني وانتقد النظام في بعض الفرق ، لولا رجوعه عن كلامه ومبادرته إلى الاعتذار عن هفوته .

وتروى عن سعد في ذلك العهد مآثر كثيرة كان فيها مثال الوطني الصلب ، القويّ بعقيدته والمعتز بصريته .. ولعل أطرفها وأبلغها في الدلالة على العقلية الاستعمارية التي كان يجابهها كل يوم ، انه اقترح إرسال بعثة من الطلاب المصريين إلى أوربة لدراسة الطب وتدريسه بعد عودتهم إلى مصر بدلاً من الأساتذة الأجانب. فكتب الدكتور كيتنغ ناظر مدرسة الطب تقريراً قال فيه إن المصريين لا يصلحون لتدريس العلوم الطبية ، وأراد من سعد أن يعدل عن اقتراحه عملًا بهذا التقرير ، فرفض سعد ذلك وقال له :

– ألم يخطر لك يا دكتور كيتنغ ان تبحث عن وزير غير مصري يسجل على أبناء جلدته هذا العجز السرمدي ؟!

ومن النوادر التي اثرت عنه والتي تدل على حكمته العميقة وبعد نظره ، انه كان يشرف بنفسه على انتقاء طلبة البعثات التي عني بإرسالها إلى أوربة للتخصص في معاهدها ، فبينما كان يستعرض الطلبة المرشحين لإحدى البعثات ، استكبر سن أحدهم فسأله :

– هل تزوجت ؟

فأجاب الطالب بالإيجاب ، فقال :

– وكيف تصنع بزوجتك وأنت مقدم على سفر قد يعتاقك في أوربة بضع سنوات ؟

فقال الطالب : انني طلقتها يا سعادة الباشا ..

فأمر بحذف اسمه وقال : مثل هذا لا يؤتمن على تعليم !

وروي ان إحدى السيدات قابلته يوماً ، وكانت على خلاف مع زوجها الموظف في وزارة المعارف ، فأخذت تطعن فيه وتنسب إليه كل رذيلة ، فلما انتهت من

شكواها قال لها :

– هذه أشياء لا شأن لي بها !

فتحمست السيدة وقالت :

– وهو أيضاً يطعن على معاليك !

فقال لها ضاحكاً : وهذه أشياء ... لا شأن لك بها !

وقد بقي في وزارة المعارف أربع سنوات كانت كفاحاً عنيفاً بذل فيه جهد الجبابرة لهدم النفوذ الانكليزي الذي كان ينشر ظله على جميع مناحي التعليم ، ووضع الأساس الراسخ لنهضة التعليم القومي بجعله اللغة العربية لغة التعليم وكانت من قبل اللغة الانكليزية ، وإعادته إلى وزارة المعارف من كان هجرها من كبار رجال التعليم ، واحيائه دار المعلمين التي كانت تحتضر وتشرف على الموت ، وإعانته الجامعة المصرية بالمال والرجال والتوجيه الدائب ، وإرساله البعثات المتوالية من الطلاب المصريين إلى المعاهد الأوربية للتخصص فيها بشتى العلوم ، وإكثاره من المدارس ودور المعلمين ومكاتب القرى ، وفتحه باب المجانية لتعليم الفقراء من الطلاب ، وتنصيبه المصريين في المناصب التي كانت وقفاً على الانكليز ، وإنشائه مدرسة القضاء الشرعي على الرغم من غضب الخديوي وبعض شيوخ الأزهر ، لأن إنشاء هذه المدرسة يفقد الأزهر وظائف القضاء الشرعي وما يتبعها من محاسبة الأوصياء على التركات والنظار على الأوقاف ، بعد ان فقد وظائف تدريس اللغة العربية بإنشاء دار العلوم ، والأزهر قوة دينية ينتفع بها الخديوي حتى في الأمور السياسية فإذا ضعف ضعفت سيادته لا محالة. وكان الامام محمد عبده قد سعى كثيراً إلى إنشاء مدرسة للقضاء الشرعي فأخفق في ذلك مثلما أخفق في تحقيق أكثر أمانيه.

وفي سنة ١٩١٠ (١٣٢٨هـ) أصبح سعد وزيراً للعدل في حكومة محمد سعيد، وقد حرص الدون غيرست خلف كرومر ، على نقله إلى هذه الوزارة للحد من نشاطه وتقييد عمله ، إلا انه عمد إلى القضاء فأصلحه وعزز كرامته ، وناضل من أجل استقلاله ، وانتصف للمغبونين والمغمورين من رجاله ، وسعى في إنشاء نقابة للمحامين تنظم شؤونهم وتدافع عنهم وتحافظ على شرف مهنتهم من العابثين بها .

وظل كعادته ، معتداً بكرامته، حريصاً على سلطته ، صلباً في الحق. أراد الخديوي عباس حلمي الثاني مرة في اجتماع لمجلس الوزراء ، ان يطوي مشروعاً من مشاريعه الاصلاحية ، فاعترض قائلًا بحزم :

ــ اني أنا الوزير المسؤول .. فلا بد من إقرار مشروعي !

وأعد برونيات المستشار الانكليزي مشروعاً لتعديل قانون العقوبات ، ودعا كبار الأساتذة لبحثه ، فقاوم سعد هذا المشروع وقال لأصحابه :

ــ من وكلكم عن الأمة لتسنوا لها القوانين ومن حقها وحدها سن القوانين لنفسها ؟

ومن كلمات سعد المأثورة قوله للدون غيرست الذي أخذ عليه سماعه لشكاوى المتظلمين وسعيه إلى الانتصاف لهم من غرمائهم ولو كانوا أكبر الرؤساء ، ونصحه المداراة في الانصاف لئلا يجترىء الصغار على الكبار :

ــ ما من موظف يظلم آخر إلا وهو رئيسه وأكبر منه .. فمتى نجهر بإنصاف المظلوم إذن ؟ ولماذا نسهل الظلم على الظالم ليتمادى فيه ، ولا نسهل الانصاف على المظلوم ليجترىء على طلبه وحفظ حقه ؟

وقد عمل في وزارة العدل بوحي هذه الحكمة ، كما عمل به قبل ذلك في وزارة المعارف وفي كل منصب تولاه ، فوقف إلى جانب المظلومين والمضطهدين ينتزع حقوقهم من مغتصبيها في كل قضية يفصل فيها القضاء ، واصطدم في سبيل ذلك بعدد كبير من ذوي الشأن في البلاد ، ومنهم اللورد كتشنر الذي خلف الدون غيرست ، فانتهز اللورد هذه الفرصة وطلب من سعد ان يرجع عن قرار اتخذه بحق صديق له، وأحرجه في ذلك، حتى اضطره إلى الاستقالة،فغادر الوزارة سنة ١٩١٣ (١٣٣٢هـ)، موفور الكرامة عزيز النفس .

وقد نوه أحمد لطفي السيد في مذكراته التي نشرها في مجلة «المصور» ثم صدرت في سلسلة كتاب الهلال بعنوان « قصة حياتي» باستقالة سعد زغلول ومواقفه المشرفة في وزارتي المعارف والعدل ، فقال : « وفي ابريل سنة ١٩١٢ استقال سعد من وزارة العدل ، وقد وقفت إلى جانبه في هذه الاستقالة التي تسببت عن حادث يهم

عابدين وقصر الدوبارة على السواء . وكان الطرفان متبرمين بسعد لصراحته التي كان يبديها في مجلس الوزراء ، وصلابته في الحق والعدل ، وحرصه على أداء واجبه » وبعد ان يشرح أستاذ الجيل رأيه في استقالة الوزراء والموظفين يقول : « ليس هذا وحده ما يفسر انتصاري لاستقالة سعد زغلول في ذلك الحين ، بل أضيف إليه انه استقال وترك الوزارة بين الثناء والاعجاب، وألقى درساً نافعاً للحاكمين والمحكومين على السواء ، فقد دخل سعد زغلول الوزارة بين تصفيق الأمة بأسرها واستحسانها ، ولا معنى لإجماع الطبقات على استحسان دخوله الوزارة بكل ما عهدناه لوزير غيره عند تعيينه إلا ليكون ناصراً للأمة ، مدافعاً عن الحق متشدداً فيه . كان سعد قد دخل الوزارة ليمثل فيها طبقة المتعلمين الأحرار الذين ليس على عقولهم سلطان إلا للحق ولا على قلوبهم إلا حب الوطن ونفعه ، فحقق في المعارف سلطة المصري ، وملأ كرسي الوزير ، وتمكن بقدرته وعلو نفسه من وضع مستشار وزارته عند حد القانون ، وسوّى بين الموظفين الأجانب والوطنيين ، وحقق آمال الأمة في أكثر ما طلبت » ثم يقول : « ولما تولى وزارة الحقانية لم يفرط في حقه بصفته وزيراً، ولم يكن فيها بأقل غيرة على إقامة العدل منه في نظارة المعارف على نشر التعليم ، حتى كان دفاعه عن اعتقاده مجلبة لمخالفة السلطة وتبرم الخديوي والانكليز به » .

وكيل الأمة

كانت الحركة الدستورية تنمو في مصر – كما رأينا – منذ أيام اسماعيل ، وكان الخديوي يشجعها ليحد بها من الرقابة الأجنبية على الخزانة المصرية بعدما تورط فيه من الديون ، وقد قويت في أيام الخديوي توفيق على الرغم من مقاومته لها ، ثم بلغت أشدها في عهد الخديوي عباس فلم تجد معارضة منه لأنها كانت تناوىء السيطرة الانكليزية المتعاظمة في البلاد وكان يرى في اضعاف هذه السيطرة قوة له .

وقد حسب الانكليز ان هذه الحركة الوطنية ليست لها جذور عميقة في تربة الشعب ، وان الطبقات العليا هي التي تصطنعها وتنفرد بالسير في صفوفها ، فانتهجوا بعد عزل كرومر ما سموه « سياسة الوفاق » ، وهي سياسة ترمي إلى التفريق بين قوى الحكومة وقوى الأمة ، بالتحالف مع رجال الحكم والأعيان وعلى رأسهم أمير البلاد . إلا ان الأيام ما لبثت ان أثبتت ضلال تلك النظرية التي تتجاهل جماهير الشعب ، وبرهنت على ان الحركة الدستورية إنما كانت تصدر عن مجموع الأمة التي تريد ممارسة حقها في حكم نفسها ، وقد ألهب هذه الارادة فوز الشعوب العثمانية بالدستور سنة ١٩٠٨ (١٣٢٦هـ) ، فاشتدت في الطلب والالحاح. ولم يجد الانكليز ما حاكوا من دسائس لتفرقة الصفوف الوطنية بإثارة النعرات الطائفية بينها ، ولم يستطع صنائعهم من رجال الادارة والحكم الوقوف في وجه تلك الارادة الشعبية

العارمة ، فاضطروا إلى إصدار القانون النظامي بإنشاء المجلس التشريعي في أول تموز سنة ١٩١٣ (١٣٣٢ هـ) ، ومنح هذا المجلس حقوقاً أوسع من حقوق المجلسين السابقين .

ولم يكن إنشاء المجلس التشريعي في الواقع ، سوى خدعة من الانكليز أرادوا بها تهدئة النفوس وإلهاء الرأي العام وتشويه الحكم الديموقراطي في نظر الشعب ، لأنهم كانوا على مثل اليقين من انهم سيسيّرونه كما يشاؤون . ولكنهم فوجئوا فيه بما لم يكن في الحسبان ، فقد رشح سعد زغلول نفسه للنيابة وفاز بها عن دائرتين من دوائر القاهرة لا عن دائرة واحدة، بالرغم من القيود التي كانت تقيّد حرية الترشيح والانتخاب ، لحصر النيابة في أصحاب الثروة والجاه ، وبالرغم من المساعي التي بذلها اللورد كتشنر والخديوي وأعضاء الحكومة والأموال التي أنفقوها بإسراف لشراء ضمائر الناخبين .

ومن أطرف ما يروى ان أحمد لطفي السيد كان أحد المرشحين في تلك الانتخابات ، فأشاع عنه منافسه عثمان سليط أحد أعيان مركز السنبلاوين ، وكان من أعضاء حزب الأمة الذين خرجوا عليه تقرباً من الخديوي ، انه ينادي بالديمقراطية ، وراح يشرح الديمقراطية للناخبين على هواه ويعرّفها بأنها خروج على العرف والتقاليد وقواعد الدين الاسلامي حتىالتبست في أذهانهم بهذه المعاني المضللة، ولم يكن أمامهم للتأكد مما ظنوه انحرافاً إلا ان يسألوا أحمد لطفي السيد هل هو حقيقة ديمقراطي ، وأجاب أستاذ الجيل معتزاً بأنه ديمقراطي يدين بالديمقراطية وشعاره الديمقراطية ، فانصرفوا عنه مكتفين من تحقق نسبة الديمقراطية إليه دون أن يفهموا حقيقة الديمقراطية ، وسقط لطفي السيد في الانتخابات ! إلا ان أحمد لطفي السيد ينفي هذه القصة ويقول ان الحكومة هي التي أوعزت بإسقاطه هو وسعد زغلول ، فسقط هو ونجح سعد كما قلنا في دائرتين ، وقد أرسل إليه سعد برقية يقول فيها : « لئن سقطت في الانتخابات ، فلك عطف العقلاء[١] » .

---

١ — احمد لطفي السيد للدكتور حسين فوزي النجار ص ١٩٤ ، قصة حياتي لاحمد لطفي السيد ص ١٤٠

لقد نجح سعد في دائرتين من دوائر القاهرة ، والقاهرة كلها أربع دوائر ، دون ان يكون منتسباً لحزب أو فئة معينة من الفئات الوطنية والسياسية ، ولكن جميع الأحزاب أجمعت على تأييده وانتخابه ، وفي مقدمتها الحزب الوطني ، وقد كتب محمد فريد في مذكراته وهو في المنفى : « ان انتخاب سعد باشا سيغضب الخديوي ، ومما يزيده غضباً ان الحزب الوطني عضده وساعده بقوته [1] » .

ولكن قبل ان يغضب الخديوي غضب الانكليز ، لأن سعداً ليس بالنائب الذي يُسيَّر من قريب أو بعيد . وإذا كان أنصاره في المجلس قليلين ، فلم يكن بالقليل ان يرتفع فيه صوت رجل لا يحابي ولا يهادن ولا يستكين . وقد سأل المنفلوطي سعداً :

ـ وما الذي تستفيد يا مولاي من إجهاد نفسك في شؤون قلما تنال فيها الأغلبية في الجمعية التشريعية ؟

فأجابه : سواء لديّ أنجحت أم لم أنجح ، فاني لا أخطب في الجمعية التشريعية وحدها بل في الأمة جميعها، ولا أخاطب الحاضر وحده بل أخاطب المستقبل أيضاً.

ولا بد هنا من إلقاء نظرة سريعة على التيارات الوطنية التي كانت تتجاذب مصر في ذلك العهد . فقد كان ثمة الحزب الوطني الذي يحارب الانكليز بالدعوة إلى السيادة العثمانية ، وحزب الأمة الذي يناوىء الخديوي ويقاوم السيادة العثمانية بالاستقلال ولكنه لا يتورع في نضاله هذا عن التقرب من دار الوكالة البريطانية في بعض الأحيان ، وحزب الاصلاح الذي يدعو إلى معالجة العلل الاجتماعية بالأنظمة الدستورية ولا يجرؤ على مخاصمة الانكليز لما يُعرف عن ولائه للخديوي لئلا يتخذوا من هذه الخصومة حجة للانتقام من الأمير . أما سعد ونفر من اخوانه الوطنيين الذين لم يكن يضمهم حزب منظم ، فكانوا يؤيدون كلًا من تلك الأحزاب على قدر عمله من أجل الاستقلال والدستور ، وينكرون عليها انحرافاتها الخطرة وتأرجحها بين القصر والانكليز والأتراك، بدلاً من الاعتماد على مجموع الأمة لمكافحة

---

١ ـ ايام لها تاريخ ص ١١١

كل تدخل أجنبي وتثبيت أركان الاستقلال والحريات الدستورية في البلاد .

فلما تألفت الجمعية التشريعية انقسمت إلى قسمين رئيسيين : أكثرية تضم أنصار الحكومة ومن ورائها قوى الاحتلال ومن أعضائها خمسة عشر نائباً وصلوا إلى المجلس عن طريق التعيين ، وأقلية تضم أعضاء من الحزب الوطني وحزب الأمة وحزب الاصلاح وعدداً قليلاً من المثقفين غير الحزبيين ، وقد وجد هؤلاء النواب أنفسهم جميعاً ، مدفوعين ، منذ اللحظة الأولى ، إلى الانضواء تحت لواء سعد .

هكذا برزت زعامة سعد زغلول ، وتوطدت ، واستطاعت ، بما أوتي صاحبها من سمو الخلق وقوة الشخصية وبلاغة الحجة وصلابة العقيدة الوطنية ، ان تضم تحت جناحها السابغ قلوباً متنافرة ، وان تصهر في بوتقتها الوطنية عقائد متباينة ، وان تؤلف من ذلك الشتات قوة كبيرة منظمة تضعها في خدمة الأمة المصرية وخدمة قضيتها الوطنية الخالصة .

وكان أول جدل وقع في الجمعية التشريعية ان الحكومة أوعزت إلى أحد الأعضاء ان يسألها : « إذا حدث وتغيب رئيس الجمعية التشريعية ، فمن الذي يرأس الجلسة ، الوكيل المعين أم الوكيل المنتخب؟ » وترد الحكومة بالاجابة المحضرة من قبل : « الوكيل المعين طبعاً » ! ويهب سعد .. انه هنا يمثل إرادة الشعب ، وعقيدته ان إرادة الشعب يجب ان تكون لها السيادة على إرادة الحكومة . وقبل ان يصدر قانون الجمعية التشريعية كان سعد يكتب في « الأهرام » مقالات بتوقيع « س » يطالب فيها بزيادة حقوق الناخبين والمجلس ، وقد رد كتشنر على مقالاته بتصريح قال فيه : « ان هذا المشروع يمكن تعديله بمضي الزمن تبعاً للتقاليد » وها هي فرصة تسنح لوضع تقاليد في مصلحة الشعب . هب سعد يهاجم الحكومة على هذا التصريح ، ورد عليه رئيس الحكومة متحدياً بقوله : « إذا كان المجلس لا يقرّ هذا التصريح فالحكومة سوف تنفذه على أي حال ! » واحتج سعد على هذه الزراية بالأعضاء ، ووجه إلى رئيس الحكومة كلاماً عنيفاً ارتعدت له فرائص الأعضاء: « يقول عطوفة الرئيس ان الحكومة ستنفذ هذا التصريح، فبأي كيفية يا ترى؟أبالقوة؟ لقد أنكرها الرئيس وقال:لا نريد ان نلتجىء إلى القوة..إذن إلى أي

شيء تريد ان تلتجيء ؟.. نحن لا نسلّم لك بهذا الحق أبداً [1] » .

ويتحدث الأستاذ أحمد بهاء الدين عن هذه الفترة التي كانت بمثابة فترة ترشيح وتمهيد للزعامة المقبلة فيقول : « وتسفر المعركة بين الحكومة التي يوجهها كتشنر ، وبين سعد . ويضع سعد أول تقاليد المعارضة البرلمانية في مصر : تصبح له كتلة من الأعضاء يتبعون إشارته، ويلجأ إلى كل المناورات التي تعرفها برلمانات أوربة لمقاومة الحكومة ، فينسحب بأنصاره ليصبح العـدد غير قانوني وترفع الجلسة . وتتوالى الجلسات ، وسعد يقف على المنبر عالي الصوت مرفوع الهامة . ولأول مرة تزدحم القاعة بالمتفرجين وتتركز الأنظار في مصر كلها على المنبر .. ويشعر الناس بأن هذا المجلس النيابي الشاحب يمكن ان يكون شيئاً ، ويعصف منطقه بكل حصون الحكومة ، حتى ان الأعضاء جميعاً يقفون له مصفقين ، ولكنهم ساعـة التصويت ــ طبعاً ــ مع الحكومة [2] » . ولكن سعداً لم يكن يخاطب الجمعية التشريعية بل الأمة ، ولا يتحدث إلى الحاضر بل إلى المستقبل ، وهذا ما قاله فعلاً لذلك الصديق الذي لامه لأنه يتعب نفسه بلا جدوى !

ولم يتح للجمعية التشريعية ان تعيش سوى خمسة أشهر ، إذ حلت في تشرين الثاني (نوفمبر) سنة ١٩١٤ (١٣٣٣ هـ) ، ولكن هذه المدة القصيرة كانت كافيـة لأن تأخذ بيد سعد من زعامة المعارضة في المجلس ، إلى زعامة الحركة الوطنيـة في الأمة بأسرها ، لما كان من أثر محمود لمواقفه الرائعـة في وجه الحكومة والاستعمار الذي يسيّرها ، طلباً للاصلاح ، ومحاربةً للاستبداد ، وانتصافاً لصغـار الموظفين ، وتدعيماً لكرامة الجمعية التي تمثل الأمة وحقها في الاشراف على الحكومة لا في الخضوع لها والانصياع لأمرها . ومن أقواله في هذا الصدد : « إذا كانت الحكومة تريد ان تكون الجمعية التشريعية مكتب تسجيل لقوانين الحكومة وأوامرها فانني بصفتي مصرياً محباً لبلادي ، أفضل ألا يكون لمثل هذه الجمعية أثر في الوجود » . ومن الحكم الوطنية التي كان يرسلها في خطبه ذلك العهد قوله : « إن كل تقييـــد

---

١ ــ أيام لها تاريخ ص ١١٢

٢ ــ المرجع السابق ص ١١٣

للحرية لا بد ان يكون له مبرّر من قواعد الحرية نفسها وإلا كان ظلماً » .

وانفجرت الحرب الكبرى فاتخذتها انكلترة ذريعة لتدعيم سلطتها في مصر ، إذ بادرت بعد إعلانها الحرب على الدولة العثمانية ، إلى « تحرير » مصر مما كانت تدعيه هذه الدولة من حقوق السيادة عليها ، وذلك بإعلان حمايتها للقطر المصري . وقد دشنت هذا العهد بخلع الخديوي عباس الثاني وتسمية عمه حسين كامل سلطاناً على مصر [1] ، وأبلغت السلطان الجديد بلسان مستر شيتهام ، أخذها على عاتقها تبعة الدفاع عن البلاد المصرية ، وتعهدها بالنظر في تعديل المعاهدات الدولية المعروفة بالامتيازات الأجنبية بعد انتهاء الحرب ، وبالدأب على ضمان الحرية الشخصية ، وترقية التعليم ونشره ، وإنماء مصادر الثروة الطبيعية في البلاد ، والتدرج في إشراك المصريين في الحكم بقدر ما تسمح به حالة الأمة من الرقي السياسي ... وختمت بيانها هذا بقولها : « وفي عزم حكومة جلالته المحافظة على هذه التقاليد ، بل انها موقنة بأن تحديد مركز بريطانية في هذه البلاد تحديداً صريحاً يؤدي إلى سرعة التقدم في سبيل الحكم الذاتي » .

وقد خدعت تلك الوعود قسماً من الأمة المصرية فعلق عليها آماله في التقدم والانعتاق ، إلا ان القسم الأكبر من المصريين أدركوا ان هذه الوعود لا يمكن ان تتحقق إلا بقدر ما يناضل المصريون من أجل تحقيقها . وفي الواقع ، لم يمض وقت قصير ، حتى نقضت انكلترة كل ما وعدت به وعاهدت عليه ، فبسطت يدها على كل شأن من شؤون البلاد ، وصادرت أرزاقها وخيراتها لمصلحة جيوشها المحاربة،

---

١ — توفي حسين كامل في ٩ تشرين الاول (اكتوبر) ١٩١٧ ، فأرسل المندوب السامي البريطاني في اليوم نفسه الى الامير احمد فؤاد خطاباً قال فيه : « بأمر جناب وزير الخارجية لحكومة صاحب الجلالة.. الخ ، انني مكلف ان أحيط عظمتكم علماً ان حكومة صاحب الجلالة البريطانية تعرض على عظمتكم تبوء هذا العرش السامي على ان يكون لورثتكم من بعدكم ، حسب النظام الوراثي الذي سيوضع بالاتفاق بين حكومة صاحب الجلالة البريطانية وعظمتكم الخ .. » وقد قبل الامير فؤاد هذا العرض وكلف حسين رشدي بتأليف الوزارة بكتاب قال فيه : « عزيزي .. نعلم رعايانا انه بسبب وفاة سلفنا .. قد توليت بالاتفاق مع الدولة الحامية عرش السلطنة المصرية » .

وأجبرت الحكومة المصرية على ان تساهم في نفقات الحرب بمبلغ ثلاثة ملايين ونصف مليون جنيه ، وفرضت على الأهلين تبرعاً للصليب الأحمر البريطاني قدره ٦٠٠ ألف جنيـه . وبدأ رجالها يضربون الحصار على القرى المصرية لجلب « المتطوعين » إلى مراكز العمل تحت الحماية العسكرية ، فعبأت بهذه الأساليب مليوناً وبعض المليون من أبنائها واستخدمتهم عمالاً على مختلف الجبهات ، حتى ضجت مصر لعظيم ما كابدت من أهوال وما بذلت من تضحيات ، دون ان تنال ما تطمح إليه من حرية واستقلال وسيادة وطنية .

فلما أوشكت الحرب ان تضع أوزارها ، تنادى المصريون وفي طليعتهم سعد زغلول ، إلى تأليف هيئة تطالب بحقوق مصر في مؤتمر الصلح ، وتستنجز الانكليز وعودهم ، وتلتمس التأييد من الدول المتحالفة المنتصرة التي طالما نوهت بكفاحها في سبيل حرية الشعوب وحقها في تقرير مصيرها . فاعتزمت طائفة من الوطنيين تأليف وفد برئاسة الأمير عمر طوسن ومن أعضائه سعد زغلول ، لتحقيق ذلك الغرض . إلا ان أكثر الوطنيين أبوا ان يكون الأمير عمر طوسن على رأس الوفـد ، لأنهم كانوا يريدونها « حركة شعب لا امارة ، وحركة استقلال لا خلافة » ، ويعتقدون بأن عمر طوسن يميل إلى الابقاء على حقوق السيادة العثمانية حتى تتنازل عنها تركية في معاهدات الصلح . ولم يشأ السلطان فؤاد الذي خلف أخاه السلطان حسين على عرش مصر ، ان يقوم بذلك الأمر أمـير من الأسرة المالكة ، فأمر عمر طوسن بالتخلي عنه . فتألف الوفد برئاسة سعد زغلول ، وعضوية علي شعراوي وعبد العزيز فهمي ومحمد علي وعبد اللطيف المكباتي ومحمد محمود ومصطفى النحاس وأحمد لطفي السيد واسماعيل صدقي وسينوت حنا وحمد الباسل وجورج خياط ومحمود أبو النصر والدكتور حافظ عفيفي .

ووضع الوفد قانوناً لعمله نص على ان مهمة أعضائه هي السعي في سبيل استقلال مصر حيثما وجدوا للسعي إلى ذلك سبيلاً ، وانه لا يسوغ للوفد ان يتصرف في المهمة التي انتدب لها ، فليس له أو لأحد من أعضائه ان يخرج عن حدود الوكالة التي يستمد قوته منها ، وهي استقلال مصر استقلالاً تاماً .

ونظمت الأوساط الوطنية وفي طليعتها الجمعية التشريعية المعطلة، تأييداً للوفد، توكيلًا هذا نصه: « نحن الموقعين على هذا ، الأعضاء بالجمعية التشريعية، قد أنبنا عنا حضرات : سعد زغلول وعلي شعراوي وعبد العزيز فهمي ومحمد علي علوبة وأحمد لطفي السيد ، ولهم أن يضموا إليهم من يختارونه ، في أن يسعوا بالطرق السلمية المشروعة حيثما وجدوا للسعي سبيلًا ، في استقلال مصر استقلالاً تاماً تطبيقاً لمبادىء الحرية والعدل التي تنشر رايتها دولة بريطانية العظمى وحلفاؤها ، ويؤيدون بموجبها تحرير الشعوب » .

وكانت الفكرة متجهة بادىء الأمر إلى الاكتفاء بتوقيع أعضاء الجمعية التشريعية على هذا التوكيل ، لأنهم بصفتهم النيابية يعبرون عن رأي الأمة بأجمعها، ولكن بعض ذوي الرأي من الأمة من غير هؤلاء الأعضاء أرادوا ان يشتركوا في التوقيع على هذا التوكيل ، كما ان نبأه اتصل بأفراد الشعب واهتموا به ، فرأى الوفد ان يعرض التوكيل على الهيئات الأخرى فسارعت إلى توقيعه، وأخذ الاقبال يزداد على التوقيع عليه من جميع الطبقات ، فطبعت منه نسخ عديدة ، وأرسلت إلى جميع أنحاء القطر ، وكان من المتوقع ان تحمل تواقيع الملايين من المواطنين ، لولا ان السلطة الانكليزية بادرت إلى منع التوقيع عليها ومصادرتها بالقوة واعتقال نفر من منظميها بحجة انها منشورات مخلة بالأمن .

ومن طريف ما يروى عن ذلك العهد ان دار سعد كانت ملتقى الوطنيين ونواب الأمة ، يجتمعون فيها لتبادل الرأي وتقرير كل أمر خطير ، فبينما كان سعد يناقش بعض الشبان من أشياع الأمير عمر طوسن ، في أغراض الوفد واختيار أعضائه ، احتد واحد منهم وعرّض بالحاضرين ، فقال سعد :

– عجباً ! أتكدرني وتكدر صحبي وأنت في بيتي ؟

فقال الشاب : ليس هو بيتك يا باشا ولكنه بيت الأمة .

فشاعت الكلمة وأطلق هذا الاسم على بيت سعد زغلول من ذلك الحين .

زعامة سعد زغلول

من حق القارىء ان يتساءل عن العوامل التي أهلت سعد زغلول لزعامة الأمة المصرية في نهضتها إلى الحياة وتقرير حقها في الاستقلال ؟ والواقع ان هذه الزعامة قد قامت على أسس متينة شتى ، أهمها الشخصية القوية ، والحيوية الفياضة ، والوطنية الصادقة ، والشعور بالواجب ، والثقة بالنفس ، والمنطق المحكم ، والفصاحة الدافقة ، والارادة الحازمة التي لا تلين ولا تستكين .

كان سعد انساناً كل الانسان ، يحيا الحياة بأوفى معانيها وإلى أقصى حدودها ، إذا غضب ثار ثورة مخيفة يندفع فيها إلى نهايتها ، وإذا ابتهج ضحك من أعماقه وملأ الجو سروراً ومرحاً . وكان قلباً كبيراً مطبوعاً على الحق والخير ، ونفساً رحيبة كريمة تفيض رقة ووداعة وتتدفق حناناً ورحمة . وصفه قاسم أمين إذ أهدى إليه كتابه « تحرير المرأة » بقوله : « فيك وجدت قلباً يحب ، وعقلاً يفكر ، وإرادة تعمل ، أنت الذي مثلت لي المودة في أكمل أشكالها ، فأدركت ان الحياة ليست كلها شقاء ، وان فيها ساعات حلوة لمن يعرف قيمتها » . وتحدث مكرم عبيد عن عاطفته الجياشة وحساسيته المرهفة ، فقال : « كان كالوالد يحنو علينا جميعاً في منفانا ، يبكي إذا مرضنا ، ويبكي إذا افترقنا ، بل ويبكي إذا احتدت المناقشة فاحتد في القول علينا » .

وكان رجلاً كامل الرجولة ، واسع الثقافة ، كثير المطالعة ، يمتاز بروح عملية

واقعية تسير مع الزمن السائر المتطور . ومن أظهر سجـــاياه عزة النفس ، ومضاء العزيمة ، وكرامة الخلق ، ونزاهة اللسان ، وصراحة القول ، والجرأة في العمل ، والبساطة التي تكره المجاملة والمخاتلة وتأبى التصنع والكبرياء ... فقد جمع بـــين القوى التي لا تجتمع إلا لأفذاذ الرجال : قوة الخلق وقوة الرأي وقوة العـاطفة .
وما أبرع قول الأستاذ مكرم عبيد حين تساءل : هل كان سعد قديراً في السياسة ؟ وأجاب : « أما عن السياسة الكبرى فنعم، وأما عن السياسة الصغرى فلا! لقد كان سعد رجلًا حكيماً مدبراً ، وازناً للأمور بصيراً بعواقبها ، وكان ككل رجل قوي يسيطر على الحوادث ولا سيطرة لها عليه ، وفي هذا كان سياسياً كبيراً،ولكنه كما قال عن نفسه لم يكن رجل دس ممن يعماون في الظلام ، ولا رجلًا متقلباً ممن يماون مع كل ريح ، ولا رجلًا خنوعاً ممن ينحنون أمام الأمر الواقع ويستسلمون لحكم الحوادث، ولا رجلًا هلوعاً ممن تنحصر مهارتهم في مجانبة الصدمات دون ملاقاتها وجهاً لوجه ، وفي هذا لم يكن سعد سياسياً صغيراً ... [1] »

وكان مفكراً يقدس القيم الفكرية ، ويرفع رجال الفكر إلى أسمى مقـام ، ويفضل الجلوس مع كاتب أو شاعر على الجلوس مع أمير أو وزير .. كان مرة على موعد مع اللورد لويد المندوب السامي ، ودعي في الوقت نفسه للاجتماع بطـاغور شاعر الهند ، فذهب لمقابلة طاغور وألغى موعد المندوب السامي . وأخذت له مرة صورة مع شوقي في داره ، فقال الأستاذ الجديلي سكرتير سعد وقتئذ :

– سوف يكتب على هذه الصورة : الخالدان !

فقال سعد متواضعاً :

– ان الخلود لشوقي فهو صاحب العظمة التي لا شك فيها !

وقال له صحفي أميركي ان غاندي قال له: « ان سعد زغلول هو أستاذي وأستاذ جميع الحركات الوطنية الجديدة في الشرق » فسر من هذه التحية وقال :

– وسام ممن يملك منح الوسام !

---

١ – المكرميات ص ٧٣



سعد زغلول

وكان مناضلاً مقداماً يلقى المصاعب في غير ضعف ولا وهن ، وقد قضى عمره في كفاح وقراع ومراس ، حتى قيل ان تلك السنين الطويلة التي قضاها في اللجاج ، جعلت المناقشة والمغالبة عنده فناً ذا أصول وقواعد وأساليب يعلم هو أسرارها وتخفى على غيره .

وكان يجلس بين أنصاره وأصحابه ، ويعطيهم كل وقته صباحاً ومساء وعلى مائدته ، فيفتح صدره لكل الآراء ، ويسمع جميع الأحاديث ، ويناقش كل الافكار ، وكثيراً ما كانت تصدر فكرة عن أحد المتكلمين يلقيها القاء قد يكون عن اقتناع ، وقد يكون مجرد عرض للاحتمالات الممكنة ، فإذا بسعد يأخذ تلك الفكرة ويجلوها ويعمل بها ، فتكون حلاً موفقاً لأزمة قد استحكمت حلقاتها .

وكان وطنياً صادقاً يرى الاستقلال كل شيء ، فإذا كان كانت عناصر النهضة المنشودة ، وكانت مستلزماتها من علم وخلق ومال . وقد دعا لاستقلال مصر من الانكليز والعثمانيين على السواء، فقضى بذلك على العصبية المذهبية في الحركة الوطنية، والتف حول دعوته المسيحيون والمسلمون جميعاً.

وقد عرفت مصر قبل سعد زغلول حركتين سياسيتين هامتين : حركة الحزب الوطني بزعامة مصطفى كامل ، وحركة حزب الأمة بزعامة محمود سليمان وحسن عبد الرازق وعلي شعراوي ولطفي السيد ومحمد محمود وعمر سلطان وأحمد حجازي . وكان الحزب الوطني ينادي بالحرية والاستقلال ولكن في نطاق دولة الخلافة العثمانية الاسلامية ، ولم يفكر مصطفى كامل في مقاومة التبعية المصرية لتركية بل كان يطالب باستقلال مصر عن بريطانية لتوكيد تلك التبعية ، وكان من أنصاره البارزين عدد من الأتراك والجراكسة أو من ينتمون إلى أصل تركي أو جركسي يؤيدونه في حركته ويشايعونه في عقيدته. أما حزب الأمة فكان ينظر إلى الشعب المصري كشعب له مقوماته وتاريخه ومثله وتقاليده دون اعتماد على فكرة دينية أو تبعية عثمانية ، إلا ان اهتمامه كان متجهاً إلى مقاومة الاستبداد الداخلي ولم يكن يتحرج من الانتفاع بقوة المحتلين ليقاوم هذا الاستبداد ويقاوم معه ذلك الفريق الآخر الذي ينحاز إلى الدولة العثمانية ويؤيد بطريق ظاهر مباشر أو خفي ضمني بقاء

السيطرة التركية . وقد كان سعد زغلول قائد أول حركة وطنية واعية ، تجمع بين الدعوة إلى الاستقلال بمفهومه الحديث البعيد عن الدين والتيارات الدينية ، وبين الدعوة إلى الديمقراطية البرلمانية التي تكفل للمواطن المصري ما يطمح إليه من حقوق وحريات [1] .

وكان سعد خطيباً بليغاً قوي الارتجال ، تتحدر الكلمات من فيه تحدر السيل ، في قوة حجة وبراعة إقناع وجزالة أسلوب وجلال صوت وحماسة مؤثرة ، فيستهوي سامعيه ويستحوذ على أفئدتهم بنبراته المؤثرة التي يهتز بها صوته فتهتز معها أعماقهم ، ويقيم صلة وثيقة بينهم وبين شخصيته الأخاذة الساحرة .

ذلك ان سعداً الخطيب ، كما يقول بهي الدين بركات باشا – « لم يكن عقلاً فحسب ، ولكنه كان عقلاً وروحاً ، وصوتاً وجسماً ، وحركة وسكوناً ، تسري في الآلاف بل عشرات الآلاف من السامعين فتراهم جميعاً وقد أخذتهم النشوة فلا يستطيعون مفارقته ، ولا يستطيعون ان يغفلوا لحظة عن سماع ما يقول ، والتحرك له جسماً وروحاً . هكذا كان سعد الخطيب ، وكذلك كان سعد الزعيم ، فهو كان دائماً في المقدمة ، كان دائماً المضطهد الأول ، والمضحي الأول ، فتجمعت عليه المغريات فما نالت منه ، وتجمعت ضده القوى لإرغامه فما استطاعت أن تلين قناته » .

وقد أجمع الباحثون على أن موهبة سعد الخطابية كانت من أقوى مواهبه ، وعنصراً بارزاً من عناصر زعامته ، وسلاحاً ماضياً من أسلحته ، وعلاجاً يتداوى به في أوقات ضعفه ومرضه ، وكثيراً ما كان الأطباء ينصحونه بالتزام الراحة والسكينة ، فإذا سمع خطب الخطباء وهتاف الجماهير ، وتردد صداها في نفسه ، تحرك فيها الشوق إلى الكلام ، وإذا به يندفع إلى المنبر ، فيرتجل الخطبة العصماء ، وقد نسي تعبه ومرضه ، وعاد أتم ما يكون صحة وعافية . وكان أكثر ما يتدفق بالقول إذا ما تعدى التجاوب بينه وبين سامعيه حد الشعور إلى المجاذبة بالكلام ،

---

١ – انظر « محنة الدستور » للاستاذ محمد زكي عبد القادر ص ٢٠ – ٣٤

فكلما قوطع ونوقش تفتح في القول وأسعفته في مواطن الحرج بديهـــة حاضرة وخاطر سريـع التلبية .

وقد تبارى الأدباء في وصف سعد الخطيب فقال العقاد : « صوت رقيق ، لين الوقع على الأسماع ، يخفى فيه الجهد ، ويظهر الارتفاع الذي يعم أجزاء المكان ولو كان من أرحب ميادين الخطابة . فهو صوت مرتفع لا شك في ارتفاعه ، إلا انك إذا نظرت إلى صاحبه وهو يهدر بالقول لم تر أوداجاً تنتفخ ، ولا ملامح تلتوي وتنتفض ، وأحسست بسهولة القول وسهولة الصوت ، وأحسست بالقدرة التي تلازم السهولة ، وبالسيطرة التي تملك الأسماع ، وليس بعد السيطرة على السامعين من مطمع لخطيب . »

وقالت مي زيادة : « سمعت سعداً متكلماً على المنبر ، فأدركت كيف يصبح الوجه العادي أجمل من الجمال ، وأوفر اغراء ، وكيف تهزأ حيوية الشيوخ بحيويـة الشبان فتجرفهـا جرف العاصفـة لأوراق الخريف ، وكيف ينفتح الجفن الكثيف المتهدل عن بؤبؤ العين فينجلي البصر حساماً استل من غمده ، وتشع النظرات أنصالاً تشق الصدور ، وكيف يشذ خطيب أحياناً عن أصول الخطابة وهو مع ذلك ينتزع قلبك من بين جنبيك ويمضي يتقاذفه ويلهو به وأنت من نشوتك لا تفيق ، وكيف يرتفع الصوت الخافت ويتعالى ويسود حتى تعصف فيه الأنواء وتزمجر خلاله العواصف لتتجلى فيه ارادة شعب يقول : أنا ... اني موجود ! »

وقـد التفّت المرأة المصرية حول سعد ، وسارت معـــه لأول مرة في تاريـخ الكفاح الوطني بمصر ، لأنه كان من أنصار المرأة والعاملين على تحريرهـــا . ومن أقواله في هـذا المعنى : « اني من أنصـار تحرير المرأة ، ومن المقتنعين به لانه بغير هذا التحرير لا نستطيـع بلوغ ما نتمناه » .

ويروى أنه مد يده مرة فنزع نقاب امرأة وقفت تخطب بين يديه ، لأنه شعر بأن منطق العصر لا يقبل أن تلقي المرأة خطبة وطنية وهي في حراسة النقاب .

وكذلك أحبه الطلاب لأنه أحبهم ووثق بهم ، ورأى فيهم ربيـع الأمة وقوتها العاملة وأملها الصـــادق ، وكان يخاطبهم بحنان وتخنقه العبرات كلما ناداهم :

« يا أبنائي .. ! » ، وكان مدرسة صالحة لهم يدعوهم دائماً إلى الجهاد في سبيل أمتهم، وقد خطبهم يوماً وهو رئيس للوزارة فقال لهم : « كونوا وطنيين وعلموا أبنـــاءنا الوطنية ، ولا تسمعوا قول الذين يقولون لكم اشتغلوا بدروسكم فقط ولا تشتغلوا بالوطنية ، بل اجعلوا الوطنية أساس أعمالكم ، واقبلوا على علومكم فحصلوهــا فاننا محتاجون للعلم والعلماء ، ولكن لا خير في العالم إذا لم يكن وطنياً » .

وقد أعجب الدكتور مورتون هاول أول وزير مفوض للولايات المتحدة في مصر بالزعيم سعد زغلول إعجاباً عظيماً ، وكتب عنه مرة مقالاً في جريدة أميركية قال فيه : « ان سعد زغلول من أعظم رجال العالم ... ولست أبالغ إذا قلت إنه أعظم رجل قابلته في حياتي .. انـه جورج واشنطن الشرق ! » واختلف مورتون هـاول مع اللورد لويد بشأن سعد وقال له : « ان كلمة من هـــذا الرجل ستخرجكم من مصر » فقال اللورد لويد : « إذا قال هذه الكلمة حكمت عليه بالاعدام » فأجاب مورتون هاول : « انه من الناس الذين يبقون أحياء حتى ولو ماتوا ! » وكان أن طلبت بريطانيا نقل الدكتور مورتون هاول من منصبه، فاستجابت الولايات المتحدة لطلبه . ووضع مورتون هاول كتاباً عنوانه : « مصر،الماضي والحاضر والمستقبل». ومنع اللورد لويد دخول هذا الكتاب إلى مصر .

تلك هي العوامل الرئيسية التي كوّنت زعامة سعد زغلول ، فما هي الصفات الوطنية التي كانت تتسم بها هذه الزعامة المجاهدة ؟

لقد تركزت هذه الزعامة في إحسان صاحبها التعبير عن شعور أمته واتجـــاهه دائماً حيث تتجه إرادتها ، فهو لم يكن ليشعر بأنه قائد بين جنود يحملهم على المضي وراءه حيث يشاء ، أو وصي على قاصرين يتصرف في أمرهم كما يريد في غفلة منهم ، بل كان يسمي نفسه وكيلاً عن الأمة يتأثر بما تتأثر به ، ويعمل بوحيها وارادتها ، فاذا ما أحسّ شيئاً أو أعلن أمراً كان مترجماً فيه عن عواطف قومـه ، ولقومـه أن يحاسبوه عليه وأن يسحبوا ثقتهم به إذا أخلّ بواجب الأمـــانة الموكولة اليه . وقد قال : « نحن لسنا بأوصياء على الأمة بل وكلاء عنها ، ولكننا وكلاء أمنـاء ، فيجب علينا أن نؤدي الأمانة كما أخذناها » ، وقال : « نحن وكلاء الأمة في قضيـة

كبرى ، وللأمة الحق في أن تراقبنا » . وقال : « لا فضل لي إلا كوني ترجماناً أحسن التعبير عن شعور الأمة ، فإذا انحرفت قيد شعرة أهبطتني من منزلة اعتبارها إلى مكان سحيق من احتقارها ، وأكون مستحقاً لهذا الاحتقار » .

ويقول الدكتور حسين فوزي النجار في ذلك في سياق حديثـه عن ثورة سنة ١٩١٩ : « وأدى تطور الأحداث هـذا التطور العنيف الذي ظهر في ثورة مصر ، تلك الثورة التي كشفت عن حقيقة مشاعر الجماهير ، واستعدادها للكفاح والبذل ، وهو ما لم يدركه الزعماء وما لم يدر في خلدهم ، أدى هذا التطور إلى تلك الخصومة العنيفة بين الوفد والانكليز ، ووضع بذرة الخلاف بين أعضاء الوفد ، أو بين سعد ورفاقه القدامى ممن بدأوا الحركة ووضعوا النواة الأولى للوفـد ، فقد أدرك سعـد دونهم حقيقة مشاعر الجماهير ومطالبها ، فانقلب من الاعتـدال إلى التطرف ، ومن الملاينة والرجاء إلى العنف والتشدد في مطالب البلاد ، وجعل همـه أن يعبر عن مشاعر الأمة وأمانيها المحددة التعبير الذي ترضاه ، فأولته ثقتها وحبهـا وحملته إلى الزعامة وبايعته بها حين أصبح نداء الجماهير « يحيـا سعد » إلى جانب « تحيا مصر »[1] .

ومن صفات تلك الزعـامة ان صاحبها كان يعتقد بأنه ابن الحركة الوطنية وثمرتها لا موجدها وخالقها . ويشعر بأنه إذ يقوم بعمله الوطني فيها فهو إنما يقوم بواجب يلقى العنت في سبيله غير ممتن ولا متبرم ، ويجابه من أجـله الصعاب فلا تعدل به عن وضح الطريق . ومن ذلك قوله : « أي شرف أكبر من الشرف الذي يحرزه من عرض نفسه لفداء وطنه ، بل أية لذة للنفس أحلى من اللذة التي يجدهـا الوطني في تعذيبه لمصلحة وطنه » ، وقوله : « لقد وطدت نفسي على الدفـاع عن الحق وأن أتحمل كل مكروه في سبيله ، ولو كان آتياً من الذين أدافـع عنهم » وقوله أيضاً : « اني رجل قد وضعت تحت تصرف أمتي عقلي واختباري وبيـاني ، فان استفادت الأمة من عملي فذاك ما يجعلني سعيداً ، وإلا فهو واجب قد أخذته

---

١ – أحمد لطفي السيد ص ٢٥٠

على نفسي فأنا أقوم به لأريح ضميري » .

ومن صفاتها ثقته الراسخة بالشعب ، وشعوره بأنه إنما يستمد قوته الحقيقية منه، ورجوعه اليه دائماً تأكيداً لسلطته الأصيلة التي لا يريد أن يقف في وجهها عائق. وقد اختلف مرة والخديوي فقال له :

– لنحتكم إلى الشعب !

ولما وقفت المفاوضات التي قام بها مع اللورد ملنر على منعطف حاسم ، لم يسمح لنفسه بأن يبت في شيء من أمرها دون أن يرجع إلى الشعب . وقد قال يوماً : « ليس بيني وبين خصومي شيء شخصي . يمكنني أن أقول إن قلبي لا يحمل عداوة لشخص من خلق الله . ان العداوة من خلق الضعيف ، وقد منحتموني قوة ليس وراءها قوة » . وقال أيضاً : « ان مصدر قوتي هو اني لست إلا معبراً عن شعور الأمة وآرائها ، معبراً عن تصميمها على أن تعيش حرة مستقلة » .

ومن صفات زعامته أيضاً اعتقاده بأن جماهير الشعب هي العنصر الفعال في الحركة الوطنية ، وثقته بأن الحركة التي يتزعمها هي حركة طبيعية لان جماهير الشعب تؤيدها وتسير في موكبها ، ولولا ذلك لما كانت كذلك . تحدث مرة عن عدلي يكن باشا فقال : « انه ارستوقراطي ، والارستوقراطي يأخذ ولا يعطي » ، وخطب يوماً في العمال فقال : « أفرح كثيراً وأسرّ كثيراً ، كلما شعرت أن هذه الحركة ليست فيما يسمونه بالطبقة العليا فقط ، بل هي منبثقة أيضاً وعلى الأخص في الطبقة التي سماها حسادنا « طبقة الرعاع » ، وأفتخر بأني من الرعاع مثلكم . لو كانت هذه الحركة قاصرة على الطبقة العليا لما قامت لها قائمة ، ولما انتشرت هذا الانتشار ، ولما انتصر المبدأ الوطني بالطبقة التي يسمونها « طبقة الرعاع » وهي الطبقة الأكثر عديداً في الأمة » ثم قال ان لهذه الطبقة مبدأ ثابتاً على الدوام ، وهو الاستقلال التام لمصر والسودان ، وهي لا تسعى وراء المنافع والمطامع « ولكنها تريد أن تعيش ليكون الوطن عزيزاً » ، وقال انه لا يبهر نظره ويطرب سمعه أكثر من أن يرى رجلاً فقيراً ينادي « يحيا الوطن » وهو لا يفكر إلا في حياة الوطن حقاً « ولكن ذلك الرجل صاحب الأموال ، وذلك الموظف في المنصب

العالي ، إذا قال « يحيا الوطن » فإنما يقول تحيا وظيفتي أو مصلحتي . لذلك رأيت كثيراً من ذوي الوظائف تقلبوا وتغيروا ولكن « الرعاع » أمثالكم ما تغيروا ولا بدلوا عقائدهم . لذلك فاني معتقد موقن أن حركتنا طبيعية قوية سينبت نباتها وستؤتي أكلها بإذن الله ، إن لم يكن اليوم فغداً » .

ومن صفات تلك الزعامة الشعبية أخيراً إيمان سعد إيماناً عميقاً بظفر القضية الوطنية ، مهما تعرضت له من أخطار وكابدت من أهوال ، وان لم يأت ظفرها على يديه أو على أيدي الجيل الذي يمثله ، إذا صحت إرادة الأمة على النضال ، وانعقدت عزيمتها عليه ، وثبتت فيه إلى النهاية . ومن أقواله بهذا المعنى : « ان مطلوبي هو الاستقلال ، فان لم تمتد حياتي إلى ان أصل إليه فحياة الأمة أطول ، وقوتها على مواصلة السعي أعظم . إذا خلا منها سيد قام سيد ، وإذا اختفى الوفد قامت وفود » ، وقوله : « أريد لهذه الأمة المصرية الاستقلال والحرية ، فإذا وصلنا إليها فذلك منتهى قصدنا ، وإذا لم نصل تركنا لأبنائنا ان يتموا العمل الذي بدأناه » . وكان يقول لاخوانه وهو في منفاه بسيشل : « سأموت هنا رضي البال وتعودون أنتم . ولكن موتي بعيداً عن مصر سيذكي نار الوطنية في قلب الأمة ويقفها صفاً واحداً تدافع عن حقوقها » .

وحينما كان الموت يهدده ، إذ اعتدي عليه وأصابت الرصاصة الغادرة رئته ، لم يفكر في ان النهضة ستكبو وان الحماسة ستخبو وان الحركة ستسكن ، بل اعتقد بأن بذور الوطنية المنبثة في قلوب المصريين ستنمو وتثمر ، فاستقبل المصاب برباطة جأش عجيبة ، وقال لمن حوله :

ــ لا تحزنوا ولا تبتئسوا . إذا مات سعد فمبدأ سعد لا يموت ! إعملوا من بعدي وثابروا على تحقيق سعيي !

فقال أصحابه : ان الله أرحم بمصر من أن تصاب بسوء .

فقال : وماذا في ذلك ؟ نحن ميتون . فلنمت نحن وليحي الوطن !

ثم نظر إلى الجماهير المتدافعة فوثب على قدميه ودمه ينزف من جرحه ، وهتف بها :

ـ لا تكتئبوا ولا تهتموا .. إلى الأمام .. دائماً إلى الأمام !

تلك هي أهم الصفات والعوامل التي جعلت من سعد زغلول زعيماً سبر نوازع أمته فأحاط بها ، ثم تمثلها بالتفكير العميق ، وصفاها بالتأمل الهادىء ، واستقرت في ضميره إيماناً صادقاً قوياً ، حتى إذا ما عبر عنها ودعا إليها ، تجاوبت بصوته البلاد لأنها وجدت فيه صدى عبقرياً لروحها ، وتبعه الشعب لأنه سمع فيه حديث قلبه ونجوى ضميره .

ثورة سنة ١٩١٩

أوشكت الحرب العالمية الأولى على نهايتها ، وأمسك العالم أنفاسه مترقباً ذلك الصراع الدامي الذي تتوقف على نتيجته مصائر الأمم والشعوب ، وبدأت كل دولة تتطلع إلى انتزاع حقوقها أو تحقيق مطامعها ، وأخذ الوطنيون المصريون يتساءلون: « ومصر ؟ ما الذي خرجت به من هذه المعركة ، وماذا يكون مصيرها إذا انتصر الحلفاء ؟ »

وما كادت الهدنة تعلن في ١١ تشرين الثاني (نوفمبر) سنة ١٩١٨ (١٣٣٧هـ) حتى طلب سعد زغلول وعبد العزيز فهمي وعلي شعراوي في ذلك اليوم نفسه، مقابلة السير ريجنالد ونجت نائب ملك انكلترة في مصر ، فلما قابلوه في اليوم الثالث عشر من ذلك الشهر ، طلبوا منه إلغاء الأحكام والتدابير التي اتخذت في ظروف الحرب، فوعدهم بالكتابة إلى حكومته في هذا الشأن ، وأكد لهم ان انكلترة لا تريد لمصر إلا خيراً ، وانها ستعنى في أمرها بعد مؤتمر الصلح . فقالوا ان الحرب قد انتهت ، ولم يبق هناك ما يمنع من معرفة هذا الخير الذي تريده انكلترة لمصر ، وان المصريين يريدون ان يكونوا أصدقاء للانكليز ، ولكن صداقة الحر للحر لا العبد للسيد . فأدهش ريجنالد ونجت قولهم، وأجاب ذلك الحاكم بأمره المعتز بكبرياء الامبراطورية التي لم تكن تغرب الشمس عن مستعمراتها وأملاكها المترامية :

ــ إذن أنتم تطلبون الاستقلال !

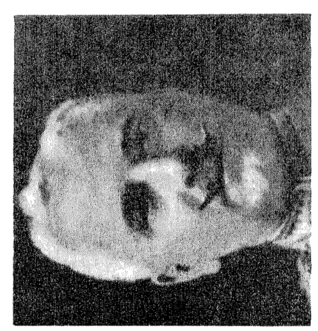
فعجبوا لدهشته ، وأجابوا بالايجاب . وبعد جدل دار بينهم حول كفاية مصر للاستقلال ، وعد المندوب البريطاني بالاتصال بحكومته لمعرفة رأيها في هذا الشأن !

والواقع ان انكلترة كانت قد اعتزمت أن تفرض على مصر نظاماً لا يختلف في شيء عن الأنظمة التي تطبقها في مستعمراتها القديمة ، وقد تطوع لوضع هـذا النظام السير ويليام برونيات المستشار القضائي لوزارة العدل . والسير برونيات هو القائل بأن المصريين ليسوا شعباً متجانساً ولا متشاكلًا ، فهو لا يتحد في الميل وائتلاف الغاية والمقصد ، ولهذا فلا رجاء في تحديد كيانه واعتبار قوته وسلطانه كأمة لها من الشخصية والكرامة القومية مثل ما لباقي الأمم .. والسير برونيات هو القائل أيضاً ان الثورة المصرية تطفئها بصقة انكليزية !!..

وقد تقدم السير برونيات هذا بشروع دستور ، أو كاريكاتور دستور إذا جاز هذا التعبير،نسجه من المواد الزاهية المغرية التي وجدها في مطبخ وزارة المستعمرات البريطانية ، يقضي بإنشاء مجلسين يشكل الانكليز والأجانب نصف أعضاء أحدهما وهو مجلس الأعيان المعول عليه في كل أمر ، ويؤلف المصريون المجلس الثاني وهو مجلس النواب ، على ان لا تكون له غير سلطة اسمية في تقرير أوضاع البـــلاد والنظر في شؤونها المختلفة . وتلغى الامتيازات الأجنبية ولكن اللغـة الانكليزية تصبح اللغة الرسمية في المحاكم ، وتغدو القوانين الانكليزية هي القوانين المتبعـة فيها ، ويجلس إلى جانب كل قاض مصري قاض انكليزي للفصل في القضايا الأهلية .

وقد ألقى القاضي الانكليزي مستر برسيفال محاضرة بهذا المعنى في « جمعيـة الاقتصاد والاحصاء والتشريـع » حضرها جمهور من أساطين الاحتلال البريطاني في مصر ، فما كاد المحاضر ينهي محاضرته حتى تقدم سعد زغلول إلى المنبر وانتقد المحاضر وحمل على الاستعمار ودعاته حملة شعواء، وكان سعد شديد اللهجة في كلماته النارية، فعمد منظمو المحاضرة إلى إطفاء الأنوار لمنعه من متابعة الخطابة !

وقد أثارت هـــذه المشاريـع الاستعمارية جماهير المصريين فاشتدوا في طلب استقلالهم ، وزاد التفافهم حول سعد واخوانه المناضلين في سبيل ذلك الاستقلال . وحاول أعضاء الوفد السفر إلى أوربة للاتصال بالحكومة الانكليزية ، وإثارة عطف الرأي العام في العالم على قضية مصر ، وطلب معالجة هذه القضيـة في مؤتمر الصلح ،



السير ريجنالد ونجت



اللورد كتشنر

فمنعتهم السلطة الانكليزية من مبارحة مصر بالرغم من إلحاحهم الشديد وتوسلهم إلى ذلك بجميع الوسائل الممكنة . وإذا بهم يلجأون إلى عقد الاجتماعات الوطنية وتوجيه النداءات الحارة إلى الدول الأجنبية عن طريق سفرائها بالقاهرة ، منددين بسياسة انكلترة التعسفية ، مناشدين الدول ان تمنع تقرير مستقبل مصر دون أخذ رأيها فيه ، محاولين جهد طاقتهم إخراج القضية المصرية إلى الميدان الدولي وبحثها في مؤتمر الصلح .

ولما أقبل يوم ١٨ كانون الأول (ديسمبر) سنة ١٩١٨ (١٣٣٧هـ) ، وهو يوم ذكرى إعلان الحماية البريطانية على مصر ، وقد اعتاد الانكليز ان يسيّروا فيه جيشهم بالقاهرة فيخترق معظم شوارعها وأحيائها ، أراد سعد ان تنتهز مصر تلك الفرصة لإعلان ألمها وغضبها ، وذلك بأن يترك الشعب الشوارع التي سيمر فيها الجيش البريطاني قفراء ، وان تغلق أبواب الحوانيت والمنازل وتسد جميع النوافذ. فسار الجيش البريطاني ذلك اليوم في قلب العاصمة المصرية وكأنه في بيداء قفراء قاحلة .

وأرسل سعد إلى الرئيس ويلسون حين وصل هذا إلى باريس ، احتجاجاً على منع مصر من إسماع صوتها والافضاء بمطالبها في المؤتمر ، ومما جاء فيه قوله: «...نعم ان السلطات البريطانية طلبت إلينا ان نبدي اقتراحات حكومية عن إدارة مصر ، بشرط ان لا تخرج عن دائرة الحماية التي رتبتها ، وانها بذلك تطلب منا المحال، لأن مصر لم تقبل مطلقاً هذه الحماية التي ليست إلا عملاً من الأعمال الحربية ، والتي مع كونها مناقضة لآمالنا في الاستقلال ، فهي مناقضة أيضاً للحقوق التي كسبناها من تركية من زمان بعيد . فان هذه الحرب أبعد ما تكون عن تضييق دائرة تلك الحقوق ، بل على ضد ذلك توسّع فيها إلى حد الاستقلال ، تطبيقاً للمبادىء الجديدة التي تقضي باحترام الجنسيات » . ثم أرسل إليه برقية ثانية حين وصوله إلى لندن ، وأعقبها ببرقية ثالثة يذكره فيها بالبرقيتين السابقتين .

وفي ١٠ كانون الثاني (يناير) سنة ١٩١٩ (١٣٣٨ هـ) أذاع سعد نداء إلى الأوربيين يطلعهم فيه على حقيقة المطالب الوطنية التي تنشدها مصر ، والتي كانت

انكلترة تبذل وسعها لتشويهها أمام الرأي العـــام العالمي ، وقد ختمه بقوله :
« ... فباسم الوفد المصري أعلن إلى كل أجنبي في مصر من ذوي المصالح ، ان
هذا الوفد يقرن بسعيه للاستقلال احترام المصريين لحقوق الأجانب كل الاحترام .
كما اني أنتهز هذه الفرصة لأشهد كل رجل حر على المعاملة المنافية للحرية التي عومل
بها الوفد المكلف بإسماع صوت مصر وعرض مطالب أهلها ، ولأعلن ان كل حكم في
مستقبل المصريين من غير ان تُسمع أقوالهم مناقض لقواعد الحق والعدل التي جعلت
أساساً لأحكام مؤتمر السلام » .

ثم أرسل إلى كليمنصو رئيس مؤتمر السلام برقية قال فيها : « .. مهما يكن من
الاتفاق المزعوم حصوله على المسألة المصرية فان الحكم في مصيرنا من غير ان تسمع
أقوالنا مناقض لما اتفق عليه جميع الحلفاء . » وقال في ختامها « .. باسم الانسانية
التي تأبى ان تُكره الأمم على ان تنتقل من يد إلى أخرى كما تنتقل ملكية السلع ،
نناديك من وراء البحر ان لا تتخذ سلوكنا الاكراهي الذي هو النتيجة الطبيعية
لحبسنا في حدود بلادنا ، دليلاً على رضانا بسيادة الغير علينا ، وان لا تسمح بالحكم
في مصيرنا من غير ان تسمع أقوالنا » . وأعقب هذه البرقية بأخرى إلى لويد جورج
قال فيها : « لا تزال الحال كما كانت ، حتى ان الأمة المصرية بأسرها من أكبر
وزير إلى أصغر فلاح محبوسون داخل بلادهم لا يسمح لأحد بالخروج من هذا الحصار
الشديد » . وقال عن مصر : « انتفعتم في هذه الحرب برجالها وأموالها ، وصرحتم
في مواطن شتى بأن ذلك كان من أكبر العوامل في إحراز النصر في الشرق ، فبينما
مصر المساعدة تنتظر ان تعامل بما يتفق مع حالها ، إذا هي تراكم غداة الهدنة قد
قلبتم لها ظهر المجن ، وحبستم أهلها بين حدودها على الذل والهوان .. » ثم قال :
« إذا كان حب الاستعمار لا يبيح للمستعمرين والمحافظين مثل هذا التصرف فكيف
بالأحرار ؟ »

وفي ١٣ كانون الثاني (يناير) أقام حمد الباسل باشا حفلة شاي في بيته ، فألقى
سعد فيها خطاباً وطنياً هاجم فيه الحماية ، وأثبت بطلانها من ناحية الحق الدولي ،
ومخالفتها للمبادىء الجديدة التي خرجت بها الانسانية من الحرب ، وطالب باستقلال

مصر استقلالاً تاماً ، وبوضع هذا الاستقلال تحت ضمان جمعية الأمم . ثم اقترح إرسال نداء بهذا المعنى إلى الرئيس ويلسن ، فوافق المجتمعون على ذلك وأرسلوا النداء ، وقد كان لهذا الخطاب الجريء صدى كبير في الأوساط الوطنيـة ، حمل السلطة البريطانية على منع كل اجتماع وطني ، فما كان من سعد إلا ان حضر محاضرة للقاضي الانكليزي برسيفال في نادي جماعة الاقتصاد والاحصاء والتشريع ، طعن فيها بقوانين مصر وكفاية أهلها ، وحاول تبرير الحماية الانكليزية عليها وإعطائها صفة شرعية ، فلما انتهى المحاضر صعد سعد إلى المنبر كما ذكرنا في مطلع هذا الفصل ورد عليه بالأدلة المقنعة والحجج المفحمة وختم خطابه بقوله : «أعلنت انكلترة حمايتها من تلقاء نفسها دون ان تطلبها الأمة المصرية أو تقبلها ، فهي حمايـــة باطلة لا وجود لها قانوناً ، بل هي ضرورة من ضرورات الحرب تنتهي بنهايتها ولا يمكن ان تعيش بعد الحرب دقيقة واحدة[1] . »

وكانت الحركة الوطنية تنمو باطراد في جو من الحماسة الرائعة . وفي هـذا الجو العاصف الذي كان يزداد اضطراباً يوماً بعد يوم، استقالت وزارة حسين رشدي باشا مضطرة لأنه سمح لها بأن ترسل إلى انكلترة من ينوب عنها في مفاوضة الحكومة الانكليزية بشؤون مصر ، ولم يسمح لها باستصحاب مندوبين من الوفد الذي أجمعت الأمة على إنابته عنها ووضعت فيه ثقتها كلها . وتحرج بعد استقالتها كل ذي ضمير حر من قبول الوزارة ، كما تجنب أصحاب الضمائر المدخولة قبولها خشية من غضب الشعب .

وفي الحق ان الشعب المصري كان يجيش ويتلظى ويوشك أن ينفجر . وقد أراد سعد ان يُسمع الدنيا كلها صوت هذا الشعب الغاضب الذي تحاول انكلترة خنقه بتعسفها الغاشم .. أراد ان يضرم نار الثورة الكامنة فيـه على الاستعمار .. ولكن هذه النار كانت بحاجة إلى شرارة تسري فيها حتى تشتعل ، ويمتد لهيبهـا إلى كل مكان ، لا يبالي بما يعترضه من قوى البطش الانكليزي وجحافله الزاخرة .. فاعتزم

---

١ – ايام لها تاريخ ص ١١٧

ان يكون هو نفسه تلك الشرارة المنشودة ، وقرر تحدي السلطة الانكليزية تحدياً يرغمها على سجنه أو نفيه ، فيكون عملها هذا ، الحافز الذي يثير مكامن القوة الغاضبة في الشعب المصري .

ومضى سعد يحذر رجالات مصر من تأليف الوزارة ، ووجه إلى معتمدي الدول الأجنبية بلاغاً يلقي فيه تبعة ذلك الوضع المتأزم على انكلترة وحدها . وقابل الملك فؤاد مع نفر من أصحابه وقدم إليه بياناً جريئاً لخص فيـــه موقف الوزارة الرشدية ثم قال : « .. ولقد نعلم ان عظمتكم ربما كنتم مضطرين – لاعتبارات عائلية – ان تقبلوا عرش أبيكم العظيم الذي خلا بانتقال أخيكم المغفور له السلطان حسين إلى رحمة ربه . ولكن الأمة من جهة أخرى كانت تعتقد ان قبولكم لهذا العرش في زمن الحماية الوقتية الباطلة، رعايةً لتلك الظروف العائلية ، ليس من شأنه ان يصرفكم عن العمل لاستقلال بلادكم . غير ان حل المسألة بقبول استقالة الوزيرين اللذين أظهرا احترامهما لإرادة الأمة لا يمكن ان يتفق مع ما جبلتم عليه من حب الخير لبلادكم والاعتداد بمشيئة شعبكم . لذلك عجب الناس من مستشاريكم كيف انهم لم يلتفتوا إلى ان الأمة في هذا الظرف العصيب إنما تطلب منكم – يا أرشد أبناء محررها الكبير محمد علي – ان تكونوا العون الأول على نيل استقلالها مهما كلفكم ذلك .. فان همتكم أرفع من ان تحدها الظروف .. كيف فات مستشاريكم ان عبارة استقالة رشدي باشا لا تسمح لرجل مصري ذي كرامة وطنية ان يخلفه في مركزه ؟ كيف فاتهم ان وزارة تؤلف على برنامج مضاد لمشيئة الشعب مقضي عليها بالفشل ؟

« عفواً يا مولانا ، قد تكون مداخلتنا في هذا الأمر ، وفي غير هـذا الظرف ، غير لائقة . ولكن الأمر جل الآن على ان يراعى فيه أي اعتبار غير منفعة الوطن الذي أنت خادمه الأمين !

« ان لمولانا أكبر مقام في البلاد ، فعليه أكبر مسؤولية عنها، وفيه أكبر رجاء لها ، وإنا لا نكذبه النصيحة إذا تضرعنا إليه ان يتعرف رأي أمته قبل ان يتخذ قراراً نهائياً في أمر الأزمة الحالية ، فاننا نؤكد لسدته العلية انه لم يبق أحـد من

رعاياه ، من أقصى البلاد إلى أقصاها ، إلا وهو يطلب الاستقلال . فالحيلولة بين الأمة وبين طلبها مسؤولية لم يتحر" مستشارو مولانا أمرها بالدقة الواجبة .

« ولذلك دفعنا واجب خدمة بلادنا واخلاصنا لمولانا ان نوفع لسدته شعور أمته التي هي أشد ما تكون رجاء في استقلالها وأخوف ما تكون من ان تلعب به أيدي حزب الاستعمار ، والتي تطلب إليه ، بحقها عليه ، ان يغضب لغضبها ويقف في صفها فتنال بذلك غرضها ، وانه على ذلك قدير .. الخ » .

ويعلق أحمد بهاء الدين على هذا البيان فيقول: « هذا أخيراً صوت تلميذ الأفغاني وزميل عبد الله النديم . نغمة جريئة جداً ، فمنذ وقفة عرابي في عابدين لم يتحدث مصري إلى صاحب العرش بهذا الأسلوب ، بل ان لهجة التقريع هنا لا نجدها في كل ما قاله عرابي . والمخاطرة هنا أعظم : كان عرابي يقف ووراءه الجيش المسلح أمام الخديوي الأعزل ، أما سعد فهو لا يقف مع القوة المسلحة ، بل ضدها ، والانكليز هذه المرة موجودون ، وكانت انكلترة التي يجابهها سعد بهذا التحدي هي الدولة الأولى في العالم ، المنتصرة في الحرب ، التي يركع العالم عند قدميها وهي توزع الأسلاب ، وجنودها ليسوا بعيدين ، بل هنا في قلب القاهرة ... وهذا هو مغزى حركة سعد[1] . »

وقد راع ممثلي السلطة الانكليزية في مصر ، الخطوة الجريئة التي يخطوها سعد زغلول متحدياً بها الاستعمار البريطاني على هذا الغرار ، وحذره القائد العام الجنرال واطسون وتسعة من أصحابه ، من وضع مسألة الحماية موضع المناقشة وإقامة العقبات التي تعترض تأليف وزارة جديدة ، مهدداً إياهم ان هم خالفوا ذلك «بالمعاملة الشديدة بموجب الأحكام العرفية » . فإذا بالجنرال واطسون يتلقى من سعد ذلك اليوم نفسه جواباً شديد اللهجة يبلغه فيه ان الوفد يطلب استقلال مصر التام ، ويرى الحماية غير مشروعة ، وهو لن يتأخر عن أداء واجبه مهما كلفه ذلك ، ويلقي التبعة في بقاء البلاد بلا وزارة على الذين وضعوا من هم أهل للحكم في مركز حرج أمام

---

١ — يام لها تاريخ ص ١١٩



سعد زغلول وإلى يمينه اسماعيل صدقي فحمد الباسل وإلى يساره محمد محمود فحامد العلايلي أثناء نفيهم في جزيرة مالطة سنة ١٩١٩

ضمائرهم وأمام مواطنيهم .

وبادرت السلطة الانكليزية في الثامن من آذار (مارس) سنة ١٩١٩ (١٣٣٨هـ) إلى القبض عليــه مع حمد الباسل ومحمد محمود واسماعيل صدقي ونفتهم إلى جزيرة مالطة حيث كان الانكليز ينفون أسراهم من الأتراك والألمان .

ويقول بروكلمان ان ريجنالد ونجت كان يرى ان سعداً وأنصاره خليقون بأن يكونوا أقل خطراً في مؤتمر الصلح حيث سيتعين عليهم ان يعملوا في جو لم يألفوه منهم في مصر نفسها حيث كان في ميسورهم ان يرسموا لبريطانية الخطوط الرئيسيـة لسلوكها ، وقد اقترح على وزير خارجية بريطانية الذي كان قد استدعاه إلى لندن لمناقشته في هذا الأمر ، ان يُقرّ مطالب الوفد ، ولكنه لم يلق اذناً واعية ، ولما اضطرب الأمر في مصر حسب السير ميلن تشيتهام القائم بأعمال ونجت ان أفضل سبيل لحل الأزمة هو إبعاد زعماء الوفد عن البلاد ، ووافق وزير خارجية بريطانيـة على ذلك [1] .

وكان أول عمل قام به سعد زغلــول في المنفى انه أرسل إلى رئيس الوزارة الانكليزية برقية قال فيها : « ان شرف الممالك يُقدّر بمقدار احترام ساستها ورجالها للمعاهدات السياسية التي يبرمونها والتصريحات الرسمية التي يفوه بهــا رجال تلك الحكومة الرسميون . ولما كانت انكلترة في معاهدة لندن عـام ١٨٧٤ قد ضمنت استقلال مصر ، كما أقسمت الملكة فيكتوريا والبرلمان بالتاج والشرف عام ١٨٨٢ ان الاحتلال لن يكون إلا وقتياً ، وأعلن غلادستون عام ١٨٨٧ ان أوان الجلاء عن مصر قد آن ، ولما كنتم جنابكم الممثل لحكومة جـلالة ملك بريطانية والمدافع عن كرامة بلاده وشرف الأمة الانكليزية الحرة ، فاني أطالب جناب الرئيس المبجل برفع الحماية التي أعلنتها حكومتكم على بلادنا قسراً لمقتضيات الحرب وجلاء الجنود البريطانية عن وادي النيل ، احتراماً للمعاهدات والتصريحات التي ذكرناها ، وصيانة لشرف أمة أنت على رأس حكومتها . وليأذن جناب الرئيس بأن أذكر

---

١ – تاريخ الشعوب الاسلامية ج ٥ ص ٤٩

ان سياسة العنف والارهاق التي اتبعت معنا ، لا تزيدنا نحن المصريين كافة إلا تمسكاً بطالبنا ، وثباتاً في موقفنا ، وانه خير لانكلترة ان تكون لمصر صديقة ، وهناك نستطيع ان نقطع على أنفسنا عهداً بأن نصون مصالحكم ونروج تجارتكم في بلادنا » .

وهكذا اضطر سعد الانكليز إلى اعتقاله، بسلوكه المغرق في التحدي والصلابة الوطنية . وكان اعتقاله كما تنبأ ، الشرارة التي لامست شعور الشعب المصري ففجرت فيه ينابيع فياضة من الوطنية والعزة والحماسة ، وأضرمت نار الثورة في البلاد .

غضب أمة

سألت مجلة « الهلال » الاستاذ عبد الرحمن الرافعي اثر صدور كتابه عن ثورة ١٩١٩ ، عن الاسباب التي حفزته الى وضعه فقال :

« أرّخت ثورة سنة ١٩١٩ لاني أعدها من أعظم مراحل الحركة القوميـة في تاريخ مصر الحديث ، ولأن لها أثرها الدائم في حياتنا القومية الى اليوم وبعد اليوم أيضاً . فان مصر لا تزال تحيا بذكرى هذه الثورة ، وكل ما نالته من تقدم في الحياة السياسية وفي المحيط الدولي يرجع الفضل فيه أكبر الفضل الى الثورة وضحاياها . واذا كنت قد أفردت كتاباً للثورة العرابيـة ، فكان من واجبي أن أفرد أيضاً كتاباً لثورة سنة ١٩١٩ ، لانها ولا ريب تفضل الثورة العرابية في نتائجها وآثارها، وتعدّ بحق من الثورات الناجحة في تاريخ الحركات القومية . ومن حق الامة أن تفخر بها ، وخاصة لانها سبقت ثورات الامم الشرقية ونهضاتها التي ظهرت في أعقاب الحرب العالمية الاولى » .

ولا ريب في أن رأي مؤرخ الحركة القومية في مصر ، في موضوع نذر له حياته ووقف عليه نتاجه ، هو الرأي الفصل في هذا الموضوع .

والواقع أن مقياس الحكم على أية ثورة أو حركة سياسية،هو أن نسأل أنفسنا: أين كانت البلاد من قبلها،وأين صارت من بعدها؟وفي استطاعتنا في ضوء هذا السؤال مثلاً ان نحكم بإخفاق الثورة العرابية لأن وضع مصر من بعدها ، كان أسوأ مما كان

عليه قبلاً . أما ثورة سنة ١٩١٩ ، فهي على خلاف ذلك ، واذا كانت لم تحقق لمصر كل ما تنشده من حرية وسيادة واستقلال ، فلا شك في أنها قد خطت بها نحو تلك الاهداف خطوات واسعة ، وفتحت أمام الشعب المصري أبواب نهضة شاملة في جميع ميادين الحياة ، ومضت به قدماً في طريق العزة والكرامة وتحطيم الاغلال .

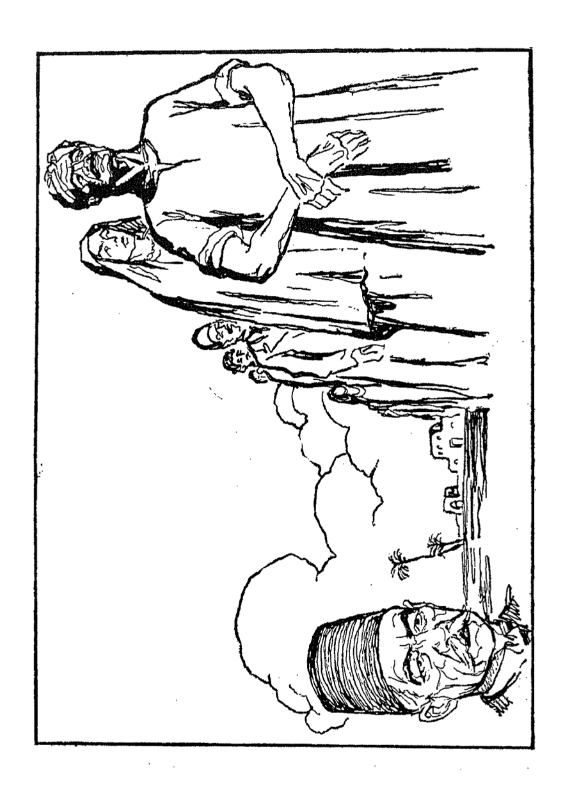
وترجع الاسباب البعيدة لثورة سنة ١٩١٩ (١٣٣٨ هـ) الى الاثر الذي تركه الاحتلال الانكليزي لمصر منذ سنة ١٨٨٢ (١٣٠٠ هـ) حتى سنة ١٩١٤ (١٣٣٣ هـ)، أما أسبابها القريبة فتعود الى الحماية الانكليزية الباطلة التي أعلنت سنة ١٩١٤ ، وما كان لها من نتائج سيئة في حياة البلاد ، كما تعود الى نمو الحركة الوطنية ويقظة الوعي القومي في مصر ، وانتشار روح الحرية في العالم بعد الحرب العالمية الاولى ، ويمكن اجمال هذه الاسباب بالنواحي التالية :

١ ـ اعلان الاحكام العرفية خلال الحرب ، وحلول السلطات العسكرية مكان السلطات المدنية بطريقة مباشرة أو غير مباشرة ، واعتقال الكثيرين من الوطنيين ، وتعطيل الجمعية التشريعية ، وتقييد حرية الاجتماع وحرية الصحافة والحرية السياسية لمنع ذوي الرأي في البلاد من تنبيه أذهان الشعب الى ما يراد به ، أو تحريك عزيمته نحو محاولة التحرر والأخذ بأسباب التقدم والارتقاء ، وقد نظم خليل مطران في ذلك قصيدة رائعة قال فيها موجهاً الخطاب إلى المحتلين :

كسّروا الأقلام ، هل تكسيرها ... يمنع الأيديَ أن تنقش صخرا
قطّعوا الأيدي ، هل تقطيعها ... يمنع الأعين أن تنظر شزرا

٢ ـ إرهاق الفلاحين بالسياسة القطنية التي كانت تقضي بتخفيض ثمن القطن ، ومصادرة إنتاجهم ومواشيهم لمصلحة الجيش البريطاني بثمن بخس، وقد ساءت بسبب ذلك حال الفلاحين حتى اضطروا إلى بيع ماشيتهم وأثاث بيوتهم كي يتمكنوا من تسديد الضرائب .

٣ ـ تجنيد ١٫٢٠٠٫٠٠٠ مصري بأساليب هي الغاية في العنف ، للعمل في حملة الانكليز على فلسطين وهجومهم على الخطوط التركية في الجبهة الشرقية بدعوى



انهم متطوعون .

٤ — مشروع الدستور الزائف الذي وضعه السير وليم برونيات مستشار وزارة العدل سنة ١٩١٨ (١٣٣٧ هـ) وهو يهدر حقوق المصريين ويرمي إلى إنشاء برلمان مصري تكون الأكثرية فيه من الأجانب !

٥ — إعلان مبادىء ويلسون الأربعة عشر وفي مقدمتها حق الشعوب في تقرير مصيرها، وتصريح الحلفاء بأنهم إنما يحاربون دفاعاً عن الديمقراطية والعدالة الانسانية، وانفجار الثورات في كثير من بلدان العالم ، وتنبه الأمة المصرية لضرورة الكفاح من أجل الاستقلال ، والعمل على إنماء شخصيتها وكيانها القومي وسط هذه الأمم المتطاحنة ، ولا سيما بعد أن تخلصت من تبعيتها الاسمية لتركية بحكم اشتراكها في الحرب مع المانية ضد الحلفاء .

٦ — نفي سعد زغلول وثلاثة من زملائه أعضاء الوفد الذي تألف للمطالبة بحقوق مصر . وقد كان هذا السبب الأخير السبب المباشر للثورة .

ولو تساءل امرؤ كما تساءل الدكتور طه حسين : « لماذا كان سعد دون غيره من أصحابه مظهر هذه الثورة ؟ لماذا كان سعد دون أصحابه مصدر هذه الصيحة، لماذا كانت دار سعد دون غيرها من دور أصحابه مبعث هذا النداء الذي اضطربت له مصر ثم اضطرب له الشرق العربي ، والذي ما زال صداه يتردد ، وسيظل صداه يتردد في أعماق الضمير المصري ؟ » لأجاب كما أجاب هو : « لأن سعداً أصدق أصحابه تمثيلاً لروح الشعب المصري . وليس أدل على ذلك من حياة سعد بعد ان شبت الثورة واضطرمت نارها ، فقد اجتمعت حوله كلمة المصريين لم يخالف عنه أحد . فلما مضت الأيام وتتابعت الحوادث، وامتحنت الثورة في قواها وصلابة عودها وقدرتها على مقاومة ما كانت تواجه به من العنف، وما كان يدبر لها من الكيد ، وما كان يصب عليها من الاغراء ، جعلت نتيجة الامتحان تظهر شيئاً فشيئاً ، فإذا العنف والكيد والاغراء لا تزيد سعداً إلا دنواً من الشعب واتصالاً بالشعب وفناء في الشعب » .

شعب أعزل فقير قد جرده العدو من زاده ومن عتاده وماله ، وقف في وجه

عدوه غداة أوبته منتصراً من أعظم حرب في تاريخ البشرية ، ليقول له بإيمان وإصرار وعزم : « اخرج من بلدي » .. ذلك الشعب هو الشعب المصري ، وتلك الصيحة الغاضبة هي الصيحة التي أرسلها سعد زغلول بلسانه في وجه السير ريجنالد ونجت المعتمد الانكليزي في القاهرة في ١٣ تشرين الثاني (نوفمبر) سنة ١٩١٨[1].

وما ان شاع نبأ اعتقال سعد زغلول ، حتى انفجرت الثورة .. وقد بدأت بحركة اضرابات ومظاهرات عفوية نظمها الطلاب والعمال في المدن ، ثم انتقلت إلى الاصطدامات الدامية بينهم وبين الانكليز ومهاجمة مؤسساتهم ومراكزهم، كما تجلت في القرى باحتلال الفلاحين مخافر الشرطة ومهاجمة القطر التي تقل الضباط والجنود الانكليز ، وبتحطيم سكك الحديد وتخريب أسلاك التلفون في أكثر أنحاء البلاد . وكان قصد الأهلين من نزع السكك الحديدية تطويق القطارات المسلحة التي تطوف القرى لجمع السلاح وسلب المنازل وانتهاك الحرمات، وكان جمع السلاح يشمل المدي الكبيرة والعصي الغليظة وكل ما يمكن التسلح به في المعارك والمشاجرات .

وقد حدث ذلك كله دون تدبير سابق أو تنظيم مبيت ، أو إتصال بين جماعات الثائرين ، وإنما كان حركة عفوية هي وليد الذخيرة الوطنية الكامنة في النفوس ، فما كادت تنطلق شرارتها الأولى حتى شملت البلاد جميعاً وسيطرت على سائر مرافقها ، مما جعل الحكومة البريطانية تعتقد أو توهم بأنها تعتقد ، انها حركة مدبرة من قبل أعداء بريطانية ، فقالت في بيانها الرسمي عن الثورة :

« .. ان هناك شواهد تثبت ان الخطة مدبرة ومنظمة بإحكام .. ومما يستحق الملاحظة ان الخطة التي نفذت ، تشابه البرنامج الذي رسمه الألمان والأتراك للغارة على مصر في خريف سنة ١٩١٤ ، وهو البرنامج الذي أفضى به إلى السلطات المصرية الجاسوس الألماني مورس المقبوض عليه في الاسكندرية . وإذا حسبنا كل حساب للحالة العقلية أو لدواعي التذمر الناشئة بين الفلاحين المشار إليها آنفاً ، فكل هذا لا يكفي لتعليل الانفجار المنظم الذي تلوح فيه اصبع تركية الفتاة كما قد تلوح فيه

---

١ — قصة الكفاح بين العرب والاستعمار ص ١٩٤

اصبع الألمان !.. »

وقد استبدلت الحكومة البريطانية بالسير ريجنالد ونجت اللورد اللنبي، وبالجنرال وطسن الجنرال بولفن المشهور باسم الجزار ، وكانت الوزارات المصرية بلا وزراء لأن الهيئات الوطنية هددت كل من يقدم على تأليف الوزارة أو يشترك فيها بالقتل ، فكانت السلطة الانكليزية تحكم مباشرة ، وتقمع أعمال الثوار بأقصى الوحشية والعنف ، حتى أنها كانت تطلق النار في المدن على كل قوم متجمعين ومنهم جماهير المصلين أثناء خروجهم من المساجد . أما في الريف فقد فرضت الغرامات المالية الكبرى على القرى الثائرة ، وألقت القنابل على بعضها غربي مديرية البحيرة ، ثم أذاعت انذاراً بأن كل حادث من حوادث التدمير « يعاقب عليه باحراق القرية التي هي أقرب من سواها إلى مكان التدمير » . ولكن أعمال البطش والقسوة هذه ، ما كانت إلا لتزيد النار تأججاً والبلاد اضطراباً والأمة اتحاداً .

وقد تألفت خلال الثورة عدة جمعيات سرية منها جمعيات « التضامن الوطني » و «الشعلة » و «المصري الحر » و « جماعة الانتقام » وكانت هذه الجمعيات تصدر المناشير وتوزعها على جماهير الشعب لإذكاء حماسته وإثارة وطنيته . وقد روى راغب اسكندر في ذكرياته عن الثورة بمجلة « المصور» أن لجان الثورة كانت تعمل طبقاً لنظام الخلايا « فكان الواحد منا لا يعرف زميله في الخلية الأخرى ، حتى أني لم أكن أعرف أن أخي نجيب اسكندر كان يعمل في إحدى الخلايا الأخرى ، وكان كلانا لا يعرف أين وكيف يعمل الآخر ، وكانت خليتي مؤلفة من أحمد ماهر والنقراشي والشيخ مصطفى القاياتي وحنفي ناجي وأنا »

وكان أعضاء هذه الجمعيات يوزعون المناشير في المدن والقرى وهم متنكرون ، بعضهم يرتدي القبعة ليحسب من الأجانب فلا تتجه إليه الشبهات ، وبعضهم يلبس جلباباً ويسير حافي القدمين . وقد أراد طالب يدعى محمد عبد السلام أن يثبت لمدير المطبوعات أن المنشورات تطبع وتوزع رغم أنفه ، فأرسل إليه أحد هذه المناشير مشفوعاً بخطاب أهدى فيه المدير « سلاماً معطراً بالقنابل » فكان هذا الخطاب من الأدلة التي قدمت في المحكمة ضد صاحبه فيما بعد .

وإذا كان هذا شأن موزعي المناشير ، فلا ريب في أن شأن موزعي القنابل كان أشد وأخطر ، فقد كان العاملون على نقل أسلحة الثورة ومعداتها يحتاطون كثيراً في مظاهرهم الخارجية كي يبعدوا عن أنفسهم كل شبهة ، فهم ساهرو الليل في الحانات والبارات، وهم الذين يغشون الملاهي كأنها شغلهم الشاغل . وكان الكثيرون منهم موظفين في الحكومة ، فكانوا يستغلون وظائفهم لتنفيذ مآربهم ، وكانت القنابل تنقل ضمن الحقائب الرسمية أو في سلال مغطاة بالفواكه .

وقد استمرت معركة المنشورات فترة طويلة ، حتى بعد عودة سعد من منفاه ، وخلال الفترة التي سبقت سفره مع وفد مصر للمفاوضة في لندن . ومن الطريف أنه حدث مرة ان فرغ الطالب توفيق صليب من طبع أحد المنشورات ، فأخذ نسخة منه وذهب في سيارة الطالب نجيب حنينة الى بيت الأمة ، وكان سعد يقف بالباب ينتظر سيارته ومعه محمود فهمي القيسي مدير الأمن العام ، ثم اتضح ان سيارة سعد تعطلت لأن المتظاهرين كانوا قد تسلقوها في اليوم السابق ، فصعد هو ومدير الأمن العام الى سيارة نجيب حنينة . وفي الطريق دس توفيق نسخة المنشور السري في جيب سعد ، فأخرجه بحذر وتبينه خلسة، وفي غفلة من مدير الأمن العام الجالس بجواره أعاده الى جيبه مرة أخرى !

وكانت حرب المنشورات ، ومقابلة الجنود وجهاً لوجه ، تسير جنباً الى جنب مع حوادث الاغتيال والتدمير التي افتتحت باغتيال الجنود الإنكليز في شبرا،وكانت الجمعيات السرية هي التي تقوم بصنع المتفجرات وتمرين الأعضاء على استعمالها بإشراف بعض مدرسي الكيمياء والطبيعة وبعض المتقاعدين من الضباط ورجال البوليس .

ومن أطرف أحداث الثورة ان شاباً يدعى يوسف الجندي من المتحمسين للقضية الوطنية ومن المعجبين بسعد زغلول ، كان حين نشبت الثورة في قريته زفتى ، واتجهت اليه أنظار القرويين ينتظرون منه أن يصنع شيئاً ، ولكن لم يكن هناك في جوف الريف انكليز يقاتلهم الفلاحون، والسكك الحديدية قد قطعها الفلاحون من القرى المجاورة ، فقرر أن تعلن زفتى وقرية ميت غمر المجاورة لها استقلالها ، فشكل لجنة للثورة من بعض الأعيان والتجار والمتعلمين واجتمعت اللجنة وقررت أن تبدأ

بوضع يدها على السلطة الفعلية بالاستيلاء على مركز البوليس ، وسار يوسف الجندي على رأس مظاهرة ضخمة مسلحة زحفت على المركز ، وكان مأمور المركز ، رجلا وطنياً اسمه اسماعيل حمد فسلم المركز والسلاح وقيادة الجنود والخفراء .. ثم عرض على يوسف الجندي خدماته كمستشار للدولة الجديدة بوصفه خبيراً بأحوال الادارة فيها . وبعد ان استولت الحكومة الثورية على دائرة التلغراف ومحطة السكة الحديدية وفيها قافلة من العربات المشحونة بالقمح برسم ارسالها الى السلطات الانكليزية ، انتقلت الى العمل الداخلي فأنشأت خزانة للدولة الجديدة مولها الأعيان والتجار بتبرعات سخية ، وأخذت تقوم ببعض الاصلاحات التي يئس الأهالي من مطالبة الحكومة بها كردم المستنقعات واصلاح الجسور ، ثم جندت التلامذة المتعلمين في القرية وقسمتهم الى فرق : فرقه تقوم بدوريات مستمرة لحفظ الأمن ، وفرقة تراقب الحدود لتمنع تسرب التموين أو دخول الجواسيس ، وفرقة تشرف على عمليات الري وتزويد الأرض بالماء . وظهر أن في قلب زفتى مطبعة صغيرة ، فأخذت تطبع قرارات لجنة الثورة وتعليماتها وأخبارها وتوزعها على الناس . وطارت الأنباء الى القاهرة ، وعبرت البحار الى لندن ، ونشرت « التيمس » في صدرها ان قرية زفتى قد أعلنت استقلالها ورفعت على مبنى المركز علماً جديداً [1] .

وقد تجلت وحدة الأمة المصرية في الثورة على أشدها ، فكانت ثورة قومية رائعة اشتركت فيها جميع الطبقات والطوائف ، سار في صفوفها الشيخ والكاهن والملاك والعامل ، ولا شعار لهم سوى كلمة « مصر للمصريين » ولا هدف يهدفون اليه سوى استعادة حقهم الوطني من غاصبيه . ولقد كانت هذه الثورة حركة انسانية أيضاً ، ككل حركة قومية دافعها الشعور الوطني الأصيل ، فلم تتعرض بالسوء لأجنبي لمجرد أنه أجنبي ، ولم تنل بالأذى شيخاً أو امرأة أو طفلا ، ولم تشبها نزوة مهينة أو اعتداء مشين .

ويقول سلامة موسى في ذلك : « كان من أعظم السمات التي اتسمت بها ثورة

---

١ — انظر « ايام لها تاريخ » ص ٨٧ — ٩٦ .

١٩١٩ ، ان الفلاحين اشتركوا فيها ، فكانت ثورة عامة تجمع بين الباشوات والموظفين الكبار والصغار والفلاحين وسكان المدن . وكان من أعظم هذه السمات أيضاً اشتراك الأقباط والمسلمين فيها ، واتحادهم جبهة واحدة للمطالبة بالجلاء . وكان خطباء المسلمين يخطبون في الكنائس وخطباء الأقباط يخطبون في المساجد ، يدعون الى ذلك الهدف الأسمى المشترك [1] .

وقد أشاد الشعراء بالوحدة بين المسلمين والمسيحيين ، ومما قاله في ذلك الشيخ محمد عبد المطلب :

بنينا على آداب عيسى وأحمد — منازل عز ، دونها يقع النسر
فنحن على الانجيل والذكر أمة — يؤيدها الانجيل بالحق والذكر
لنا كل ما في مصر والحق قائم — تؤيده الآيات والحجج الغرّ
فلن يستطيع الدهر تفريق بيننا — وإن جرّ قومٌ بالسعاية ما جرّوا
كلانا على دينٍ به هو مؤمن — ولكن خذلان البلاد هو الكفر
إذا ما دعت مصر ابنَها نهض ابنها — لنجدتها سيّان مرقس أو عمرو
ترى ذكرَ مصرٍ في الهيا كل قُربة — وفي صلوات المسلمين لها ذِكر
فلا يحسبَنّ الناس أنا تزلزت — بنا قدم أو مسّ وحدتنا الضر
ألم ترنا في كل عيد وموسم — حليفي ولاءٍ لا جفاءٌ ولا هجر
إذا كان عيد الفطر فالكل مفطر — يهلل بالبشرى ويزهو به البشر
وان جاء بالنيروز يوم تزاحمت — عليهم به الأفراحُ وانتعش القطر
فيا عيدَ أهل النيل عِدْ أهلك المنى — تجلّى منارُ الحق وانبلج الفجر
وصافح بشعبيك السعادة مُقبلاً — بمصر على الأفراح وليقل الشعر :
تلاقت أمانينا على خير غاية — وسارت بنا الآمال يقدُمها النصر

يقول محمد زكي عبد القادر : « وعندنا ان الفكرة المصرية استقامت بقيام ثورة

---

١ — كتاب الثورات ص ١٦٦

سنة ١٩١٩ ، وان الحركة الوطنية بلغت نضجها الكامل . فقد كان الاستقلال الذي طالب به زعماء ثورة سنة ١٩١٩ استقلالاً سياسياً كاملًا مستنداً إلى الوعي القومي في أقوى مظاهره ، وليس إلى الوعي الديني . وكان مطلباً لا صلة له بدولة الخلافة أو تأثر بها أو انفعال معها .

« ومن هنا كان طابع الثورة الواضح في تقوية الكيان المصري،وإظهار الشعب بمظهر الوحدة السياسية المتكاملة فكان الاخاء بين الهلال والصليب ، وكان الاتحاد المطلق في الجهاد والتضحية والفهم بين المسلمين والأقبـــاط ، وكان امتزاج السعي للاستقلال والجهاد في سبيله بين عنصرّي الأمة دون تفريق .

« ولم يُعرف في حركتي عرابي ومصطفى كامل أن كان أحد من الأقباط في زعامتها ، ولكن رأى الناس في ثورة سنة ١٩١٩ كبار الأقباط بين زعماء الثورة ، بل وجدوا ما هو أبلغ وأعظم ، وجدوا ان الأثيرين عند زعيم الثورة كانوا في كثرة من الأحيان من بين الأقباط .

« وهذا تطور خطير وعميق ودفعة إلى الأمام وكسب ليس بعـــده كسب للقومية المصرية واليقظة المصرية ، فلم يعـــد الجهاد الوطني جهاداً دينياً ، ولم يعد مقصوراً على المسلمين بحسبانهم مسلمين أو بحسبانهم جنساً يدين بدين آخر . ولم يعد اعتماداً على دولة الخلافة ، ولا ميلًا لها وانحرافاً نحوها ، وإنما أصبح جهاد المصريين بحسبانهم شعب له جنسيته وتقاليـــده وتاريخه ، جهاد المصريين مهما تكن عقائدهم ويكن الدين الذي ينتمون إليه .

« وقد دهش المحتلون من هذا التطور العجيب العميق ، ولم يفهموه على حقيقته ، وحسبوا ان ثورة سنة ١٩١٩ ثورة ليست عميقة الجذور ، وان من السهل إطفاءها . وأكثر ما غاظهم هذا الاتحاد بين المسلمين والأقباط ، وهـذا المظهر الجديد الذي اتخذه البعث الجديد ، حينما نادى الكل بالاستقلال التام عن تركية وبريطانية [١]» .

وحطمت الثورة الأسوار التي كانت تطوق «الحريم» في البيوت المصرية ، إذ

---

١ – محنة الدستور ، ص ٣٧

شعرت النساء المصريات أن الأستعمار عندما يطارد شعباً لا يستبعد المرأة من لعنته، وأن شجرة الحرية تسقى بدم النساء كما تسقى بدم الرجال ، فاندفعن في زحام الثورة الى جانب الآباء والأزواج والأبناء والأخوة .

وقد وصف حافظ ابراهيم في إحدى قصائده الرائعة مظاهرة السيدات يوم ١٦ آذار (مارس) سنة ١٩١٩ احتجاجاً على عسف الأنكليز، فمجد شعورهن وشجاعتهن وحمل حملة لاذعة على مسلك الجنود الأنكليز حيالهن ، قال :

خرج الغواني يحتججن ورحت أرقب جمعهنه
فاذا بهن تخذن منْ سود الثياب شعارهنه
فطلعن مثل كواكب يسطعن في وسط الدّجنّه
وأخذن يجتزن الطريق ودار سعد قصدهنه
يمشين في كنف الوقار وقد أبنّ شعورهنه
وإذا بجيش مقبل والخيل مطلقة الأعنه
وإذا الجنود سيوفها قد صوّبت لنحورهنه
وإذا المدافع والبنا دق والصوارم والأسنه
والخيل والفرسان قد ضربت نطاقاً حولهنه
والورد والريحان في ذاك النهار سلاحهنه
فتطاحن الجيشان سا عات تشيب لها الأجنه
فتضعضع النسوان والنسوان ليس لهن مُنّه [1]
ثم انهزمن مشتتات الشمل نحو قصورهنه
فليهنأ الجيش الفخو ر بنصره وبكسرهنه !
فكأنما الألمان قد لبسوا البراقع بينهنه
وأتوا بهندنبرج مختفياً بمصر يقودهنه
فلذاك خافوا بأسهنّ وأشفقوا من كيدهنه !

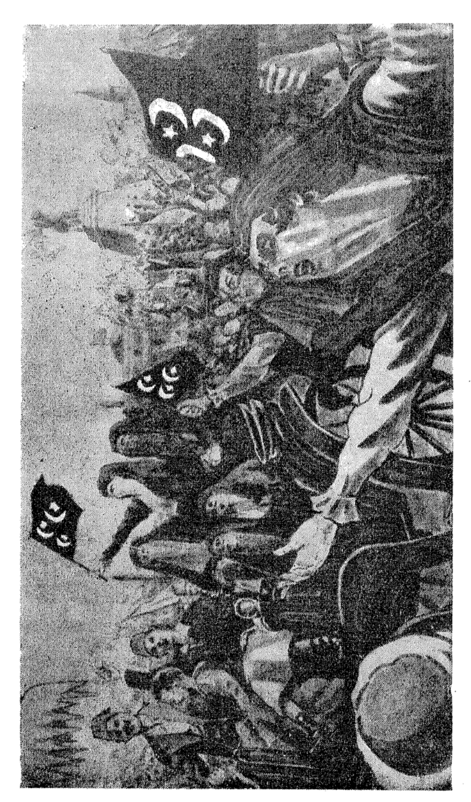
١ — المنة: القوة .

ولم تكن المظاهرات تقتصر على منطقة واحدة ، ولكن الجامع الأزهر كان المركز الرئيسي لها ، منه تنطلق القذائف الثورية في شكل موجات من البشر . فقد كان يؤمه أفراد الشعب من جميع الطبقات ، ورجال الدين على اختلاف نحلهم، حتى النساء كن يعقدن فيه المؤتمرات الوطنية ويلقين فيه الخطب الحماسية . وقد اشتهر من خطباء الأزهر في تلك الأيام العاصفة ، مصطفى القاياتي والقمص مرقص سرجيوس والقمص بولس غبريال ، والطلاب ابراهيم عبد الهادي وشكري كرشاه وزكي مبارك وغيرهم من الشباب المثقف . وكان يستمع لهذه الخطب زهاء الثلاثين او الأربعين ألفاً كل ليلة . وكانت الخطب كلها تدور حول الثورة والحض على التضحية والفداء في سبيل الحرية والوطن .

وكانت المظاهرات الشعبية تخرج من الأزهر وتطوف بالسفارات والمفوضيات ، رافعة اليها الاحتجاج على المظالم التي يعانيها الشعب من حكومة طاغية مستعمرة ، فيصطدم المتظاهرون بالجنود الانكليز ، ويتعرضون لأعظم التضحيات .

ويروي رسل باشا الحاكم العسكري البريطاني للقاهرة في مذكراته ان السلطة البريطانية قررت عزل الأزهر عن بقية المدينة وعهدت الى رجال الجيش المصري بمحاصرة المنطقة ، ولكن تبين لها ان جنود الجيش وضباطه لن يقاوموا أبناء وطنهم المطالبين بالاستقلال . وكان رسل باشا يقضي أغلب وقته في مقر القيادة العامة ليتعاون مع الجنرال موريس قائد القوات البريطانية في القاهرة ، على معالجة الأمور . وقد وجد الجنرال موريس نفسه في مركز حرج ، فهو في حاجة إلى قوات كبيرة من رجال الجيش يستعين بها في قمع الحركات الثورية ، ولكن حركة تسريح الجنود بعد انتهاء الحرب كانت على أشدها ، وكان في منطقة القنال عشرات الآلاف من جنود المستعمرات ولكنهم كانوا منهمكين في الاستعداد للعودة إلى أوطانهم . وكان في معسكر ميناهاوس قوات كبيرة ولكنها غير تابعة للقيادة في منطقة القاهرة . فجمع الجنرال موريس الجنود الذين يعملون تحت امرته ووزعهم على المنشآت العامة والمواقع الستراتيجية لحراستها .

وقد رابطت قوة منهم عند جسر الزمالك بالقرب من منزل رسل باشا ،



مظاهرة المرأة المصرية في ثورة سنة ١٩١٩

واستطاعت ان تصد هجومين شنها سكان أمبابة على الجسر محاولين الذهاب إلى الأزهر للاشتراك في المظاهرات .

يقول رسل باشا : « ونجحنا في السيطرة على الموقف بعض الشيء حتى وصلت أمداد كبيرة من السويس. والسبب الأول في نجاحنا هو ان إدارة المخابرات السرية التي أنشأها الثوار ، لم تعرف ان ما لدينا من قوات لا تكفي للمحافظة على النظام .

« وامتد نطاق الثورة إلى الأقاليم ، فكثرت حوادث الاعتداء على الأوربيين والجنود الانكليز خاصة ، وقطع السكك الحديدية ومهاجمة القطارات . وانقطعت المواصلات التليفونية والبرقية بين القاهرة والصعيد ، حتى ان أنباء المظاهرات في مصر العليا كانت تبلغنا عن طريق الخرطوم وبور سودان .

« وبعد مضي عشرة أيام على اعتقال سعد زغلول واخوانه شهدتُ أعصب يوم في حياتي . كان ذلك في يوم الاثنين السابع عشر من آذار (مارس) . في الساعة التاسعة صباحاً جاء وفد من مشايخ الأزهر إلى سافوى (مقر القيادة البريطانية) يطلب مقابلة الجنرال موريس ليرخص لطلبة الأزهر بظاهرة سلمية . فرفض الجنرال ورجوت المشايخ ان يعودوا في سيارتي إلى الأزهر ويمنعوا الطلبة من التظاهر ، فوعدوا بأن يبذلوا غاية ما في وسعهم ، ولكنهم يخشون ان تكون المظاهرة قد بدأت سيرها فعلاً وانها الآن في طريقها إلى قصر عابدين. فذهبت إلى ميدان عابدين في الوقت الذي بدأت تفد فيه طلائع المظاهرة . وفي دقائق امتلأ الميدان بما يزيد على عشرين ألف نسمة ، وأدركت ان كل محاولة لوقف الطلبة لا بد وأن تنتهي إلى دماء تسيل ، وقد تكون سبباً في ثورة يشترك فيها سكان المدينة بأسرها .

« فاتصلت بالقيادة العليا ، وأبلغت القائد اني سأتولى بنفسي المحافظة على زمام الموقف . وركبت سيارتي وكنت في مقدمة المتظاهرين الذين صمموا على زيارة المفوضيات الأجنبية في القاهرة ليسجلوا احتجاجهم على اعتقال سعد زغلول ، فلم أرَ بداً من النزول على رأيهم ، فاتجهوا صوب المفوضية الأميركية القريبة من قصر الدوبارة .

« وكان آلاف من طلبة المدارس الحكومية ينضمون الى المظاهرة حتى أنه كان

يصعب على إنسان أن يعبر شارعاً في أقل من ساعة كاملة .

« وقفت في سيارتي وألقيت نظرة على المتظاهرين ، فجمد الدم في عروقي ، وأدركت أن هذه الحشود الهائلة من المصريين سيقلبون النظام فوضى إذا عورضوا أو خولفوا في رأيهم . فحاولت بكل وسيلة أن أمنع كل صدام بينهم وبين البوليس أو الأجانب .

«وبعد زيارة المفوضية الأميركية ، عاد المتظاهرون إلى وسط القاهرة ، وفجأة رأيت عدداً من الجنود الأوستراليين يرابطون في شارع جانبي ويصوبون بنادقهم نحونا. وتبينت من ملابسهم وتسليحهم أنهم قد خرجوا لإثارة المتاعب . فسارعت اليهم ورجوتهم أن يعودوا من حيث أتوا . وفي تلك اللحظة انشقت الأرض عن جندي بريطاني يحمل مدفع «تومي» ويصوبه إلى الجماهير المحتشدة . وسألته الخبر فقال إنهم قد قتلوا كلبه «بيل» ، ولم يكن هناك وقت للتفاهم ، فضربت المدفع الذي يحمله بقبضة يدي ، فانطلقت الرصاصة في السماء ولم تصب أحداً . وسلمت الأوستراليين والأنكليز لمن كانوا يعاونونني من رجال البوليس فنقلوهم إلى معسكر الأزبكية .

« وظلت المظاهرة تسير من شارع إلى شارع في نظام عجيب ، حتى كانت الساعة الخامسة والربع مساء ، فعاد المتظاهرون الى الأزهر بعد أن قضيت سبع ساعات وربع ساعة واقفاً على قدمي في سيارتي دون أن أتناول كسرة خبز أو جرعة ماء ، ولم تهدأ أعصابي في تلك الساعات الطويلة لحظة واحدة إلا بعد أن دخل بعضهم إلى الجامع الأزهر وانصرف الآخرون إلى دورهم . وكان ذلك اليوم درساً قاسياً ، فقررنا ألا نسمح في المستقبل بأية مظاهرة مهما كانت طبيعتها ومهما كانت الظروف» .

ان مذكرات رسل باشا ذات مغزى عميق ، لأنها تعطي صورة حية عن أحداث الثورة ، وهي تمتاز بأهمية خاصة لأنها صادرة عن أحد كبار المسؤولين البريطانيين . وهذا ما يجعلنا نتوقف عند فصل آخر منها لنروي بلسانه قصة أخطر يوم في تاريخ القاهرة ، كما وصفه حكمدار القاهرة يومذاك .

في اليوم التاسع من شهر نيسان (ابريل) عام ١٩١٩ ، كتب رسل باشا إلى والده خطاباً قال فيه :

« أخشى أن يكون هذا اليوم أخطر يوم في تاريخ القاهرة ، فالمدينة مهددة بأن تسيل الدماء في شوارعها أنهاراً . وقد اعترف الجنرال اللنبي بأن ساسة انكلترا قد أخطأوا لما منعوا سعداً وصحبه من الذهاب الى لندن . لقد ظل البوليس حتى ظهر أمس يسيطر على الموقف بعض الشيء ، إلى أن تعقدت الأمور فجأة عند المغرب إذ اشتبكت جماعة من الجنود الانكليز والأوستراليين في معركة مع جنود الجيش المصري ، فقتل اثنان من رجال البوليس وأصيب واحد من جنود المطافىء بجراح خطيرة . ولم تمض ساعة وبعض الساعة حتى كانت الاضرابات تشمل المدينة بأسرها ، إذ فقد الأوستراليون صوابهم فأخذوا يطلقون النار على المصريين فقتل عشرة .

« وما كادت تشرق شمس اليوم حتى كان عشرات الألوف من المصريين يتدفقون على الميادين والشوارع ، وأخذوا في إقامة متاريس وقطع الخطوط التليفونية . ولم تستخدم القوات البريطانية حتى كتابة هذه السطور وان كان لا بد من استخدامها ، أما رجال البوليس فلا أمل البتة في مقدرتهم على تشتيت تلك الجحافل . وقد قال لي بعض كبار الموظفين المصريين أنهم سيحاولون التفاهم مع المتظاهرين لوقف هذه الفوضى ، فإن لم ينجحوا فلا مفر من اطلاق النيران »

وفي يوم الأحد ١٣ نيسان (ابريل) أكمل رسل باشا خطابه السالف فقال :

« منذ أن بدأت في كتابة هذا الخطاب يوم الأربعاء الماضي ، مرت بنا أيام لم نذق فيها طعم النوم . ولقد استطاع الجنود البريطانيون السيطرة على الموقف ، ولكن بعد أن قتل عدد من الطلبة وعامة الشعب .

« والواقع ان سبب تلك المتاعب يرجع الى الأوربيين من الطبقات الدنيا، لأنهم يركبون رؤوسهم ويطلقون النيران من النوافذ والشرفات على المتظاهرين ، ويترتب على ذلك أن يعمد المتظاهرون الى اشعال النيران في المنازل وحرق سكانها . وقد نجح المتظاهرون في ذبح عدد من المدنيين الانكليز والعسكريين الهنود بعد ان سدوا عليهم الطريق من الناحيتين . واعتقل المتظاهرون مصرياً يعمل في قلم البوليس السياسي ثم قتلوه .

« أما يوم الخميس فكان يوماً حالك السواد ، اذ سدت الجماهير عدة شوارع في

المدينة ، بينما جلس كبار العسكريين يبحثون في أنجح الوسائل لتهدئة الموقف دون إراقة دمـــاء وعهد الي بأن أنظم جنازة رجلي البوليس اللذين قتلا أمس . وفي الصباح وجدت ان الأمور تسير إلى أسوأ ، فقررت تأجيل الجنازة الى اليوم التالي.

« وبينما كنت أتناول الغداء في داري ، دق جرس التليفون ، واذا بضابط بوليس يبلغني ان جماهير الشعب تحاصر مستشفى الاوقاف القريب من عابدين ، حيث ترقد الجثتان ، وانهم مصممون على أخذ الجثتين لدفنها ،وانهم بدأوا فعلاً بمهاجمة المستشفى .

« وقررت أن اتصل بالقيادة العسكرية العليا أطلب عونهـا . ولكن جرس التلفون دق مرة ثانية وتحدث الضابط الي فقال إن عدداً من الجنود وصلوا الى المستشفى ، وقد أثار وجودهم ثائرة الشعب ، فان لم ينسحب الجنود في الحال فستقع كارثة . فذهبت فوراً الى القيادة العليا وطلبت اليها سحب الجنود . ثم انتقلت بعد ذلك الى المستشفى . وما كدت أبلغ نقطة بوليس عابدين حتى وجدت أن الشارع مسدود سداً محكماً ، وشهدت الشر يبدو على وجوه المتظاهرين . وفي تلك اللحظة وصلت سيارة حريق كانت متجهة الى منطقة أخرى لاطفاء نيران شبت في منزل ، ولكنها لم تستطع اجتياز المتراس .

« لم أر بداً والحالة كذلك الا أن أغادر سيارتي وأذهب الى المستشفى سيراً على الأقدام . وبدأت أتسلق السد الذي أقيم من جذوع الأشجار ، فمد الي بعض المتظاهرين أيديهم يعاونونني على التسلق ، ثم كونوا فرقة تحرسني من كل عدوان حتى بلغت المستشفى وارتقيت مقعداً وأخذت أحاول تهدئة الثائرين . ولكنه كان من العبث اسماع تلك الجحافل الصاخبة ، فقررت ان أصعد الى شرفة المستشفى ، ولكني وجدت في القبو قوماً يصلون على جثماني رجل البوليس، وشعرت بأني انسان غير مرغوب فيه في تلك اللحظة .

« وأخيراً استقر رأيي ، فاتصلت بالقيادة العليـا وأبلغتهم أني سأتولى بنفسي الاشراف على جنازة رجلي البوليس ، وحذرتهم من إرسال جندي واحد، وخرجت إلى الميدان فوجدت بضعة آلاف من الناس كلهم مسلحون بالسكاكين والفؤوس.

وأسياخ الحديد وجذوع الأشجار . ولكني لم أرَ بنادق ولا مسدسات .

« وبعد دقائق وصلت فرقة من رجال البوليس ورجال المطافىء للاشتراك في الجنازة . ووقفت في الميدان بين الجماهير الصاخبة ، وأبلغتهم ان الاحتفال بتشييع الجنازة سيبدأ الآن ، واني سأسير معهم وأحافظ عليهم من الجنود الانكليز بشرط واحد ، وهو أن يسير الناس في هدوء تام وألا يحمل أحد سلاحاً مهما كان نوعه . وقضيت ساعة ونصف الساعة أضع نظام الجنازة وأستعد لها .

« وفي الوقت الذي بدأت فيه الجنازة سيرها كانت المقدمة في ميدان الأوبرا ، على بعد نصف ميل من المستشفى . وكان يتقدم الجنازة طلبة يركبون الدراجات ومن خلفهم رجال البوليس الراكب والراجل، وتبعتهم وفود من الأزهر والمدارس والتجار والصناع فوفد عن شركة الترام ثم عمال عنابر السكك الحديدية فمندوبون عن هيئات أخرى كثيرة .

« ومما يدعو إلى الدهشة والاعجاب حقاً، ان تلك الجماهير التي كانت منذ لحظات صاخبة ثائرة ، أخذت تسير في نظام عسكري رائع وهدوء تام . ولست أدري ماذا فعلوا بأسلحتهم، أما الذي أدريه فهو اني لم أرَ مع واحد سلاحاً طوال سير الجنازة.

« ولما أخذت الجنازة تسير انشقت الأرض عن جماعة من الجنود الانكليز في شارع جانبي ، فتوقف سير الجنازة وأخذت الجماهير تهتف هتافات معادية ، وأخيراً استطعت ان أقنع الجنود الانكليز بالعودة من حيث أتوا .

« وكان في نيتي ان أقود الجنازة إلى القبور عن أقرب طريق، ولكني لم أستطع فتركت لهم حرية الذهاب من أية طريق يشاءون ، فانقلبت الجنازة إلى مظاهرة سياسية طافت بالسفارات والمفوضيات الأجنبية » .

وما أكثر ما كان الطلاب والعمال المصريون يتساقطون أثناء مظاهراتهم في شوارع القاهرة والاسكندرية تحت رصاص الجنود الانكليز، فلا ينثنون عن هدفهم ولا يرتدون عن غايتهم ، والراية المصرية مرفوعة بينهم تنتقل من يد إلى يد ، كلما صرع حاملها سارع رفيقه لرفعها مكانه رمزاً للعزة القومية والكرامة الوطنية والاباء العظيم .

ولم تقتصر ضحايا الثورة على ألوف القتلى والجرحى الذين استشهدوا في ميادين الكفاح ، إذ كانت المحاكم البريطانية تدفع بين حين وآخر بعشرات من الضحايا إلى ساحات الاعدام أو غيابات السجون ، إثر محاكمات جائرة تعقد علناً ، وتشكل في كل مكان ، وتصدر الأحكام الزائفة، بحق « المتهمين بأعمال الشغب والفتنة الذين يروجون لمبادىء خطيرة في البلاد، ببث روح الكراهية والبغضاء ضد جنود بريطانية العظمى » .

وهكذا شنقت « العدالة البريطانية » خــلال عامين ١٤٦ مواطناً من أكرم شباب مصر ، وزجت في السجون ١٢١٣ مصريـــاً من المناضلين الأحرار ، لأنهم طلبوا الحرية ، وثاروا على البغي ، وطمحوا إلى حياة العزة والاستقلال .

وإذا كانت ثورة سنة ١٩١٩ ، كما يقول عبد الرحمن الرافعي ، هي من مفاخر تاريخ مصر القومي ، فان ألمع صفحة فيها ، هي صفحة أولئك الأبطال المغمورين والشهداء المجهولين والمعتقلين الذين قضوا السنين في غيابات السجون .

ومن أروع ما قيل في الثورة من قصائد الشعراء ، قصيدة أحمد محرم التي يقول فيهـــا :

أيها الجند ظـافراً يتمشى ... في الجماهير معجباً مختالا
يوم غـاب الحماة واستصرخت مصر تنادي الرجال والأبطالا
أقتلت الكماة في الحرب غلباً ... أم قتلت النساء والأطفالا ؟
انصفي الظالمين يا دولة الفا ... روق منـــا وعلمي الجهالا
علمينا كيف الحياة نعـــا ... نيها وصوني النفوس والآجالا
خففي الفتك إننا قد عيينا ... ولقينا في ظلك الأهوالا

الى أن يقول منددأ بغدر الاحتلال :

ما ذكرنا لكم من الخير شيئاً ... ما رضينا لكم على الدهر حالا
نذكر الحكم ظالماً، ما رأينـــا ... فيه عدلاً ولا وجدنا اعتدالاً
نذكر العهد سيئاً ، ما عرفنا ... فيـــه حريـــة ولا استقلالا

نذكر الشر والبلاء جميعـــاً فاذكروا عهدكم وشدوا الرحالا
وصعوا التاج بالوفاء وحلوا بحـــلى الصدق عزه والجلالا
لا تريقوا دم الضعيف عليـه وانظروه من فوقـــه كيف سالا
أكرموا التاج إنكم إن أبيتم زاد فينـــا مهـــانة وابتذالا
طال عهد احتلالكم فحسبنا أن يوم الحساب يدعى احتلالا

وله من قصيدة أخرى يندد فيها بفظائع الأنكليز :

سفكوا الدماء بريئة وتنمروا يرمون شعباً لا يطيق دفاعا
لم يذكروا إذ نحن نبذل قوتنا ونظل صرعى في البيوت جياعا
بئس الجزاء وربما كان الأذى عدلاً لمن يألو العـــدو قراعا
جاءوا فقوم يضمرون مودة ورضى ، وقوم يظهرون خداعا
فتكافـــأ الحزبان في حاليهما ومضت حقوق العالمين ضياعا

الى أن قال يهيب بالشعب أن يذود عن حقه بالمهج والأرواح :

لا يستقلّ الشعب يترك حقه ويرى البلاد تجـــارة ومتاعا
يخشى العدوّ فلا يطيق تشدداً ويهال منه فلا يريد نزاعـــا
إن الحياة لأمة مقدامـــة تعيي العدو شجاعة ومصاعـــا
تزجي إليه من الحفاظ جحافلا وتقيم منه معاقلاً وقلاعـــا
إن شامها في الحادثات تفرقاً عقدت على خذلانه الإجماعا
وإذا أراد بهـا الهضيمة أرهفت هماً يضيق بها الدهاة ذراعـا

وقال شوقي ممجداً الثورة وكان يوم اشتعلت نيرانها في المنفى :

يومُ البطولة لو شهـــدتُ نهاره لنظمتُ للأجيـــال ما لم يُنظم
غُبنت حقيقته وفات جمالُها باعَ الخيـــال العبقري الملهم
لولا عوادي النفي أو عقبانـه والنفيُ حالٌ من عذاب جهنم

جمعت ألوان الحوادث صورة | مثلت فيهـا صورة المستسلم
وحكيت فيها النيلَ كاظمَ غيظه | وحكيتُه متغيظاً لم يكظم
دعت البلادَ إلى الغمار فغامرت | وطنيةٌ بمثقف ومعلم
ثارت على الحامي العتيد وأقسمت | بسواه جلّ جلالُه لا تحتمي
يومَ النضال كستك لونَ جمالها | حريةٌ صبغت أديمك بالدم

ولكن كيف وصف الانكليز هذه الثورة القومية والحركة الانسانية والمآثر البطولية الفذة ؟ لقد قال السير ميلن شيتهام في البرقية التي وجهها الى حكومته في ٩ آذار (مارس) : «ان الحركة معادية لبريطانية ، معادية للعرش ، معادية للأجانب، وفيها نزعات هدامة تتجه الى تخريب الاسلاك والمواصلات ، وهي منظمة مدبرة ولا بد ان تكون مأجورة ... » ! اما الحكومة الإنكليزية فقد أكدت في المذكرة التي اصدرتها بعد ذلك بشهر واحد وأشرنا اليها قبلاً ، ان هناك شواهد عدة تثبت ان الثورة قد دبرها الاتراك والالمان ونظموها باحكام واتقان !

وبهذه الروح التي تختلق الذرائع الخرقاء لتشويه الحركات الوطنية النبيلة ولتبرير قمعها ... بهذه الروح التي تتنكر للحق وتأبى ان تراه ، متجاهلة ارادة الشعوب ، ممعنة في إذلال كرامتها ، بعثت انكلترة باللورد اللنبي الى مصر مكان مندوبها القديم ، لترهب الشعب المصري باسمه المقرون بانتصارها العسكري في فلسطين . فلبث اللورد شهراً يتصل برجال السياسة والدين ، ويتقرب من بقية اعضاء الوفد ، محاولا تأليف وزارة تأخذ على عاتقها إخماد الثورة بالعنف او باللين ، فلم ينجح في محاولته هذه ، بل كانت الامورتزداد تأزماً وتفاقماً ، حتى اضطر الى الرجوع عن السياسة القديمة واجابة البلاد الى مطلبها المباشر الذي كان الحافز الاول الى الثورة ، فأذاع في السابع من نيسان (ابريل) سنة ١٩١٩ (١٣٣٨ هـ) بلاغاً اعلن فيه انه لم يبق من حجر على السفر ، فالمصريون الذين يريدون مبارحة البلاد أحرار في ذلك ، وان سعد باشا ورفاقه قد أفرج عنهم .

فكان لهذا الانتصار صدى عظيم من الابتهـاج والحماسة لدى جماهير الشعب

المصري[1] ، وسافر اعضاء الوفد الى مالطة حيث انضم اليهم المعتقلون ، وشخصوا من هناك الى الغرب .

---

١ — يرى عبد الرحمن الرافعي ان الثورة لم تنته في ذلك الحين بل استمرت حوادثها الى شهر آب (اغسطس) من تلك السنة ، ثم تجددت في تشرين الاول وتشرين الثاني (اكتوبر ونوفمبر) أما وقائعها السياسية فلم تنقطع وانما استمرت متتابعة الى شهر نيسان (ابريل) سنة ١٩٢١ ، اي انها ظلت مشبوبة الاوار نيفاً وسنتين .

الوفد في أوربة

كان سعد عظيم الايمان بالضمير الانساني، والثقة بأن تقدم الديموقراطية في العالم يشق امام الحركات الوطنية أفقاً أرحب نحو النجاح الذي تريده لبلادها ، وقد عقد آمالاً كباراً على مبادىء ويلسون ، شأنه في ذلك شأن كثير من رجال الفكر والوطنية في الدنيا .

ومما يدل على إيمانه بالمبادىء الديمقراطية والآمال التي عقدها عليها ، قوله في الخطاب الذي القاه في دار حمد الباسل وقد سبقت الاشارة اليه : «من الناس من يرون هذا المذهب السياسي الجديد أجمل من ان يُتبع في هذه الحياة الدنيا ، حياة المزاحمة على البقاء والمغالبة على المنافع ، نعم مذهب جميل ، ولكن تطبيقه ممكن متى جدّ الدكتور ويلسون في تطبيقه بحزمه المعروف ، وانه لجاد . بل ارتقي الى ان اقول ان تطبيقه سهل متى صحت نيات اكثرية الدول التي اقرته بالاجماع . ذلك لأن هذا المذهب غير مخالف لما ألف الانسان من الوصايا الدينية وقواعد الفلسفة الاخلاقية ، ثم هو متفق مع الأفق الذي وصلت اليه الانسانية في تطورها الجديد . ألا ترون ان مبادىء الديمقراطية التي اوجدت هذا المذهب تنتشر على جميع صورها الممكنة في أرجاء البلاد المتمدنة بقوة هائلة وبسرعة لم يعد لها نظير في تاريخ المبادىء الانسانية؟»

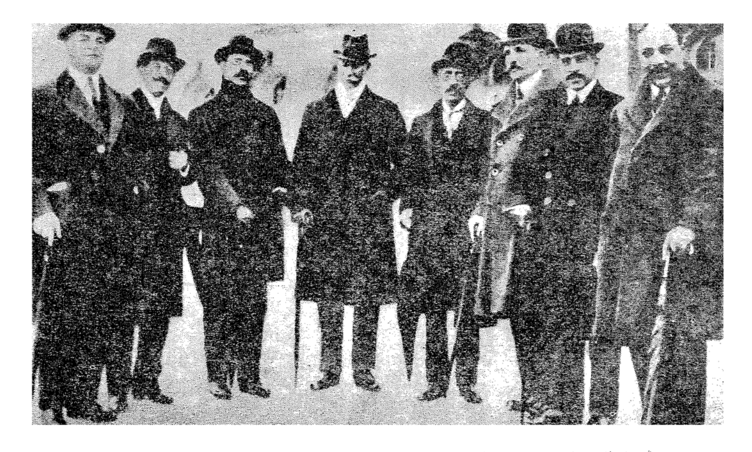
ولقد كانت مبادىء ويلسون في الواقع ، جديرة بان تثير الرجاء بها والثقة فيها ،

لولا أن واضعها كان يعتمد في تحقيقهـــا على استنهاض الهمم الشريفـة واستثارة الاخلاق الكريمة ، بدلا من اعتماده على استئصال أسباب العـدوان بالقضاء على الأنظمة الاحتكارية الاستعمارية منشأ الحروب واستعباد الشعوب في العصر الحديث ، فلم يلبث أن شعر بأنه أضحى آلة في أيدي أقطاب الشركات الاحتكارية والاوساط الاستعمارية يسيّرونها لخدمة مطامعهم كما يشاؤون ، ورأى بنـــاءه المثالي يتداعى وينهار !

فلما وصل الوفد المصري الى مرسيلية أبرق سعد الى ويلسن يطلب منه تعيين موعد لمقابلة الوفد ، فلم يجب ويلسون على هذه البرقية ، ولكن أجابت السفارة الأميركية في مصر جواباً غير مباشر ، لم يكن يتوقعه أحد ، وكان دليلاً على مدى الدسائس البريطانية وأثرها في السياسة العالمية وفي مبادىء ويلسون نفسها .. فقـد أصدرت تلك السفارة بلاغاً باعتراف الولايات المتحدة بالحماية البريطانية على مصر !

ولقد أيقن سعد من ذلك الاعتراف ، بأن بريطانية ، وهي أسبق من المصريين إلى مصادر الرأي السياسي الدولي ، قد شوهت سمعة مصر وحركتها الوطنيـة في الأوساط الدولية . فكان هذا الحادث صدمة قوية له ، إلا انها لم تحمله على اليأس من مستقبل الحركة الوطنية ، والانهزام من ميدان الكفاح ، كما يئس وانهزم كثير من زملائه الذين كانوا يترددون دائماً في مجابهة بريطانية بمطالب مصر الشرعية لقـلة ثقتهم بانتصار الحرية أمام ما يرون من استبداد القوة الغاشمة .

ذلك ان سعداً إذ عقد الآمال على استنهاض الضمير العالمي ، واستثارة عطـف الرأي العام في الدنيا على جهاد الأمة المصرية ، لم يعقدها على الرؤساء والحكومات وهو القائل : « ان الشعب فوق الحكومة » وإنما كان مناط الرجاء الأصيل عنده ، القوى الشعبية الحرة السليمة . فلما أعلنت الولايات المتحدة اعترافها بالحماية البريطانية على مصر ، أبى العودة إلى وطنه مخفقاً قانطاً من النجاح ، لأنه أدرك ما يكون لهذه العودة من أثر سيء في نفسية الشعب المصري بعد طول انتظاره وعظيم تضحيتـه ، وأصر على متابعة دعوته الوطنية متجهاً بها إلى شعب ويلسن وشعب كليمنصو وشعب لويد جورج ، واثقاً بأنه سيلاقي لدى هذه الشعوب التأييد الذي ينشد .



بعض أعضاء الوفد الذين سمح لهم بالسفر إلى فرنسة سنة ١٩٢٠ للمطالبة باستقلال مصر تطبيقاً لمبادىء الحرية والعدالة التي نادى بها الرئيس ويلسون ، ويرى سعـد زغلول وإلى يساره عبد العزيز فهمي وحمد الباسل وعلي ماهر ومحمد علي علوبة وإلى يمينه أحمد لطفي السيد فواصف غالي فعبد اللطيف المكباتي

ويقول عبد العزيز فهمي في مذكراته التي نشرها في مجلة « المصور » ثم صدرت في سلسلة كتاب الهلال بعنوان « هذه حياتي » في تعليل تلك التطورات : « وهنا لا يفوتني ان أذكر ان الانكليزي خصم في السياسة بارع . فلقد ظهر لنا انهم لم يسمحوا لنا بالسفر ، ولم يفرج عن أصحابنا الذين كانوا معتقلين في مالطة ، إلا بعد ان استوثقوا من مساعدة أكبر دولة في العالم إذ ذاك ، وهي دولة أميركا ورئيسها ويلسون ، ذلك الرجل الذي لبس للعالم ثوب المتعبد الزاهد رياء ونفاقاً ، وكانت مبادئه الأربعة عشر هي السبب الأهم في هياج المصريين، وسعيهم إلى الانتصاف من الانكليز ، وتشبثهم بإلغاء الحماية ، تلك الحماية التي تناقض أظهر مبدأ من مبادىء ويلسون ، وهو حق كل أمة في تقرير مصيرها . ومهد الانكليز لأنفسهم السبيل ، واستوثقوا من ويلسون ، بحيث اننا لم نكد نصل إلى مرسيليا حتى قرأنا في التلغرافات العمومية ان أميركا وفي مقدمتها رئيسها وافقت على الحماية البريطانية على مصر . ضربة شديدة صوبها إلينا هذا الخصم الانكليزي المحنك . ضربة مؤلمة أصابتنا في الصميم لمجيئها من أهم جهة كنا نأمل منها الخير والانصاف لا هـذا البغي والاجحاف » .

تحمل أعضاء الوفد الصدمة ، ولم يقطعوا الأمل ، ومنوا النفس بأن أعضاء مؤتمر الصلح ربما كانوا في جملتهم أكرم نفساً وأصفى وجداناً ، ولبثوا عدة أشهر في باريس يطرقون أبواب هذا المؤتمر ، ويقدمون إليه المذكرات تلو المذكرات ، دون ان يجدوا لها أي صدى . فالأبواب ظلت مقفلة ، وقد جلس خلفهـا ساسة الدول يتوزعون الأسلاب ويقتسمون الغنائم ثم علموا ان في باب المؤتمر رجلاً كلما قدمت إليه ورقة نظر إليها ، فان كانت من وفود الأمم الضعيفة كمصر وسورية والترنسفال ألقاها في سلة المهملات دون أن يعرضها على أحد !.. فلما تبين لهم ذلك عمدوا إلى وضع مذكرة جديدة وأنشأوا منها نسخاً بعدد أعضاء المؤتمر ، وأرسلوها لهم مباشرة إلى كل منهم بعنوانه الخاص ، فما كاد المندوب الانكليزي في المؤتمر يتلقى نسخته حتى شطب على كل صفحة من صفحاتها بالقلم الأحمر ومزقها نصفين ثم أعادها إلى أعضاء الوفد بالبريد ... فثارت ثائرتهم ، حتى فكر حمد الباسل بأن يدعوه إلى

المبارزة !..

وواضح ان رجلاً كسعد ما كان يمكن ان يقصر عمله الوطني على نشدان التأييد الخارجي لقضية بلاده ، لثقته بأن هـذا التأييد يجب ان يرافقه نهوض مستمر واتحاد متعاظم في صفوف الشعب المصري نفسه . ومن ثم رأيناه يولي اهتمامه كلًا من هاتين الناحيتين ، فيوجه الحركة الوطنية في مصر من مقره في باريس ، مسدداً خطاها في الطريق الصاعد ، مفرغاً عليها من روحه القوة والثبات والعزيمة ، ويقوم في الوقت نفسه بدعوة حافلة للقضية المصرية في أوربة وأميركة ، متوسلًا إلى ذلك بالكتابة والخطابة والاتصال الشخصي ، حتى استطاع ان يكسب تأييد عدد كبير من رجال الفكر والوطنية ، وممثلي الجماهير الشعبية ، فأنشأ الكاتب الفرنسي فيكتور مرغريت رسالة عن القضية المصرية كتب مقدمتها الأديب العظيم أناتول فرانس ، وطالب الشيخان بوراه ومكس كورك في مجلس الشيوخ الأميركي بمنح مصر استقلالها ، وحمل شيخان أميركيان آخران هما المستر شرمان والمستر والش على معاهدة الصلح فقال الأول انها إنما وضعت لخدمة المطامع البريطانية ، واتهم الوفد الأميركي في مؤتمر السلام بخيانة المبدأ الذي غامر الأميركيون بدخول الحرب في سبيله .

وهكذا أصبحت القضية المصرية بفضل جهاد سعد وصحبه قضية تشغل أوساط الوطنيين الأوربيين والأميركيين ، ويناضل في سبيلها الأحرار منهم . وكان المصريون المغتربون وفي طليعتهم الطلاب الذين يتابعون دراستهم في لندن يبذلون مساعي كبيرة في مساعدة الوفد وإذاعة نشراته والدعوة إلى أعماله ، حتى ضاقت السلطات الانكليزية بهم فداهمت مكتب الطلبة المصريين في لندن وصادرت محتوياته .

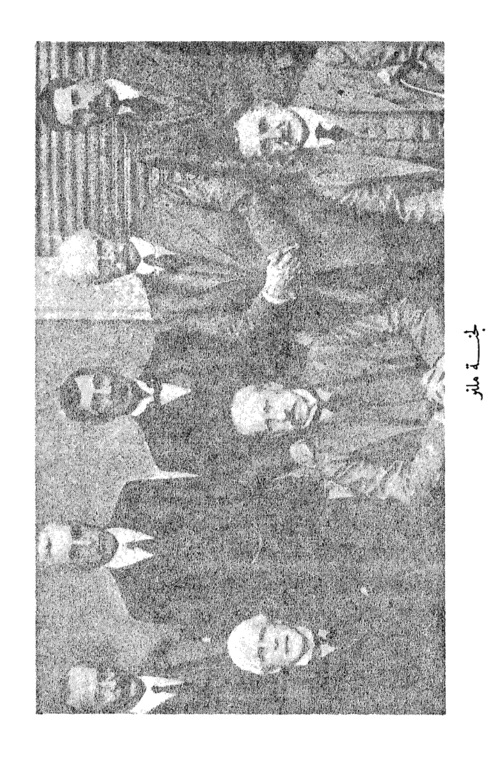
وكانت الحركة الوطنية في مصر تزداد اشتعالاً دون ان تستطيع السلطة الانكليزية إخماد ضرامها . وقد نجحت هذه السلطة بعد سفر الوفد بتأليف وزارة يرأسها رشدي باشا ، إلا انه لم يلبث ان استقال في أقل من أسبوعين . وخلفه محمد سعيد الذي سمى وزارته « وزارة إدارية » لا تعنى بالناحية السياسية البتة ، فألقى

عليه أحد الوطنيين المتطرفين قنبلة أخطأته ، ثم استقال معارضاً في تعجيل قدوم لجنة اللورد ملنر إلى مصر للبحث عن مطالب المصريين . فألف الوزارة يوسف وهبه باشا، وقدمت لجنة ملنر في عهده فقاطعها الوطنيون المصريون لأنهم كانوا قد فوضوا الوفد ببيان مطالبهم فكان قدوم هذه اللجنة لاستطلاع رأي الأمة ، كما تزعم ، استهانة بالوفد وانكاراً له ، ومحاولة لشق صفوف الوطنيين .

لقد كان لهذه اللجنة هدفان ، أحدهما ظاهر والآخر خفي باطن . أما غرضها الظاهر فهو التحقيق عن أسباب الثورة ، والبحث المستفيض في عواملها البعيدة ودوافعها المباشرة ، كيما تقترح اللجنة في تقريرها وسائل العلاج لهذا الداء الذي تكشف واستفحل ، كأن الحكومة البريطانية وساستها كانوا يجهلون حقوق مصر المغصوبة . وأما الغرض الخفي ، فتمزيق الوحدة القومية وتقويض البناء القومي ، لأن مصر إذا بقيت كلمة واحدة وقلباً واحداً وهدفاً واحداً ، كان ذلك دون سواه كفيلاً بزوال الحماية وإنهاء الاحتلال واستئصال النفوذ البريطاني من جذوره .

وقد بذلت اللجنة جهوداً كبيرة للوصول إلى أغراضها ، ونشرت بياناً طلياً تستميل فيه المصريين . فأرسل سعد يحذرهم منه بنداء قال فيه : « يحاول الأقوياء بجميع الوسائل ان يأخذوا منكم رضاء بحمايتهم ليزدادوا قوة ويزيدوكم ضعفاً ، فلا تنخدعوا إذا وعدوكم ولا تخافوا إذا هددوكم ، واثبتوا على التمسك بحقكم في الاستقلال التام فهو أمضى سلاح في أيديكم وأقوى حجة لكم . فإن لم تفعلوا — وليس في قوة إيمانكم ما يجعل احتمالاً لذلك — خذلتم نصراءكم ، وأهنتم شهداءكم، وحقرتم ماضيكم ، وأنكرتم حاضركم ، وحنيتم للذل ظهوركم ، وأنزلتم بأمتكم ذلاً لا يرفع منه عز . وإن تفعلوا — كما هو أكبر ظني في عظيم إخلاصكم ومتين اتحادكم وقوة وطنيتكم — فقد استبقيتم لأنفسكم قوة الحق ، وأعددتم لنصرتكم العدل . فلا تذلوا وإن قهرتم ، ولا تخشوا وإن ظلمتم ، ولا بد من يوم يعلو فيه حقكم على باطل غيركم ، وينتصر فيه عدل الله على ظلم خصومكم ، وتتحقق بإذن الله القدير آمالكم في الاستقلال التام » .

ثم أوضح موقفه من اللجنة الانكليزية في بيان رد به على تقرير وجهته إليه لجنة



لجنة ملنر

الوفد المركزية بالقاهرة ، وهو تقرير واهي الأساس ضعيف الحجة ، فقال انه لم يجد في بلاغ ملنر شيئاً يخالف التصريحات السابقة له ، إلا خلوه من لفظة الحماية وحسن أسلوبه ، أما في الجوهر فهو متفق معها تمام الاتفاق إذ هو مثلها يرى مصر تابعة لانكلترة ، ثم قال : « ولجنة ملنر لجنة تحقيق ، موقف المصريين معها موقف المجيب من المستجوب ، وغاية أبحاثها الوصول إلى وضع نظام حكومي في دائرة الحكم الذاتي ، ونحن لا نعترف بشيء من ذلك ، فلا تبعية لانكلترة علينا ، ولا نعرف لهذه اللجنة سلطة التحقيق في بلادنا ، والغاية التي نسعى إليها هي التمتع بجميع حقنا في الاستقلال التام . نعم ، إن هذا البلاغ وسّع مجال المناقشة ولكنه ضيّق الغاية منها ، فجعلها وضع نظام حكومي في حدود الحكم الذاتي ، وبذلك هدم بيد ما بناه باليد الأخرى ، وزاد ان اشترط عدم ترتيب الالتزام على هذا التوسيع فحفظ بهذا الاشتراط لنفسه حرية العمل ، وهو تحديد الغاية الذي لا ينقل المسألة من مركزها فلا ترتفع به حماية بل تتأكد ، ولا يتم به استقلال بل يقل ، ولا يفيد إلا شيئاً واحداً وهو تسهيل مأمورية التحقيق على اللجنة ، وما كان للمصريين أن يعرفوا لها هذه الصفة ولا ان يسهلوا لها هذه المأمورية ، وأكبر ما تعطيه أو تشير باعطائه أقل من حقهم بكثير . زد على ذلك انها جاءتهم رغم أنوفهم وضد جماعتهم ، بأن استعملت كل وسائل الشدة معهم تمهيداً لوصولها ، وشكلت وزارة لم يرضَ الرأي العام بها » .

وبعد أن يفصل هذه الأسباب التي حالت دون عودة الوفد أو بعض اعضائه لمفاوضة اللجنة لئلا تتخذ ذلك حجة على فوز سياستها وقبول الأمة مبدأ الحماية التي تجري أبحاث ملنر في ظلها، يعلن استعداد الوفد للمفاوضة في أوربة ما دام لا يترتب على الدخول في المناقشة هناك التزام ما، أو المفاوضة في مصر « على شرط أن تكون بين متعادلين في حقوق المناقشة وطرفين كل منهما يمثل أمة ، وان يكون الغرض منها وصول الى عقد معاهدة تضمن لمصر استقلالها التام ولإنكلترة مصالحها التي لا تتعارض مع هذا الاستقلال ، وان تعترف الدول بهذه المعاهدة وتسجل في عصبة الأمم . فاذا صرح الانكليز بذلك رسمياً ، هنالك لا تتأخر عن العودة لمباشرة

المفاوضة متى الغيت الأحكام العرفية وضمنت لنا العودة لمباشرة أعمالنا عندما نريد ».

ثم يقول : « فاذا كان الانكليز يرغبون حقيقة في ودنا وفي بناء علاقتهم على الاتفاق معنا فلا شيء اسهل عليهم من إتباع إحدى هاتين الطريقتين للوصول إلى الغاية . وهم لا بد ان يفهموا ان الأمة المصرية وصلت من اليقظة والانتباه ومعرفة حقوقها إلى درجة لا تركن معها إلى الأقوال ، ولا تعتمد فيها إلا على الأعمال ، ولا ترضى عن استقلالها التام بديلا . نعم ان في قوتهم ارغامها على النظام الذي يريدون وضعه فيها ، وقد لا يبعد عليهم ان يحملوا كل الدول على الاعتراف بحمايتهم علينا . ولكن حقنا لا يضيع بهذا الارغام ولا بهذا الاعتراف . بل يبقى ثابتاً حياً ، ونبقى مستمرين على المطالبة به والسعي للحصول عليه ، وإذا لم يكن في الحكومات الأجنبية الآن من يمد يد المساعدة الينا ففي شعوبها كثير من الأحرار يعطفون علينا وينتصرون لقضيتنا بأقلامهم وخطبهم ، وما يدرينا ان يظهر غداً المساعد لنا ؟ وللزمان تقلبات تجعل الحليف عدواً والعدو حليفاً . ولا يصح ان نسقط من حسابنا اتساع ملك بريطانيا وتباعد إطرافه ، واضطراب الاحوال في ممتلكاتها وجوارها ، وانتشار المبادىء الديمقراطية في العالم عموماً وفيها خصوصاً ، وتهديد حزب العمال لحكوماتها بالإستيلاء عليها وقربه من هذه الغاية يوماً فيوماً كما تؤيده الانتخابات الجزئية والاعتصابات التي كثر توالبها في هذه الأيام . كل هذا يجعلنا ان لا نغامر بحقنا ، وان نبقى متشددين في التمسك به ، ومقاطعين للجنة التي حضرت رغم أنوفنا لحملنا على الرضاء بإنقاصه ، حتى تعود خائبة فتعلم الأمة الإنكليزية ويعلم العالم معها ان مصر متحدة تمام الإتحاد على الوصول إلى استقلالها التام ، وان إرادتها على ما تكره مخالف لشرف الوعود التي بذلتها انكلترة ، ومناقض للعهود التي سجلتها ، وغير منطبق على المبادىء التي قبلتها ، ومكدر على الدوام لسلمها ومقلق لراحتها ، وان خير سياسة تتبعها هي ان تبر بوعودها ، وتتخذ من مصر حليفة صادقة لها لا تابعة نافرة منها تترقب الفرص دائماً للخروج عليها وتفضل الموت على الإستسلام لها .. الخ . »

ومن أطرف ما روي للدلالة على مقاطعة الشعب المصري للجنة ملنر ، هذه المقاطعة التي تجلى فيها إجماعه الرائع على مطالبه وتأييده لزعمائه ، انه شاع في ريف

مصر ان أعضاء اللجنة يطوفون بالبلاد لجمع المعلومات ، فكان الفلاح الساذج في حرصه على تنفيذ المقاطعة ، يرفض أن يتحدث إلى أجنبي لا يعرفه ، خوفاً من ان يكون عضواً من أعضاء اللجنة يتخفى لاختلاس الأجوبة والآراء . ولقد يحدث ان يصادفه عابر سبيل يسأله عن الطريق ، فيقول له :

— اذهب إلى سعد في باريس واسأله عما تريد !

فيقول السائل : هل كان محصولك جيداً ؟

فيجيب الفلاح : اسأل سعد باشا .

ويقول السائل : هل لك أولاد ؟

فيجيب الفلاح : اسأل سعد باشا [1] !

وقد جعلت هذه المقاطعة الاجماعية الرائعة ، رشدي باشا يقول للمستر ملنر :

— ليس في مصر ثلاث قطط يمكن للجنة ان تتفاهم معها !

وبين مظاهر هذا التكتل العظيم ، قام فجأة حزب جديد يبغي الشذوذ على هذا الاجماع ، ويرى مقابلة ملنر ، وسمي باسم « الحزب الحر المستقل » ، وكان قوامه طائفة من الباشوات والكبراء أنشأوا له داراً في ميدان عابدين ، وأعدوا جريدة « المنبر » لتكون لسان حاله . وفي الليلة التي بدأ الحزب يتنفس فيها أول أنفاس حياته ، عقد اجتماعه الأول ليتخذ قراراته الأولى ، وكان المفروض أن يكون أولها هو تقرير مقابلة ملنر ولجنته .. وفي تلك الليلة نفسها ، تجمعت طائفة من الشباب الوطني ، واتجه أفرادها إلى دار ذلك الحزب ، ودهش المجتمعون لاقتحام أولئك الشبان اجتماعهم بغير اذن ، وسألوهم كيف ولماذا جاءوا ، فقال أحدهم :

— جئنا باسم الدماء الحرة التي تسيل في الشوارع في سبيل الوحدة والاستقلال !

وشرع أقطاب الحزب يؤكدون لهؤلاء الشبان ان غايتهم وما اجتمعوا من أجله ، هو ما أجمعت عليه الأمة كلها ، وهو تقرير المطالبة برفع الحماية والاعتراف بالاستقلال التام لمصر والسودان ، فقال الشبان المتحمسون :

---

١ — ايام لها تاريخ ص ١٢٤

ــ ليس هذا ما نطلبه الآن ، ولكننا جئنا نطالبكم بأن تتحدوا معنا وتقرروا مقاطعة لجنة ملنر ، فعلى هذا انعقد إجماع الأمة !

وظل بعض المحنكين من رجال الحزب يحاولون التأثير على الشباب ، ويعدونهم بأن يوافقوهم في الأهداف ، قاصدين التخلص من إصدار هذا القرار الذي أنشىء الحزب خصيصاً لنقضه .. ولكن الشبان أبوا وأصروا على ألا يبارحوا الدار أحياء ، إلا إذا كان قرار المقاطعة هو أول قرارات الحزب في تلك الليلة الأولى من حياته .. وصدر فعلاً ذلك القرار في مقدمة القرارات التي أصدرها الحزب !

أخفقت لجنة ملنر في التفريق بين الوفد والأمة ، وبين أعضاء الوفد أنفسهم . وتناهى إلى سمع الأمة المصرية رفض المجلس الأميركي لمعاهدة فرسايل التي وقعها الرئيس ويلسون ، فعزز هذا النبأ موقفها وقوى من صمودها . ولما يئست اللجنة من تحطيم مقاطعة الأوساط الوطنية لها ، ويئس أنصارها المصريون من جر سعد إلى القبول بمبدأ المفاوضة على الأسس التي أعلنتها ، أو إلى إشراكه في هيئة دستورية تتألف لهذا الغرض ، أصدرت في ٦ آذار (مارس) سنة ١٩٢٠ (١٣٣٩ هـ) بياناً قالت فيه إنها أنجزت أبحاثها وستجتمع بعد عيد الفصح في لندن لوضع تقريرها . وغادر ملنر مصر مؤمناً بأن مفاوضة الوفد أمر لا مهرب منه قبل أن يضع لمصر النظام الذي عُهد إليه بوضعه ، إذ كان حريصاً على أن تقبل الأمة المصرية هذا النظام ولا تقابله بالنفور والعصيان، موقناً بأن أصدقاء الانكليز من المصريين أضعف من ان يجرؤوا على تأليف وزارة تبرم معاهدة أو تطبق نظاماً لا ترضى الأمة عنها .

سعد يفاوض ملنر

بدأت الأوساط الرسمية في انكلترة ، بعد إخفاق لجنة اللورد ملنر وعودتها الى لندن ، تهيىء الجو لتعديل خطتها السياسة القديمة ، فصرحت بأن المفاوضة لم تكن ترمي لتثبيت الحماية البريطانية على مصر بل إلى تقرير نظام احسن ، وأن الحكومة الانكليزية مستعدة لفتح باب المفاوضة من جديد .

وفي هذا الجو ، دعي الوفد إلى لندن للاجتماع بلجنة ملنر ومنافشتها في اسس الاتفاق المنشود بين مصر وانكلترة ، فندب الوفد عنه ثلاثة من أعضائه شخصوا إلى لندن للوقوف على نيات اللجنة ، فصرح لهم اللورد ملنر بأن انكلترة تعترف باستقلال مصر التام إذا أدت المفاوضة إلى ضمان مصالحها الخاصة . ومن أطرف ما حدث ، ان سعداً أراد قبل مغادرة فرنسة أن يرجع إلى الأمة لاستشارتها في أمر السفر الى لندن ، فاقترح علي ماهر لتحقيق ذلك أن يطلب من الشاعر أحمد شوقي كتابة دعاء تلي في المساجد والكنائس ليكلل الله جهود الوفد بالنجاح في مفاوضاته بلندن . وقد تلي الدعاء في المعابد المصرية فكان ذلك بمثابة اذن وتصديق من الأمـة على سفر الوفد الى لندن وانحلت به تلك العقدة .

أما « دعاء الوطنية والتضامن » هذا فهو يعد من روائع شوقي النثرية وقد قال فيه :

« اللهم قاهر القيصر ، ومذل الجبابر ، وناصر من لا له ناصر ، ركن الضعيف

ومادة قواه ، وملهم القوي خشيته وتقواه ، ومن لا يحكم بين عباده سواه . هذه كنانتك فزع اليك بنوها ، وهرع اليك ساكنوها ، هلالاً وصليبا ، بعيداً وقريبا ، شباباً ونجيبا ، مستبقين كنائسك المكرمة ، التي رفعتها لقدسك أعتابا ، ميممين مساجدك المعظمة التي شرعتها لكرمك أبوابا ، نسألك فيها بعيسى روح الحق ، ومحمد نبي الصدق ، وبموسى الهارب من الرق ، كما نسألك بالشهر الأبر والصائمه ، وليله الأغر والقائمه ، وبهذه الصلاة العامة من أقباط الوادي ومسلميه ، أن تعزنا بالعتق إلا من ولائك ، ولا تذلنا بالرق لغير آلائك ، ولا تحملنا على غير حكمك واستعلائك . إن الملأ منا ومنهم قد تداعوا إلى الخطة الفاضلة ، والكلمة الفاصلة ، في قضيتنا العادلة، فآتنا اللهم حقوقنا كاملة ، واجعل وفدنا في دارهم هو وفدك ، وجندنا الأعزل إلا من الحق جندك ، وقلده اللهم التوفيق والتسديد ، واعصمه في ركنك الشديد . أقم نوابنا المقام المحمود ، وظللهم بظلك الممدود ، وكن أنت الوكيل عنا توكيلا غير محدود ، سبحانك لا يحد لك كرم ولا جود ، ويرد اليك الأمر كله وأمرك غير مردود ، واجعل القوم محالفينا ولا تجعلهم مخالفينا . وأحمل أهل الرأي فيهم على رأيك فينا . اللهم تاجنا منك نطلبه ، وعرشنا اليك نخطبه ، واستقلالنا التام بك نستوجبه ، فقلدنا زمامنا ، وولنا أحكامنا ، واجعل الحق إمامنا، وتمم لنا الفرح ، بالتي ما بعدها مقترح ، ولا وراءها مطرح . ولا تجعلنا اللهم باغين ولا عادين، واكتبنا في الأرض من المصلحين، غير المفسدين فيها ولا الضالين، آمين » .

وعلى هذا الأساس رحل سعد ومعظم أعضاء الوفد إلى لندن واتصلوا بلجنة ملنر . وبعد مباحثات دامت من ٩ حزيران (يونيه) إلى منتصف تموز (يوليه) سنة ١٩٢٠ ، وضعت اللجنة مذكرة ضمنتها مشروع معاهدة بين انكلترة ومصر لا يخرج بهذه عن نطاق الحماية البريطانية الضيقة ، ولكنه يضعها في صيغة جديدة ويعطيها صفة شرعية ، ولا يحقق شيئاً جدياً من مطالب المصريين لكنه يلمّح إليها تلميحات غامضة ويحيطها بظلال خادعة . ووضع الوفد مذكرة ضمنها مشروعاً آخر تتبين منه الرغبة في الوصول إلى اتفاق صريح بين الطرفين ، لكنه يصر بطبيعة الحال على اعتراف بريطانية باستقلال مصر وانتهاء الحماية الانكليزية والاحتلال

العسكري البريطاني ، بحيث تسترد مصر كامل سيادتها الداخلية والخارجية وتؤلف دولة ملكية ذات نظام دستوري .

وتوقفت المفاوضات عند هذا الحد ، لأن اللجنة رفضت مشروع الوفد وقالت ان مشروعها اما ان يقبل كله أو يرفض كله ، ورفض الوفد مشروع اللجنة ورأى فيه كما قال أحمد لطفي السيد ان الانكليز قد وضعوا القش فوق الماء لكي تتردى فريستهم في الهوة !

ثم توسط عدلي يكن باشا بينهما فوضعت اللجنة مذكرة جديدة أدخلت على مذكرتها السابقة بعض التعديلات ، فتجددت المباحثات على أثر ذلك وانتهت في منتصف آب (اغسطس) بتعديل ثان أدخلته اللجنة على بعض الجمل والألفاظ ، وصرحت هذه اللجنة بلسان رئيسها ان المشروع الجديد هو أقصى ما تستطيع انكلترة الاتفاق عليه مع مصر . فرأى بعض أعضاء الوفد قبول هذا المشروع ، ورأى سعد رفضه ، وكاد يقع الخلاف بين الفريقين ، لولا ان سعداً اقترح عرض المذكرة الانكليزية على الأمة المصرية لتقول كلمتها فيها ، وانتدب بعض أعضاء الوفد للذهاب إلى مصر واستطلاع هيئاتها الوطنية المختلفة ، ومهد لذلك ببيان وجهه إلى المصريين جلا فيه حقيقة الموقف بصورة موضوعية تاركاً لهم الفصل فيه ، وبرسالة شخصية وجهها إلى مصطفى النحاس وويصا واصف وحافظ عفيفي الذين لم يحضروا مباحثات لندن . وهو يصف المشروع الانكليزي في هذه الرسالة بقوله: « ..مشروع ظاهره الاستقلال والاعتراف به ، وباطنه الحماية وتقريرها . ففيه من خصائص الحماية ومميزاتها الشيء الكثير كالقوة العسكرية ، والتدخل في المالية والحقانية بواسطة موظفين انكليز ، وجعل المعتمد الانكليزي ذا مقام خاص وله التقدم على غيره من وكلائها السياسيين ، وفي التجاء هؤلاء لممثلي انكلترة ، وتولي انكلترة دون مصر عقد المعاهدات المتعلقة بإلغاء الامتيازات مع الدول الأخرى . وفضلاً عن ذلك ، فان ما اشترط من تعليق تنفيذه على قبول الدول لإلغاء المحاكم القنصلية ، وصدور الدكريتات بإعادة تنظيم المحاكم المختلطة ، يجعل الفوائد التي تعود منه على المصريين وهمية ، إذ قد ينقضي الدهر ولا تقبل الدول ذلك الالغاء ، ولا تصدر الدكريتات

بذلك التنظيم .. الخ . »

وكانت الموافقة على اقتراح سعد باستشارة الأمة مكسباً للحركة الوطنية ، لأنها تثبيت لمبدأ « الأمة مصدر السلطات » ، كما كانت ميداناً لشرح المشروع وتوضيح المبادىء السياسية والدستورية ، مما كان له أثر في استنارة الأفكار ، ودراسة الحقائق والنظم السياسية والدولية [1] ، ولكن أكثر أعضاء الوفد « وهم رجال حزب الأمة القديم الذي يعنيه الدستور والحكم الذاتي دون الاستقلال التام [2] » كانوا قد بدأوا يميلون ميلا جلياً إلى قبول المشروع الانكليزي ، مدفوعين إلى ذلك بعوامل شتى أهمها تهيبهم ما تتمتع به الدولة الانكليزية من عزة وسلطان ، وضعف ثقتهم بقوة الأمة على متابعة المعارضة والمقاومة ، وتأثير عدلي يكن باشا وغيره من أصدقاء الوفد المستوزرين الذين كانوا يريدون وضع حد حاسم للحالة المضطربة في مصر وشق جبهة سعد لإضعاف مركزه وإحراج موقفه. فلما عرض المشروع على أعضاء الجمعية التشريعية والمحامين والقضاة وأعضاء مجالس الأقاليم والمجالس المحلية ورجال الدين ، صرح أكثرهم بوجوب تعديل المذكرة الانكليزية وتوضيح نصوصها الغامضة ، بحيث تقرر تقريراً جلياً إلغاء الحماية وامتياز المندوب البريطاني ، وإعلان السيادة المصرية دون التباس . إلا ان أكثر أعضاء الوفد المكلفين باستشارة الأمة ، عادوا إلى باريس يؤكدون لسعد ميل الأمة إلى تسوية العلاقات بينها وبين انكلترة على أساس مشروع ملنر وان كانت قد أبدت بعض « الرغبات » فيما يتعلق ببعض بنوده . وأراد قسم من أعضاء الوفد تهوين شأن هذه « الرغبات » في حين ان سعداً قد أصر على التمسك بها ولا سيما بما يتعلق منها بإلغاء الحماية .

بيد أن سعداً لم يشأ إحراج الموقف من جديد ، فلم يجعل الغاء الحماية شرطاً للدخول في المفاوضات الرسمية ، بل اكتفى باشتراط الوعد بإلغائها في المعاهدة التي تسفر عنها هذ المفاوضات . ولما دعي الوفد إلى لندن لماحثة اللورد ملنر في نتيجة

---

١ — التاريخ القومي لابرهيم سابي أحمد ص ٦٦
٢ - أيام لها تاريخ ص ١١٨

الاستفتاء ، أشار سعد الى تلك « الرغبات » وسماها « تحفظات » لا يمكن التنازل عنها . فأعلن اللورد بادىء الأمر انه لا يقبل في مشروعه تحفظاً ، فإما ان يقبل كله أو يرفض كله . ثم رضي ، امام عناد سعد ، كما كان يسمي موقفه الوطني الصلب ، باثبات نص في المعاهدة بإلغاء الحماية على ان تبقى الحالة على مـــا هي في العلاقات الدولية . واختلف أعضاء الوفد مرة أخرى ، فقد رأى منهم في هذا التصريح نجاحاً كبيراً ، ورأى فيه سعد مغالطة توهم مصر بأنها مستقلة وتبقي وضعها على مـــا هو عليه .

وقابل سعد المفاوض الانكليزي للمرة الأخيرة وعلى وجهه امارات الغضب ، فقال ملنر ان زملاءه قد رفضوا اي تعديل في مشروع المعاهدة ، فلم يطق سعد صبراً وقال له غاضباً : « قلت لك غير مرة ان ... » وأخذ يشرح له رأيـــه من جديد ، وظل يتكلم نصف ساعة ، واللورد ملنر هادىء ساكن حتى انتهى سعد من كلامه ، وانتظر وانتظر ورفاقه جواب اللورد ، فاذا به لا ينطق حرفاً ، وانما يدير كرسيه يميناً ويساراً كأنه يتسلى ، ثم حيا الحاضرين وانصرف دون ان يقول شيئاً ، فثار غضب سعد وقال مغيظاً : « ان هذا الرجل قد أهان بلادي ... »

وهنا اشتد تأثير عدلي باشا في اعضاء الوفد ، وظهر جلياً ان اكثرهم يؤيدونـه ويميلون إلى خطته القائلة بأن الوفد ، مع تمسكه بعدم دخول المفاوضات الرسمية على اساس مشروع ملنر قبل تعديله بالتحفظات ، يستطيع تأييدصديق من اصدقاء الوفد يدخل المفاوضة على خلاف ذلك الشرط . وقد حاول هذا الفريق حمل سعد على اعلان ثقته بعدلي باشا واعتماده عليه في المفاوضات الرسمية ، زاعمين ان مثل هـــذا الاعلان يساعده على إدخال التحفظات في صلب المعاهدة . فرفض ذلك رفضاً باتاً وصرح بأنه لا يؤيد من يدخل في المفاوضة على هذا الأساس مهما كانت علاقتـــه بشخصه وثقته به . فعاد اكثر اعضاء الوفد الى مصر ، لكنهم لم يجرؤوا على الجهر بخلافهم مع سعد ، بل كانوا يهمسون به همساً حيث لا يخشون ما يثيره هذا النبأ من النقمة عليهم والحذر منهم .

وجاءت الحوادث معاكسة لآمال المعتدلين والمستوزرين . فقد استقال ملنر من

وزارة المستعمرات وخلفه ونستون تشرشل فلم يلبث أن القى خطاباً أدخل فيه مصر في نطاق الامبراطورية . وادلى ملنر بتصريح قال فيه إنه يعتمد على المعتدلين في تسوية العلاقات بين مصر وانكلترة ، فكان ذلك بمثابة اتهام لهم في الأوساط الوطنية المصرية . ولكن اللورد اللنبي اراد أن يخفف من حرج موقفهم ، وأن يمهد أمامهم سبل التعاون معه ، فأبلغ السلطان فؤاد قراراً قال فيه ان حكومته « تستنتج ان نظام الحماية لا يكوّن علاقة مرضية تبقى فيها مصر تجاه بريطانية العظمى ومع ان حكومة جلالته لم تصل بعد إلى قرارات نهائية فيما يختص باقتراحات اللورد ملنر ، فانها ترغب في الشروع في تبادل الآراء في هذه الاقتراحات مع وفد يعينه عظمة السلطان ، للوصول — إذا أمكن — إلى إبدال الحماية بعلاقة تضمن المصالح الخصوصية التي لبريطانية العظمى ، وتمكنها من تقديم الضمانات الكافية للدول الأجنبية ، وتطابق الأماني المشروعة لمصر والشعب المصري ». فاستقبلت أوساطهم هذا الوعد المبهم بالابتهاج والتهليل .

وسرعان ما سقطت وزارة توفيق نسيم باشا خليفة حافظ وهبه باشا في الحكم والاستبداد ، ودعي عدلي يكن باشا إلى تأليف الوزارة فألفها وتقدم من السلطان في ١٧ آذار (مارس) سنة ١٩٢١ (١٣٤٠هـ) ببيان جاء فيه ان وزارته « ستجعل نصب عينها في المهمة السياسية التي ستقوم بها لتحديد العلاقات الجديدة بين بريطانية العظمى وبين مصر ، الوصول إلى اتفاق لا يجعل محلاً للشك في استقلال مصر . وستجري في هذه المهمة متشبعة بما تتوق إليه البلاد ، ومسترشدة بما رسمته إرادة الأمة ، وستدعو الوفد المصري الذي يرأسه سعد زغلول باشا إلى الاشتراك في العمل لتحقيق هذا الغرض ... الخ . »

وكان هذا السياسي البارع قد وضع خطة هي الغاية في الدهاء للوصول إلى غرضه . فهو حين أيقن بأن مساعيه بين أعضاء الوفد قد أكسبته الفريق الأكبر منهم ، أراد أن يستغل اسم الوفد فيشركه في المفاوضات الرسمية ، مستفيداً قبل كل شيء من خطة سعد السلبية وبقائه في باريس ، واثقاً من ناحية أخرى بأن سعداً لن يستطيع مقاومة ميل معظم أعضاء الوفد إلى الاشتراك في المفاوضة ، وبأن

هؤلاء سينتدبون لهذا العمل أصدقاء عدلي منهم ، ولو اتفق ان مندوبي الوفد لم يكونوا من أصدقائه فانهم لن يؤثروا في سير المفاوضات لقلة عددهم بين أعضاء الهيئة الرسمية التي ستتولى تلك المهمة . فتجري المفاوضات في الطريق التي يرسمها عدلي ويتحمل الوفد – الذي يرأسه سعد زغلول – تبعتها أمام الأمة .

ولكن بينما كان عدلي باشا وأنصاره يذهبون مع خيالهم هذا المذهب ، حملت أنباء رويتر تصريحاً لسعد أعلن فيه لمندوبها في باريس انه عائد إلى مصر للمباحثة في التعاون مع الوزارة في المفاوضات الرسمية إثر التصريحات البريطانية الرسمية الحديثة. وانه عازم على النضال في سبيل الوصول بالبرنامج الوطني وبالتحفظات التي أبداها المصريون تجاه مشروع ملنر ، إلى نتيجة مقرونة بالنجاح .

ذلك ان الوطني الكبير قد فطن إلى ما يدبّر له في الخفاء ، فبادر بالعودة إلى مصر لمجابهة خطة عدلي باشا بوطنيته وحزمه .

الصّراع

ما كادَ سعد زغلول يبلغ شاطىء الاسكندرية في الرابع من نيسان (ابريل) سنة ١٩٢١ (١٣٤٠ هـ) حتى أدرك خصومه وأنصاره والحياديون جميعاً ، انه سيد الموقف بلا نزاع . فالعاطفة الوطنية التي اجتاحت مصر يوم وطيء ترابها لم يكن لها مثيل ، والحماسة الرائعة التي قابلته بها جماهير الأمة على اختلاف هيئاتها وطبقاتها وطوائفها لا يحيط بها وصف . وقد كانت تلك العاطفة وهذه الحماسة نوعاً من المبايعة الاجماعية للرجل الذي وجدت فيه ممثلاً أميناً لأمانيها القومية ورمزاً نبيلاً لنضالها العظيم .

وشقت سيارة المنفي العائد سبيلها بين الجماهير الحاشدة ، وهو منتصب فيها كتمثال ابولون ، وقد امتلأت شعاب نفسه بالثقة في أمته ، لأن تكريمها له لم يكن إلا تكريماً لنفسها فيه ، واعترافاً بأنه قد بلّغ رسالتها وأدى أمانتها ، ولأن هذا التيار الزاخر من حميتها وعاطفتها لم يكن إلا مظهر الحياة النيرة الحرة تتنسمها تلك الأمة المتطلعة إلى الحياة والحرية والنور .

وكانت عودة سعد فاتحة صراع عنيف بين رجل يريد تحقيق إرادة أمة ، وأناس يريدون تحقيق أطماعهم في الحكم .

وكان أول ما صنعه زعيم الأمة انه أصدر بياناً شكر لها فيه الحفاوة التي قابلته بها والثقة التي محضته إياها ، وأقسم أن لا يدخر شيئاً من وسعه لتحقيق هذه الثقة

الغالية ، ثم قال : « اننا لم نعد إلا لنقوّي بعزائم مواطنينا الكرام عزائمنا ، ونشد أزرنا باتحادهم المتين، ونتمتع برآهم بعد طول هذه الغيبة، ونتأكد من أن الاشتراك في المفاوضات الرسمية التي دعتنا الوزارة الجديدة له متفق مع المبادىء التي وضعتها الأمة وعاهدناها على احترامها ، ومع الخطة التي رسمتها وتعهدنا بمتابعتها ، ولا شيء أحب إلى قلوبنا من أن نخدم بلادنا بالاتفاق مع كل هيئة مستعدة لأن تسترشد بإرادة الأمة ، وعاملة على تحقيق غايتها السياسية » .

ثم بادر إلى قطع الطريق على عدلي باشا في تنفيذ خطته ، فصرح لرئيس تحرير « الأهرام » بأن الوزارة والوفد لم يتفقا بعد على شروط العمل المشترك بينهما ، وقال ان هذه الشروط هي :

أولاً — الوصول إلى إلغاء الحماية إلغاء تاماً صريحاً ، أي إلغاء الحماية التي وضعت على مصر في ١٨ كانون الأول (ديسمبر) سنة ١٩١٤ ووردت في معاهدة فرساي ومعاهدات الصلح الأخرى التالية لها .

ثانياً — الاعتراف باستقلال مصر استقلالاً دولياً عاماً سواء أكان ذلك في الداخل أم الخارج ، مع مراعاة إرادة الأمة التي أبدتها بالتحفظات المدخلة على مشرع اللورد ملنر عندما عرض عليها ، قبل الدخول في المفاوضات .

ثالثاً — إلغاء الأحكام العرفية والمراقبة الصحفية قبل الدخول في المفاوضات .

رابعاً — ان تكون أكثرية المفاوضين الرسميين للوفد وأن تكون رئاسة المفاوضة من الوفد .

وأعلن ان هذه الشروط يجب ان يرد نصها في المرسوم السلطاني الذي سيسمي الهيئة المفاوضة لتعيين مهمتها تعييناً دقيقاً ، وان الوفد لا يشترك في هذه الهيئة ولا يؤيدها إذا لم يتحقق هذا المطلب .

واشتد الخلاف بين الفريقين حول هذه الشروط حتى أدى إلى القطيعة . وخطب سعد في احتفال أقيم لتكريمه فقال : « ان المفاوضة على يد وفد تعينه الوزارة وحدها في بلد خاضع للحماية والأحكام العرفية معناها ان جورج الخامس يفاوض جورج الخامس ! »

وقال في هذا المعنى : « إذا طلبنا الرئاسة فإنما نطلبها ليكون الرئيس حراً مرتكزاً على قوة لا تهاب شيئاً في المطالبة بحقوقها وهي قوة الأمة ، لا أن يكون مرتكزاً على قوة مستمدة من الحكومة الانكليزية ، لأن ذلك يجعل المفاوضات بين الأصل وفرعه ... أي بين الحكومة الانكليزية والحكومة الانكليزية أيضاً . وليست هذه أول مرة ذكرت فيها هذا المعنى الذي تشرفت بعرضه الآن لكم، ولكني رفعت الصوت بــه في وزارة المستعمرات الانكليزية ، فقلت للجنة ملنر في ٢٥ تشرين الأول (اكتوبر) سنة ١٩٢٠ : من ذا الذي يعين المفاوضين المصريين فأجاب: الحكومة المصرية ! فقلت: إذن جورج الخامس يفاوض جورج الخامس!»

وأخذ يردد هذا المعنى في كل مناسبة تعرض له ، فانشق عدد من أعضاء الوفد انضم بعضهم إلى كتلة عدلي باشا واكتفى الآخرون بالاستقالة . ولكن ذلك لم يزد سعداً إلا قوة ونفوذاً هما القوة والنفوذ المستمدان من جماهير الأمة المصرية ، ولم يزد الكتلة المخاصمة له إلا انعزالاً عن هذه الأمة ، وابتعاداً عن روحها ، وخروجاً على إرادتها .

ومضى عدلي باشا في تأليف هيئة المفاوضات ، والمظاهرات الوطنيـة تقوم في طول البلاد احتجاجاً على انفراد الوزارة بتأليفها . وعمدت السلطة المصرية ، ومن ورائها السلطة البريطانية ، إلى استفزاز المتظاهرين واستفزاز البــلاد كلها معهم . فاضطرب الأمن ، وجرت اصطدامات عنيفة بين الجند والأهلين ذهب ضحيتهــا عشرات القتلى ومئات الجرحى ، وحكم من جرائها بالموت أو السجن على عدد كبير من المصريين . واتخذ الانكليز هذه المذابح والاضطرابات التي أثارها صنائعهم ، ذريعة لتأجيل إلغاء الأحكام العسكرية وبقاء الاحتلال الانكليزي والامتيـازات والمحاكم المختلطة لحماية المصالح الأجنبية .

في ذلك الجو المضطرب ، وفي ظل القمع المخيف للحريات ، والدسائس الراميـة إلى تثبيت أقدام المستعمر ، ألف عدلي يكن وفده الرسمي للسفر إلى لندن من حسين رشدي واسماعيل صدقي ومحمد شفيق وأحمد طلعت ويوسف سليمان يعاونهم مستشارون فنيون وكتاب . وسافر الوفد الرسمي تحميـه الحراب البريطانية ،

لاستخلاص الحقوق المصرية من البريطان !

وعبثاً حاولت الوزارة المصرية ، خلال المفاوضة ، توكيد الثقة بوفدها الرسمي، بتزييف التوكيلات وإرغام المواطنين على توقيعها [١] ، لتنسخ بهـا التوكيل الذي أناطوا فيه بسعد وأصحابه العمل لتحقيق مطالبهم . وعبثاً حاولت صرف الجماهير الشعبية عن الالتفاف حول سعد ، بما قامت به من أعمال القمع وما بذلت من مال، وما أفسدت من ضمائر المصريين ، وما حاكت من الدسائس وأثارت من الفتن . وعبثاً كانت تمنع مظاهرات الاحتفال بسعد ، وترسل الخفراء والجنود في ثيـاب المدنيين ليندسوا في صفوف المحتفين به كلما زار مدينة أو قرية ، لتخريب الزينات وتشويه الاحتفال . فقد كان نفوذ سعد يتعاظم بتعاظم الوعي الشعبي ، ويقوى بقوة الحركة الوطنية ، وكان شأن عدلي وانصاره يتضاءل ويهزل يوماً بعد آخر، حتى رأت الحكومة البريطانية أن مفاوضتها مع الهيئة المصرية الرسمية تزعجها وتحرجها ، وقد كانت ترجو ان تسهل لها الوصول إلى اغراضها . فان شروط اتفاقها مع هذه الهيئة إن جاءت مجحفة بحقوق المصريين كل الاجحاف قوّت نفوذ سعد وعززت مركزه ليس في ذلك ريب ، وان كانت محققة لبعض أماني مصر اتخذهـا سعد أساساً للمطالبة بشروط أكثر ملاءمة وأوفر سخاء !

ولكن اللورد كيرزون رئيس لجنة المفاوضات، كان يفاوض بروح المستعمر الذي لا يهمه غير توطيد نفوذه الاستعماري المباشر فلا يفرّط بشيء منه مهما كانت عاقبة ذلك في مستقبل الأيام . فقابل المفاوضين المصريين بالتشدد والغلظة ، وأنقص من شروط ملنر بدلاً من ان يزيد عليها،حتى لم يجد عدلي باشا بدأ من قطع المفاوضة، فقطعها في التاسع عشر من تشرين الثاني (نوفمبر) ، لئلا يعطي سعداً حجة جديدة عليه ويفقد تأييد الاوساط القليلة التي كانت لا تزال تثق به وتواليه .

أخفقت وزارة عدلي يكن في مهمتها ، وأخفقت معها آمال الانكليز في تسوية

---

١ - يرى مؤرخو الحركة القومية بمصر في هذه التوكيلات أول تزييف لارادة الامة المصرية، وارهاصاً لما كابدته بعد ذلك في مختلف الانتخابات .

القضية المصرية على ما يرغبون من التضليل المغلف باللين . وإذا بهم يلجأون إلى تجربة جديدة من تجاربهم التي لا تنتهي ، إذ أرسل اللورد اللنبي نائب ملك انكلترة في مصر ، كتاباً إلى السلطان فؤاد ، أعلنت فيه حكومة جلالته انها تحافظ على رغبتها الدائمة في « العمل على إنماء مواهب المصريين » بزيادة عدد الموظفين منهم في فروع الادارة والحكم! وانها مستعدةلأن تواصل-بمشاورة الحكومة المصرية - المفاوضات مع الدول الأجنبية لإلغاء الامتيازات ، كي يكون موقف الدول جلياً عندما يحين وقت إصدار التشريع المصري الذي سيحل محل تلك الامتيازات .. « وكذلك ترجو حكومة جلالته ان السلطة التي يباشرها الآن القائد العام تحت القانون العسكري ، تباشرها الحكومة المصرية وحدها بمقتضى القوانين المدنية المصرية . وهي تسر برفع الأحكام العسكرية حالما يصدر قانون التضمينات ويعمل به في كل المحاكم المدنية والجنائية في مصر . »

وقد جاء في الكتاب أن الحكومة البريطانية تعد هذه الاقتراحات « سخية في جوهرها واسعة النطاق في نتائجها » ولا تقبل إعادة النظر في المبدأ الذي بنيت عليه. وحملت حكومة صاحبة الجلالة في كتابها بعد ذلك ، على الحركة الوطنية المصرية وعلى قادتها الميامين ، وقالت إن « استسلام » الشعب المصري إلى امانيه الوطنية « مهما كانت هذه الأماني صحيحة ومشروعة في ذاتها ، دون ان يكترث اكتراثاً كافياً للحقائق التي تستحكم في الحياة الدوليـــة » يعرضه للخطر ويؤخر تحقيق تلك الأماني « إذ ليس من فائدة ترجى من وراء التصغير من شأن مـــا على الأمم من الواجبات وتعظيم ما لها من الحقوق ، وان الزعماء المتطرفين الذين يدعون إلى هذا لا يعملون على نهوض مصر بل يهددون رقيها ، وهم بما كان لهم من الأثر في مجرى الحوادث ، قد تحدوا مرة بعد مرة الدول الأجنبية في مصالحها وأثاروا مخاوفها ، وكذلك عملوا في الأسابيع الاخيرة على التأثير في مسير المفاوضات بنداءات مهيجة استثاروا بها جهل العامة وشهواتهم » .. وبعد حملة عنيفة على « الوطنيـة المتعصبة المضطربة » يقول الكتاب ان « حكومة جلالة الملك تقاوم هذا النوع من الوطنية بكل شدة سواء في مصر او في غيرها .. وان أولئك الذين يستسلمون لتلك النزعات

انما يعملون على جعل القيود الأجنبية التي يطلبون الخلاص منها أشد لزوماً ، وبذلك يطيلون أجلها ، وإذ الأمر كذلك ، فان حكومة جلالة الملك مراعاة لمصلحة مصر ومصلحتها الخاصة أيضاً ستستمر بلا تردد على مواصلة غرضها كمرشدة لمصر وأمينة على مصالحها » !

وقد كان جواب سعد على هذا الانذار قوله :

ــ أيهددوننا بنصب المشانق ؟ ليكن ... نحن مستعدون !

ثم أذاع نداء خاطب فيه المواطنين المصريين ، داعياً إياهم إلى الثبات ، راسماً لهم طريق العمل ومنهج النضال :

«نفزع إلى اتحادنا فنقويه ، وإلى صفوفنا فنجمعها ، وإلى قوانا جميعاً فنوجهها إلى دفع الخطر العظيم . فننزع شهواتنا الدنيئة من نفوسنا ، ونستل الأحقاد المقوتة من صدورنا ، ونتجرد عن الهوى ، وتكون الكلمة السواء بيننا ألا يطيب العيش لنا حتى ينطلق الوطن السجين ، ويتمتع باستقلاله التام ، ولا نعتبر خصماً لنا إلا الذين أرادوا امتلاكنا ، ونحصر همنا في دفع بلائهم وإحباط أعمالهم » .

وختمه بهذا النداء الحار يثير فيه مكامن العزة الوطنية في نفوس المصريين :

« انكم أنبل الوارثين لأقدم مدنية في العالم ، وقد حلفتم ان تعيشوا أحراراً وتموتوا كراماً ، فلا تدعوا التاريخ يقول يوماً فيكم : أقسموا ولم يبروا بالقسم ، فلنثق إذاً بقلوب كلها اطمئنان ، ونفوس ملؤها استبشار بالاستقلال التام أو الموت الزؤام » .

وأدركت السلطة الانكليزية انها لن تستطيع تنفيذ خطتها الارهابية الجديدة ، وسعد يثير المصريين على تعسفها ، ويوقظ شعورهم الوطني وينميه ، ويلهب صدورهم بروح الاستماتة في سبيل الحرية والاستقلال . فأراد اللورد اللنبي ان يجد حجة لنفيه ، فوجه إليه بلسان مستشار الداخلية كتاباً جاء فيه :

« يحظر على سعد زغلول باشا بموجب الحكم العرفي أن يخطب في الناس ، أو أن يشهد اجتماعاً عمومياً ، أو يستقبل الوفود ، أو يكتب إلى الصحف ، أو يقوم بعمل من الأعمال السياسية . وعليه أن يغادر القاهرة بلا إبطاء ويقيم في منزله في الريف تحت مراقبة المدير .

وأتشرف بأن أكون خادم معاليكم المطيع » .

ولم يكد سعد يتلقى هذا الانذار حتى أجاب عليه بالكتاب التاريخي التالي :

« جناب الجنرال كلايتون مستشار وزارة الداخلية

أتشرف بإخباركم أني استلمت خطابكم بتاريخ اليوم ، الذي تبلغونني فيه أمر جناب الفيلد مارشال اللنبي بمنعي من الاشتغال بالسياسة وإلزامي بالسفر إلى عزبتي بلا تأخير للقيام بها تحت مراقبة المدير . وهو أمر ظالم أحتج عليه بكل قوتي إذ ليس هناك ما يبرره .

وبما اني موكل من قبل الأمة للسعي في استقلالها فليس لغيرها سلطة تخليني من القيام بهذا الواجب المقدس .

لهذا سأبقى في مركزي مخلصاً لواجبي . وللقوة أن تفعل بنا ما تشاء ، أفراداً وجماعات،فانـّا جميعاً مستعدون للقاء ما تأتي به بجنان ثابت وضمير هادىء، علماً بأن كل عنف تستعمله ضد مساعينا المشروعة إنما يساعد البـــلاد على تحقيق أمانيها في الاستقلال التام » .

أرسل سعد زغلول هذا الجواب ولبث ينتظر .. فقد كان يعلم ان الانذار الذي تلقاه هو مقدمة لاعتقاله ونفيه ، لأن المسيطر الذي صاغه كان يعرف أيّ رجل يخاطب به . ويعرف جواب هذا الرجل مسبقاً .

وتسامعت القاهرة بالنبأ فأغلقت مقاهيها ومتاجرها احتجاجاً عليه واستنكاراً له، وعرف أبناؤها ان ثمة خطراً يحدق بسعد فكانوا يهرعون جماعات إلى بيته ، بيت الأمة ، فتستقبلهم الشرطة بالرصاص . كان الجنود المصريون يطلقون النـــار على المواطنين المصريين ، وكانت تلك الجريمة أعظم ما يؤلم سعداً ، فيقول لاخوانه كلما تعالت طلقات البنادق :

ـ أرأيتم إلى أيّ شيء أدت الخطة التي اتبعتها الوزارة في الأشهر الماضية ؟ لقد كنا حتى اليوم وجهاً لوجه مع أعدائنا الانكليز ، فكان هؤلاء هم الذين يصادموننـا ونصادمهم ، أما اليوم فالانكليز يعملون ، وجنود من المصريين هم الذين يسفكون دماء المصريين . حقاً إن هذا فوز للسياسة الانكليزية لا يُسأل عنه إلا الذين مهدوا

له السبيل . »

كان ذلك في الثالث والعشرين من كانون الأول (ديسمبر) ١٩٢١ (١٣٤٠هـ)، وفي صباح اليوم التالي ، وكان صباحاً غائماً قاتماً ، طوّق الجند شارع سعد زغلول ، واقتحموا عليه منزله ، فأسرعت صفية زغلول إلى زوجها توقظه قائلة :

ــ ان الذين تنتظرهم قد حضروا .

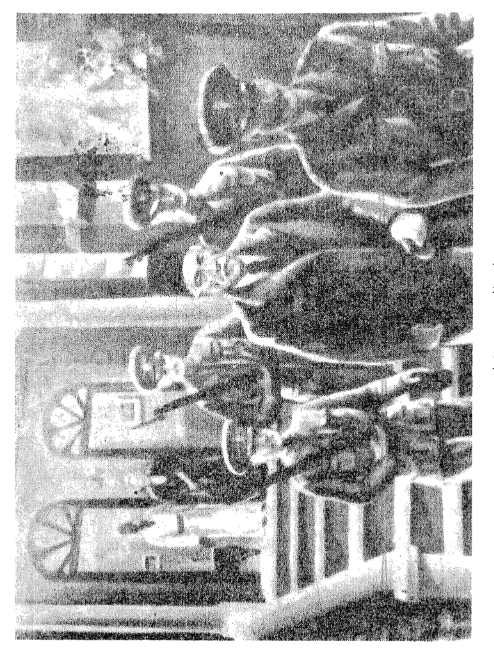
فنهض يرتدي ملابسه ، وحاول الضباط الانكليز الذين كانوا يقودون « الحملة » أخذه قبل ان ينتهي من ارتداء ثيابه ، فزجرهم في غضب واحتقار ، وأكمل لبسه واستعداده ثم سار بينهم ، وهو شيخ مهدوم القوة في سن الرابعة والستين ، ثابت الجنان ، مطمئن النظرات.. وأرادت زوجه مرافقته، فرفض الجند طلبها ، ولكنها تشبثت به تريد ان تحول بينهم وبينه ، فقال لها :

ــ لا تكوني سبباً في إهانتي يا صفية .

فعاودها ثباتها وقالت : لا عاش من يهنك يا سعد !

وكفكفت دمعها .. وأخذت تهدىء الباكين من حولها .. وخرج سعد إلى الشارع ، فسرّح طرفه في الجموع الحاشدة التي تُصوّب إليها البنادق والرشاشات ، فضجت هذه الجموع بالبكاء ، وتعالت من بينها أصوات تهتف في إشفاق عظيم : « إلى اين يا سعد ؟ إلى أين ؟ إلى أين ؟ » فاغرورقت عينا الشيخ الجليل بالدموع ، وتابع سيره بين حراسه إلى مصيره المجهول ، عالي الرأس ، رابط الجأش ، ليس في خطوه إسراع ولا تثاقل ، ولا في نظراته أو حركاته أثر يدل على قلق أو اضطراب، ويده اليسرى في جيب معطفه ، ويده اليمنى تحرك عصاه حركة منتظمة عادية ..

وقد وصف في احدى خطبه سطو القوة الغاشمة في عنفها ، على الحق في مأمنه ، فقال : « احاطت منزلي من كل جوانبـــه بعساكر مدججين بالسلاح ، وأدخلت جانباً منهم فيه فملأوا قاعته وطبقاته وأقاموا منهم أربطة على أبوابه ومنافذه ، وصعد بعضهم إلى مخدعي فأزعجوني من نومي ، وأرادوا أن يقبضوا عليّ قبل ان ألبس ثيابي فلم أمكنهم حتى لبستها . ثم أنزلوني وهم يحيطون بي ، وحرمي من خلفي تريد مزاملتي ، فمنعوها ، وأركبوني عربة من عربات الإسعاف تتقدمها سيارات



اعتقال سعد زغلول

أخرى يملأها جماعة من الضباط والعساكر وبأيديهم البنادق مصوبة من خلفنا لإطلاقها على كل من يتبع خطواتنا . فعلوا ذلك بغير حكم أعلنوه ولا قرار تلوه ، ولا كتابة اطلعوني عليها ، ولا تعيين للجهة التي وجهوني إليها . وساروا بنـــا إلى السويس في طريق غير ممهد، بلا ماء ولا زاد إلا قليلاً من الخبز تكرم علينا بعض الضباط بقطعة منه على شيء من الجبن فتبلغت بها ، وما زال السير يجدّ بنا في هذا الطريق العاثر ، يحطنا تارةً ويرفعنا تارة أخرى ، من الساعة التاسعة صباحاً إلى الساعة الخامسة بعد الظهر ، حيث أدخلوني إلى معسكر الهنود ، وتلقاني بعض الضباط ، وأنزلوني في خيمة تعصف الرياح من خروقها ، بعد أن قدموا لي شيئاً من الطعام فأكلت ونمت بملابسي اذ لم يسمحوا لي بأخذ شيء معي . ولكني بحمد الله لم أشعر بتعب مع اني كنت أتعب من سير ساعة واحدة بالسيارة في الطريق المعبّد. فقد أمدني الله بقوته وجعلني احتمل هذه المشقات من غير ان أشعر بشدتها . وفي الليلة التالية اتصل بي صحبي الذين قبضوا عليهم من بعدي فأنست بلقائهم وسرني ما رأيتهم عليه من رباطة الجأش ومقابلة هذه الشدة بالثغور الباسمة والنفوس المطمئنة . ومكثنا في هـــذا المعسكر الى ١١ ديسمبر (كانون الأول) حيث أمرنا في آخر العشاء بالاستعداد للسفر في ظرف نصف ساعة فدهشنا لهذة المفاجأة وانصرف كل منا يحزم متاعه . ثم أركبونا في سيارة مغلقة إلى المرفأ ، وكانت السفينة المعدة لركوبنا خارج الميناء ، فأنزلونا إلى زورق فيه بعض الوطنيين الذين بكوا للقائنا في تلك الساعة بكاءً مراً ، فكنا نطمئن خواطرهم بالاشارة تارة وبالكلمات تارة أخرى . ووصل بنا الزورق إلى السفينة واذا بها مملوءة بالجنود الهندية ، ونزل كل منا في الحجرة المعدة له ، وعلمنا حينئذ بأن وجهتنا عدن التي وصلناهـــا في مساء يوم الأربعاء ٤ يناير (كانون الثاني) ... الخ » .

ولعل أعجب ما وقع لسعد في هذا العهد من منفاه ، أنه لما وصل ورفاقه الى عدن ، جاءهم موظف سوري كبير كان يعمل في دار الحماية ، فانفرد بسعد وحدثه عن المفاوضات ثم فاجأه بقوله :

— ستكون ملكاً على مصر ...

قال ذلك دون ان تكون لهذه الكلمة علاقة بمجرى الحديث ، وحينما لاحظ الرجل دهش سعد واستغرابه ، أعاد عليه قوله وأضاف إليه :

— انك زعيم الأمة الذي لا ترتضي سواه ، ولو قبلت ما يعرضه الانكليز عليك وعلى الأمة لما خالفك أحد !

فأنهى سعد هذا الحديث بقوله :

— انني أفضل ان أكون فرداً من الأفراد في أمة مستقلة على ان أكون ملكاً لبلاد مستعبدة في ظل حماية أجنبية !

وقد ظل سعد حتى ٢٨ شباط (فبراير) سنة ١٩٢٢ (١٢٤١ هـ) في منفاه بعدن مع أعضاء الوفد الآخرين الذين نفوا معه، وهم مصطفى النحاس ومكرم عبيد وسينوت حنا وعاطف بركات ، وفتح الله بركات ، بينما كانت الاضطرابات تسود مصر ، والمظاهرات الحاشدة تجتاح مدنها المختلفة ، والسلطات العسكرية تقمع المقاومة الشعبية بالارهاب والعنف ، وتطلق النار على المتظاهرين ، وتزج في السجون ألوف المناضلين ، وقد اضطرت هذه الأحداث عدلي باشا الى الاستقالة من رئاسة الوزارة ، وتعذر تأليف وزارة جديدة في تلك الظروف العصيبة ، بما حمل اللورد اللنبي على ان يقترح على الحكومة البريطانية أن تعلن رسمياً « انتهاء الحماية والاعتراف بمصر دولة مستقلة ذات سيادة » وأن تستبقي بعض التحفظات حتى يتم توقيع المعاهدة ، وألح في برقية أرسلها في ١٢ كانون الثاني (يناير) سنة ١٩٢٢ أن بديل ذلك يكون «اما ضم بلد معاد أشد ما يكون العداء نضطر ان نحكمه بالقوة، وإما أن تسلم حكومة صاحب الجلالة بكل شيء . لقد اعتدنا أن نتوقع من العالم أن يعجب بعملنا في مصر ، واني لا أتصور خاتمة أشد نكراً من التي أراها الآن » وأضاف ان ثروت باشا على استعداد لتأليف وزارة على أساس التصريح المقترح ، وان هذه السياسة تمكننا من « أن نكسب إلى جانبنا عضواً أو عضوين من قادة حزب سعد زغلول فنضعف تأثيره إضعافاً عظيماً [1] » .

---

١ — الاستعمار البريطاني في مصر ص ٣١

وعلى أثر ذلك عمدت الحكومة البريطانية إلى إذاعة بيانها المعروف بتصريح ٢٨ فبراير ، معلنة فيه استقلال [1] مصر وإلغاء الحماية البريطانية عنها ، محتفظة لنفسها بأمور أربعة حتى تعقد معاهدة بشأنها وهي : تأمين مواصلات الامبراطورية في مصر ، والدفاع عن مصر ضد كل اعتداء أو تدخل أجنبي بالذات أو بالواسطة ، وحماية المصالح الأجنبية في مصر وحماية الأقليات ، ومسألة السودان . وأبقت مع ذلك قواتها العسكرية بثكناتها وأحكامها ، وفوقها جميعاً اللورد اللنبي صاحب السلطان الأكبر في البلاد . وقد وصف سعد فيما بعد هذا التصريح بقوله : « هو ناقة البدوي التي تباع بمائة درهم وتباع التميمة التي في رقبتها بألف ، ولكن لا تباع الناقة بغير التميمة ... فما أملحها من صفة لولا « الملعونة » في رقبتها ! »

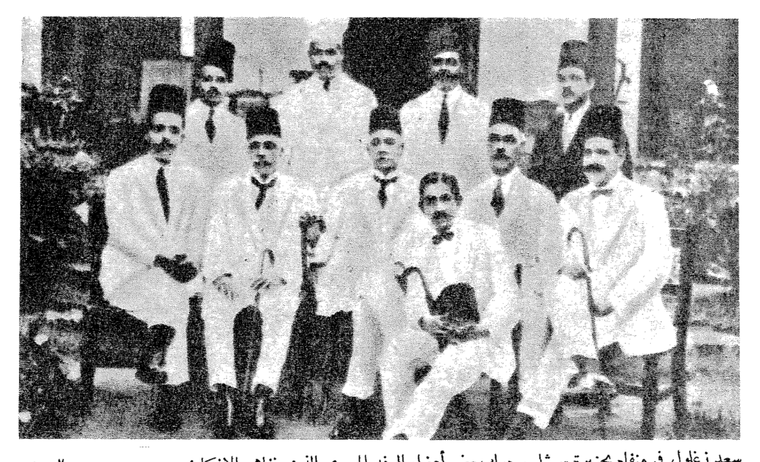
وفي ذلك اليوم الذي أعلن فيه استقلال مصر ، تعمدت السلطة البريطانية نقل سعد من منفاه بعدن إلى سيشل ، المنفى المقرون في الأذهان باعتقال عرابي ، فأنزلته ورفاقه إلى البحر في مركب حربي ، ذلك اليوم نفسه ، مع ان المركب لم يسافر إلا بعد يومين ، كأنها أرادت ان يقال ان سعد زغلول نزل في البحر وهو في طريقه إلى سيشل ، فيقترن إعلان الاستقلال في أذهان المصريين بإبعاد سعد ، وهو المدافع الأول عنه ، إلى منفى يطعنهم اسمه في كرامتهم الوطنية ويثير في نفوسهم كثيراً من الشجون والآلام .

فيا له من استقلال ، ويا له من نهج عجيب في سياسة الشعوب !

وقد نقل سعد في المركب الحربي إلى سيشل برفقة مكرم عبيد ، ثم أُلحق بهما بقية رفاقهما المنفيين ، وحدث في إحدى الليالي ان أصيب سعد باختناق التنفس ، لشدة الحر والرطوبة في الجزيرة ، فالتمس زملاؤه الاسراع بنقله إلى مكان صحي ، وخشي الانكليز ان يموت الزعيم في منفاه فيكون لذلك أثره في مصر ، فنقلوه وحده إلى جبل طارق ، ولم يسمحوا لأحد من زملائه بمرافقته ، إلا انهم سمحوا لأم المصريين بأن توافيه إلى هناك .

---

١ — كان السلطان فؤاد اول من بادر الى جني ثمرات هذا الاستقلال ، فنادى بنفسه ملكاً واتخذ لقب صاحب الجلالة ، فكان ذلك بدءاً لنظام جديد في حياة مصر السياسية .



سعد زغلول في منفاه بجزيرة سيشل وحوله بعض أعضاء الوفد المصري الذين نفاهم الانكليز معه ، ويرى من اليمين مصطفى النحاس فمحمد عاطف بركات وأمامها سينوت حنا ، ويرى إلى يمين سعد فتح الله بركات ومكرم عبيد

ولم يشأ الانكليز ان ينقلوا سعداً إلى السفينة نهاراً خشية احتشاد السكان ، ولما صعد إلى السفينة وجد القائد والضباط في انتظاره ، ودنا منه القائد فحياه ثم فتشه وسلمه إلى أحد الضباط ليرشده إلى الحجرة التي أعدت له ، فسار الضابط به إلى هذه الحجرة وقال له :

– هنا محل نومك ، وقد أعدّ لك محل آخر عند المدخنة لتصعد إليه عند الضرورة !

ثم ألقى بتعليماته إليه وهي تتلخص في ألا يخاطب أحداً ممن في السفينة ، ولا ينبغي لأحد أن يخاطبه ، وقد وضع تحت تصرفه ملازم لخدمته وتوفير لوازمه ، ولكنه لا يستطيع أن يكلفه بأمر يقتضي قضاؤه البعد عنه .. وإذا عرضت له حاجة عند القائد فيجب ألا يكلمه بنفسه ، بل يكلم هذا الملازم ، وهو يرفع الأمر إلى الضابط ، وهذا يرفعه إلى القائد ! ويجب عليه ألا يحمل شيئاً من أدوات الكتابة ، لا قلماً ولا دواة ولا ورقاً ، ويجب ألا يكتب إلا إذا استأذن القائد وأذن له .. ولا ينبغي له ان يأكل إلا في أحد المحلين المخصصين له ، ويجب ان يفحص طعامه بمعرفة ضابط خاص ، وعليه أن يلزم حجرته فلا يغادرها إلا إذا أُمر بذلك !..

قال سعد : « وسألت عن الجهة التي نحن متوجهون إليها ، فقالوا : « لا يمكن ان نقول لك ! » ومكثت وحدي بين السماء والماء .. لا جليس ولا أنيس مطلقاً.. كان فكري محصوراً في معرفة الجهة التي أنا مسوق إليها ، وكنت قد سمعت قبل سفري إشاعة بأن هذه الجهة هي « جبل طارق » التي سمعت عنها من بعض اخواني انها صخرة جرداء شديدة الحر فيها حصن وبجانبها قرية صغيرة لبيع الدجاج والبيض !.. وبقيت حائراً في أمر الجهة التي أنا مسافر إليها ، وكلما تصورت انها جبل طارق اشتد كربي .. وقضيت في السفينة ١٦ يوماً وأنا أتصور جبل طارق ، ولم تمر بي في حياتي فترة تألمت فيها أكثر من هذه الفترة. وقبل وصولنا إلى السويس أمرت بالنزول إلى الحجرة ، وأغلقوا نوافذها ، وقطعت السفينة القنال ليلاً بسرعة عجيبة، فقد سارت بسرعة ٢٠ عقدة حتى عبرنا القنال في مدة ٧ ساعات ونصف وهو

عادة في ١١ أو ١٢ ساعة .. ومررنا تواً إلى جبل طارق .. »

وقد أعرب حافظ ابرهيم عن الحيرة التي خالجت نفوس المصريين تجاه تصريح ٢٨ شباط (فبراير) فقال من قصيدة طويلة له :

أصبحت لا أدري على خبرة	أجدّت الأيام أم تمزحُ ؟
أموقف للجدّ نجتازه	أم ذاك للاّهي بنا مسرح
ألمحُ لاستقلالنا لمعةً	في حالك الشك فأستروح
وتطمسُ الظلمةُ آثارها	فأنثني أُنكر ما ألمحُ
قد حارت الأفهام في أمرهم	إن لمحوا بالقصد أو صرّحوا
فقائلٌ لا تعجلوا انكم	مكانكم بالأمس لم تبرحوا
وقائلٌ أوسِعْ بها خطوةً	وراءها الغايةُ والمطمحُ
وقائلٌ أسرف في قوله :	هذا هو استقلالكم فافرحوا
إن تسألوا العقل يقل عاهدوا	واستوثقوا في عهدكم تربحوا
وأسسوا داراً لنوّابكم	للرأي فيها والحجا أفسحوا

معركة الدستور

كان تصريح ٢٨ شباط (فبراير) ، أو تصريح الاستقلال ، بالرغم من كل القيود والتحفظات التي اقترنت به ، كسباً للحركة الوطنية ، لأنه أنهى الحماية البريطانية التي سعت انكلترة لحمل الدول على الاعتراف بها في معاهدة فرساي كما أسقط إعلان الحماية البريطانية من قبل السيادة التركية عن مصر ، وكان إنهاء الحماية يعني اجتياز مرحلة كبيرة من مراحل الطريق نحو الجلاء الكامل والاستقلال غير المشروط .

إلا ان بعض الأوساط الوطنية وفي مقدمتها حزب الوفد ، التي كانت تطمح إلى مكاسب أكبر وانتصارات أوسع ، قابلت ذلك التصريح بالاحتجاج والاستنكار ، فاضطرب الوضع في مصر أشد اضطراب ، وتتابعت الاضرابات والمظاهرات العنيفة ، والسلطة البريطانية تقابل هذا الاحتجاج الوطني بالنفي والاعتقال وشتى أعمال القمع والبطش ، حتى هبت الصحف الانكليزية المعارضة لحكومة المحافظين تحمل على سياسة اللنبي حملة شديدة . وقام الدكتور حامد محمود بدعوة نشيطة بين نواب الأحرار والعمال في لندن ، فكثرت أسئلتهم في مجلس العموم عن القضية المصرية وعن اعتقال سعد. ثم قدم ٩٩ نائباً منهم في ٢٩ آذار (مارس) سنة ١٩٢٣ (١٣٤٢ هـ) عريضة هاجموا فيها سياسة السلطة الانكليزية في مصر ، وشجبوا

اعتقالها شيخاً جليلاً كسعد ، وتعريضه للموت في منفاه بجبل طارق .. فاضطرت الحكومة إلى الافراج عنه بعد ذلك بيومين ، لا سيما وان وضع الدستور المصري وقانون الانتخاب كاد يتم بشكل تقبله الأوساط البريطانية ، ولا يؤثر في تبعات مصر إزاء الدول الأجنبية أو يؤثر في مركز السودان .

وكان استئثار رشدي باشا وعدلي باشا وثروت باشا بالحكم ، قد حدا بفريق آخر من المستوزرين ، أثناء غياب سعد ، إلى تأليف كتلة تقاومهم وتحاول الاستعانة على ذلك بالوفد، وعلى رأس هذه الكتلة توفيق نسيم باشا وأحمد مظلوم باشا ويوسف وهبه باشا الذين كانوا قبلاً من خصوم الوفد الالداء . وكانت الفئة الأولى توالي الانكليز ، فأخذت الفئة الثانية تشايع القصر ، فكان بديهياً ان تنتصر تلك للمبادىء الدستورية التي تقيد سلطة الملك، وان تحاربهاهذه لتوسيع نفوذه . ولهذا سمى عدلي باشا الحزب الذي أسسه يومذاك لخوض المعركة الانتخابية « حزب الأحرار الدستوريين » . إلا ان تقرب الكتلة النسيمية من الوفد لم يحل دون نضال الوفد لجعل الدستور ديمقراطياً في أسسه ينص على أن الامة وحدها مصدر السلطات .

وكان الملك فؤاد قد رأى بعد تصريح ٢٨ شباط (فبراير) بمنح مصر استقلالها ، ان ذلك الاستقلال مهما كان شكلياً ، يجعل من البلاد دولة ذات سيادة ، وانه لا بد من أن يكون لهذه الدولة دستور يحقق بصورة ما ، مطالب الشعب في الحكم الديمقراطي البرلماني الذي يحلم به ويناضل من أجله .

وكانت وزارة عبد الخالق ثروت هي التي تتولى حكم البلاد ، فأصدر اليها الملك فؤاد أمره بالشروع في تأليف لجنة لوضع الدستور على أن تعرض اسماؤها عليه . ولما بدأ ثروت باختيار أعضاء اللجنة اصطدم باعلان الوفد المصري والحزب الوطني ، مقاطعتها لها لايمانهما بأن الدستور ، وهو أبو القوانين وحامي الحقوق والحريات ، يجب أن ينبثق عن ارادة الشعب ، وأن تضعه جمعية تشريعية منتخبة منه .

ولما رأت الوزارة هذا الاصرار من الحزبين الكبيرين ، عمدت الى اختيار الأعضاء من حزب الأحرار الدستوريين الذي يرئسه عبد الخالق ثروت نفسه ، ومن بعض المستقلين من الأعيان وأهل الفكر ورجال الدين . وقد جمعت اللجنة من

رجال المحاماة والقضاء والوزراء السابقين أحمد طلعت ومحمد توفيق رفعت وعبد الفاتح يحيى وابراهيم الهلباوي وعبد العزيز فهمي ومحمد علي علوبة والياس عوض وعلي ماهر وحافظ حسن وتوفيق دوس وعبد الحميد بدوي . وكان سعد زغلول ما يزال خارج البلاد ، فأطلق على اللجنة لقب «لجنة الأشقياء» لأنها قبلت مهمة وضع الدستور بدلاً من أن يُعهد بها الى جمعية تشريعية منتخبة من الشعب .

وما كادت اللجنة تبدأ أعمالها حتى اشتدت مظاهر المعارضة الشعبية لها عندما شاع انها ستسقط من حساب الدستور النص على سيادة الشعب ، الا ان اللجنة ما لبثت أن أقرت ان الأمة مصدر السلطات، وان الوزارة مسؤولة أمام البرلمان الممثل لها .

وقد كانت المادة ٢٣ التي أقرت مبدأ سيادة الأمة موضع مناقشة شديدة بين أعضاء اللجنة ، فقد وقف عبد اللطيف المكباتي ليقول محتجاً ومعترضاً :

ــ جاء في خطاب دولة رئيس الوزراء ان الدستور الذي تقدم به الآن هو منحة من جلالة الملك ، ولكني أقرر ان مانتمتع به الآن من الدستور إنما هو ثمرة جهاد الأمة، وان للأمة السيادة التي يجب ان تكون بارزة في نصوص الدستور، وعلى هذا الأساس نحن نشترك في العمل .

وهناك مبادىء يجب أن نقررها قبل انتخاب اللجان والبدء في عملها ، منها : ان سلطة الأمة يجب ان تكون بارزة ، وان مسؤولية الوزارة يجب أن تكون بارزة . .

وقال رشدي باشا : كل هذه المبادىء سلم بها دولة رئيس الوزراء على انها جميعها هي الدستور المطلوب منا إعداده .

توفيق دوس : هذه المبادىء كلها ستقرر أمام اللجان المختصة وتكون موضع المناقشة والبحث فيها .

الياس عوض : المسائل التي وضحها المكباتي بك أمور مسلّم بها في كل دستور في العالم فلا محل لتقريرها وهي تعرض على اللجان .

رشدي باشا : أنا أفهم ان عبارة سيادة الأمة مسألة نظرية محضة ، وان المهم هو

اثرها في نصوص الدستور وتطبيقها عملياً بأوسع ما يمكن ، كمسؤولية الوزارة وحق الأمة في تعديل الدستور بوساطة مجالسها النيابية ، وكأن ينص في الدستور على أن يقسم جلالة الملك يمين المحافظة عليه .

ثم أثير هذا الموضوع في الجلسة التالية ، فقال عبد اللطيف المكباتي :

ـ ما زلت متمسكاً بفكرتي التي أبديتها في الجلسة السابقة وهي وجوب تقرير المبادىء العامة أولاً .

وقال رشدي باشا: ان هذه المبادىء ستتضمنها النصوص التي ستوضع، وأعتقد ان الخلاف بيننا شكلي فقط. وأنا مدرك غرضك: تريد من الآن أن يتقرر مبدأ سيادة الأمة ، فأقول لك اني مسلم بهذا المبدأ ولكن وقت التدوين لم يأت بعد .

عبد الحميد بدوي : قد يُفهم من هذه المناقشة وجود معارضة في تقرير هذا المبدأ مع انه لا معارضة فيه .

وتابع عبد اللطيف المكباتي الدفاع عن رأيه في اجتماع آخر فقال :

ـ اذن أقترح أن يُنص في الدستور على مبدأ سلطة الأمة وان كل سلطة في البلاد مستمدة من الأمة .

عبد الحميد البكري : أقترح أن ينص على ان كل السلطات من تشريعية وقضائية مستمد من الأمة .

عبد العزيز فهمي : الأولى الإيجاز في التعبير كما في الدستور الفرنسي فيقال : « جميع السلطات مصدرها الأمة » .

الرئيس : تؤخذ الآراء .

ووافق جميع الأعضاء .. وهكذا نص دستور سنة ١٩٢٣ على ان جميع السلطات مصدرها الأمة .

وكانت سلطات الملك قبل دستور سنة ١٩٢٣ ، هي سلطات الحاكم المسؤول ، فقد حفظ لنفسه حق الموافقة على قرارات مجلس الوزراء. ثم قرر دستور سنة ١٩٢٣ ان الملك انما يمارس سلطته بوساطة وزرائه ، والوزراء مسؤولون سياسياً عن جميع أعمال الملك .

ونصت المادة ٢٤ من هذا الدستور على ان « السلطة التشريعيه يتولاهـــا الملك بالاشتراك مع مجلسي الشيوخ والنواب » .

ونصت المـادة ٢٥ على انـه « لايصدر قـانون الا اذا أقره البرلمان وصدق عليه الملك » . وكان مشروع هاتين المادتين في مادة واحدة هي : « السلطة التشريعية يشترك فيها الملك والبرلمان ، فلا يصدر قانون الا اذا أقره البرلمـــان وصدق عليه الملك » .

وعرض مشروع هذه المادة على اللجنة العامة لوضع الدستور فاحتج عبد اللطيف المكباتي قائلًا :

— ان وضع المادة على هذهالصورة يخلق اشكالات كبيرة ، فقد ترتب على تقرير ان للملك حق التصديق على القوانين ، اعطاؤه حق تعطيل القانون سنة ، وحق حل المجلس اذا أصرّ على القانون . وأرى ان تحصر السلطة التشريعية في البرلمان فقط ، ولا يُترك للملك حق التصديق بل يكون له فقط امضاء القوانين وانفاذها ، وهذا فرع من مبدأ فصل السلطات ، وبذلك نمنع قيام الخلاف بين السلطة التشريعيـــة والسلطة التنفيذية .

علي ماهر : انا متفق مع حضرة المكباتي بك في ملاحظته وان كنت لا أطلب ألا يُعدّ الملك جزءاً من السلطة التشريعية ، بـــل أطلب فقط حفظ الحق لي في الكلام على حق الملك في التصديق على القوانين ، وعندي انه يحسن بنـا اتباع المبدأ الانكليزي وهو ان الملك ملزم بالتصديق على ما يقرره المجلسان .

عبد الحميد مصطفى : يقول حضرة المكباتي بك ان كل القواعد الدستوريـــة أساسها فصل السلطات ، وان هـــذا يقتضي منع الملك من الاشتراك في السلطـة التشريعية ، ولكن الذي أذكره انه لايوجد دستور في دولة ملكية الا وفيه مثل النص الذي أمامنا ، بل نصت دساتير الجمهوريات على تخويل هـــذا الحق لرئيس الجمهورية أيضاً ، وأنا أطلب من حضرة المكباتي أن يطلعنا على دستور ليس فيه هذا الحق .

عبد العزيز فهمي : ليس التأذي من وضـع هذا النص ، فان اشتراك الملك في

التشريع أمر ضروري جداً لاستقامة أحوال الحكم ، ولكن الذي نخشاه هو نتائج هذه القاعدة وما يمكن أن ينطوي تحتها من جواز عدم التصديق، ومـا يترتب على امتناع الملك عن التصديق ، وليس هنا محل الكلام في هذه النتائج ، فان نتائج قاعدة التصديق قد نُص عليها في مكان آخر ، ولهذا أقترح ارجاء الكلام في هذه المسألة الى أن يأتي دورها .

الياس عوض: أرى الاكتفاء بالشطر الأول من النص وحذف الشطر الثاني لأنه لا محل لقصر الحكم على هذه النتيجة .

علي ماهر : اوافق حضرة الياس بك على حذف الجزء الأخير من النص ، لأن هذه ليست هي النتيجة الوحيدة المترتبة على اشتراك الملك في التشريع .

الرئيس: تؤخذ الآراء على بقاء النص كما هو أو تعديله، ووافقت اللجنة على النصين الجديدين اللذين وردا في المادتين ٢٤ و ٢٥ من الدستور كما رأينا قبلاً .

ثم جاءت العقبة الكبرى حول تقرير حق الملك في حل مجلس النواب . وقد جاء في نص المادة ٢٨ : « للملك حق حل مجلس النواب » بعد مساجلات عنيفـة وأبحاث ومشاورات طويلة بين اقطاب واضعي الدستور نوجزها فيما يلي :

عبد اللطيف المكباتي : أطلب ان لا يكون للملك حق حل المجلس الا بعـد أخذ رأي مجلس الوزراء .

الرئيس : سبق ان قررنا ان الملك إنما يحكم بوساطة وزرائه .

المكباتي : الحكم قد ينسحب على حق التشريع فقط ، فهل يدخل فيه حق حل المجلس ؟

الرئيس : نعم ، القاعدة عامة ، ويدخل فيها حق حل المجلس . وأرى ان الحل يشمل الحالة الآتية : إذا أعلن المجلس عدم الثقة بالوزارة ، فرفعت استقالتها إلى الملك فرفض قبولها ، فان له طبعاً هذا الحق . وفي هذه الحالة يكون له أن يستعمل حقه في حل مجلس النواب بعد أخذ رأي الوزارة .

علي ماهر : ان أحوال حل مجلس النواب لا تُحصر ، لكنه مسلّم بأنها وسيلة استثنائية لا يُلجأ إليها إلا إذا كان هنـاك مظنة ان المجلس أصبح لا يمثل رأي

الناخبين فلا معنى لوضع قاعدة حل المجلس لإبقاء الوزارة في مراكزها .

الرئيس : جرى العرف على ان الوزارة تستقيل بمجرد فقدها للثقة ، والمفهوم ان الملك لا يلجأ إلى حل المجلس إلا في أحوال استثنائية عندما يرى ان الهيئة النيابية أصبحت لا تمثل الرأي العام .

علي ماهر : إذا كانت القاعدة ان الملك لا يحل المجلس إلا إذا رأى انه أصبح لا يمثل رأي الأمة بقصد ابقاء الوزارة في مراكزها فأنا أرضى بهذا التفسير .

عبد الفتاح يحيى: عندما تقدم الوزارة استقالتها للملك ، فبمقتضى ما له من حق النصيحة ، له أن يشير عليها بأن تبقى في مراكزها وتطلب منه حل المجلس إذا رأى انه لا يمثل رأي البلاد .

الرئيس : في كل الأحوال لا يُحل مجلس النواب إلا بناء على طلب الوزارة .

عبد اللطيف المكباتي : أطلب ألا يُثبت في نصوص دستورنا ولا في التفسير أي إشارة إلى ان الوزارة يجوز لها أن تبقى في مراكزها بعدما تفقد ثقة المجلس ، وذلك حفظاً للمظهر الدستوري، وحفظاً لكرامة المجلس الذي يمثل الأمة، واحتراماً للشعور الوطني والذوق السليم . وأرى ألا يُسمح بحل المجلس لمجرد مخالفته لخطة الوزارة ، ولا مبرر لحله إلا إذا وجد خلاف بينها وبين المجلس في مشروع هام يترتب على قبوله أو رفضه خير كبير أو ضرر جسيم بالمصالح الحيوية للبلاد .

الرئيس : تغيير الوزارة ليس معناه تغيير الأشخاص ، بل معناه تغيير الخطة السياسية التي تجري عليها الحكومة . ولهذا التغيير أهمية كبرى ، فلا يصح لغالبية المجلس وقد تكون قليلة العدد ، ان تغير السياسة العامة إذا كانت قد فقدت الاتصال بمنتخبيها وأصبحت لا تعبر عن شعور الأمة . لذلك حق للملك إذا وجد عنده هذا الاعتقاد ان يقبل استقالة الوزارة إذا استقالت ولم تبادر من نفسها بطلب حل المجلس ، وان يرجع إلى الأمة ، وان يحل هذا المجلس لانتخاب مجلس جديد يتعرف به رأيها .

المكباتي : يُخشى ان يكون معلوماً مقدماً لدى أعضاء المجلس ان الحالة في عدم الثقة بالوزارة ستؤول إلى حل المجلس،وهذا يجعل تقريباً من المستحيل الاقتراع

بعدم الثقة بالوزارة ما دام ان فكرة حل المجلس تكون ماثلة أمامهم .

الرئيس : ان التأثير الذي تخشاه طعن على الأمة وعلى كفاءتها .

الشيخ بخيت : ان حل المجلس عندما يقرر عدم الثقة بالوزارة فيه تهديد له فلا ينتظر منه أن يشتغل بالحرية التامة . ان مسؤولية الوزارة مترتبة على ان للأمة ان تدير شؤونها بالحرية التامة . ولا يجوز حل المجلس إلا إذا أبدى الملك والوزارة سبباً جوهرياً لذلك يدل بوضوح على ان الرأي العام مخالف للمجلس وإلا فكيف يباح لوزراء عددهم لا يتجاوز العشرة أن يحلوا مجلساً من مائتي عضو انتخبته الأمة لاحتمال ان رأيه يخالف رأي الأمة ؟

ودافع علي ماهر في الجلسة التالية عن هذا الرأي قائلًا :

ــ الحياة الدستورية تقتضي مسؤولية الوزارة أمام البرلمان بحيث يكون للبرلمان حق التخلص من الوزارة إذا رآها لا تعمل لمصلحة البلد. وفي حالة عدم الثقة بالوازرة لا يجوز بقاؤها في مراكزها . فكيف مع إعلان عدم الثقة بالوزارة لا نقيم وزناً لرأي المجلس والأصل فيه التعبير عن رأي الأمة ؟

عبد اللطيف المكباتي : إذا سلمنا بأنه يمكن حل المجلس من أجل عدم الثقة بالوزارة ، فان ذلك يؤدي إلى أن الوزارة تكون مسؤولة أمام الملك فقط لا أمام المجلس .

عبد العزيز فهمي : هذا تحكيم للعواطف دون الفكر الصحيح ، فان سلاح الحل هو الدواء الوحيد المتعين لتلك العلة الكبرى ، علة تحكم المجلس في السلطة التنفيذية .

علي ماهر : الحل في نظري جائز دائماً . ولكن الذي أخالف فيه عبد العزيز بك ، انه في حالة إعلان عدم الثقة بالوزارة يجوز الحل ، ورأيي في هذا وجوب استقالة الوزارة .

وقد دافع علي ماهر طويلًا عن وجهة نظره في جلسات أخرى ، ولكن اللجنة رفضت اقتراحه ، ووافقت اللجنة على نص المادة ٢٨ بهذه الصيغة : « للملك حق حل مجلس النواب » .

وساءت المبادىء التي تقررت في مشروع الدستور الملك فؤاد الذي كان يطمع بحصر السلطات في يديه ، فاستدعى ثروت وصرخ فيه ثائراً :

— ما هذا الدستور ؟ هل تريدون أن يكون الحكم في يد الشعب ؟ وحقوقي ؟ وسلطاني ؟

فرد ثروت : ان سلطانك يا مولاي من سلطان الشعب !

ولوى الملك رأسه في غضب ثم قال :

— هذا هراء .

وقد اضطر الملك فؤاد وزارة عبد الخالق ثروت إلى الاستقالة وعهد إلى توفيق نسيم بتأليف وزارة جديدة كانت مهمتها أن تعمل على تعديل الدستور بتوسيع حقوق الملك في مسؤولية الوزارة وتعيين أعضاء مجلس الشيوخ ، ولكن توفيق نسيم اصطدم مرة أخرى بإجماع الشعب على تمسكه بحقه في السيادة الكاملة ، فكان التعديل الوحيد الذي أدخله على الدستور هو النص على أن يكون لقب الملك هو « ملك مصر والسودان » وكان غرض لجنة الدستور من هذا التعديل ترضية الملك حتى لا يعارض في النصوص التي تقرر سيادة الشعب ، ولكن الانكليز عارضوا في هذا النص فسقطت الوزارة .

وتألفت وزارة يحيى ابرهيم ، وكان سعد زغلول قد عاد إلى مصر [١] وتزعم معارضة وضع الدستور بتلك الطريقة ، فعززت هذه المعارضة تمسك اللجنة بالمبادىء الديمقراطية الأساسية التي أقرتها ، وتعددت الأعمال الارهابية التي قام بها الشبان المتطرفون ، فصدر الدستور وهو يتضمن تلك المبادىء التي تحفظ للأمة حقوقها وسيادتها .

وقد أعلن الدستور في ١٩ نيسان (ابريل) سنة ١٩٢٣، ولم يكن أحد يتوقع صدوره في ذلك اليوم ، إذ علم الجميع ان الملك يعارض في توقيعه ، ولكن الملك

---

١ — كانت بريطانية قد أفرجت عن سعد ولكنها لم تسمح له بالعودة الى مصر الا في ١٧ ايلول (سبتمبر) سنة ١٩٢٢ ، فكان استقباله مظاهرة وطنية لم تعرف مصر مثيلاً لها وقد اشترك فيها حتى خصومه وعدد من الاجانب وبعض اعضاء الاسرة المالكة .

فؤاد فوجىء في مساء ذلك اليوم برئيس وزرائه يدخل عليه في قصر عابدين ويقول له وهو يلهث وامارات الرعب بادية على وجهه :

ـ يا مولاي .. ان الزمام أفلت من يدي .. يا مولاي لا سبيل إلى المعارضة في إصدار الدستور .. هناك مشاغبون ومتآمرون وإرهابيون ، والبلاد قد تتعرض لثورة جديدة والتقارير التي رفعت إليّ تشير بصراحة إلى قرب هبوب العاصفة !..

واقتنع الملك بأن من العسير الوقوف أمام إرادة شعب عرف ان طريقه إلى الحرية مرهون بإعلان الدستور والحياة البرلمانية التي تحميه من الطغيان ، فاستدعى الوزراء إلى القصر في الساعة العاشرة ليلاً ، وكان الدستور مكتوباً ومعداً للتوقيع مع الوثائق الملحقة به فوقعه الملك والوزراء جميعاً .

ويجب الملاحظة بأن انتقاد دستور سنة ١٩٢٣ (١٣٤٢ ﻫ) ، لا يعني انه لم يكن خطوة كبرى نحو ضمان الحقوق والحريات الأساسية للشعب المصري ، وان منتقديه إنما كانوا ينشدون مزيداً من الحقوق والحريات وليس التنازل عنها لأن الدستور لا يكفلها بالشكل الذي يريدون . وهذا ما جعل سعد زغلول ، بالرغم من معارضته لوضع الدستور من قبل لجنة اختير أعضاؤها بالتعيين بدلاً من وضعه من قبل جمعية تشريعية منتخبة من الشعب ، وبالرغم من معارضته لبعض مواد الدستور التي كان يريدها أكثر تلاؤماً مع إرادة الشعب وتحقيقاً لأمانيه ، لا يتردد في الاشتراك في الانتخابات النيابية التي دعيت إليها الأمة إثر ذلك . وقد كان هذا الموقف سبباً في حملة الأحرار الدستوريين عليه ، إذ قالوا : كيف يستنكر الوفد التصريح والدستور ثم يشترك في تنفيذهما ؟ وقد رد سعد على ذلك بأن الاستنكار شيء والتنفيذ شيء آخر !

ويقول الاستاذ محمد زكي عبد القادر ان الانتخابات قد جرت في كانون الثاني سنة ١٩٢٤ (١٣٤٣ ﻫ) في جو مشبع بالحرية الكاملة ، ولم يسمح لأحد من رجال الادارة أو غيرهم بالتدخل « واكتسح الوفد المعركة اكتساحاً لم يسبق له مثيل . وجاءت النتيجة مفاجأة لكل المراقبين السياسيين . وعلى الرغم من ان الانتخابات جرت على درجتين ، فـــان المرشحين الوفديين فازوا في أكثر الدوائر ، ولم يتح

للأحزاب الأخرى أن تحصل على غير مقاعد محدودة العدد ، لا تتجاوز في مجموعها عشرين دائرة من ٢١٦ ، وكانت هذه الانتخابات بمثابة حكم أصدره الشعب على القيم الحقيقية للأحزاب ، والقوى التي تقدمت تلتمس ثقته . وبدا ان الحزب االوطني لا أنصار له تقريباً، وفيما عدا بضع دوائر فاز فيها أشخاص من ذوي المكانة الخاصة، لم يكتب له النجاح الحزبي بمعناه المفهوم . وكذلك كان حظ الأحرار الدستوريين ، فعلى الرغم من ان أعضاءه ومرشحيه كانوا من كبار الملاك الذين تدين لهم مساحات كبيرة بالتبعية والولاء الشبيه بالولاء الاقطاعي ، فان الحزب لم يفز بغير بضعة عشر كرسياً . وهكذا تركزت كتلة الشعب تركيزاً ظاهراً في الوفد وزعيمه سعد زغلول ، وكان البرلمان الأول الذي عقد في سنة ١٩٢٤ أول مظهر نظامي لبروز سلطة الشعب كقوة مؤثرة في الحكم ، بل كان القوة الوحيدة التي لها حق الحكم . وكان تطوراً عميقاً دلّ على أن الشعب نما نمواً كبيراً ، وأضحى على الرغم من كل القوى التي حاربته ووقفت دونه ، القوة الأولى المرهوبة الجانب [1] » .

---

١ – محنة الدستور ، ص ٤٧

وزارة الشعب[٣]

كان بديهياً ان يدعى سعد زغلول الى تأليف الوزارة الجديدة ، لأنـه رئيس حزب الأكثرية في المجلس النيابي، وقد عارض هذه الفكرة فريق من الوطنيين لأنهم ألفوا منذ عام ١٨٨١ (١٢٩٩ هـ) ان تكون الوزارات المصريـة خاضعة للنفوذ الانكليزي ، ومن الطبيعي انهم لا يحبون ان تخضع وزارة برئاسة سعد لهذا النفوذ. ولكن اكثر الوطنيين كانوا يرون الوزارة الجديدة ، خصوصاً اذا كانت برئاسة سعد ، ستكون وليدة الأمة ، مستمدة سلطتها من هذه الارادة وحدها ، ولا تأثير لنفوذ الانكليز عليها ، ويرون من جهة ثانية ان البلاد قد دخلت بفضل جهادها وجهاد الوفد في عهد جديد هو عهد تمتع الأمة بسلطتها ، اي عهد انشاء نظام حكم لم تألفه البلاد بعد ، وان سعداً ، بكفايته وصفاته ، والثقة التي وضعتها الأمة فيه ، أجدر الناس بالحكم في هذا العهد وإنشاء تقاليده الصالحة ، واقدرهم على الاضطلاع بأعبائه الكثيرة ، ثم ان وجوده في رئاسة الوزارة يسبغ على مصر جو اطمئنان وتفاؤل هي أحوج ما تكون اليه في عهدها الجديد وسعيها لإزالة مظاهر الاحتلال وكسب الحقوق التي تحفظ فيها تصريح ٢٨ شباط (فبراير) ١٩٢٢ .

وهكذا قبل سعد زغلول تولي الحكم على انه استمرار للجهاد الذي قاد فيه الأمة من سنة ١٩١٨ (١٣٣٧ هـ) إلى ذلك اليوم ، واستمرار للواجب الذي نذر نفسه له

وعهدت اليه أمته بالقيام به لخدمتها وحل قضيتها . فألف الوزارة الجديدة حين دعاه الملك الى تأليفهـــا ، من مصطفى النحاس ومحمد سعيد واحمد مظلوم ومحمد فتح الله بركات ومحمد نجيب الغرابلي ومحمد توفيق نسيم وحسين حسيب ومرقص حنا وواصف غالي . وسميت وزارته هذه « وزارة الشعب » لأنها كانت اول حكومة مصريـة دستورية تستمد قوتها من ارادة الشعب . وقد أصدر بياناً عرض فيه برنامجـه في السعي لاستقلال مصر استقلالاً تاماً واصلاح شؤونها الداخلية ، استهله بقوله : « ان الرعاية السامية التي قابلت بها جلالتكم ثقة الأمة ونوابها بشخصي الضعيف ، توجب علي ، والبلاد داخلة في نظام نيابي يقضي باحترام ارادتهـا وارتكان حكومتهـا على ثقة وكلائها ، ان لا اتنحى عن مسؤولية الحكم التي طالما تهيبتها في ظروف أخرى ، وان اشكل الوزارة التي شاءت جلالتكم تكليفي بتشكيلهـــا ، من غير ان يعتبر قبولي لتحمل اعبائها اعترافاً بأية حالة او حق استنكره الوفد المصري الذي لا ازال متشرفاً برئاسته ... الخ » .

وكان سعد أول من اختار « افندية » ليكونوا وزراء ، واول من اختار اثنين من الأقباط ليكونا وزيرين، ولما قيل له : « ان التقاليد قد جرت على ان يكون في الوزارة قبطي واحد ! » قال : « هذه وزارة الثورة ... وعندمـــا كان الانكليز يطلقون علينا الرصاص لم يراعوا نسبة الاقباط الى المسلمين . وعندما كانوا ينفوننا الى سيشل لم يراعوا النسبة فقد كنا اربعة مسلمين واثنين من الاقباط ، وعندما حكم على اعضاء الوفد بالاعدام لم يراعوا النسبة ايضاً،فقد كانوا ثلاثة اقباط واربعـة مسلمين ! » ذلك ان سعداً كان ينظر دائماً الى المعاني الوطنية والاجتماعية المختلفة للثورة المصرية ، ومن اقواله في هذا الصدد : « ان أهم نتائج الثورة تمصير الاقتصاد المصري ، ونزع المرأة حجابها ، واشتراكها في الحركة الوطنية ، والقضاء على طبقة الباشوات ، وتولي الفلاحين الحكم ، وإزالة العنصر التركي من السياســـة المصرية ... وبعد هذا كله الاستقلال لأنه لا قيمة للاستقلال الخارجي بغير التحرير الداخلي » .

وقد كان ابتهاج البلاد بهذه الوزارة عظيماً ، فهي لم تشهد لها مثيلاً منذ الوزارة التي ألفها محمود سامي البارودي وأحمد عرابي ابان الثورة العرابية ، وكان تأليف

هذه الوزارة والى جانبها البرلمان الذي افتتح في ١٥ آذار (مارس) تحقيقاً لمعنى الديمقراطية في أكمل صورة ، وكان كل شيء يبشر بأن عهداً جديداً قد بدأ في حياة مصر ، عهداً تصبح فيه دولة ديمقراطية ، وتتوحد دعائم الحكم فيها على أسس دستورية سليمة .

وما كاد سعد زغلول يؤلف وزارته حتى نشبت بينه وبين ملك مصر أول أزمة دستورية ، وقد دار الخلاف فيها حول تفسير المادة ٧٤ من الدستور التي تنص على ان الملك يعين خمس أعضاء مجلس الشيوخ ، فقد اعتبر الملك فؤاد هذا التعين حقاً خاصاً من حقوقه يستعمله دون أن يشرك فيه وزراءه ، بينما اعتبره سعد زغلول معلقاً بالمادة ٤٨ التي تنص على ان الملك يتولى سلطته بوساطة وزرائه .

ولما اشتد الخلاف بين الفريقين حول هـــذا الأمر ، اتفقا على تحكيم القانوني البلجيكي البارون فان دن بوش الذي كان يشغل منصب النائب العام لدى المحاكم المختلطة في مصر، لأن المادة ٧٤ المختلف على تفسيرها مأخوذة من الدستور البلجيكي .

وقد روى البارون فان دن بوش قصة تحكيمه في هذا الخلاف ، في الصفحة ٧٥ من كتابه « عشرون سنة في مصر » فقال :

« كنت جالساً أمام مكتبي بالنيابة العامة في الاسكندرية ، ظهر يوم سبت من شهر شباط (فبراير) سنة ١٩٢٤ ، فدق جرس التلفون يدعوني إلى مكالمـــة من القاهرة ، وإذا بالمتكلم سعد زغلول رئيس الوزارة يطلب إليّ الحضور لمقابلته بمكتبه في الساعة الرابعة من مساء اليوم التالي ، فقلت له انني كنت معتزماً أن أتوجه إلى العاصمة يوم الخميس المقبل ، وسألته نظراً لمشاغلي القضائية الملحة هل من سبيل إلى إرجاء هذه المقابلة إلى ذلك اليوم ، فقال :

– ليس ذلك في الامكان فاني أطلبك لأمر عاجل ذي خطر .

فأدركت ذلك من لهجته .. ولم تمض عشر دقائق حتى دق جرس التلفون مرة ثانية وكان المتكلم حسن نشأت باشا رئيس الديوان بالنيابة وموضع ثقة الملك فؤاد، فسألني هل تم الاتفاق على حضوري في الموعد الذي حدده رئيس الوزراء ، فأجبت: « نعم » فقال : « هذا أمر ضروري » .

وفي صباح اليوم التالي سافرت إلى القاهرة في أول قطار . ولما بلغ القطار محطة

بنها دخل عليّ فجأة في المركبة التي كنت فيها ، مواطني الأستاذ جورج ميرزباك ، الذي قدم على عجل بالسيارة لينبئني بما علمه من أحد الوزراء ، وهو اني دعيت لهذه المقابلة لحسم نزاع دستوري خطير قام بين الملك وسعد باشا زغلول يتوقف على نتيجة حله مصير الحكومة واستقرار البلاد .

فتظاهرت بأني أرى الأمر هيناً ، ولكني كنت أدرك في قرارة نفسي ولما أعرفه عن نفسية الطرفين المتنازعين ما لهذه المشكلة من خطورة بالغة .

وفي الساعة الرابعة من مساء ذلك اليوم وصلت إلى دار رئاسة مجلس الوزراء فوجدت حديقتها غاصة بالوفود الشعبية ترفرف عليها أعلام خضراء وحمراء ، وترتفع أصواتها بهتافات مدوية : « يحيا سعد » .

وكانت غرفة الانتظار مليئة بالزوار ، ولكن السكرتير لم يكد يراني حتى أقبل عليّ مسرعاً وأدخلني غرفة الرئيس .

وكان سعد جالساً إلى مكتبه فنهض بقامته المديدة وبسط إليّ يده مصافحاً وقال :

ــ أهلاً وسهلاً . اننا في حاجة إليك .

وانطلق يحدثني دون تمهيد ولا تقديم عن موضوع الخلاف ، واختتم حديثه بهذه الجملة وقد عززها بإشارة قوية من يده على مكتبه :

ــ هذه هي المسألة التي يجب حسمها في مدى أربع وعشرين ساعة .

فرجوت الرئيس خشية أن تخونني الذاكرة ، ان يمهلني حتى أراجع النصوص . وكم أعجبت يومئذ بقوة الذاكرة ومتانة الحجة وبلاغة البيان التي يمتاز بها الشيخ السبعيني من العمر ، على الرغم من آلام المرض والنفي ، بل كم دهشت لارادته التي لا تقاوم .

وكانت وفود الشعب ترتفع أصواتها في الخارج تلح أن يطل عليها سعد، فيخرج إليها في الشرفة مرة ثم أخرى ليشكرها في كلمات ودية مؤثرة ، ولكنها تعود إلى إلحاحها الصاخب ، فينهض ويقبل عليها قائلاً بصوت جهوري حازم :

ــ دعوني أعمل لكم .

ويغلق نافذة الشرفة بعنف ، ثم يستوي في مقعده .

وأنهى سعد حديثه معي قائلًا :

— إلى الساعة العاشرة من صباح غد بقصر عابدين .

وكان الليل قد أرخى سدوله عندما انصرفت أشق طريقي بين جموع المتظاهرين من مختلف الطبقات ، تخفق عليهم الأعـــلام ، وقد امتدت جميع الأيدي وسط الضجيج الصاخب نحو الزعيم الشيخ وهو مطل عليهم ومن حوله هالة من النور وقد بسط ذراعه كأنه يباركهم .

كانت تبدو على الملك سمة التأثر والانفعال عندما دخلت إلى مكتبه في اليوم التالي ، وقد جلس سعد أمامه يتحدث في هدوء ورزانة مسيطراً على نفسه سيطرة تامة .

وجرى الحديث على مسمع مني ، فأدركت على الفور ما للمسألة من خطر وشأن كبير ، فمن ناحية يحاول ملك نشأ في أحضان التقاليد الشرقية وما تمتاز بـــه تلك التقاليد من صفات الحكم الفردي، ان يحتفظ بالبقية الباقيه من ذلك السلطان الذاتي، ومن ناحية أخرى يقف رئيس الوزراء معتزاً بكرامته اعتزازاً قوياً ليصون حقوقه الدستورية .

وقد لمحت خلف العبارات المهذبة شواظ الخصومة تنذر ، ان لم تزل أسبابهـــا سريعاً ، بتفاقم يؤدي عاجلًا إلى كارثة منكرة .

وقال سعد زغلول باشا في سياق الحديث ، وكان قد حمي وطيسه :

— لو أستشير الشعب ...

وكنت في تلك اللحظة أسرح الطرف خـــلال الشرفة الزجاجية العريضة في ميدان عابدين الرحيب ، وقد كسته رمال ذهبية وغمرته أشعة الشمس المتلألئة ، والناس يروحون ويغدون لأعمالهم في هدوء ودعة ومن حولهم أطفال يلعبون. ودار بخاطري ان كلمة واحدة من هذا الرجل السياسي الذي تقف مصر اليوم إلى جانبه قلباً وقالباً ، تكفي لتحويل صورة الحياة الهادئة التي أراها هنا تحت ناظري ، إلى ثورة شعبية جائحة جارفة ..

وقال زغلول : أتقبل يا مولاي أن يفصل النائب العام في هذا الخلاف ، وأن يكون حكمه بلا معقب ولا نقاش ؟

ففكر الملك لحظة ثم قال مذعناً : نعم !

وهنا التمست أن يؤذن لي في أن أخلو إلى نفسي بضع دقائق ، فأرشدني أحد الأمناء إلى قاعة تطل على حدائق القصر .

ومن شرفة هذه القاعة وقع بصري على مشهد رائع ، فعلى بعد كانت سلسلة جبال المقطم متوامية يحيط بها ضباب قرمزي ، وقد تناثرت قباب المساجد بمآذنها السامقة نحو السماء ، وفي مقدمة المشهد بستان جميل التنسيق فيه زهر يانع وخضرة ناضرة تحت ظلال النخيل الوارفة ..

وأمام هذا المنظر الجميل جلست أفكر ، ثم دونت بالقلم الرصاص بضع فقرات على عجل ..

وعندما عدت إلى مكتب الملك وجدته مع سعد زغلول على الجلسة التي تركتهما فيها منذ قليل ..

وأحسست اني متأثر جد التأثر حين قلت :

— ليس من حقي أن أقيم نفسي قاضياً على النظام الدستوري الذي يهيمن اليوم على مقدرات مصر . ان عدم مسؤولية الملك يعتبر أساساً لهذا النظام الذي يقضي بأن الملك لا يتولى سلطته إلابوساطة وزرائه،وهو مبدأ لا يحتمل من الناحية القانونية أي استثناء . فإذا استثني عمل واحد ، فان هذا الاستثناء يصيب النظام الدستوري في روحه وأساسه . ولذلك فالرأي عندي ان تعيين الشيوخ يجب أن يتم بناء على اقتراح مجلس الوزراء .

ثم أضفت قائلا :

— وإني إذ أتشرف اليوم باختياري حكماً في هذه المسألة لجنسيتي البلجيكية وتوافر المشابهة بين الدستور المصري والدستور البلجيكي ، أرجو أن تسمحوا لي جلالتكم بأن أذكر بكل احترام ان ملوكاً ثلاثة تولوا عرش بلجيكا في ظل النظام الدستوري ، فعمل أولهم في ظروف عصيبة على دعم استقلالنا وارسائه على أسس



الملك فؤاد يغادر دار البرلمان بموكبه الرسمي

وطيدة ، وطبع ثانيهم حياتنا القومية بطابع عبقريته رغم تقيد سلطته ، وأما الثالث فجلالتكم تعلمون ان النظام الدستوري لم يمنعه من ان يكون جندياً كبيراً ووطنياً عظيماً !

وهنا بسط الملك يده فجأة وصافحني قائلاً :

ـ انني اتقبل هذا الرأي على هذه الصيغة !

وعقب سعد زغلول على ذلك بقوله :

ـ وأنا أيضاً .

وعندئذ انتهت المقابلة ، وانصرفت مع رئيس الوزراء ، ولما أخذت مكاني الى جانبه في سيارته ، تناول يدي في يده متعطفاً وأعرب لي عن عميق عرفانه بجميل صنعي قائلاً :

ـ انك انقذت مصر من الوقوع في أزمة خطيرة جداً !

*

واجتمعت الآراء عهد ذاك على أن تنظيم النواب والشيوخ الوفديين في هيئة تجمع كتلتهم ، واجب تدعو اليه المصلحة العامة فاجتمع النواب منهم مساء السبت في ٢٦ نيسان (ابريل) سنة ١٩٢٤ (١٣٤٣ هـ) وبحثوا في وضع نظام للسير عليه ، وبما قرروه ان يطلق على النواب الوفديين اسم « الهيئة الوفدية » وان تكون هذه الهيئة برئاسة سعد زغلول . وقد اقترح بعض النواب ان يكون اسمها « حزب الوفد » فاعترض على ذلك بأن الوفديين اعتبروا دائماً انهم هم الممثلون للأمة ، ومن عداهم افراد قليلون ، وبأن الأمة قد اقرت هذا الاعتبار ، ولذلك فضلوا اخيراً كلمة « هيئة » على كلمة « حزب » لانها أكثر تأدية للمعنى المطلوب . ومن القرارات التي اتخذوها ذلك اليوم أيضاً ، ان ينشئوا لهيئة الوفديين نادياً يسمى « النادي السعدي » وان تكون للهيئة لجنة تنفيذية .. الخ . ثم اجتمع الشيوخ الوفديون أيضاً واتخذوا ما يماثل هذه المقرارات .

وقد ألقى سعد زغلول في اجتماع النواب الآنف الذكر ، خطاباً قيماً عن الحزبية

وحرية الرأي ، ومما قال فيه : « ان خصوم الوفد قد هالهم أن يضع الوفديون نظاماً يسيرون عليه ويتقيدون به ، لأنهم ليسوا أصحاب مبادىء يرجونها بل هم اصحاب مصالح خاصة يعملون لنيلها . وقد تلمسوا كل باب يلجونه اليكم لينفروكم من هذه الدعوة ، فقالوا ان هذا لا يتفق مع حرية الرأي ، وان هـذا تحكم في إرادتكم ! يريدون بذلك ان يصرفوكم عن المبدأ الذي ارتضيتموه لأنفسكم وقبلتموه شعاراً لكم . على انه كيف لا يتفق النظام مع الحرية ، والأصل انه لا حرية بلا نظام ولا نظام بلا حرية ! والنظام يتطلب من كل منكم ان ينزل عن جزء يسير من حريته ، حتى تجتمع الحرية كاملة عن هذه الأجزاء ، للهيئة التي قبلتم العمل تحت لوائها . والحرية متوافرة من قبل في اختيار الهيئة التي تتضامنون معها ، واختيار النظام الذي تسيرون عليه فلا معنى للقول ان الحرية تنعدم مع النظام » .

ولقد كانت الأوساط الاستعمارية والرجعية ترجو أن تبدل الوزارة من موقف سعد، وأن تلين من صلابته في الكفاح الوطني، فاذا هو يزداد بأساً وحزماً ومراساً . فيصطدم بالملك كما رأينا لأنه قرر تخويل الوزارة حق تعيين أعضاء مجلس الشيوخ ، وكان من رأي الملك أن يتولى هذا الأمر بنفسه، ويصطدم بالانكليز في مطلع عهده لأن يوم ٢٨ شباط (فبراير) كان عيداً رسمياً وهو لا يريد الاعتراف بهذ العيد لأنه يعارض تصريح ٢٨ فبراير وقد صرح بأن حكومته غير مرتبطة به ، فيختار ذلك اليوم بعينه لافتتاح البرلمان كي تحتفل فيه مصر بعيد الدستور ، كما اصطدم بهم إذ أفرج عن المعتقلين السياسيين ، وحين الغى نفقات الاحتلال من الموازنة المصرية ، وحدد صلاحية المستشارين الأجانب فحصر عملهم بالاستشارة الفنية التي هي الأصل في وظائفهم ، وأحال بعضهم الى مجـالس التأديب لظهور الخلل في أعمالهم ، على الرغم من احتجاج الوكالة البريطانية واتهامها وزارة سعد بكراهية الأجانب والعمل على افساد الادارة في البلاد . ويصطدم بالأزهريين لعزمه على إعادة مدرسة القضاء الشرعي وكانت قد عاشت برعايته وحمايته اذ كان وزيراً للمعارف ثم اغلقت لامتناع الحكومة عن تعيين من تخرجوا فيها. ويصطدم بالموظفين لأنه سعى في إصلاح نظام الدرجات والترقية والتعيين ، وكان أكثرهم يؤثرون بقاء الفوضى المستحكمة في

الدوائر لأنها أقرب إلى نفوسهم وأكثر تحقيقاً لأطماعهم . ويصطدم أخيراً بالوطنيين المتطرفين الذين أخذوا عليه قبوله مبدأ المفاوضة مع الحكومة الإنكليزية ، فأطلق عليه أحدهم رصاصة نفذت الى صدره وكادت تودي بحياته .وقد قيل انهـــا كانت رصاصة انكليزية ولكن لم يقم دليل على ذلك[1] . ولما رأى سعد الوزراء من حوله يبكون قال :

— لا تحزنوا .. إذا مات سعد فمبدأ سعد باق لا يموت !

والطريف انه لم يشعر بألم الرصاصة ، وظن انهـــا خرجت منه ، وقد حرص الأطباء على إقناعه بأنها خرجت من صدره ، والواقع انها بقيت في صدره إلى ان مات . ثم أخبره الأطباء بعد عام انها ما تزال في مكانها، فبدأ يحس بآلامها ويقول:

— ليتكم ما قلتم لي انها باقية ، وإلا لما أحسست بها !

والواقع ان سعد زغلول لم يقبل مبدأ المفاوضة مع مكدونالد إلا حين استوثق من انها مطلقة من كل قيد ، وبعد ان صرح غير مرة بأن دخوله فيها يجب ألا يفهم منه أي تنازل أو تخل عن حقوق مصر ، وألا يفسر بقبول أي امتيـــاز لبريطانية العظمى على مصر . فلما اعتدي عليه ذلك الاعتداء الظالم ، ثم ظهر على الموت بقوي بأسه وعظيم إيمانه ، وقف خطيباً في مكرميه والمحتفلين بشفائه فقال :

— ان ذلك الدم المسفوك غدراً وظلماً ، لهو مداد تكتب به وثيقة عهدتي لكم ، بأن أكون دائماً متمسكاً بذلك المبدأ القومي الشريف ، حتى أنال الاستقلال التام أو الموت الزؤام !

وكان سعد يعتقد بأن خصومه قد خلطوا بين المبادىء والوسائل، فجعلوا « عدم المفاوضة » مبدأ ، في حين ان المفاوضة ليست إلا مجرد وسيلة ، بل انهم أساءوا فهم معنى المفاوضة ، ونظروا إليها على انها مساومة أو مناقصة . وكان يفهم ان لأولئك

---

١ — من النوادر التي تروى ان احد المنجمين قرأ كف سعد زغلول سنة ١٩٢٠ وقال له : « سيضربك احد المصريين بالرصاص ! » فضحك سعد وقال له : « ان مصر كلها تحبني فكيف أضرب بالرصاص .. هذا كلام فارغ ولن يتحقق الا اذا حاولت انت ضربي بالرصاص لتثبت صدق نبوءتك ! »



المثّال الروسي يوروفيتش الذي حضر إلى مصر في عام ١٩٢٦ وطلب من
سعد زغلول صنع تمثال له ويبدو المثّال بين سعد زغلول وتمثاله

الخصوم ان يتحكموا في الانكليز لو انهم حاكموهم لا محكوموهم ، ولكن الذي لم يفهمه مطلقاً ان يكون سيف الانكليز مسلطاً فوق أعناق المصريين ثم يأخذ هؤلاء بطريقة الأمر والنهي .. وكان يتساءل ما الذي تجنيه البلاد من عـــدم المفاوضة والموقف السلبي ، فيرى انها لن تجني شيئاً سوى أن يبقى الانكليز بجولهم وقوتهم يعوقون تقدم البلاد ..

وثمة أمر آخر كان يشجع سعداً على قبول مبدأ المفاوضة مع مكدونالد بالذات، وهو زعيم حزب العمال وصديق الديمقراطية وحرية الشعوب ، ذلك لأنه لم يكن قد نسي بعد كلمات مستر مكدونالد له وهو يشرب القهوة في بيت الأمة قبل ذلك بأشهر قليلة :

ــ ان المسألة المصرية لا تحتاج من الوقت لحلها أكثر مما يستغرقه تناول ما في هذا الفنجان !

وشدّ سعد رحاله إلى انكلترة ليفاوض صديقه وصديق الديمقراطية وحريـــة الشعوب الذي آلت إليه مقاليد الأمور في بريطانية ، وبات في وسعه ان يحقق مـا كان يعجب من العجز عن تحقيقه فيما انقضى من الأيام !

وبدأت المفاوضات .. ولكن لم تكد تعقد جلستان من جلسات المفاوضات حتى كانت الأحوال الداخليـــة في انكلترة قد ساءت ، وبات مركز الوزارة الانكليزية في مهب الرياح .. وأدرك سعد ومكدونالد ان المفاوضات لا يمكن أن تؤدي إلى نتيجة مرضية في ذلك الجو المكفهر ، وان مركز الوزارة البريطانيـــة لا يسمح بالتساهل مع المفاوض المصري ، كما ان هذا المفاوض غـير مستعد للتنازل عن شيء من مطالبه ..

وقال مكدونالد لسعد في الاجتماع الأخير الذي عقد بينهما :

ــ كم يؤسفني يا دولة الباشا أن أخبرك اني بت أعتقد بضعف الأمل في نجـاح هذه المفاوضات !

فقال سعد : وأنا أيضاً لمست ذلك منذ أيام .. ولكني كنت أعلل نفسي بأننا ربما وجدنا سبيلاً إلى التفاهم بمنع الاضطرابات التي تنتظر مصر وانكلترة إذا أخفقنا

في الوصول إلى حل تقبله مصر .

فقال : اني معك في هذا ، ولذلك أقترح أن نترك باب المفاوضة مفتوحاً بدلاً من قطعها .

فقال : لا عليك يا مستر مكدونالد .. فان الاغلاق والفتح هنا يستويان .. لأننا لو أغلقنا باب أية حجرة لما كانت هنالك صعوبة في إعادة فتحه !

وران عليهما الصمت لحظات ثم قال مكدونالد :

ـ في رأيي أن ترك الباب مفتوحاً وإعلان ذلك ، أمر ينطوي على معنى جميل هو ان المفاوضات لم تنقطع !

فقال سعد : إذا كان هذا هو المعنى الذي قام في نفسك وترى انه سيقوم في نفوس غيرك ، فلا مانع عندي من ترك الباب مفتوحاً ..

وتنهد مكدونالد ثم قال :

ـ ألا ترى معي انه من دواعي الأسف اننا لم نستطع المرور معاً من هـذا الباب مع انه لا يزال مفتوحاً ؟

فضحك سعد وقال : لأجل أن نمر معاً يا صديقي من هـذا الباب ، يجب على أحدنا ان ينحف قليلاً !

وابتسم مكدونالد وقال : ولماذا لا ننحف معاً ؟

فقال سعد : لأنني قد وصلت إلى أقصى درجات النحافة . ولم يعد لدي ما أقدمه في هذا السبيل ...

وضحك مكدونالد طرباً من رشاقة الحوار وبراعة الزعيم الجبار في فن الجدل والنقاش وقال :

ـ عندي يا باشا حل خير من هذا .. وهو ان نعمل على توسيع الباب قليلاً حتى نستطيع أن نمر منه معاً !

ولكن العاصفة ما لبثت ان اقتلعت الوزارة البريطانية .. ومن ثم أغلق باب المفاوضات !

وقد زعم رئيس الحكومة البريطانية ان سعداً قابله بصلف واستعلاء ، لأنه لم

يكن يتحدث معه حديث المستجدي او المستهدي،بل حديث الرجل الذي يطالب بحق مغصوب . اما سعد فقد أجمل الموقف بكلمته المشهورة: «دعونا إلى الانتحار فأبينا»، وعاد إلى مصر بعد ان صرح لمراسلي الصحف الانكليزية بقوله : « ... لاحظت مع ذلك ان وزارة مكدونالد ترتطم بصعاب عديدة جعلتها مهددة بالسقوط ، وقال لي مستر مكدنالد بالرغم من كثرة مشاغله انه على استعداد للمناقشة وإياي ، ولكني أختار المناقشة مع رجل اكثر حرية وأقل مشغلة منه وهو محاط بالشواغل من كل جانب ، ولا يظن ظان اني اتيت الى لندن لأوقع على اتفاق يمس حقوق مصر ! فمن ظن هذا وقع في الخطأ . انني اتيت لأكسب لا لأخسر ، فاذا كنت لم اكسب شيئاً فانني لم أخسر شيئاً » .

وقال في حديث افضى به لجريدة الماتان الفرنسية : « ان المحادثات فشلت نظراً للتمسك بحفظ قوات بريطانيـــة على قناة السويس ... وإنما إذا كانت حماية القطر المصري للقناة تلوح غير كافية فقد يقبل المصريون ان يضعوا القناة تحت حماية عصبة الأمم . وان مصر لايسعها ان تتخلى عن السودان » .

ومن الحق ان نقول إن سعداً كان يؤمل ان يرى في حكومـة العمال صدراً أرحب من صدر حكومة المحافظين ، وتعلقاً أقل من تعلق هؤلاء بمطامع الاستعمار البريطاني وشركاته الاحتكارية ، بل ما لنا لا نقول انه كان يعتقد ان من واجب العمال الانكليز ان يؤيدوا مطالب المصريين لأن قضية تحررهم إنما ترتبط ارتباطـــاً وثيقاً بتحرير مصر وغيرها من شعوب الامبراطورية من النير الاستعماري . وقد نشأ هذا الاعتقاد لدى سعد زغلول أثناء اقامتـه في باريس إذ لاقى فيهـــا وفي العواصم الأوربية المختلفة تأييداً كبيراً لكفاح مصر الوطني من أقطاب الحركة الديمقراطية فيها .

ولما عاد من لندن بعد انقطاع المفاوضات،كان عقد المستشار القضائي الانكليزي قد انتهى ، فرفض سعد إبقاء وظيفته وتجديد عقده لأن هذه الوظيفة من بقـــايا الاحتلال ، ولا يليق بدولة مستقلة أن تستبقيها وعندها ما يكفيها من علماء القانون . ثم أزمع القيام بسلسلة أخرى من التدابير الحازمة التي تضعف التدخل الأجنبي في

شؤون مصر ، وتعزز السيادة المصرية ، وتزيل كل مظاهر الاحتلال . ولكن ما كاد ينقضي شهر واحد على عودته ، حتى اعتدى أشخاص مجهولون في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٢٤ (١٣٤٣هـ) على لي ستاك سردار الجيش المصري وحاكم السودان، في ظروف غامضة ، إذ بينما كان السردار منصرفاً في سيارته من وزارة الحربية وإلى جانبه مرافقه الخاص ، أطلق عليهـا النار في شارع اسماعيل باشا اباظة ، وأسرع المعتدون إلى سيارة كانت في انتظارهم ، بعد أن ألقوا قنبلة يدويـة إرهاباً لمن يتبعهم ، وتمكنوا من الفرار ، وأصيب السرداز إصابة قوية في بطنه ما لبثت ان أودت بحياته .

وقد انقلب الوضع السياسي إثر هذا الحادث المشؤوم ، رأساً على عقب ، فساد مصر وجوم شامل ، وانتشرت فوقها سحابة من الشكوك والمخاوف ، لأن السلطة الانكليزية قد انتهزت هذه الفرصة وقدمت إلى الحكومة المصرية مذكرة ضمنتها عدا طلب الاعتذار وتعويض قدره نصف مليون جنيه ، طلبات سياسية واقتصادية لا علاقة لها بالحادث ، منها منع المظاهرات الشعبية السياسية، والمحافظة على مركزي المستشارين المالي والقضائي، وإبقاء المكتب الأوربي في وزارة الداخلية ، واعتزام حكومة السودان زيادة مساحة الأطيان التي تزرعها في الجزيرة ! فقبل سعد ما له علاقة بالجريمة في ذلك الانذار ، كالاعتذار والتعويض واقتفاء اثر الجناة ، ورفض قبول المطالب التي لا علاقة لها بها .

يقول الدكتور مصطفى صفوت : « وقد ظهر في هذا الانذار حب التشفي والرغبة في الانتقام من حكومة مصر وشعبها . وأرادت انكلترة أن تُري مصر ما تستطيع إنزاله بها من وسائل الاهانة والاذلال ، ونفذت بعض تهديداتها بالقوة، واحتلت جمارك الاسكندرية ، فكان هذا لطمة للانسانية جمعاء، وسجل هذا العمل صفحة من صفحات الاستعمار السوداء لا يماثلها إلا صفحات الاحتلال لمصر في سنة ١٨٨٢ ، وبيّن ان حكم القوة لا حكم القانون هو الذي يسود العالم [١] » .

١ – مصر المعاصرة ص ١٢٧

وإذا بالبلاغات تترى من اللورد اللنبي ، تحمل في طياتها انذارات وتهديدات طائشة ، وبالغ اللورد في مناورته الارهابية ، فأمر كتيبة من الفرسان بأن تسير في ركابه إلى بيت الأمة ، في مظاهرة مسرحية فريدة لم يلجأ إلى مثلها من قبل ومن بعد ..

ووجد سعد ان خير جواب على تلك المطالب المحرجة ، وهذه الاستطالة بنفخ الأبواق وطرقات السنابك ومواكب الضجة والخيلاء ، ان يستقيل من منصبه ، فكتب إلى المندوب البريطاني : « ان الحكومة المصرية تتمسك بجميع ما أبدته من التصريحات في مذكرتها المؤرخة في ٢٢ الجاري ، وتحتج احتجاجاً صريحاً على ما اتخذته حكومة صاحبة الجلالة البريطانية من القرارات، وهي ترى ان لا مسوّغ لها وتعتبرها مناقضة لما لمصر من الحقوق المعترف بها » ثم بادر إلى الاستقالة من رئاسة الوزارة ، احتجاجاً على الاعتداءات المتكررة على استقلال البلاد وحقوقها في اجتماع ضم أعضاء مجلسي الشيوخ والنواب وغادر الحكم بعد أن تولاه تسعة أشهر كان خلالها مثال الوطني الرشيد والقائد الحازم .

وقد شغلت قضية مصرع السردار مصر وقتاً طويلاً، واتهم فيها عدد من الشباب المثقف في مصر ، بينهم أحمد ماهر وكان وقت القبض عليه وزيراً للمعارف ، ومحمود فهمي النقراشي إحدى الشخصيات السياسية البارزة والدكتور شفيق المصري النائب في المجلس المصري ، ومحمود اسماعيل راشد المهندس ، وبعض العمال، وسائق السيارة النوبي الذي قيل انه أعان المتهمين على الفرار بعد اقتراف الجناية دون أن يعلم عنها شيئاً . وكانت هذه القضية أولى القضايا السياسية الكبرى التي شهدتها مصر ، ترافع فيها فحول المحامين ، وكان لها صدى قوي ، ولجأ التحقيق فيها إلى شتى وسائل الترغيب والترهيب ، بغية انتزاع الاعتراف من المتهمين أو من شهود الاثبات [١] . وقال المتهمون — على ما نسب إليهم — انهم شعبة في جماعة سرية كبيرة وقد كلفت الشعبة بتدبير الجريمة وتنفيذها ولا يعرفون من هو الذي أصدر هذا الأمر إليهم !

---

١ — الجرائم السياسية ص ٤٢

ورغم ما اكتنف هذا الحادث من شك كثيف في نسبته إلى مواطنين مصريين ، فقد أصدرت المحكمة حكمها بإعدام سبعة منهم ، وأبدل حكم الاعدام بحق عبد الفتاح عنايت إلى الأشغال الشاقة المؤبدة على اثر تقديمه اعترافاً مكتوباً للمحققين ، فقضى في ليمان طرة ٢٥ سنة كان خلالها يتقدم للامتحان في كلية الحقوق وهو مقيد بالسلاسل من قدميه ، حتى نال شهادة الليسانس في الحقوق ، وقد أفرج عنه سنة ١٩٥٠ (١٣٧٠ هـ) .

وفي ٢٣ آب (اغسطس) سنة ١٩٢٥ (١٣٤٤ هـ) نفذ حكم الاعدام بالمتهمين السبعة وكان يتقدمهم الدكتور شفيق منصور المحامي وهو من أبناء قرية بجبيرم وقد أحرز شهادة البكالوريا بتفوق ، ثم التحق بمدرسة الحقوق ولكنها فصلته إثر اتهامه بالاشتراك في اغتيال بطرس غالي باشا رئيس الوزارة المصرية في سنة ١٩٠٠ (١٣١٨ هـ) وقد نجا من العقاب ثم أرسله والده إلى أوربة لإتمام دراسته، فلما عاد منها سنة ١٩١٤ (١٣٣٣ هـ) لم يلبث ان اتهم في قضية الاعتداء على السلطان حسين كامل في الاسكندرية ونفي إلى مالطة ، ولما عاد من المنفى سنة ١٩١٩ (١٣٣٨هـ) انضم إلى الحركة الوطنية، وسرعان ما أصبح من أقطابها وغدا من المحامين والنواب البارزين .

أما المتهم الثاني فهو ابرهيم موسى وكان خراطاً بمعامل السكة الحديد وعمره ٣١ سنة ، وكان بادي الاضطراب ، وقد سئل عما يريد فقال : « أطلب الستر من الله ، ربنا عارف اني مظلوم » ولما تعجله الجلاد إلى غرفة المشنقة انتهره قائلًا: « على مهلك شوية يا سيدنا ، أنت خايف يغيروا فكرهم ويعفوا عني وتضيع عليك المكافأة ؟!»

وكان المتهم الثالث عبد الحميد عنايت شقيق عبد الفتاح عنايت ، وقد نفذ فيه حكم الاعدام وهو ثابت الخطوات ، وكان في العشرين من عمره ، ولما سئل هل يطلب شيئاً أجاب : « لا مش عاوز حاجة ، بس عاوز أقول سأموت فداء مصر ! » .

ولما تلي حكم الاعدام على المتهم الرابع ، وهو عامل في سكة الحديد يدعى علي إبرهيم محمد وعمره ٢٢ سنة ، قال مقاطعاً : « ما فيش لزوم تتعب نفسك في القراية

مش غايته اعدام زي بعضه ! »

وجيء بالمتهم الخامس راغب حسن وهو نجار بصلحة الهاتف وعمره ٢٣ سنة ، ولما سئل عما يطلبه قال « ما عنديش حاجة غير أهلي » ولما قيل له ان أهله زاروه أمس قال : « طيب اتفضلوا اشنقوني مستنيين أيه ؟ » .

وكان المتهم السادس محمود راشد المهندس بصلحة التنظيم رابط الجأش بادي الثبات وقبل تلاوة الحكم قال : « أنا لم اتفق على قتل مخلوق ، وعلى كل حال أنا قاصد وجه ربي الكريم » ولما سئل عن رغبته الأخيرة قال : « أريد تصحيح ورقة زواجي وعايز أرفق مع والدي في نفس مقبرته » ولما وضع الجلاد الحبل في عنقه قال : « اذا كنت أسأت الى واحد منكم فالمسامح كريم ! » .

أما آخر أولئك المحكومين فهو محمود اسماعيل الموظف في وزارة الأوقاف وعمره ٢٣ سنة وكان أشجع المحكوم عليهم وأكثرهم ثباتاً ، ولم تفارق الابتسامة شفتيه وهو يسمع تلاوة الحكم ، وبعد تلاوته قال للحراس : « لماذا تقيدوني بالأغلال ، أنا قوي وشديد أقدر أقف على المشنقة لوحدي » ولما سئل هل يطلب شيئاً قال : « دمي على رأس الذين ظلموني، أنا مش عايز أطلب حاجة أحسن تقولوا عاوز أطول عمري شوية » ولما وضع الجلاد الحبل في عنقه قال : « أنا وعائلتي فداء لمصر » .

وكان مبعث الشك في هذه القضية التي اكتنفها الغموض ، ان لي ستاك كان محمود السيرة ، محبوباً من الوطنيين المصريين ، وان مقتله لم يفد القضية المصرية بل رجع بها الى الوراء [1] .

يقول أنور العمروسي : « وكان غريباً أن يقتل هذا الرجل وينسب للمصريين قتله ، وهو الرجل المعتدل الواسع التجربة ، ذو الرأي الحر ، والذي كان يرى رأيه المشهور لحل مشكلة السودان ، الا ان هذا الرأي لم يرق الاستعماريين الانكليز ، فثاروا على صاحبه واستدعوه فوراً الى لندن بحجة التشاور ومبادلة الرأي ، وعند وصوله الى القاهرة في طريقه الى لندن لقي مصرعه على أثر زيارته لوزير الدفاع الوطني ،

---

١ — أسرار العالم ج ١ ص ١٦

اذن فحادث مصرعه تكتنفه حلقة مفقودة ، لا شك ان للأصبع الاستعماري فيـــه صولة وجولة . »

وأضاف العمروسي قائلًا ، وشايعه في رأيه كتاب كثيرون :

« وليس بغريب ان يقتـل السير لي ستاك الانكليزي بيد انكليزيـة او بتحريض وإيحاء انكليزيين ، فانكلترا لا يضيرها كثيراً ان تضحي بفرد من رعاياها في سبيل تحقيق مأرب خاص او تثبيت أقدام الاستعمار [1] » .

---

١ – الجرائم السياسية ص ٤١

أنا انتهيت

اتخذت انكلترة من مقتل السردار ذريعة لاهتضام السودان ، وسبيلاً لانتزاع الانتصارات التي أحرزتها مصر بجهادها الدامي خلال عشرات السنين . وأذعنت حكومة زيور باشا وحسن نشأت باشا وصدقي باشا التي خلفت حكومة سعد ، لجميع مطالب اللنبي ، وأطلقت يد السلطة الانكليزية في البلاد ، فانتهكت الدستور ، وداست القانون ، وعطلت البرلمان ، وأغلقت الصحف . ولم يمض على تأليف هذه الوزارة شهران حتى أصبح لها حزب كبير هو « حزب الاتحاد » يعمل بأموال الأجانب وحرابهم لتوطيد دعائم الاستعمار ومكافحة الحركة الوطنية في مصر .

يقول محمد زكي عبد القادر : « وكانت استقالة وزارة سعد زغلول حادثاً هزّ كيان الشعب ، وصدمة أضعفت إلى حد ما الاحساس بالنصر الذي سبق إلى أذهان الشعب غداة دعي سعد زغلول لتولي الحكم ، وتشاءم من بدر إليهم التفاؤل ، وصحت مخاوف من لم يخدعهم بريق الحوادث . ووقف في وجه المد الشعبي الطاغي سلطة الاحتلال بما لها من قوة مادية تتمثل في جيوشها ، وسلطة السراي بما لها من حق شرعي وولاء تقليدي ، وبما تستطيع ان تصطنع من الأنصار والمؤيدين ، وبرزت إلى الميدان العناصر التي سبقت الاشارة إليها ، فإذا هي إلى السراي تارة وإلى المحتلين تارة أخرى ، ولكنها أبعد ما تكون عن كتلة الشعب وما تعرضت أو توشك أن تتعرض له من محنة . ويلاحظ ان سلطة السراي انتعشت على اثر قبول

استقالة سعد زغلول ، ويظهر ان سلطة الاحتلال على عادتها أرادت أن تؤدب الكتلة الشعبية ، فأطلقت الأمر للسراي . ومن هنا جاء اختيار أحمد زيور رئيساً للوزارة وهو رجل مسالم للاحتلال وللسراي ، مجرد موظف ارتقى حتى بلغ منصب الوزارة، فلا شأن له بالشعب ولا شأن للشعب به [1] » .

وقد عمدت حكومة زيور باشا إلى إجراء انتخابات جديدة استخدمت فيها كل مهارتها في التزييف والتزوير ، وكل قوتها في العنف والارهاب ، ولكنها أسفرت ، بالرغم من ذلك ، عن فوز الوفد بأكثرية المقاعد في المجلس الجديد ، فألف زيور باشا وزارة من الاتحاديين والأحرار الدستوريين والمستقلين ، قبل أن يلتئم المجلس النيابي ، على خلاف التقاليد الدستورية ، وفي يوم انعقاد المجلس أصدر مرسوماً بحله للسبب الذي حل من أجله المجلس السابق ، أي لإصراره على « السياسة التي كانت سبباً لتلك النكبات التي لم تنته البلاد من معالجتها » وهو أمر يخالف الدستور الذي لا يجيز حل المجلس مرتين متواليتين لسبب واحد ، اما حل المجلس في يوم انعقاده فهو حادث فريد في التاريخ « وليس في أحداث العالم كله حادث يقاربه في امتهان إرادة الشعب [2] » .

ثم قامت كتلة زيور باشا بمناورات اضطرت الأحرار الدستوريين إلى الاستقالة من الوزارة ، واستقلت هي بالحكم تصرفه كما تريد ، وأصدرت قانون الانتخاب المباشر لإيقاع التفرقة بين الأحزاب والاستعداد للانتخابات الجديدة بينما خصومها يتنافسون ويقتتلون .

وكان زيور باشا يريد ان يمثل بعد مقتل السردار ، الدور الذي مثله رياض باشا عقب القبض على عرابي وإخفاق ثورته ، وان يسير بالبلاد سيرة العنف والاستبداد التي سار عليها زميله من قبله . إلا ان ما كان ممكناً سنة ١٨٨٢ (١٣٠٠ هـ) لم يبق ممكناً سنة ١٩٢٥ (١٣٤٤ هـ) ، إذ سرعان ما أفاق الشعب المصري من الذهول

---

١ – محنة الدستور ص ٥٤

٢ – كتاب الثورات ص ١٦٧

الذي أصابه في ذلك الجو الخانق الذي ساد البلاد على أثر مقتل لي ستاك والارهاب الذي تلاه ، وهب لمقاومـــة ديكتاتورية زيور باتحاده ووعيه ، وجدّ سعد لمحو الخصومات ولإزالة الفرقة ، ولحمل الأمة على توحيد صفوفها حول المصلحة الوطنيـة المقدسة . فتنادى النواب إلى الاتحاد ، وعقدوا اجتماعاً طالبوا فيه بإعادة الحيـــاة النيابية . وبدأت الأحزاب تتقارب لشعورها بضرورة التعاون فيما بينها لصد عادية الحكومة ، فاجتمع قادتها واتفقوا على الدعوة إلى مؤتمر وطني عام تقرر فيه مقاطعة الانتخابات إذا لم يعدل قانونها الجديد .

وكان واضحاً أن هذا القانون أفضل من سابقه وألصق بالروح الديمقراطية واكثر تحقيقاً للأماني الوطنية ، وكذلك كان رأي سعد وأصحابه فيه ، فقد كانوا مؤيدين له خلافاً لبقية الأحزاب المعارضة ، ومن هنا كان أمل الحكومة بشق جبهة هذه الأحزاب وتأليب بعضها على بعض . ولكن سعداً ضحى بقانون الانتخاب المباشر لمجابهـــة سيطرة الحكومة بالوحدة القوية المتماسكة ، فأعلن ان حزبه متضامن مع بقيـــة الأحزاب في موقفها منه ، وإن كان رأيه فيه مخالفاً لآرائها . فاضطرت الحكومـة إلى تعديل ذلك القانون قبل انعقاد المؤتمر .

وكانت الانتخابات الجديدة كسابقتها انتصاراً للوفد ، إذ فاز فيها ١٦٥ وفدياً و ٢٩ شخصاً من الأحرار الدستوريين و ٥ من الحزب الوطني و ٦ من المستقلين و ٥ من الاتحاديين. إلا أن سعد زغلول تنحى عن تأليف الوزارة لعدلي يكن باشا، بالرغم من أنه رئيس حزب الأكثرية في المجلس، لأن السلطة الإنكليزية قد هددته، إن هو ألف الوزارة، ان تحرجه فيها وتضطره إلى الاستقالة منها،بإثارة قضية المتهمين الوفديين بالاغتيالات السياسية،وهي قضية كانت المحكمة قد فصلت فيها ببراءة المتهمين، غير ان القاضي الانكليزي ما لبث ان أبلغ وزير العدل بأنه لا يستطيع الموافقة على ذلك الحكم الذي صدر باقتناع زميليه المصريين دون اقتنـاعـه هو ، فأصبح في وسع السلطة الانكليزية ان تطلب إعادة النظر فيها وتلجأ إلى اعتقال المتهمين وإن خالفت بذلك احكام القضاء .

وانتخب سعد رئيساً لمجلس النواب ، فانصرف فيـــه إلى المحافظة على الدستور

وتوطيده امام استعداد السلطة لانتهاكه في كل لحظة . ثم ساءت صحته في اوائل سنة ١٩٢٧ (١٣٤٦ ﻫ) وكان قد بلغ حدود السبعين من عمره ، حتى كاد يقتصر عمله على مراقبة الخلاف بين دار المندوب البريطاني وممثلي الأمة ، وكان لا يقابل أحداً في بيته غير الذين يدعوهم هو وغير الفلاحين الذين يشكون من ظلم او استعباد . وما لبث المرض ان الح عليه ، فتوفي في شهر آب (أغسطس) من تلك السنة ، تاركاً مصر في منتصف طريقها الدامي ، طريق النضال من أجل الجلاء والحرية والاستقلال والكرامة الوطنية . فكانت الفاجعة به فاجعة بزعيم أمة نذر نفسه لتحقيق أمانيها دون ان يفتر عن الكفاح من أجل هذه الأماني المقدسة لحظة واحدة .

وإذا كان هنالك من حاول ان يفتري على سعد زغلول وينتقص من مكانته في تاريخ مصر وأثره في حياة شعبها ونهضتها الوطنية ، فما أكثر أولئك الذين دافعوا عنه وعرفوا قدره وذكروا جميله وأشادوا بمواقفه الايجابية المشرفة يوم كانت مصر في أشد الحاجة إلى زعيم في مثل شخصيته القوية وجرأته النادرة وتجرده وتضحيته ، ونكتفي هنا بأن ننقل إلى القارىء مقطعاً رائعاً من مقال كبير كتبه الأستاذ احمد بهاء الدين في العدد ١٢٩٨ من مجلة « روز اليوسف » بعنوان « سعد المفترى عليه » قال فيه :

« ان الزعيم – أي زعيم – لا يصنع الثورة أبداً، ولا يخلقها من العدم . فالثورة تأتي نتيجة تراكم عوامل السخط في قرارات الناس ، حتى يصبح الشعب كالبندقية المعبأة لا تنقصها الا ضغطة واحدة على الزناد لينطلق الرصاص .. والزعيم مطلوب منه ان يعرف ان البندقية قد اصبحت معبأة تماماً ، فيضغط على الزناد !

وهذا هو كل ما صنعه سعد ؛ فهو لم يخلق ثورة ١٩ والنهضة التي اعقبتها خلقاً كما قد يقول بعض المتعصبين لهتعصباً أعمى ، وهو أيضاً لم يكن شيئاً بعيداً عنها ، لا علاقة له بها، كما حاول مصطفى الشوربجي أن يقول :ولكنه كان الرجل الذي ضغط في اللحظة المناسبة على الزناد .. وقد ضغط عليه بقوة ، وفي جرأة هائلة ..

ضغط على الزناد يوم ذهب الى دار الحماية البريطانية يطالب بالاستقلال ..



وضغط عليه يوم ترأس حزباً برنامجه الاستقلال التام والدستور . وضغط عليه يوم وقف في وسط جمع حاشد من عتاة الاستعمار العالمي يضرب بقبضة يده على المائدة ويهتف بسقوط الحماية . وضغط على الزناد ضغطة أخيرة هائلة يوم استقالت وزارة رشدي فدعا الى مقاطعة الحكم ، واستطاع ان يكتل الشعب وراءه ويرهب بـه الضعفاء الذين كانت تسول لهم نفوسهم ان يقبلوا رئاسة الوزارة .. ولما علم أن الملك فؤاد يتشاور لتشكيل وزارة أرسل اليه خطاباً عنيفاً جداً ، بلهجة لم يقلها للقصر احد منذ عرابي : « ... كانت الأمة تعتقد ان قبولكم العرش في زمن الحماية الوقتية الباطلة — رعاية لبعض الظروف العائلية — ليس من شأنه أن يصرفكم عن العمل لاستقلال بلادكم !! لذلك عجب الناس من مستشاريكم كيف انهم لم يلتفتوا الى ان الأمة في هذا الظرف العصيب انما تطلب منكم ان تكونوا لها العون الأول على نيل استقلالها مهما كلفكم ذلك .. كيف فات مستشاريكم ان وزارة تؤلف على برنامج مضاد لمشيئة الشعب مقضي عليه بالفشل ؟ ! »

كانت هذه هي الضغطة الأخيرة على الزناد . فقد تحرج الموقف جداً . وانذر الانجليز سعداً بالكف عن نشاطه فرفض واعتقلوه فانفجرت الثورة ! ..

وكانت هذه هي أول تجربة للعصيان المدني ولزعزعة حكومات الاحتلال ... تجربة تعلم منها غاندي وغيره من الزعماء حتى قال غاندي بعد ذلك بسنوات : « لقد تعلمت الكفاح الوطني من سعد » .

وقد تبدو هذه التصرفات التي أقدم عليها سعد — اليوم — أمراً بسيطاً . ولكنها في الواقع لم تكن كذلك . فاليوم أستطيع أنا — ويستطيع مصطفى الشوربجي وأي إنسان آخر — أن يهاجم الانجليز كما يشاء ، وأن يلعن الملك كما يحب .. دون أن يتحرك من مقعده الوثير أو يتعرض للمسة واحدة من الخطر . ولكن الأمر لم يكن كذلك سنة ١٩١٩ ، فقد كان الانجليز خارجين من أضخم انتصار سجلوه في تاريخهم الطويل .. كانت امبراطوريتهم تتسع ولا تتقلص كما هي اليوم . وكان جنودهم من شتى الأجناس ، بعتاد الحرب الثقيل ، يملأون قلب القاهرة وكل أنحاء القطر . كانت الأحكام العرفية مفروضة والرقابة محكمة والاجتماعات ممنوعة . وكان

العرش شيئاً مصوناً لا يمس منذ نفي عرابي .. كانت أياماً مظلمة جداً ؛ حالكة جداً ، قال مصطفى الشوربجي عنها إن الحزب الوطني لم يستطع ازاءها أن يصنع شيئاً .. ولكن سعداً قد صنع !

ولو قارنا موقف سعد بمواقف من سبقوه من الزعماء ، لوجدنا أن مركزه كان اخطر من الجميع . لم تكن معه قوة مسلحة ، ولم يكن خصمه الوحيد هو الخديوي ، مثل عرابي . ولم يكن يستند الى تأييد الخديوي أو فرنسا او الخلافة التركية مثل مصطفى كامل . بل كان على رأس شعب أعزل تماماً لم يسبق له ان ثار ثورة شعبية مباشرة .وكان يواجه الامبراطورية كلها ، والعرش الراسخ ذاته بجرأة لا مثيل لها .. وقد كانت ثورة ١٩١٩ — أخيراً — أول ثورة قام بها شعب في وجه المنتصرين بعد الحرب العالمية الأولى ، وبعدها وبهديها تعاقبت الثورات .

ولم يكن سعد يقدم على هذا الخطر وهو غافل عنه ، بل كان يدركه تماماً . يوم انذره الإنجليز بأن يكف عن الحركة رفض وقال : « لتفعل القوة بنا ما تشاء » وقد نفته القوة إلى سيشل . ويوم أصدر اللورد اللنبي العتيد انذاراً يهدد فيه الوفد قال : « ايهددوننا بالمشانق ؟ ليكن .. نحن مستعدون ! » ..

بهذه الجرأة العارمة ضغط سعد على الزناد وتزعم الثورة. لم يقنع بالبيانات يكتبها وهو في عقر داره ، كما كان يصنع حاسدوه !

شيء آخر غريب جداً ..

المألوف دائماً أن الانسان —او الزعيم— يكون متحمساً متطرفاً شجاعاً في شبابه ، فاذا تقدم به العمر ، وعرف رخاوة المناصب ، هدأت حماسته وذاب تطرفه . والنادر من الناس من يحتفظ بتطرفه الى سن الكهولة ... والشباب المتحمس عادة يتطرف ويضحي وأمامه المستقبل فسيح يستطيع ان ينال فيه مكافأة تضحياته . ولكن حياة سعد كانت على عكس ذلك تماماً ... فقد كان في شبابه معتدلاً .. وعرف مناصب القضاء ١٤ عاماً .. وجلس في كرسي الوزارة ست سنوات متوالية ، وصاهر الطبقة الارستقراطية ، وعرف مجالس الأمراء .. ولكن بعد ذلك كله يصبح مجاهداً

متطرفاً ... ففي سن الثانية والستين ـ سن الراحة واليأس والإحالة إلى المعاش ـ يتزعم الثورة !

وفي سن الثالثة والستين يستقبل المنفى .. ويذهب إليه مرتين ! ..

والتضحية في هذه السن تحتاج ولا شك الى قوة نفسيـــة هائلة .. فهو يستقبل التضحية في آخريات حياته . ليس في عمره فسحة يجني فيها ثمار النصر .. فهي تضحية بلا ثمن . تضحية للتضحية .. »

*

ولما احتشدت جماهير المصريين لتودع اباها الراحل ، قيل لزوجه السيدة صفية : « ان المشرفين على موكب الجنازة يطلبون نياشين الباشا لتوضع على النعش ».

فقالت باكية : إن سعد كان يفخر بأنه سعد زغلول فقط بغير أوسمة ونياشين ، وكان يكره ان توضع على صدره، ضعوا على النعش العلم المصري فقط فهذا اكبر وسام حمله سعد ! » .

فكان سعد اول رئيس وزارة شيعت جنازته من غير ان يوضع على نعشه مـا منح من أوسمة ونياشين !

وكان آخر ما فاه به سعد زغلول وهو على فراش الموت ، وقد جنت عليه زوجه السيدة صفية ام المصريين تسأله في صوت أجش : « كيف انت ؟ » جوابه لها وهو يغمض ناظريه : « انا انتهيت ! » فوضعت على كتفه يداً رقيقة وقالت برفق « بل انت بخير ! » لكنه عاد فكرر كلمته الاولى في صوت اكثر ضعفاً وتسليماً : « انا انتهيت ! .. » وكانت هذه الكلمـة آخر كلماته ، وأخذتـه سكرة الموت طوال اليوم ، فلم يتكلم بعدها أبداً[1] .

وما انتهى ذلك الرجل الكبير ، وما ينتهي كل رجل كبير .

إن كان قد انتهى منه شيء فهو جسمه المادي المقضي عليه بالفناء ، ولكن بقي

---

١ — على فراش الموت ص١٣١٠

منه ما يبقى من كل عظيم :

بقي المثل الذي ضربه بحياته للناس .

وبقي الأمل الذي عقدته الأمة عليه وقدسته في شخصه فجعله أقوى مما كان .

وبقيت شعلة الحرية التي كان قبساً من جذوتها الدائمة زادها ضراماً وتألقاً .

وبقي فكره الحي الذي يتجدد وينمو ويتكامل في كل ذي فكر حي .

واما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض .

كلمات مختارة لسعد زغلول

إنني أحذر الأمة من الذين يقولون : إننا على الحياد . لأننا في معركة بين الاستقلال والحماية ، بين الحرية والاستعباد ، فمن يكون على الحياد في هذا العراك ، يدل بحياده على انه لا يعنيه ان تستقل الأمة أو تحتمي ، لا يعنيه أن تتحرر الأمة أو تستعبد .

يجب ان تكون الأمة متحدة على ان تعلي منار كل شخص خدمها بصدق مهما كان منبعه ، متحدة على ان تحتقر كل شخص لم يهتم بصالحها مهما كان مركزه ومهما كان مقامه في الهيئة الاجتماعية .

لم أكن مهيجاً قط ولا أميل إلى التهييج ، ولكنني أبين الحق الذي أعتقد انه حق. هذه مأموريتي التي أشعر بأنني انتدبت لها . ومن المحال عليّ — وهذه مأموريتي في الوجود — ان أكتم حقاً اعتقدته مهما كانت نتيجة بيانه .

إن كل رجل سياسي ينتظر ان يتولى الحكم يوماً من الأيام ، يلزم ان يكون رأيه في إدارة شؤون بلاده حاضراً على الدوام خصوصاً في الأحوال الحاضرة والمشكلات منها .

أساس الانتخاب عندنا فاسد لأنه يجعل لمجلس الشيوخ شروطاً خاصة ، ويجعل أعضاء هذا المجلس من طبقات معينة ، وحصر الشيوخ والنواب في طبقات مخصوصة مضر . إن فلاحاً طاهر القلب مخلص النية لخير لنا من رجل يحتقر إرادة الأمـــة .

يجب ان يسقط من حساب الأمة هؤلاء الأشخاص الذين يعاضدون كل حكومة، ويشايعون كل دولة ، ويعبدون القوة في أي مظهر ظهرت به .

إنه لمن العار ومن الفضيحة ان يُظلم الناس في سيرتهم ولهم على حسنها شهود من الحق والواقع . واذا لم يستح خصومنا من باطلهم فكيف يصح لنـــا ان نستحي من حقنا . إذا ساغ لهم ان يقولوا فينا الباطل ، فكيف لا يسوّغ لنا ان نقول الحق ، ومن أولى منا بأن ينصر الحق إذا كنا نجاري المبطلين في خذلانه.

يسوؤني ان اضطر لنقد أعمال رجل عاشرته زماناً طويلاً ، ولكن علاقتنا بالحق فوق كل علاقة ، ورابطتنا بمصلحة البلاد فوق كل رابطـة .

ليس من الرأي ان نسأل الصحافة لمَ تنتقدنا ، بل الواجب ان نسأل أنفسنا لم نفعل ما تنتقدنا عليه .

لا عيب علينا في الرجوع إلى الحق متى ظهر لنا . لأننا ماجئنا هنـــا لندافع عن أنفسنا وأنانيتنا ، بل لندافع عن الحق ونؤيده .

الاستقلال بغير جلاء مهزلة ، وكل معاهدة لا تجعل مصر حرة في إدارة شؤونها كافة هي حماية مقنعة .

الحق فوق القوة ، والأمة فوق الحكومة .

عجبت لمن إذا رأوا ضارباً يضرب ومضروباً يبكي ، قالوا للمضروب : لا تبك، ولم يقولوا للضارب : لا تضرب !

ان الحيوانات لا تتكلم ولكنها تفهم ، وان الناس يتكلمون ولكنهم أحياناً لا يفهمون .

لا أريد إلا ما تريده الأمة ، ولا أسعى في سياسة غير سياستها ، يرشدني ويدفعني صوت في ضميري صرخ قبل أن يصرخ في قلب أي انسان ، وهذا الصوت يناديني دائماً للقيام بالواجب .

يعجبني الصدق في القول ، والاخلاص في العمل ، وان تقوم المحبة بين الناس مقام القانون .

أي شرف أكبر من الشرف الذي يحرزه من عرض نفسه لفداء وطنه ، بل أية لذة للنفس أحلى من اللذة التي يجدها الوطني في تعذيبه لمصلحة وطنه .

لقد وطدت نفسي على الدفاع عن الحق وأن أتحمل كل مكروه في سبيله ، ولو كان آتياً من الذين أدافع عنهم .

ليس بيني وبين خصومي شيء شخصي . يمكنني ان أقول ان قلبي لا يحمل عداوة لشخص من خلق الله . ان العداوة من خلق الضعيف .

ان مصدر قوتي هو اني لست إلا معبراً عن شعور الأمة وآرائها ، معرباً عن تصميمها على ان تعيش حرة مستقلة .

لله در الشبيبة ما فعلت . فانها قد فتحت ما ضمت صدورها من كنوز الفتوة ، وملأت قلوب البلاد عزة وحماسة ، وملأت رؤوسها حكمة وملأت حركاتها نظاماً .

تلك الشبيبة التي هي عماد الحركة الحاضرة ومبعث أنوارها الساطعة أشكرها شكراً جزيلاً وأرتاح كثيراً لأن المستقبل سيكون بيدها وهي يد ماهرة .

أفتخر بأن أكون على رأس أمة حية شاعرة مفكرة ذات آمال قوية في الاستقلال التام .

القاعدة عندنا ان كل كلام أو مخابرة أو مفاوضة لا يترتب على الدخول فيها سقوط حق أو فوات حق فهي جائزة ما دام المفاوض موثوقاً به . أما إذا كان الدخول في المخابرة أو المفاوضة أو المحادثة يستلزم سقوط حق أو فوات منفعة ، فلا يصح لأي مصري وفداً كان أو غير وفد ان يباشرها . وعلى كل مصري إذا وجد شخصاً يتقرب منها ان يحاربه .

مصادر ومراجع الكتاب

ابرهيم أحمد العدوي (الدكتور) : قادة التحرير العربي في العصر الحديث رشيد رضا الامام المجاهد

ابرهيم سابي أحمد : التاريخ القومي

أحمد أمين : فيض الخاطر، الأجزاء: الرابع والخامس والسابع.

أحمد بهاء الدين : أيام لها تاريخ

أحمد شفيق : مذكراتي في نصف قرن

أحمد عرابي : مذكرات عرابي

أحمد قاسم جودة : المكرميات

أحمد لطفي السيد : قصة حياتي

الينور برنز : الاستعمار البريطاني في مصر، ترجمة أحمد رشدي صالح

أنور الجندي : النثر العربي المعاصر في مائة عام

أنور العمروسي : الجرائم السياسية

بروكلمان : تاريخ الشعوب الاسلامية ، ترجمة نبيه فارس ومنير بعلبكي

تشارلز آدامس : الاسلام والتجديد في مصر ، تعريب عباس محمود العقاد

تيودور رودستين : تاريخ مصر قبل الاحتلال البريطاني وبعده ، تعريب علي أحمد شكري

جرجي زيدان : تراجم مشاهير الشرق ، الجزء الثاني

جورج أنطونيوس : يقظة العرب، ترجمة الدكتور ناصر الدين الأسد والدكتور احسان عباس

جورج كيرك : موجز تاريخ الشرق الأوسط ، ترجمة عمر الاسكندري

حافظ ابرهيم : ليالي سطيح

حبيب جاماتي : الحرية الحمراء

حسن حافظ : معارك الشرف

حسين فوزي النجار (الدكتور) : أحمد لطفي السيد أستاذ الجيل

حسين مؤنس (الدكتور) : الشرق الاسلامي في العصر الحديث

سلامة موسى : كتاب الثورات

الشبراوي المرسي عبد الله : كفاح الزعماء

شكيب أرسلان : السيد رشيد رضا أو اخاء أربعين سنة .

تعليقه على «حاضر العالم الاسلامي»

طاهر الطناحي : على فراش الموت

مذكرات محمد عبده

طه شرف (الدكتور) : الأحداث العربية في تاريخها الحديث

عباس محمود العقاد : سعد زغلول

محمد عبده

١١ يوليه

عبد الحميد يونس وعثمان توفيق : الأزهر

عبد الرحمن الرافعي : عصر اسماعيل
الثورة العرابية والاحتلال الانجليزي
ثورة سنة ١٩١٩
في أعقاب الثورة المصرية
شعراء الوطنية

عبد العزيز فهمي : هذه حياتي

عبد القادر حمزة : اذكروا سعداً

عبد القادر المغربي : جمال الدين الأفغاني ، ذكريات وأحاديث

عبد الكريم سلمان : أعمال مجلس ادارة الأزهر من ابتداء سنة ١٣١٢ إلى غاية سنة ١٣٢٢

عبد المتعال الصعيدي : تاريخ الاصلاح في الأزهر

عبد المحسن قصاب : ذكرى الأفغاني في العراق

عبد المنعم حمادة : الأستاذ الامام محمد عبده

عبد الهادي مسعود : ثورات مصر

عبده حسن الزيات : سعد زغلول من أقضيته

عثمان أمين (الدكتور) : محمد عبده

عزب أحمد : طريقنا إلى النصر ، فصول من تاريخنا الحديث

علي الحديدي (الدكتور) : عبد الله النديم خطيب الوطنية

فان دن بوش : عشرون سنة في مصر

فيليب طرازي : تاريخ الصحافة العربية

مارون عبود : رواد النهضة الحديثة

ماهر حسن فهمي (الدكتور) : قاسم أمين

محسن الأمين : السيد جمال الدين

محمد ابرهيم الجزيري : آثار الزعيم سعد زغلول

محمد أبورية : جمال الدين الأفغاني ، تاريخه ورسالته

محمد أمين حسونة : كفاح الشعب

محمد البهي (الدكتور) : الفكر الاسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي

محمد رفعت : تاريخ حوض البحر المتوسط وتياراته السياسية

محمد رشيد رضا : تاريخ الأستاذ الامام محمد عبده

محمد زكي عبد القادر : محنة الدستور

محمد سعيد العريان والدكتور جمال الدين الشيال : قصة الكفاح بين العرب والاستعمار

محمد سلام مدكور : جمال الدين الأفغاني باعث النهضة الفكرية في الشرق

محمد صبري : تاريخ مصر الحديث

محمد عبد الغني حسن : عبد الله فكري

محمد عبده : مجموعة مؤلفاته

محمد المخزومي : خاطرات جمال الدين

محمود الشرقاوي : رواد النهضة العربية

مصطفى صفوت : مصر المعاصرة

مصطفى عبد الرازق : محمد عبده

نعمان عاشور : صور من البطولة والأبطال

الهلال : الكتاب الذهبي ١٨٨٢ — ١٩٤٢

ولفرد بلنت : التاريخ السري للاحتلال البريطاني لمصر

الفهرس

صفحة

١ جمال الدين الأفغاني
حكيم الشرق

صفحة

٣ — محمد عبده

بطل الثورة الفكرية في الاسلام

صفحة

٣ – سعد زغلول
رائد الكفاح الوطني في الشرق العربي

تاريخ الفكـــر العربي

تأليف : اسماعيل مظهر

***

أبرز سمة للفكر الخلاق هي الشمول وتردد صداه في أنحاء المعمورة تتشربه الشعوب ، وتأخـذ بمبادئه الأمـم ، وينفذ من نطاق الفردية الى الجماهير العامة ، حتـى ليكون المدماك الاول في صرح الحضارة العالمية ...

ومن أعم المبادىء الفكرية ، وأرسخ القواعد العقلية ، ما جادت به قرائح الاغريق ، تلك القرائح التي عرفت أرقى مسلمات التفكير المثالي ، وأرسخ قواعـد النهـج العملـي المادي . ومقولات المنطق الارسططالي ... تلـك المسلمات والقواعد والمقولات التي صبغت أكثـر التراث الفكـري العالمي بصبغتها بعد اضافة اللون المحلي عليها .

وهذا الكتاب الفذ يبين موقف الامة العربية مـن ذلك التراث العالمي التي لم تكتف بتمثل الفكر الاغريقي فحسب عن طريق النقل والترجمة ، وانما سارت قدما فـي طريـق الاستقلال الفكري معتمدة قواعد منطق أرسطاليس حينـا ومثالية افلاطون احيانا ، درجا في سبيل الابتكار ، وكـان للعرب معلموهم الذين غـدوا أساتذة العالم فـي القرون الوسطى ...

ان هذا الكتاب لهو أنصع وأصدق صفحة قدمها عالم متبحر موسوعي عن قصة الفكـر العربـي وتطوره خـلال التاريخ ، مرفقاً دراسته النظرية ببحوث عملية تدور حـول بعض أفذاذ العرب ، ونوازع الفكر العربي ، ابتـداء مـن بصير المعرة ــ أبي العلاء الى أحمد شوقي أمير الشعراء .

الثمن ٥٠٠ ق.ل.

حماة الاسلام

تاليف : مصطفى نجيب

كتاب يضم بين دفتيه انصع صفحات التاريخ الاسلامي من خلال سير ابطاله ، مـن يوم اشرقت تعاليم الاسلام في ربوع الجزيرة العربية ، وكانت موجة الفتح العسكري المتلازمة والفتح الفكري والادبي والفني ، تدرجا بالتاريخ حتى دالت دولة بني العباس وغدت الاندلس الفردوس المفقود .

والعرب الذين يعيشون اليوم وثبتهم الكبرى لفي أمس الحاجة الى هذا السفر الذي يوقفهم على ما كان عليه آباؤهم واجدادهم من كريم الخلال ، ورفيع السجايا : من مراعاة للشرف والذمة ، واحقاق الحق ، وقول الصدق ، والعفو عن الذلات من غير القادر ، وقـرى الضيف ، وحمـل الكل ، والصبر على المكاره ، والوفاء بالعهد ، وبذل الاموال في صون الاعراض ، وتنظيـم الشـريعة ، وانصاف المستضعفين ، والتواضع للمسـاكين ، والتجافي عن الغدر والمكـر والخديعة ونقض العهد .

وقد جاء هذا السفر فضلا عما فيه من السير الممتعة، والصفات الخالدة عرضـا لحياة الخالدين مـن ابطالنا : خلفاء ، وعلماء ، وادباء ، وقادة جيش ، معرضا لاسمى الفضائل ، وارفع السجايا ، يفيد ويمتع ، يغني الفكر ، ويهذب النفس ، ويصقل الطباع .

انه كتاب الاستاذ والطالب ، يقرأ ، وتستعاد قراءته من الدفة الى الدفة .

الثمن ٥٠٠ ق.ل.

سلسلة الوجود الكبرى
محاضرات في تاريخ الفكر الفلسفي

تأليف ارثر لفجوي

ترجمة الدكتور ماجد فخري

★★★

يتناول المؤلف في المحاضرات الاحدى عشرة التي تؤلف مادة هذا الكتاب مسألة من أهم المسائل في تطور الفكر الغربي ، راجت رواجا عظيما في القرنين السابع عشر والثامن عشر ، هي مسألة اتصال الوجود وترابط اجزائه ، حتى تؤلف سلسلة من الحلقات او المراحل ، يأخذ بعضها برقاب بعض من ادناها حتى اسماها ، فصح اطلاق التسمية التي وسم المؤلف كتابه بها وهي ، سلسلة الوجود الكبرى. والغرض الذي يتوخاه المؤلف من سرد سيرة هذا المفهوم، ابتداء بأفلاطون وانتهاء بشلنغ ، هو التدليل ، كما المعنا ، على الدور الذي تلعبه المفاهيم الكبرى في تطور الفكر العام وسيطرة بعض انماط التفكير في شتى الحياة العقلية والاجتماعية في حقبة ما وعند جماعة أو شعب ما والنفاذ الى فحواها الاخير .

من فصول الكتاب : نشأة الفكرة في الفلسفة اليونانية، مبدأ التمام والنظام الكوني الجديد ، التمام والتعليل الكافي عند ليبنتز واسبينوزا ، سلسلة الوجود في فلسفة القرن الثامن عشر ، موقع التمام وروح التفاؤل في القرن الثامن عشر ، الرومنطيقية ومبدأ التمام ، نتيجة هذا التاريخ وفحواه .

الثمن ٨٧٥ ق.ل.

رائد الثقافة العامة

تاليف : كورنيلوس هيرشبرغ

★★★

الكتاب رفيق الحياة ، وهذا الكتاب الذي نضعه بين أيدي القراء عرض ممتع لتجربة انسان أحب « الكتاب » واتخذه رفيقا وأنيسا . وقد خرج من رفقته الطويلة هذه بآراء في الثقافة ، وأساليب في التثقيف الذاتي ، وفي رأيه ان التثقيف الذاتي هو أجدى وسائل التثقيف وأعمقها .

وخطة المؤلف لا تعتمد سلسلة دروس يتعلمها المرء في بيته كما أنها لا تقتصر على ميدان واحد ، بل هي نهج ينظم الحياة العقلية ويفتح أمامه آفاقا واسعة لاعادة تنظيم عالمه مستندا الى علمه ومستنيرا بثقافته .

وتشمل أبواب الكتاب جميع ألوان المعرفة ، وقد اشتركت في ترجمته نخبة من كبار الكتاب والاخصائيين هم : الدكتور محمد يوسف نجم ، عبلة حجاب ، الدكتور عبد الرحمن ياغي ، الدكتور عبد الرحمن اللبان ، سميرة عزام ، الدكتور وصفي حجاب .

ان « رائد الثقافة العامة » هو رفيقك في هذه الحياة التي أصبح قوامها العلم والمعرفة ، والنضج الفكري .

الثمن ٧٥٠ ق.ل.

المثل الاعلى للحضارة العربية

تاليف : الدكتور محمد يحيى الهاشمي

المثل الاعلى في الحضارة العربية ... وهــل هو الا كسائر المثل التي تأخذ بايدينا سعيا وراء الغايات الفضلى والاهداف المثلى ، في ارتباط وثيق بتراثنا القديم نأخذ منه ما صلح ، وما اكثر الصالح فيه ، ونرمي ما طلح ، وهل يخلو تراث اية امة من مآخذ وهنات .

ومثلنا في ذلك ما اختطه لنا اديبنا الموسوعي الجاحظ القائل: « ينبغي ان يكون سبيلنا لمن بعدنا كسبيل من كان قبلنا فينا ، على اننا قد وجدنا من اكثر مما وجدوا ، كما ان مــن بعدنا يجد من العبرة اكثر مما وجدنا » مستهدفين بكل ذلك البناء الحضاري ، والسمو النفسي ، اسهاما بالتراث العالمي ، ورسوخا على الصعيد الانساني .

والدكتور محمد يحيى الهاشمي الذي يجمع في نفسه موضوعية العلم وذاتية الادب ، والوقوف العمقي على تراثنا الفكري الخالد ، وتمثل حضارة الغرب من منابعها الثرة ، وقد عمل في حقل العلم ، واسهم في ميدان العمل ، لمن خير من يدلنا على مثلنا الذي يرتقي بنا الى صعيد الفردية الهادفة للاندغام بروح الجماعة ، والى مستوى المجموع الذي ينــزل افراده الافذاذ المنزلة اللائقة بهم وطنا عزيزا بجموعه سعيدا بافراده ، مشرع الابواب على العالم يتنفس في جوه وينفحه شــذاه ...

الثمن ٢٠٠ ق.ل.

الابطـــال

تاليف : توماس كارليل

★★★

أقل ما يوصف به شيخ الفلاسفة توماس كارليل انــه الوثبة البكر للفكر البشري الــى آفاق سامية يحس فيهــا المفكر في لمحة من لمحات الالهام ، بأنه يحتوي الكون أجمع في خواء نفسه •

يجمع هذا الرجل الفذ في ذاته الــى عمق الفيلسوف وأناة الحكيم ، مجنح خيال الشاعر ورفاهة حس الموسيقي ، لكل كلمة من كلماته أبعاد تكاد تضم الأزل الى الأبد •

رمى هذا المفكر بثاقب بصيرته الــــى التاريخ نظــرة استكنه فيها روح البطولة التي هي المحرك الأول فــي تقدم الانسانية وازدهار الحضارة ، فاستعرض حيــاة الانســـان البطل : نبيا ، وشاعرا ، وكاتبــا ، وقسا ، وقائــدا ، عارضا بالشرح والتحليل حياة وأعمال الصفوة الممتازة من الابطال بكلم لا تتنزل الا غلــى قلوب الانبياء وخيــار الحكماء ، ترفعه هو نفسه الى الصف الاول من الابطال •

ويكفي هذا الرجل فخرا ، انــه رائد المفكرين الغربيين الاحرار الذين أنزلوا الرسول العربي منزلته الحقة ، فدفــع عنه مفتريات المرجفين وأباطيل المبطلين ، بعــرض لأعمـــال الرسول وبطولة الامام علي ، يبلغ على ايجازه منتهى السمو والروعة •

الثمن ٥٠٠ ق.ل.

مطابع دار الغد ـ هاتف : ٢٣٠٥١٢


Bibliotheca Alexandrina
0209214